الجمعيـــة الملكية للدراسات التاريخيـــة



مجمـــوعة أبحـاث ودراسـات لتـاريخـــه

تنشرها الجمعية بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٨



البطل الفاتح ابراهيم باشا

المحتـــويات

كلمة حضرة صاحب المعالى
الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا
وزير المعارف العمومية

تهيأت للجمعية الملكية للدراسات التاريخية مناسبة من أكرم المناسبات لتتقدم بباكورة أعمالها للناس . ويشرفنى ويسعدنى أن أقدم لهذه الباكورة الصالحة . ولعل الجمعية لا تجد مناسبة أكرم من ذكرى انقضاء مائة من الأعوام على وفاة إبراهيم ، بطل مصر العظيم ، للتقدم بأول ثمرة من ثمار جهودها الموفقة المباركة . وإنى لأذكر اليوم الذى توج فيه مرسوم إنشاء الجمعية بالتوقيع الملكى الكريم ، وأذكر معه ماخالج القلوب من أمانى رحيبة ، وما طاف بالنفوس من آمال واسعة ، تعلقت جميعا بهذه الجمعية الكريمة التى ضمت فيمن ضمته الأفذاذ من رجال التاريخ فى مصر ، وقد صحت عزيمتهم على أن تتآلف جهودهم ، وتتكافل قواهم ، لينشروا على الناس تاريخ مصر القومى القريب والبعيد ، مكتوبا بأقلام جمعت إلى الدقة التاريخية ، والأمانة العلمية ، قوة التحليل ، وروعة العرض ، وحرارة الإيمان بالوطن .

وها قد بدت تباشير تؤذن بأن ما كان أمنية بالأمس أصبح اليوم حقيقة واقعة . وها نحن نشهد عملا جليلا بدأت به الجمعية أعمالها . وقد اكتمل لها التوفيق ، فعمدت إلى صفحة من أروع صفحات التاريخ المصرى الحديث فنشرتها ، وإلى بطل من أعظم أبطال مصر الحديثة فألقت ضوءا قويا على سيرته المجيدة ، وهى حافلة بالعظائم ، مليئة بالمفاخر ، بطل ألقت الأحداث فى يديه القويتين أقدار البلاد ، فأدار دفتها ، وسار بالسفينة بين الأمواج الصاخبة والعواصف الهوجاء ، حتى قادها الى بر الأمان . وها نحن نقرأ فصولا ممتعة فى تاريخ إبراهيم ، دبجها يراع طائفة من كبار المؤرخين ، وكل فصل حوى تاريخ حقبة من حياة هذا الرجل العظيم . فاذا أنت بدأت فى قراءة الفصل الأول من هذا التاريخ الزاخر بالأمجاد لا تكاد

تصبر حتى تأتى على آخر فصل فيـه ، وأنت تنتقل من ناحيـة الى ناحية فى تاريخ رجل وسعت عظمته أن يكون القائد المظفر، والسياسى المحنك، والإدارى الحازم، والمصلح الحكيم . كل هـذا فى أسلوب علمى رصين ، يأخذك منه دقة التحليل ، وأمانة العرض، وسمو المعنى، وإشراق الديباجة، وسلاسة اللفظ. فلا تملك إلا أن تحمد للجمعية ما قدّمت ، وللكتّاب الذين ساهموا فى صنع هذا الأثر الجليل ما بذلوا من جهد موفق، وما قاموا به من عمل مشكور .



وبعد فلا يسعنى،وأنا أقدّم لكتاب تذكارى فى تاريخ ابراهيم، إلا أن أحيي، ولو فى كلمة موجزة ، هذا البطل العظيم . وها قد مضى على وفاته مائة من الأعوام وذكراه لا تزال النفوس بهـا مغمورة، والقلوب بها عامرة . بل إن ذكراه لتتجدّد كل يوم فى هـذه الحقبة من التـاريخ التى نعيش فيها الآن، ونحن نرى الجيـوش المصرية المظفرة تخوض المعارك مرفوعة الأعلام فى سبيل المجد العربى، وفى سبيل الوحدة العربيـة . فنحن اليوم ، وبعد قرن كامل ، نحاول تجديد أيام ابراهيم ، وهو البطل الذى عمل للاستقلال العربى بعـد أن زال هذا الاستقلال ، وللوحدة العربية بعد أن انفرط عقد هذه الوحدة . فما أشبه الليلة بالبارحة ...

بدأ إبراهيم مجده العسكرى فى الصحارى العربية . وأتم هـذا المجد فى الوديان والسهول العربية . اذا لم يكن ابراهيم عربىّ المولد، فأنه عربىّ النشأة والموطن، عربىّ اللغة والعاطفة، عربىّ المجد والعظمة، "أتى مصر طفلا فغيرت شمسها دمه بجرى عربيا" .

جاء ابراهـيم فى عصر كانت الأمة العربيـة فيه قـد نسيت نفسها ، فانحلت روابطها، واندكت صروح مجـدها ، وعثرت وبح بهـا العثار . فقاد جيشا مصريا عربيا الى مواطن العزة والمجد، وحرر البلاد العربية من نير شديد الوطأة، وأيقظ الوعى العربى من سبات عميق ، وأطلق الروح العربيـة من عقالها التى رسفت فيه

قرونا . ولولا تألب الدول الغربيـة بالأمس ، كما هى تتألب اليوم ، لأعاد للعرب مجدهم القديم ، و لجدّد الامبراطورية العربية شامخة المجد ، عالية الأركان .

فاذا ذكرنا ابراهيم بعد مائة عام من وفاته ، فلأن روحه العربيـة الجبارة هى التى تسيطر اليوم على تفكيرنا ، وتملك علينا عقولنا ، وتوجه الأمة العربية الى طريق الوحدة ، وتقودها نحو المجد والظفر .

وقبل أن يكون ابراهيم بطلا عربيا ، كان رجلا عظيما . وقبل هذا وذاك كان إنسانا وفيا .

كان إبراهيم رجلا عظيما . فقـد أثبت منذ الحمـلة الوهابية ، وهو فى مقتبل شبابه وفى مطلع مجـده الحربى ، أنه جدّ خبير بسياسة الرجال ، وأن عقله الجبار أكبر بكثير من سنه الغضة ، وأن السر فى عظمته هو نفس السر فى عظمة أبطال التـاريخ جميعا : إرادة قوية تدك الحصون ، وعزيمة من حديد تهـدّ الجبال ، وصبر على المكاره لا ينفذ ، وثبات على الشدائد لا يتزعزع .

وكان ابراهيم إنسانا وفيا . ولعل أروع صفحة فى تاريخ ابراهيم هوشعوره النبيل نحو أبيه العظيم : حب قوى ، و إخلاص عميق ، ووفاء نادر . ولم يرو التاريخ سيرة رجلين عظيمين ، ربطتهما أواصر الدم ، وجمع بين قلبيهما الوفاء والحب ، ووثقت من صلاتهما الذكريات المجيدة ، واقترن مجد الواحد بالآخر دون أن يغض منـه أو ينتقص من مكانته ، مثـل ما روى من سيرة محمـد على الكبير ومن سيرة ابراهيم العظيم . لقد سعى الخصوم بالقطيعة بين الولد وأبيه ، ولكن حب محمد على لولده ، ووفاء ابراهيم لأبيه ، كل هذا كان عاصما للوالد والولد ، فبقى حب كل منهما للآخر خالدا على الدهر ، وبقى إخلاص كل منهما للآخر ثابتا لا يتزعزع . وكان هـذا مثلا فذا لا ينقل التاريخ له نظيرا .

فسلام على ابراهيم البطل العربى . وسلام على ابراهيم الرجل العظيم . وسلام على ابراهيم الانسان الوفى .

كلمة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا
رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

انقضت مائة عام على وفاة رجل اختاره القدر ليكون المنفذ لمشروعات والده العظيم محمد على الكبير مما كان قد يصل بالحدود المصرية وتخومها إلى ما سجله لها تاريخها المجيد فى سابق الأزمان .

فوفاء لتلك الذكرى المجيدة تقدّم الجمعية الملكية للدراسات التاريخية للرأى العام المصرى والشرقى هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ حياة إبراهيم وجليل أعماله ليرى القارئ فيه صورة بارزة لشخصيته الفذة التى جمعت مع قدرة القائد العظيم كفاية الإدارة والنظام .

انتهزت جمعيتنا تلك الفرصة المجيدة السانحة لتبرز أوّل مجهود لأعمالها وهو هذا المؤلف فأحيت فيه شخصية خالدة فى التاريخ بعظيم أعمالها الجليلة ورخاء مواهبها وبغزارة شعورها بما يوحى اليها من المعرفة بالواجب وأدائه على الوجه الأكمل حتى جعل له أبعد الأثر وأفعله فى عصور آبائنا وعصرنا بل ولعصور أبنائنا .

فلنتخذ حياة القائد العظيم ابراهيم مثلا نقتدى به ونبراسا نسير على هديه لنصل بعده إلى عصر الإصلاح الاجتماعى والوعى الصحيح القومى الذى نتوق إليه ونسوق ركبنا الى الحصول عليه .

وبما أن الأقدار التى يعجز الإنسان عن إدراك كنهها قد حرمت ابراهيم من أن يرى ثمر كفاحه فان ذكراه باقية لنا تدفعنا إلى الأمام وتثبت فينا روح العمل بشجاعة ورجولة خليقة بذكراه لمواصلة الجدّ نحو المجد والنصر .

وكان إشارة يد تمثاله القائم فى عاصمة بلدنا العزيز وفى الميدان المسمى باسمه ترشد أبناء وأحفاد من قادهم إلى المجد إلى طريق الواجب والتضحية .

مُقَدِّمَةُ الكِتَاب

ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية

للأستاذ محمد شفيق غربال بك

وكيل وزارة المعارف ونائب رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

هذا الكتاب تحية إعجاب ووفاء وتقدير، يقدمها لمقام البطل الفاتح ابراهيم المؤرخون من مصر ولبنان . وهم بذلك يساهمون فى احتفال مواطنيهم بذكراه المجيدة .

ففى مثل هذا الشهر من عام ١٨٤٨ انتقل والى مصر ابراهيم باشا الى دار البقاء ، بعد أن سجل لبلاده نصرا عظيما فى صفحة الخلود . وحق على مصر الناهضة الوفية أن تحيي ذكرى مفاخره ومآثره ، وأن تشيد بها الآن وعلى مر السنين . وليكن رائدها فى هذا وأمثاله تلك الحكمة الرائعة المأثورة عن مليكها الراحل « فؤاد الأول » :

" لا يفقه شعب ما سر مستقبله قبل أن يتنبه شعور "

" الاحترام فيه لمآتى أجداده ويدرك مآثر أبطاله . "

" فهنا وهنا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقى . "

وكتابنا هذا ثمرة من ثمرات غرس فؤاد الأول . فقد أمر بجمع ما بقى من وثائق عصرى محمد على الكبير والخديو اسماعيل ، ورسم بأن تعد الإعداد الفنى الذى تتطلبه الدراسة العلمية ، وبث فى حفظتها من روحه السمحة . وبدأت بذلك من فيضه نهضة تاريخية ، ترى آثارها فيما نشر وفيما سينشر من الدراسات التاريخية القيمة .

وكان الملك فؤاد الأول فى أحاديثه مع المؤرّخين يرسم لهم الخطة المثلى للبحث التاريخىّ . إذ كان يؤمن بأن إظهار الحقيقة هو الغاية الأولى للمؤرّخ، كما أنه كان موقنا بأنه كلما ازداد الباحث تعمقا فى درس الأصول التاريخيـة لعصر "الوالد الأكبر" — كما كانت تحلو له تسمية جدّه العظيم — كلما ازداد إعجابا بشخصية المصلح الكبير وأعماله، إعجابا يقوم على الفهم الصحيح .

وأن هذا الفهم الصحيح لا يتسنى إلا بالرجوع للأصول .

وأن المؤرّخ ليحمد الله على وفرتهـا ؛ وذلك أن طريقة محمـد على فى الحكم والإدارة اسـتلزمت قدرا كبيرا من المضابط والمحـاضر والخلاصات واليوميـات والتقارير، يتمكن المؤرّخ بواسـطتها من تتبع المسألة الواحدة من العـامل الصغير للمجلس الكبير ومقرّ السلطان، ومن القرية النائيـة لمسند الولاية ، وهذه هى مادة التـاريخ .

وأن كل ما فى هذه المـادة لله قيمته . والمتعسف من المؤرّخين هو الذى يعدّ تافها ما لا يتعلق بالسياسة العليـا وما لم يصدر إلى السلاطين أو ممثلى السلاطين . فإن دفترا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند وطعامهم ولباسهم لهو وثيقة لها خطرها ، ولا يستطاع كتابة تاريخ الجيش المصرى إلا بهـا وبمثيلاتها . وقس على ذلك سائر الشئون .

وفصول كتابنا هـذا تقوم على الوثائق الأصلية ، وبصفة خاصة على الأوراق التى استخلصها الدكتور أسد رستم — مؤرّخ العلاقات بين مصر والشام فى عهـد العزيز محمـد على — من المحفوظات الملكية بقصر عابدين العـامر ونشرها برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأوّل ، أعزه الله تعالى ، فى أربعة مجلدات ضخمة . وأن مؤلفى هـذا الكتاب ليهزهم الفخر أن يصدر مؤلفهم هـذا فى عهد الفاروق الزاهر، منشئ الجمعيـة الملكية للدراسات التاريخية وحافظها وراعيهـا، حفظه الله ورعاه . وهم جميعـا يؤمّنون على قول أحدهم ، الدكتور أسـد رستم :

" إنى حين هيئت لى الأسباب لدرس المحفوظات الملكية تركت لى معها الحرّية التامّة لأصل إلى ما أريد منها، وأستقل فى وضع دراساتى فيها دون قيد أو شرط . وهذا منتهى ما بلغ اليه العلم من الحرّية على ممرّ العصور " .

* * *

وأن الشهادة التى تشهد بهـا أوراق المحفوظات الملكية المصرية لمـا يستطيع القارئ أن يطمئن إليه كل الاطمئنان . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقـد دُوّنت فى زمن وقوعها . ولم يقصـد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

ولعـل أهم ما كشفت عنه الأوراق صـورة دقيقة جلية لشخصية ابراهـيم فى أدوار حياته ، منذ أيام الصبا عند قدومه لمصر بعد أن استتب الأمر فيها لأبيه فدور الشباب إلى الكهولة ؛ وهى شخصية إنسان موهوب، تنمـو وتترعرع فى يد أب عبقرى، وفى وطن خليق بالأبطال، وفى ساعة من الزمان حقيقة بالبطولة .

وما كان ابراهيم إلا المثل الكامل لتلك الصفوة من الرجال التى عمل محمد على عملا متواصلا على تنشئتها وتربيتها وتكوينها . وكانوا جميعا على اختلاف أصولهم يتفقون معا فى شىء واحد ، فى أنه لهم هو ولى النعم . تعهدهم بالتعليم ، وقلدهم المناصب ، وعهد إليهم بخططه ، ونفث فيهم من همته وآماله ، وأنعم عليهم ورفع قدرهم . وقد وضع علاقته بهم لا على أساس السيد والمسود بل على أساس آخر: علاقة الأب بأبنائه . يأخذهـم باللين أحيانا وبالشدّة أحيانا أخرى ، كما يأخذ الأب أبنـاءه باللين والشدّة . وهـذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات ، فكانت فى جمعهـا للنصح والترغيب والـترهيب وضرب الأمثـال والإشارة إلى أن منفعة الرعية أو مجـد الوطن متوقف على ما نيط بعمال الحكومة أداؤه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم . وهذه أيضا طريقته الإدارية ، جعل لكل شأن من الشؤون العامة ديوانا . وكان لا يتخذ قرارا فى مسألة ما

إلا بعد أن يستمع لآراء المجالس المختص بها . ذلك لأنه لم يكن حاكما فحسب ، بل كان طوال مدته مربيا ومكونا للرجال . تحدث مرة إلى رؤسائهم فى اجتماع تاريخى فقال : "إن المماشاة والموافقة فى الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعة من أعظم الجرائم فيجب الاجتناب عن ذلك . حتى إذا كنت آمر أحدكم شفاها أو تحريرا بقولى له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاها أو تحريرا بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة" .

وشاء سعد الطالع أن يحقق ابراهيم فى نفسه وفى أعماله كل ما كان أبوه يأمله ويرجوه . كره ما كان يكرهه أبوه ، فكان يمقت « الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة » ، ونشأ وعاش صريحا جادا مترفعا عن الدنايا مقدسا للنظام « على أساس الانصاف والانسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة » . لا يأنف من أن يتعلم ما لم يكن يعلم ، فوقف وقفة الجندى فى « طابور » التعليم وجلس جلسة التلميذ ، وخالط واستعلم واستمع الى أحاديث الكتب وأقوال الرجال . يشارك فى وضع الخطط ، ويقوم بالتنفيذ ، « لا يماشى ولا يوافق » على ما لا يراه غير محقق للصلحة العامة . بل يقول ما يراه . وقد يتمسك برأيه ويصر إصرارا بلغ فى بعض الأحايين أنه طلب الإعفاء من الرياسة مع البقاء مؤديا للواجب فى صفوف الجنود . ترك الراحة وتحمل المشاق ، وتجلد لبث العدل وتشييد العمران للأعقاب والأخلاف .

لقد تجلت عظمة ابراهيم فى فن القيادة العسكرية ، ولكن فيم تختلف صفات القائد الكبير عن صفات الحاكم القدير ؟ إن صفات العزم والحزم والتدبير والجد وسعة الأفق وحسن التصرف وإدراك العواقب ولطف الحيلة ودقة فهم الطبيعة البشرية والإحسان الى المحسن ومؤاخذة المقصر ، كل هذه من مستلزمات النبوغ فى فنى الحرب والحكم . لقد تجلت هذه الصفات فى ابراهيم قائدا ، أفلا يحق لنا

أن نأسى — نحن المصريين — أن القدر لم يتح لابراهيم أن يخلف أباه بعد أن تشرب روحه وأخلاقه ، وتعلق بخططه ومراميه وآماله ، وعاونه فى بناء النهضة المصرية زهاء خمسين عاما .

ولئن كان من سعد الطالع أن كان لمحمد على ابراهيم ، فقد كان من سعد ابراهيم القائد العسكرى أن كان وراءه محمد على . وأى قائد لم يشك تدخل الاداريين والسياسيين وتحدث الناس فيما لا يفهمون وتحكم البعيدين عن مواطن القتال فى الخطط والأعمال الحربية ؟ لقد شكوا جميعا اللهم إلا أولئك الذين جمعوا بين الملك والقيادة . وكم هم ؟ لقد شكى ابراهيم أيضا ، ولكن المنصف لا يسعه إلا أن يعد شكواه نتيجة لوهن البدن والأعصاب من فرط ما لقى وما لاقى . فكان فى الواقع حرا فى وضع خططه ، طليقا فى تصرفه ، تلبى حكومة أبيه كل ما يطلب من مال ورجال وعتاد .

أجل . لقد كان محمد على سعيدا حقا بابراهيم وكان ابراهيم سعيدا حقا بأبيه .

* * *

فى سنة ١٨٠٥ ، قبل محمد على اجتماع كلمة الناس عليه وتولى باشوية مصر . ولكنه قبلها على أن يسير فيها على منهج من وضعه .

وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لم يتول أمر باشوية ، بل جلس على عرش مملكة عظيمة ، كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها ، وأن عناية الله سلمته حكم أمة واحدة يدر نيلها الفيض العميم . كما أدرك بالفكر الثاقب الذى وهبه الله أن لا بد لحكم مصر من انتهاج مناهج جديدة ، وهدته مواهبه السياسية لسياسة جديدة يحقق بها رجاء الناس فيه ، فيصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ويرتقى بهم درجات إلى ما لم يكونوا يهدفهون . ورأى أن ذلك لا يحتمل التأجيل وأن إعزاز مصر والإسلام يتطلب العمل السريع : القوة التى تصون الكرامة ، قوة الحديد والعلم والمال .

ولقد عرف محمد على أيضا السياسة الكبرى فى طور عنيف من أطوارها : عصر الثورة الفرنسية والفتوح النابليونية ، ففى حقبة قصيرة من أحقاب الزمان تجمع الشيء الكثير من العناصر الأساسية فى تشكيل العلاقات بين الأمم : تسخير قوى الإنتاج وتنظيمها وتنسيقها وتوجيهها لتحقيق غايات قومية ، خريطة أوروبا تطوى وتنشر ، مبادئ هدّامة ، عروش تقوّض وأخرى تقام ، التفوّق البحرى البريطانى ، تدخل روسيا فى شؤون أوروبا ، العالم العثمانى تحت رحمة الأقدار .

بهرته الحركة وصادف ذلك هوى فى نفس مشرئبة طموحة . فعوّل على أن تكون ديدنه . واعتزم أن يكون دائما البادئ ، لا المنتظر .

وكان مما لا بدّ منه فى أوّل الأمر أن يقيم بناء الحكومة على أساس جديد . إن مصر لابدّ أن تتولى أمورها سلطة عامة واحدة . فإن تجزئة السلطان وتشتيته السائدين قبل أيامه أدّيا إلى انعدام فكرة الحكومة انعداما يكاد يكون تاما فنتج عن ذلك تكوين العصابات الخاصة المسلحة ، ونتج عن ذلك إهمال المرافق العامة ، ونتج عن ذلك أن كل من يستطيع وضع يده على أموال عامة يفعل ذلك دون تردّد ، بل ونتج نوع من التفكير يعتبر أن الحكومة ما هى إلا مشاركة ومقاسمة فى الأرزاق وإن شئت قل نهبا .

وإذا شئنا أن نجمل وصف مراحل إنشاء السلطة العامة على يد محمد على وأعوانه قلنا إن المراحل الأولى كانت مراحل الكشف والضبط والتحقيق والتصفية وبخاصة فى أمور الالتزامات ، أما المراحل الثانية فكان فيها الانتقال من الالتزام إلى الحجر — ثم يأتى بعد ذلك دور تحويل الحجر إلى وسيلة قوية للانتاج الجديد ، للثورة الاقتصادية المصرية .

وقد بدأ إبراهيم حياته العامة فى مرحلة الكشف والضبط والتحقيق والتصفية. بدأها وهو لا يزال بعد فتى غض الإهاب ، فقام بالفحص فى الصعيد وشارك فى العملية الكبرى : عملية فك الزمام التاريخية .

وكان إبراهيم فى عمله هذا خشنا خشونة الإجراء كله . ولكن لم يكن هذا إلا وسيلة الخروج من الفوضى والفقر والضعف إلى النظام واليسر والقوّة ، فإن الفساد القديم أدّى إلى فقر الجميع ، حكاما ومحكومين ، و إلى وجود نوع من الحكومة لا تملك مالا يمكنها من أن تنشئ قوّة حربية نظامية أو تطهر ترعة أو تصون جسرا .

وقد أكسب إبراهيم عمله الأوّل فى الإدارة المالية خبرة بشئون الفلاحة المصرية تكاد تبلغ خبرة أبيه بها . وعمل فى خدمة الزراعة المصرية فى ممتلكاته الخاصة وفى مداولات مجالس المشورة التى تولى رياستها فيما بين فترات الجهاد أعمالا تناولها الدكتور أحمد الحته فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب . بل وكوّن لنفسه فى السياسة المالية — وبخاصة ما تعلق منها بالأموال على الأراضى الزراعية آراء تخالف ما كان عليه العمل جاريا . قال فى رسالة لوالده ، تاريخها غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ (٩ سبتمبر سنة ١٨٣٩) ، حين فكر محمد على فى تخفيض عام فى المصروفات لإيجاد الموازنة بين الإيراد والمصروف : ” وتستدعى الحالة أن يعاد النظر فى شئون مصر كلها لتنظيمها من جديد فإنى وإن كنت واقفا على أحوال المديريات من قبل إلا أننى اكتسبت معرفة تامة فى شئون الفلاح منذ أن التزمت القرى لكى أختبر الوسائل المؤدّية الى عمار مصر بنفسى ... وقد دفعت لتكاليف هذه القرى التى التزمتها ما كسبته منذ خمس وثلاثين سنة وما زال علىّ كثير منها أى أننى دفعت لأجل أموال الأطيان الكائنة فى مديرية الغربية وبقاياها لسنة ٥٤ مبلغ ثلاثين مليون قرش ونصف مليون ومع ذلك علىّ مليونا قرش ونصف مليون عن أموال هذه السنة وبقاياها وكيف إذن يطيق الفلاح هذه التكاليف الباهظة وكيف يقوم بتسديدها ... ويظهر جليا مما ذكرت ما هو عليه الفلاح من سوء الحال ، وهذا ما يجعلنى أظنّ أن الأولى تأجيل موضوع تخفيض المصروفات الى حين انتهاء مسألتنا [مسألة العلاقة بالدولة العثمانية] ثم نطلب الدفاتر من الدواوين كلها ديوانا ديوانا ومن المديريات مديرية مديرية فيبحث فيها بحثا شاملا وتنظم شئون مصر كلها

على ضوء ما يؤخذ منها من المعلومات ، ومع هذا كله فالرأى الأعلى لمولانا فإنه أدرى منى فى الشئون كلها ".

[أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية المجلد الرابع ، ص ٢١٨ — ٢١٩]

وكوّن إبراهيم أيضا لنفسه آراء فى سياسة التعليم ، فنزع الى أن يتخذ من التعليم أجدى الوسائل للارتقاء بالشعب ، واهتم بصفة خاصة عندما حمل عن أبيه عبء الحكم بافتتاح مكاتب لتعليم الناس أطلقوا عليها اسم "مكاتب الملة" ، على نحو ما كان موجودا فى ذلك الوقت فى فرنسا وانجلترة لتعليم أبنـاء الشعب " من أقرب طريق وفى أقصر وقت " . فلمكاتب الملة غرض جديد غير غرض المدارس الابتدائية ، فليس الغرض منها إعداد التلاميذ للدراسة التجهيزية . بل الغرض منها توفير قسط من الثقافة لسواد الشعب . ولكن هذه الحركة المبشرة بالخير ماتت بموت إبراهيم .

[أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم : ص ٤٨ ، ٤٩ ، ١٤١]

* * *

وكان قلب إبراهيم — على نحو ما رأينا — يفيض عطفا على عامة الشعب ، ولا بدع فقد خالط وعاشر أشرف ممثلى الشعب المصرى : الفلاح والجندى ، وخبر عن قرب ما يستطيعه الفلاح المصرى والجندى المصرى .

كتب لأبيه فى أثناء حصار عكا ، عندما أذيع أن السلطان قد جيش الجيوش لدفع الجيش المصرى عن أسوارها : " ومهما بعثوا من القوّاد العظـام والجيوش الجرارة فلا يعقل أن يرسـلوا أو يستحصلوا على أقـوى وأشجع من عبدكم المخلص إبراهيم ، ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا ".

[المحفوظات الملكية المصرية المجلد الأوّل ص ٢٠٦]

وكتب اليه أيضا أثناء الحصار عندما أشير عليه باستعمال النقود لإغراء الحامية بالتسليم : " إنى بفضل عظمتكم وجلادتكم الخديوية أرى من العـار علىّ أن أبذل النقود فى سبيل قلعة خربة كهذه ... [وليست من وسيلة لاستمالة الحامية] سوى

بإظهار قوتكم القاهرة وعظمتكم الخديوية الباهرة بتشديد الحصار عليهم من البر والبحر وضرب القلعة بالقنابل والمدافع من كل الجهات حتى يذوقوا مرارة الموت".

[المحفوظات : المجلد الأول ص ١٣٦ ، ١٣٧]

وعندما توقع نشوب الحرب مع الأتراك العثمانيين من جديد كتب لابن أخيه عباس ، وقد كان محمد على غائبا عن مصر يتفقد أحوال السودان "ياولدى الباشا ، لو طوعت [للترك] أنفسهم للنهوض والقيام فلن نكون دونهم ، ولن يسبقونا بإذن الله وكرمه ما دامت أرواحنا فى أبداننا وحتى لا يبقى منا فرد واحد وليحفظن الله مصر كما حفظها حتى الآن" .

[المحفوظات : المجلد الثالث ص ٤٧٧]

وهذه الثقة بالنفس ، وهذا الشمم العالى ، وهذا الاطمئنان التام مردها لأمرين : للحكومة وراء ظهره ، وللجندى الذى يقوده .

لقد حل محمد على الكبير مشكلة تكوين القوة العسكرية على الوجه الذى أوجدته الديموقراطية الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية ، أى التجنيد العام . وسوى بذلك أمرا استعصى على الحكومة الاسلامية . لقد عمدت الحكومات القديمة الى استخدام أهل المناطق الجدباء أحيانا وإلى جمع العبيد بيضا وسودا أحيانا أخرى . حاولت الحكومة الاسلامية هذا الحل أو ذاك . وكان سر اضطرابها وتزعزع كرسيها ونفاذ مواردها . وجال فكر محمد على فى المشكلة واهتدى إلى اقتباس الحل الذى يتفق مع مقتضيات العصر الجديد . واستخدم للتدريب ضباطا أوروبيين ، وأنشأ معاهد الدراسات العسكرية ، وتكون بذلك الجيش المصرى . كتب محمد على إلى ناظر الجهادية : "إن مؤسسة الجهادية هذه ، أعزها الله ، لهى فى حدّ ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى مازلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها ، قائلا أيكون لى أنا الآخر سعادة نيلها ! بل مافتئت ألق بنفسى وأولادى وعيالى و بعرضى ومالى و بذلك العدد الكبير من أتباعى وأصدقائى الذين هم غرس

يدى" وثمرة تعهدى ألق بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للمضار والأخطار آملا فى إحداث هذا السلك الجهادى " . [المحفوظات . المجلد الأول ص ٩٥]

اندمج إبراهيم فى هذا السلك الجهادى اندماجا تاما ، جسما وروحا ، من أول الأمر . لحق به متعلما — وهو القائد المظفر فى الجزيرة العربية . وقاده من نصر إلى نصر بين السهل والحزن فى المورة وفلسطين ولبنان وسوريا والأناضول . وتفصيل هذا كله فى الفصول التى وضعها الأستاذ محمد أحمد حسونه بك والضابطان أحمد فهيم بيومى وعبد الرحمن زكى . وان الجمعية لتغتبط أن جمعت المدنيين والعسكريين من المؤرخين لخدمة التاريخ القومى .

و إن ما ذاع عن حرمان المصريين من مناصب القيادة فى الجيش والأسطول لمصريتهم لهو وهم يحتاج أمره إلى تبديد . فلم يعرف جيش من جيوش العالم فى ذلك الوقت حتى جيوش الثورة الفرنسية شيوع خطة الترقية من تحت السلاح (كما فى الإصطلاح) إلى رتب القيادة . ولا تعرفها الجيوش الأجنبية فى وقتنا الحاضر إلا فى حدود ضيقة جدا نسبيا ، وهذا على الرغم من شيوع التعليم فى جنود الزمن الحاضر . والحال أن ضباط الجيوش الأوروبية فى وقت محمد على وفى وقتنا الحالى ينتمون للطبقة الوسطى . إذا تحققنا ذلك وعرفنا أن ذوى اليسار من أهل مصر لم يقبلوا بعد فى عهد محمد على على اختيار العسكرية لأبنائهم بسبب ابتعادهم عنها قرونا عديدة أدركنا لم خلت وظائف القيادة فى الجيش المصرى فى عهده من المصريين — وأن لا أساس لما زعموه من تعصبه للترك عليهم . بل أن كبار رجال العسكرية الأوروبيين كثيرا ما عبروا له ولابراهيم عن رأيهم بأن أضعف ما فى جيشه ضباطه غير المصريين ، وشاركهم فى هذا الرأى مؤرخ الجيش المصرى الجنرال فيجان ونسب ضعف الضباط إلى عدم إقبال أبناء الطبقة الوسطى إذ ذاك على احتراف العسكرية . و إنا نقرأ فى أمر من أوامر الباشا أصدره إلى محافظ دمياط " بأنه علم بالاحتفالات التى قوبل بها آلاى حسين بك من الأهالى والقناصل و بما تفوه به

على أغا ناظر السلخانة وقوله فى محفل الاستقبال : "صار الفلاحون العمى عساكر ، مهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك . وعليه فاضربوه مائة نبوت على إليته وينفى و إن عاد يصلب " . هذا ما حدث لعلى أغا عندما أخذته النعرة القومية . وعندما تحرج الأمر بين مصر والدول الكبرى وتحمس النـاس فى الحاضرتين — القاهرة والاسكندرية — لدفع العدوان عن وطنهم وألفوا « حرسا وطنيا » أسند محمد على لرؤسائهم — وهم من " أبناء البـلد " — رتبا عسكرية نظامية . ولم يكن محمد على أو إبراهيم الرجل الذى يغمط للمصريين حقا أو يطوى لهم فضلا .

* *

ولم تكن القوة فى نظر محمدعلى إلا وسيلة لاغاية، لم تكن إلا آلة العيش الكريم . فقد كان بطبعه كارها لسفك الدماء، مؤثرا الاعتدال . استعرض الشيخ رفاعة — أحد بناة النهضـة المصرية — حروب محمد على وانتهى الى الملاحظة الدقيقة وهى أن تلك الحروب " لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدّى الحدود . إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود " .

أجل . لقد رسم محمد على لنفسه منذ الأيام الأولى مشروع إحياء العالم العثمانى وسار فى تنفيذه بخطى ثابتة متئدة . رأى محمدعلى السلامة فى الوحدة لا فى التجزئة، والقوة والرفاهية فى إدارة عقـل واحد لملك متنوع الموارد، متنوع السكان، يملك أقصر الطرق بين الغرب والشرق .

وفى فترة توازن القوى التى تلت معاهدة تلست (١٨٠٦ — ١٨١٢)، وخلف سواحل البحار العربية التى كانت تكوّن الحدود المبهمة للعالم العثمانى كانت أعمال محمد على الأولى لإحياء القوة العثمانية .

وكانت الدولة منذ أن عجزت عن إقصاء البرتغاليين ومن جاء بعدهم من رجال البحر والتجارة الأوروبيين عن البحار العربيـة ، ومنـذ أن تخلت عن بلاد اليمن فى منتصف القرن السابع عشر، قد تركت (فيما عدا الاهتمام الذى لا غنى لهـا عنه

بالحجاز) شئون البحار العربية ومناطقها لأهلها وللاستعمار الأوروبى . فنمت أنواع مختلفة من السلطان العربى فى مناطق الخليج الفارسى وسواحل الجزيرة الجنوبية وسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر . وانعزلت تلك الشياخات والامارات والسلطنات عن الحياة العثمانية واضطرت الى تدبير معاشها وتسوية علاقاتها بالأمم الأوروبية البحرية على مختلف الأوضاع .

وكان لحكومة السلطنة نوع مبهم من حقوق السيادة تباشرها من أربع قواعد، من ولاية جدّة وتلحق بها ولاية الحبش الممتدّة امتدادا لا يمكن تحديده على ما نعرفه الآن بسواحل السودان المصرى واريترية والصومال الفرنسى ومن مصر ودمشق وبغداد . وقد عملت الدولة من قواعدها الأربع على أن تبقى البحار العربية بركا آسنة لا على أن تكون شريانا من شرايين التجارة العالمية .

وقام محمد على أوّل الأمر بتأمين الحجاز . وما إن تم له ذلك حتى انفتح أمامه ميدان فسيح الأرجاء خليق ببذل الهمة وبالنظرة النافذة وبالأمل الواسع . فالبحار العربية ومناطقها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمالا معيبا وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، وقد تصلبت ، ولا بدّ من أن يجرى فيها الدم من جديد ، وخلف تلك السواحل فى أفريقية أجزاء من دار الاسلام، مشتتة فاترة الحياة ، ولا بدّ من وصلها بعضها ببعض وبالعالم العثمانى ومن جعل ذلك العالم وحدة حية .

وتولى ابراهيم القيام بهذه المهمة فى إحدى مراحلها الخطيرة . وكان هذا أول عهده الحقيق بالقيادة العسكرية المستقلة . وأدّاها أداء فيه كل الدلالة على ما سيقوم به فى المستقبل . كتب القنصل الانجليزى بمصر ، (هنرى صولت) ، فى رسالة من القاهرة فى أوائل ١٨١٧ : "لقد دلت معاملة ابراهيم للقبائل البدوية على امتلاكه ثلاث ميزات تبشر بالفوز فى النهاية : حزم فى معاملة أعدائه ، سخاء فى البذل ، وفاء بالعهد" .

وتجد تفصيل تاريخ ابراهيم فى الجزيرة العربية فى الفصل الذى عقده الدكتور عبد الحميد البطريق لهذا الموضوع .

وقد تلت انتصارات ابراهيم سنوات استقرار واستعداد فى مناطق النفوذ المصرى من الجزيرة العربية ، وقف فيها التقدّم نحو الشرق الى الخليج الفارسى ونحو الجنوب الى اليمن أمران : أوّلهما انتظار تأليف قوّات عسكرية نظامية وأما الثانى فاستخدامه قوّاته غير النظامية فى فتوح أخرى أوحت بها سياسة البحر الأحمر إذ هى ألصق بها . فقصد للفتوح فى المناطق الممتدّة خلف ما عرفناه باسم ولاية الحبش أو ما يعرفه المحدثون باسم فتوح السودان.وكان نصيب ابراهيم فيها ضئيلا.

* * *

عمل محمد على فى الأقطار العربية فى الجزيرة وفى السودان طليقا من كل قيد، لا دخل لحكومة السلطان فى خططه ومشروعاته . ثم حدث أن قام اليونان بثورتهم وتحركت جيوش السلطنة وأساطيلها وجيوش محمد على وأساطيله لقمع تلك الثورة، وبدأ بذلك فصل جديد فى سياسة محمد على، فصل يمكننه من أن يتبين أمرين أساسيين : الأوّل مدى إمكان التعاون بينه وبين حكومة السلطنة فى إحياء القوّة العثمانية، والثانى موقف الدول الأوروبية منه ومن حكومة السلطنة .

وجه محمد على نحو بلاد اليونان الحملة الكبرى بقيادة ابراهيم : جيشه المصرى الجديد وأسطوله الأوّل . وكانت لأسطوله منازلات مع الأسطول اليونانى خرج منها سالما واستطاع أن ينزل وجنوده بلاد المورة . وسار ابراهيم من نصر الى نصر الى أن تم له اكتساح بلاد المورة وانتقل منها الى الأقطار اليونانية شماليها . واتهمه المتخرصون بأنه عمل على استئصال الأمة اليونانية وتطهير أرضها قضا وقضيضا لينزل بها عربا أو سودا مسلمين . وقد دفع عنه المؤرّخون المحدثون هذه الفرية . وشرحوا أن فى مثل حرب المورة (أى فى الحرب ضدّ ثورة قومية) يصعب على القائد أو يستحيل عليه أن يفرّق فى عملياته الحربية بين أعدائه المحاربين من الجنود وأعدائه المحاربين من غير الجنود .

ولما ظهر للأوروبيين أن لهيب الحرية اليونانية سوف ينطفئ فى بحر من الدماء تحركت الدول للعمل الإيجابى الذى حاولت تجنبه زمنا . وانتهى التدخل بكارثة تحطيم الأسطولين المصرى والعثمانى فى خليج نوارين وبنزول جيش فرنسى فى المورة وبإعلان الروسيا الحرب على الدولة العثمانية . وأمر محمد على ابنه بالانسحاب والعودة .

ومضت الثورة اليونانية بعبرها . وبان لمحمد على أن حكومة السلطان تفهم العمل معه على وجه استغلاله الى أقصى حدود الاستغلال ، وليتها كانت تحسن ذلك فهو لا يكره إطاعة حكومة عليا رشيدة تعمل على بلوغ أهداف العزة والكرامة والرفاهية . ولكن ماذا أثبت السلطان ورجاله فى أزمة نوارين وفيما قبلها وبعدها ؟ لقد أثبتوا عجزا كبيرا . وبان له أيضا أن الدول العظمى قد تتحد ، وبان له ثالثا أنه لكى يساوم ينبغى أن يكون بيديه ما يساوم به . فقل وثقه بإمكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة والقسطنطينية ، وزاد إيمانا بأن محمودا ورجاله يسيرون قدما نحو الهاوية . فأحب أن يتخذ العدّة للمستقبل ، وأن يتخذ الضمانات اللازمة .

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوى فى العالم العثمانى ولدى الحكومات الأوروبية بالمضى فى سياسته العمرانية ، ونشر حكمه المباشر فى أقطار أخرى من العالم العثمانى يقيه ملكها شر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الآمن والموارد التى يستطيع بها أن يكون على حال من القوّة تمنع عنه أطماع الطامعين .

وما هى تلك الأقطار ؟ الولايات الشامية الأربع : حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية فى الجزيرة العربية على الخليج الفارسى والبحر الأحمر . هذا أكيد . والعراق والمناطق فيما بين الشام والأناضول ، هذا مما يترك للظروف . والأقطار — كما ترى — هى فى الجملة مما يكوّن (على حد تعبير الوثائق) عربستان أو ما نسميه دار العروبة .

فهل تصوّر لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية؟ سؤال كبير، إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا اليه قلة إدراك لعناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وإرث ثقافى مشترك ومصالح مشتركة وبالنسبة للحياة الاقتصادية العالمية كتلة واحدة. وإن أجبنا عنه إيجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ماهو، على وجه التحقيق — من خلق العصور اللواحق . وقد لا نعـدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة فى عمومها وأنها مما يمكن التشييد عليه فى حالة الانفصال عن السلطنة وهـذا مالم يكن قد قرّره بعـد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحال . إن حتمت تلك الظروف التقسيم أمكنه أن ينقض ما حدث فى القرن السادس عشر وبناء العالم العربى من جديد . ولكنه لم يكن قد يئس بعـد من مستقبل الوحدة العثمانية وإن كان قد يئس من السلطنة .

هذا عن محمد على، وماذا عن ابراهيم؟ تدل الوثائق على أنه استحث والده على اتخاذ خطة الهجوم على الولايات السورية فى سـنة ١٨٣١ . كما تدل أيضا على أنه كان أسرع منه لتصور الوحدة العربية . بل وتحـدّث عنها . والثابت أيضا أن انتصاراته المتوالية على الجيوش التركية دفعته — كما هو معروف — للنصح بمواصلة الهجوم حتى مقر السلطنة .

لم يقبل محمد على أن يفعل ذلك ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يعترف بأن رأيه كان الأصوب .

وبدأت فترة عاد فيها الاتصال التاريخى بين مصر والشام فى ظل حكومة واحدة وقد عقـد الدكتور أسد رستم فصلا قيما لموضـوع إدارة الشام : روحها وهيكلها وآثارها . وأنه لمـا تغتبط له الجمعية الملكية للدراسة التاريخية أن يتولى كتابة هذا الفصل مؤرّخ لبنانى ممتاز ، استطاع أن يفى الموضوع حقه ، وأن يبين ما للادارة الإبراهيمية للشام وما عليها . أو ليس هذا فى ذاته دالا على أن ما بنى ابراهيم لم يذهب هباء وأن البذرة التى بذرها نمت وترعرعت شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء؟

وانقضت تلك الحقبة من الزمان بإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من كل فتوحه . وهنا يستوقف قارئ الوثائق تبدّل فى المواقف . محمد على يتخذ الجرأة وابراهيم يفضل التريث، بل ونجده يفقد (حتى بعد انتصاره الرائع فى نزيب) كل أمل فى إمكان اكتساب طوائف أهل الشام لحكمه . قال العزيز فى كتاب لابراهيم : "لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كى يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة، ولذا فان قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتمام استقلالها . فبدلا من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت فى سبيل الدين، فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا، هذا إذا غلبونا . وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فحينئذ نجد فى الدنيا الجنة التى يبحث عنها الناس فى الآخرة . فيدوى فى الآفاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير إلى يوم القيامة . هذا لاريب فيه والله كفيل بعباده" . [المحفوظات المجلد الرابع ص ٢٨٦]

وقد لا يعدو المؤرخ الصواب إذا نسب موقف إبراهيم فى الأيام الأخيرة فى الشام لما أصابه من العلل والأمراض . كان آخرها ذلك اليرقان الحاد الذى لازمه أثناء مأساة الانسحاب نحو مصر .

والنقد سهل من بعيد، وأجمل منه أن نبعث على البعد بتحية إعجاب وإجلال للشيخين الذين صمدا للمحنة مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ذهبت فتوحهما واختفى أسطولها وانكمش جيشهما ولكنهما بقيا مهيبى الجانب، عاليى الصيت، يتألق من جبينهما جلال المشيب ونور المجد، فمنعا عن مصر فى السنوات التى بقيت لهما أن تنزل الى ما قدره لها أصحاب تسوية سنة ١٨٤١ — الى مرتبة النيابات العثمانية الراكدة ومناطق المشروعات الاستغلالية الأوروبية .

القاهرة، نوفمبر ١٩٤٨



محمد على باشا الكبير

القسم الأول

التاريخ السياسى

ابراهيم باشا فى بلاد العرب

الدكتور عبد الحميد البطريق

كانت الدولة العثمانية تحرص كل الحرص على أن تحتفظ بسيادتها على بلاد العرب ، لما للمدن المقدسة من مركز هام فى العالم الإسلامى ، لذلك وجهت عنايتها إلى القضاء على الحركة الوهابية وتدمير الدولة السعودية ، تلك الدولة التى وسع سلطانها الحجاز ونجد وعسير ، ثم انساب نحو حدود اليمن والخليج الفارسى ، وهدد الشام والعراق .

وكانت خطة الدولة العثمانية التى رسمتها لنفسها عندما تقوم حركة استقلالية أو ثورة داخلية ، أن تلقى عبء القضاء عليها على كاهل الولاة فى الأقطار المجاورة ، وهى فى تكليفها هؤلاء الولاة بإرجاع سيادتها على بلاد العرب إنما كانت تهدف إلى غرضين : أولا القضاء على الحركة الوهابية التى رأت فيها خطرا على سيادتها وسمعتها فى الأقطار الإسلامية ، وثانيا قد تكون هذه الحرب وسيلة لإضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم ، حتى يظلوا ضعافا خاضعين للدولة خضوعا تاما .

وقد أصابت الدولة السعودية الناشئة نجاحا سريعا فى عهد عبد العزيز بن محمد ابن سعود (١٧٦٥ — ١٨٠٣ م) ، وامتد نفوذه السياسى فى نجد امتدادا هدد أملاك الدولة فى الجزيرة العربية ، ولكن غزواته وفتوحاته لم تزعج الباب العالى إلا عندما شرع عبد العزيز يهاجم العراق فى نقط مختلفة منذ عام ١٧٩٤ ، ولم يكن فى وسع رجال الدولة العثمانية أن يتنبأوا بتلك الهجمات حتى يستعدوا لها ، لأن النشاط الذى كان يصحب احتشاد السعوديين ، والسرعة الخاطفة التى يغيرون بها على

أعدائهم أدهشت الدولة العثمانية ، وكان من الطبيعى أن تتجه أنظار الباب العالى أول الأمر إلى والى العراق ، تكلفه بصدّ تلك الغارات وإخماد تلك الحركات ، فبلاده أقرب الولايات العثمانية إلى الدرعية قلب الدولة السعودية الجديدة ، أضف إلى هذا أن سهولة المواصلات بينه وبين نجد عن طريق النهرين والخليج الفارسىّ تسهل له مهمته .

ولكن والى بغداد إذ ذاك ، كان يرى أن المهمة شاقة عويصة ، فقد كتب فى أوائل عام ١٧٩٦ إلى الباب العالى يقول : "إن الطريق من بغداد إلى الدرعية مجدب صحراوىّ خالٍ من الماء ، مما يساعد السعوديين على الانتصار على جيوش الدولة ، التى تختلف عملياتها الحربية عن أساليب السعوديين فى الحرب" . ولكن هذه الأعذار لم ترق فى أعين رجال السلطان ، فأرسل الباب العالى إلى والى بغداد الأوامر المشدّدة فى عام ١٧٩٨ لكى يسير إلى الحسا لمحاربة عبد العزيز بن سعود ، فجمع الوالى جيشا من المرتزقة والبدو بقيادة الكتخدا على بك ، وسار هذا الجيش ميمما شبه الجزيرة ، ولقى فى الطريق واجتياز الصحراء متاعب وأهوالا ، حتى إذا ما أشرف على الحسا ، وجد نفسه فى حالة لا يستطيع معها مجابهة القوّات السعودية ، فأسرع علىّ إلى طلب الصلح من عبد العزيز ، وقفل راجعا إلى بغداد راضيا من الغنيمة بالإياب ، وازداد السعوديون بذلك قوّة على قوّة ، وعظمت منزلتهم فى أعين العرب ، ولم يعد سكان الجزيرة يعتبرون الأتراك قوّة لا تغلب .

وما بدأ القرن التاسع عشر إلا وزحف سعود بأمر أبيه إلى خارج الجزيرة ، فهاجم العراق واكتسح كربلاء ، وتسرّبت جموع من القوّات السعودية نحو ساحل الخليج الفارسىّ ، وضجت الدولة من تكرار اعتداءات الوهابيين ، فأخذت الأوامر تترى على ولاتها فى البصرة وبغداد أن يقوموا بحملات لصدّ الغزاة ، ولا سيما أن السعوديين أصبحوا فى مستهل عام ١٨٠٤ على أبواب الزبير ، القريبة من نهر الفرات ، وصاروا بذلك يهدّدون البصرة نفسها .

فشل سليمان باشا والى بغداد فى القيام بأى عمل حاسم ضد السعوديين على الرغم من أن لديه ٣٥٠٠٠ جندى قد درّبهم مدرّبون أوربيون على أحدث الأساليب الحربية ، وقد حاول سليمان باشا أن يصد السعوديين عندما وصلوا إلى قلعة (جفير) القريبة من ساحل الفرات فلم يكن خطه بأسعد من حظ كتخداه على بك فانهزمت جيوشه ووجد الوهابيون أمامهم ثغرة يصلون منها إلى قضاء (سراج) ، ولم يأت عام ١٨١٠ حتى وصل جزء من القوات السعودية إلى نقطة لاتبعد كثيرا عن بغداد ونشط مندوبو ابن سعود فى جمع الضرائب من الأماكن المحتلة .

أما فى ميدان الشام فقد توجهت أنظار السعوديين بعد أن سقطت المدينة المنورة فى أيديهم نحو الشمال ، فغزوا (الجوف) و (البتراء) وتقدموا نحو (حوران) ولكنهم لم يتمكنوا من اكتساح سوريا فوقفوا عند أبوابها متربصين ، ولم يستطع والى الشام أن يحمى حدود بلاده ، وهكذا فشل كل من والى بغداد ووالى دمشق فى أن يحققا أمل السلطان فى أن يستطيع أحدهما أو كلاهما أن يقضى على الحركة السعودية لأنهما فشلا حتى فى حماية حدود ولايتهما .

عندئذ تبين بجلاء للسلطان محمود الثانى أن ليس هناك مناص من طلب العون من الوالى الذى شق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعا ، إذ ليس فى استطاعة أحد ولاة الدولة أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة سوى محمد على الكبير .

اعتقد السلطان أنه إن استطاع أن يغرى محمد على بفتح بلاد العرب يكون ذلك كسبا للدولة على أى حال ، فإن انتصر محمد على فبها ونعمت وسينتصر باسم الدولة ، ولكنه فى الوقت ذاته لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة لا يستطيع معها أن يرفع صوته مطالبا بالاستقلال ، وإذا هزم أو فشلت حملته فقد هيبته وضاعت ميزته ولن يستطيع أن يواجه السلطان الذى تعود أن يثأر من ولاته الناجحين حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن .

تناسى السلطان ما بينه وبين محمد على من خلاف، وتطور هـذا التناسى إلى التسامح والكرم، فتوالت الرسائل السلطانية على محمد على تملقه وتلاطفه وتلقبه بألقاب الشرف والمجد، فأثار هـذا الإغراء وتلك الرسائل الريبة فى نفس الباشا، وأخذ يفكر فى المهمة قبل أن يقدم عليها، وفى الوقت نفسه، أراد أن ينتهز الفرصة لتحقيق أغراضه والتخلص من بعض التزاماته، وكان ماهرا فى الرّد على رسائل الباب العالى، وهى الرسائل التى كانت تحثه على الإسراع فى السير نحو بلاد العرب، إذ كان يردّ عليها برسائل من نوعها، يملؤها بألفاظ الخضوع والعبودية .

وانتهز محمد على هذه الفرصة لتحقيق استقلاله الداخلى بمصر، وتطلع إلى أن يجعل لنفسه كيانا خاصا قبل أن يقوم بحملته فى بلاد العرب، فاقترح على الباب العالى بواسطة وكيله المقيم فى الآستانة أن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها فى ذلك شأن ولاية الجزائر، وأوضح له أن هـذا الإجراء ضرورى حتى تنتهى الحرب فى الحجاز، وتذرّع فى طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية فى أوربا واحتمال تدخل الدولة العثمانية فى بعض الحروب، فإذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة، فقد تقع فريسة جبار إحدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة فى الجزيرة العربية، وضرب لذلك مثلا باحتمال محاصرة انجلترا للموانى المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر، بل "وتتعطل أيضا مصالح الحرمين، وحيث أن تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها فإن امتيازها يضمن حيادها ومصالحها الاقتصادية"[1] .

أما الغرض الأكبر الذى كان يرنو إليه محمد على من وراء القيام بحملته فى بلاد العرب والذى يلوح لى من خلال دراساتى للوثائق العديدة المحفوظة فى قصر عابدين العامر فهو طموحه إلى السيطرة على الشام قبل أن يقوم بأى حرب فى الحجاز، وقد

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : دفتر رقم ١ عابدين وثيقة رقم ٥٤ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٢٥ بالمحفوظات الملكية .

طلب إلى الباب العالى أن تحال إليه ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه إلى بلاد العرب لكى يسوق حملتين، إحداهما تخرج من مصر والأخرى من الشام، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التى كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجرىء صداه العنيف فى بلاط السلطان ، واتهمه أعداؤه وحاسدوه هناك بأنه يغلب مصالحه الشخصية وأطماعه الإقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا إن حملة يقوم بها الباشا أو ابنه إبراهيم من مصر، كفيلة بإرجاع بلاد العرب إلى حكم السلطان ، وقد ردّ محمد على على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالى فى كتاب بعث به إلى وكيله محمد نجيب افندى فى الآستانة يقول فيه : " إن ردّى على هؤلاء هو قصة جحا المشهورة عندما بعث ابنه ليملأ الجرّة وصفعه على قفاه قبل أن يحملها منبها إياه ألا يكسرها ، ولما قيل لجحا لماذا تصفعه ولم يكسر الجرّة بعد، أجاب أنه يجب أن ينبه ويصفع أولا حتى لا يكسرها إذ ماذا يفيد الصفع بعد كسر الجرّة ... "(1) وكتب له فى خطاب آخر أن مصلحة الحجاز فقط هى التى دفعته إلى هذا الطلب وأن ليس له مطمع فى غير مصر التى وصفها بأنها (القطر الذى يتحسر وزراء الدولة دون الوصول إليه)(2) .

وأخيرا قرر محمد على أن يغض الطرف مؤقتا عن تمسكه بمنحه ولاية الشام أو منحها لصديقه الموالى له (يوسف كنج باشا) ، بعد أن فهم من مقابلة وكيله نجيب أفندى للصدر الأعظم أن جميع طلباته لا يمكن النظر إليها بعين العطف والرعاية إلا بعد أن تقوم الحملة المصرية إلى الحجاز ، وأدرك من رسائل وكيله أن أعداءه فى الآستانة يتربصون له وأنهم يقولون (لو أعطيت الدنيا إلى والى مصر ما ذهب لأجل الحرمين ولا أرسل أحدا من أولاده) لذلك عزم على تسيير الحملة نهائيا بقيادة ولده طوسون على أن ينتهز الفرص ليوهم الباب العالى أن نجاح الحملة يتوقف

---

(١) من محمد على إلى نجيب افندى : وثيقة رقم ٦٥ دفتر رقم ١ بتاريخ أول ربيع الأول سنة ١٢٢٦

(٢) من محمد على إلى نجيب افندى : وثيقة رقم ١١٨ دفتر رقم ١ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٢٨

على تسيير حملة أخرى من الشام يشرف عليها تمام الإشراف ، وفى الوقت الذى تحركت فيه جيوش طوسون نحو الحجاز أرسل محمد على يلح على وكيله فى الآستانة أن يقنع الباب العالى بأن نجاح الحملة يتوقف إلى حد كبير على قيام حملة أخرى من الشام ، ثم اتخذ من الضائقة التى وقع فيها ولده طوسون عندما ارتد بجيوشه إلى ينبع ، وعندما عجز عن اختراق مضيق (الصفراء) ذريعة لمعاودة طلبه فكتب إلى الصدر الأعظم يقول إن طوسون يجزم بأن المرور من مضيق (الصفراء) يحتاج إلى حملة تأتى من الشام " وإلا فإن هذه الجيوش المصرية لا محالة تفقد قواها شيئا فشيئا حتى إذا ما وصلت منتهى المضيق هلكت عن آخرها "[1] .

أثبتت الأيام صدق ما جاء فى هذا الكتاب إذ عندما اضطر طوسون إلى أن يتجه نحو (الصفراء) التى تحصنت فيها الجيوش السعودية دخلت جنوده مضيقا من الصخور الصلدة ، لا يزيد عرضه على أربعين مترا ويبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف ، وكان الوهابيون فى عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود ، فسدوا طريق المضيق فى منتصفه وانتشر فريق منهم بأعالى الروابى الصخرية التى تحف بجانبى المضيق ، فاضطر طوسون الى التقهقر فى عناء وشدة ، وقد أبدى طوسون فى تلك المعركة بطولة عظيمة إذ كان يخوض بنفسه صفوف الأعداء على رأس جماعة قليلة من فرسانه صارخا فى جنوده الذين فقدوا وعيهم وخارت قواهم " أما منكم من يقتدى بقائده" ولكن ضاعت صرخاته الحماسية هباء وسط أصوات حوافز الخيول التى تقهقرت هاربة بفرسانها وعاد طوسون إلى ينبع بعد أن فقد عددا كبيرا من خيرة جنوده .

ولسنا هنا بصدد ما تبع ذلك من حروب طوسون فى الحجاز ، بل حسبنا أن نذكر أنه استولى على مكة والمدينة وغيرهما ، ولكن حملته لم يقدر لها النجاح الذى

---

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : وثيقة رقم ٨٠ دفتر رقم ١ (المحفوظات الملكية بعابدين) بتاريخ (٢٧ ذى الحجة ١٢٢٧) .

كان يبغيه محمد على ، فعزم على أن يسافر الى الحجاز و ينزل الى الميدان بنفسه ، إذ أنه كان حريصا تمام الحرص على ألا يفشل فى حملة الحجاز وهو عالم بما يترتب على هذا الفشل من ضياع هيبته وفقد مركزه ، وتبدو لنا لهفته على نجاح هذه الحملة واعتزامه خوضها بنفسه منذ تقهقرت جيوش طوسون إلى ينبع من رسالتين أرسلهما متتابعتين إلى كبار قواده وجنوده المرابطين فى ينبع خشية أن تضعفهم الهزيمة فيقرروا الجلاء عن قلعة ينبع نفسها . قال لهم فى رسالته الأولى "عرض علينا وكيلنا فى المويلح أنكم عند وصولكم إلى مضيق الجديدة سد العدوّ ذلك المضيق ثلاثة أيام وثلاث ليال وأخيرا تقهقرتم ووصلتم (ينبع) فإن كان الخبر صحيحا فالنصر والهزيمة بيد الله يؤتيها من يشاء من عباده ، فيارفاقى ويا قرة عينى ، لا تأسفوا ولا تأسوا على ما فاتكم ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فاليأس والضعف لا يليق بالرجال أما الشجاعة والبطولة فهما فى إعادة الكرة على العدوّ والانتقام منه . لقد طالما شهدتم الحروب معى ، فأنتم جنود مصر الذين خاضوا غمار المعارك العديدة ، فكنا نهزم العدوّ طورا ، ويهزمنا طورا آخر ، فلم ننكص على أعقابنا بل أعدنا الكرة وهاجمناه حتى دمرناه تدميرا ... إن لدى من المال والعدد والذخائر سأرسلها إليكم فضلا عن أنى ربما قمت بنفسى إليكم ..." [1] وفى رسالته الثانية يؤكد لهم أنه سيقوم بنفسه فيقول " يا رجالى القدماء . أنتم أبنائى الذين ربيتهم منذ نعومة أظفارهم ، فعرفتم أنى شيخ المحاربين ، أفهل رأيتمونى خفت حربا ، أو تقهقرت أمام عدو ؟ إن أنتم نكصتم على أعقابكم وخشيتم الحرب فدعوا حمل السلاح ، وكونوا طلابا فى مدرسة ، أو دراويش فى تكية ولن أتأخر عن الإنفاق عليكم . لماذا تخشون كثرة العدد وأنتم متحصنون داخل قلعة حصينة مثل ينبع ... أثبتوا إذن كرجال واعلموا أنى بعد إتمام إرسال الجنود البرية والبحرية سأقوم بنفسى

---

(١) من محمد على إلى طوسون : وثيقة رقم ٢ محفظة رقم (١) ذوات (٢١ ذى الحجة سنة ١٢٢٦).

إلى الحجاز لأرى همتكم ، كونوا يدا واحدة وصلوا أوقاتكم الخمس فمكانكم مكان صلاح واستغفار ، ينصركم الله ويثبت أقدامكم[1] " .

وقد حقق الباشا وعده فيما بعد ، ووصل إلى جدّة فى سبتمبر سنة ١٨١٣ ، وفى ٦ أكتوبر قصد إلى مكة ، وهناك أصدر الأوامر إلى جيشه فى المدينة ليزحف إلى نجد ، وإلى جيشه فى الطائف ليحتل تربه ، وإلى جيشه الثالث ليذهب برا وبحرا إلى القنفذة لتأديب الخارجين من أهل عسير . ثم أخذ يضع قواعد الحكم المصرى فى الحجاز ويدرس نفسية البدو والحضر ، ويوزع المال والأرزاق على المحتاجين ، وعزل الشريف غالب أمير مكة لذبذبته بين السعوديين والأتراك ، وعين بدله الشريف يحيى أحد الموالين للحكم المصرى ، ثم خفض رسوم الجمرك فى جدّة ليكسب محبة التجار وثقتهم ، وألغى الضرائب التى فرضها الشريف غالب أمير مكة ، وأصلح ما تخرب من قبور الآل والصحابة ، وأنشأ تكيتين ، إحداهما فى مكة والأخرى فى المدينة وبالجملة فقد عنى بدعم أركان الحكم المصرى فى الحجاز ، ولكن بقى عليه أن يكلل انتصاراته فى الجزيرة العربية بفتح نجد ذاتها ، حتى يأمن على الحجاز من معاودة السعوديين فتحه من جديد ، على أن هذا الغرض الأساسى كان أملا لم يستطع الباشا أن يحققه بنفسه ، إذ وجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى مصر على جناح السرعة ، موطدا العزم على أن يلقى عبء هذه المهمة الخطيرة على ولده الأكبر ابراهيم : أما أسباب عودة محمد على إلى مصر فترجع إلى أن الباشا قد أمضى ما يقرب من عامين ببلاد العرب ، سمع أثناءها مختلف الإشاعات عما يبيته له السلطان ، الذى حاول أكثر من مرة أن يقصيه عن ولاية مصر[2] ، وسمع أخيرا " أن الاستعداد قائم على قدم وساق فى تركيا لتنظيم حملة تحت قيادة قبطان باشا لمهاجمة الاسكندرية والاستيلاء على مصر

---

(١) من محمد على الى رؤساء الجيش : وثيقة رقم ٨٢ محفظة ٢ بحرا برا بتاريخ ١٥ محرم ١٢٢٧

(٢) راجع كتاب (محمد على) من سلسلة أعلام الاسلام لصاحب العزة شفيق غربال بك .

باسم السلطان[1] " ، أضف إلى ذلك أنه سمع بعودة نابليون من منفاه فى جزيرة إلبا مما سيجعل الموقف الدولى فى خطر ، وبذلك تصبح مصر مهددة بأطماع الدول ، وقد قابله إذ ذاك فى مكة صديقه المستشرق المؤرخ (بوركهاردت) ووصف شعور الباشا قائلا " لقد كان محمد على مهتما اهتماما عميقا بالحوادث التى تجرى فى أوربا وكان يعتقد أن انجلترا سوف تسعى بعد سقوط نابليون إلى تدعيم سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على مصر[2] " . وقد قال الباشا لبوركاردت " إن السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ، وأنا أعرف أن انجلترا تطمع فى مصر ، إننى صديق الانجليز ، ولكن حقيقة الواقع ، أن من بين كبار الدول من يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، ولا يضمر لك فى نفسه الإخلاص . وغاية ما أتمناه ألا ينتهز الانجليز فرصة غيابى فى الحجاز لينقضوا على مصر ، أما لو كنت هناك ، فسيكون لى على الأقل شرف الدفاع عن ممتلكاتى " . وفى ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ أبحر محمد على إلى مصر بعد أن سلم القيادة من جديد إلى ولده طوسون ، وجاءت بعد ذلك فترة ركود جنح فيها طوسون وعبد الله بن سعود الى السلم ، إذ اتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم فى الأرض المقدسة على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم ، ولكن الفريقين كانا يعدان هذا الصلح أشبه شىء بهدنة لا يعرف أجلها ، فلا عجب إذا رأينا كلا منهما يستعد للمعارك القادمة ، وكان أول ما فعله الباشا أن اختار ابنه البطل ابراهيم وألقى على كاهله مهمة اختراق قلب الجزيرة العربية ليصل الى الدرعية مهد الوهابيين .

كان ابراهيم إذ ذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، صلب العود ، شديد البطش ، ثابتا فى عزمه ، متفانيا فى طاعة أبيه ، وقد ذكر المؤرخون أنه كان

(١) من ميست القنصل الانجليزى بمصر إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٥ يونيه سنة ١٨١٥ وثيقة محفوظة بوزارة الخارجية بلندن .

(٢) Burckhardt: Travels in Arabia V. I. P. 144

توّاقا الى القيام على رأس الحملة الجديدة بعد أن استدعى محمد على ابنــه طوسون، لكى يعود الى مصر[(١)]، ووصلت أنبــاء قرب وصول ابراهيم الى الحجاز فأخذ عبد الله يستعدّ استعدادا ضخما و يستنفر شيوخ نجد ومن تبعه من أرض الحجاز وعسير .

ومنذ أوائل عام ١٨١٦ كانت عيون الناظرين فى مصر تقع خلال الأشهر الثمانية التالية على الجمال محملة بالأثقال من المؤن والذخائر ومهمات الجيش قاصدة السويس، والسفن الصاعدة فى النيل الى قنا مشحونة بالمدافع والجند، لتنقل بعد ذلك الى موانى البحــر الأحمر حيث تبحر الى الجــزيرة العربية ، وفى ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ ودّع ابراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة وأعيان البلاد، ولمــا دخل على والدته يودّعها قبلته و باركت عزيمته، ثم ناطت برقبته عقدا مــن الجواهر سألتــه ألا ينتزعه إلا فى الحجــرة النبوية الشريفة هدية منها الى الضريح الشريف، فوعدها بالوفاء بهذا النــذر .

وفى الثــالث والعشرين من شهر سبتمبر أبحر ابراهيم بحملته من مينــاء القصير مستصحبا معه عددا من الأوربيين، نذكر منهم الضابط المهندس ڤيسيير Vaissière الذى خدم فى جيش نابليون ، وألقت به حوادث عام ١٨١٥ على ضفاف النيــل باحثا عن عمــل فى جيش محمــد على الكبير ، ثم بعثة طبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم سكوتو Scoto وجنتيلى Gentili وتودسكينى Todeschini وسوشيو Socio . وهؤلاء الأوربيون كانوا على الأرجح أوّل من اخترق نجد من الأجانب، ولكنهم للأسف لم يتركوا مؤلفات أو مذكرات عن تجاربهم ومشاهداتهم فى قلب الجــزيرة .

---

(١) وصل طوسون الى القاهرة فى ٧ نوفبر ســنة ١٨١٥ ، وكان فى استقباله كبار رجال الحاشية وقوّاد الجند وأعيان القاهرة وما استتب له المقام فيها حتى غادرها الى الاسكندرية حيث كان أبوه مقيما بها منذ ١٩ أكتوبر سنة ١٨١٥ فزاره ووالدته وهناك رأى لأوّل مرة ابنه عباس (عباس الأوّل فيما بعد) الذى رزق به أثناء تغيبه بالحجاز وكان يبلغ من العمر إذ ذاك عامين ، وقد مات طوسون بعد ذلك بعدة أشهر .

وفى ٣٠ سبتمبر وصلت سفن الحملة إلى ينبع ، وأقام فى تلك البلدة عدة أيام استعرض فيها جيوشه ، واستقبل وفود القرى المجاورة والقبائل التى أقبلت تقدم له فروض الولاء والطاعة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة حيث استقبله شيخ الحرم النبوى وقاضى المدينة والأعيان والأشراف ، ثم توجه توا إلى الحرم النبوى الشريف حيث صلى لله أربع ركعات ثم تقدم بتؤدة وخشوع نحو الضريح الشريف قائلا : " السلام عليك يا محمد . السلام عليك يا رسول الله " وطفق يدعو الله أن يجعل النصر حليفه ، وأن يوفقه فى المهمة التى أتى من أجلها .

اعتمد ابراهيم فى سياسته فى بلاد العرب على ولاء القبائل التى سيخترق بلادها إلى نجد لأنه كان يعلم تمام العلم أنه فى أشد الحاجة إلى معونتها لتأمين طريق الحملة ، لذلك كان حريصا على أن يبين لهم أنه إنما جاء إليهم ليعمل كصديق على ما فيه خيرهم ، وأنه ليس من الغزاة الفاتحين ، وأن الحكم المصرى لم يأت ليأخذ منهم بل ليعطيهم ، وقد وصف الرحالة بلجريف ما أخذ به إبراهيم نفسه من مسالمة القبائل وتأمين الأهالى فى قوله :

" كل دلو من الماء قدمها أحد إلى جيشه ، وكل تمرة أكلها الجنود ، وكل عود من الحطب أوقدوها ، كان إبراهيم يدفع ثمنها فى الحال ، وقد حرم على الجنود والضباط ألا يسيئوا الى الأهالى العزل من السلاح ، وحرص كل الحرص على أن تنفذ أوامره بكل حزم ، فأخذت القرى واحدة إثر أخرى ، والقبائل قبيلة تلو قبيلة تقدم الطاعة للحكم المصرى ، اللهم إلا أقلية ضئيلة كان دأبها الثورة والفتنة ، وحتى هؤلاء لم يحاول إبراهيم أن يقسو عليهم بل تعمد أن يرأف بهم ويتغاضى عن هفواتهم "[1] .

أقام إبراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين ثم اتخذ من (الحناكية) مركزا يوجه منه هجومه ، ولبث فيها كالصياد يراقب فرائسه ، فكان تارة يغير على البدو الذين لم

(١) Palgrave: Central & Eastern Arabia Vol. II. Page 54 London 1866.

تفلح معهم سياسة اللين أو المـال، وتارة أخرى يفيض على شيوخهم بما حمله من هدايا وما أعدّه لهم من منح مالية، فانضم إليه عدد كبير من شيوخ القبائل الشديدة البأس كقبائل حرب وعتيبه ومطير[١]، وفى ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى ابراهيم من القاهرة نبأ الانعام عليه من السلطان بلقب الباشـوية ذات الأذناب الثـلاثة[٢] فأوفدت المدينة الوفود من كبرائها لتهنئته، وذهب الباشا معهـم إلى المدينة حيث أقيمت الحفلات ومعالم الزينات ابتهاجا بهذه المناسبة وألبسه المفتى شارة الترقية و بعد هذا الاحتفال الذى رفع مكانته وألقى هيبته فى النفـوس عاد إلى معسكره فى الحناكية ليبدأ المهمة الخطيرة .

ولم يكن كل شيء هادئا فى جيشه، إذ ظهـر بين الأرنؤود جماعة بدئوا حركة عصيان وتذمر، عندما تواترت الاشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين الروسيا والباب العالى، واعتقـدوا أن مركزهم فى الجيش أصبح حرجا، فأخذوا يطالبون بمرتباتهم، ولم يجـد ابراهيم بدّا من تسكين روعهم ودفع لهم حقوقهم، أضف الى ذلك أن حرارة الشمس نهارا والبرد الشديد ليلا وندرة المـاء الصالح للشرب وتفشى الحميـات والدوسنطاريا، حمل الجنـد على التذمر وضعف العـزيمة، ولم يستطع الأطبـاء الأوربيون على الرغم ممـا بذلوه من جهد أن يستأصلوا هـذه الأمراض الفتاكة بسرعة، ولكن إبراهيم أبدى إزاء هذه الكوارث جلدا وصـبرا عجيبين بثا روح الطمأنينة والرجاء فى النفوس الجازعة القلقـة . وجاءته الامدادات التى طلبها من أبيه فسد النقص وأعاد الأمل إلى جيشه .

---

(١) ممـا جذب العربان الموالين لعبد الله بن مسعود إلى الانحياز إلى إبراهيم، إكرامه مثوى غانم ابن مضيان شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعده إياهم بعدم فرض الجزية وبأن يدفع لهم ثمن ما يؤدونه الى الجيش من مؤن، أضف الى ذلك لقاءه الناس بالبشر والترحاب وسعة الصدر والسخاء .

(٢) الباشوية ذات الأذناب الثـلاثة هى أعلى رتبة يمنحها السلطان لوزراء الدولة، وشارتها ثلاث خصل من شعر ذنب الخيل توضع فوق الرمح الذى يتقدم الباشا فى الحفلات الرسمية، وهو تقليد عثمانى قديم .

وبعد أن أقام إبراهيم ستة أشهر فى الحناكيه، زحف فى شتاء السنة التالية (٢٢ فبراير سنة ١٨١٧) إلى نجد، فوصل إلى (الرس) وحاصرها حتى سلمت بعد حصار طويل وقتال عنيف هلك أثناءه ثلاثة آلاف من رجاله ، وكادت تنفذ ذخائره، لولا تذرعه بقوة الإرادة والعزم الحديدى، حتى أن المؤرخين قد أجمعوا على أنه لو أن قائدا أقل من إبراهيم عزما وأضعف إيمانا وأكثر جزعا أمام الحوادث إذا قلبت له ظهر المجن لغادر ميدان القتال هربا ويأسا ، وانقلب على عقبيه وعاد إلى الحجاز فورا ، ولكن الكارثة التى نزلت به وبجيشه زادته إصرارا على إرادته وتمسكا بتنفيذ رغبته ومضيا فى عزيمته ، على الرغم من أن الطبيعة حالفت عدوه، إذ ثارت الزوابع والعواصف بشكل غير مألوف، فهبت الريح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المشارب والخيام، وتسلب الإنسان والحيوان حرية التنفس والحركة، وبدلا من أن يقبع إبراهيم فى مخبأ يتقى به هذه الأخطار، امتطى جواده فى يوم من هذه الأيام العصيبة وسار فى ألف فارس فانقض على فريق من أعدائه ومزق شملهم وبث بذلك نشاطا وحمية فى نفوس جنوده ، وكان سكان (الرس) قد سئموا انتظار وصول المدد إليهم من عبد الله ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب الذى أخذ يسرى من بيت إلى بيت فعولوا وعلى رأسهم حاكمهم (محمد بن مزروع) على أن يطلبوا من إبراهيم هدنة شريفة فكان لهم ما أرادوا ورفع عنهم الحصار على شرط قبول حامية مصرية فى بلدتهم .

بعد أن سلمت (الرس) زحف إبراهيم إلى (عنيزه) حيث كان يرابط بها عبد الله ، فسلمت البلدة وانسحب الزعيم السعودى إلى الدرعية حيث راح يستنفر أهل نجد كى يجتمعوا فى العاصمة النجدية ليدافعوا عن كيانهم ومبادئهم ووطنهم ، أما جيش إبراهيم الظافر فقد استولى على بريده ثم شقرا وضرما ثم سار إلى وادى حنيفة حتى أشرف على العاصمة العتيدة (الدرعية) فى ٦ ابريل سنة ١٨١٨ ، أما الدرعية فتقع فى الجزء الشرقى من قلب جزيرة العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من

ينبع ، وتتألف تلك العاصمة من خمسة أقسام صغيرة ، لكل قسم أبواب وأسوار خاصة تتخللها الحصون والأبراج ، ومحيطها لا يقل عن اثنى عشر كيلو مترا ، وهى دائرة كان من الصعب حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش إبراهيم ، لذلك نجده يحشد قواه كلها فى نقطة واحدة للهجوم على حصن مقام على أكمة مرتفعة . وقد استمر حصار الدرعيه خمسة أشهر و بضعة أيام ، تعدّدت أثناءها المعارك واشتدّت الحملات ، وكلف الباشا المهندس الفرنسى (ڤسيير) بإنشاء المعاقل التى يحتمى بها الجنود المصريون ، ومع ذلك فقد لاقت الجيوش المصرية عنتا وأهوالا شديدة ، وحدثت فى ٢١ يونيه نكبة كادت تقضى على كل أمل فى فتح الدرعية ، فقد حدث أن اشتبك السعوديون بالمصريين فى معركة قتل و جرح فيها عدد كبير من الضباط ممن امتازوا بالشجاعة والحذق ، فلما عاد الباقون إلى المعسكر لالتماس الراحة بعد يوم رهيب قاتل ، هبت ريح السموم فحملت جذوة نار من موقد كان أحد الجند يطهى عليه طعامه ، وألقتها على خيمة كبيرة منصوبة على ربوتين عاليتين وفيها مستودع القذائف وعدّة براميل من البارود وعددا كبيرا من صناديق الخرطوش والقنابل ، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخائر فانفجرت كلها ، وتسبب عن الحريق احتراق مخازن القمح والشعير ، وضياع أرواح كثيرة من الجند وأصبح إبراهيم بلا مؤن ولا ذخيرة وسط الصحراء ، بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية ، على أن إبراهيم تلقى تلك الكارثة بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وكان أحد القوّاد يقود النقط الأمامية ، فبعث يستفسر من الباشا هل استطاع أن يستخلص شيئا من الذخائر؟ فكان جوابه : "لقد فقدنا كل شىء إلا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع معاودة الهجوم والانتصار" . أما الانفجار فكان له دوى هائل ، فهم منه المدافعون عن الدرعية أن كارثة ما قد حلت بالذخائر المصرية ، فخرج منهم عدد من المقاتلين يجسون النبض ، وأدرك إبراهيم حرج موقفه ووقف فى وسط جنوده يأمرهم بأن يضنوا كل الضن بما تبقى معهم

من الذخائر ، وألا يطلق أحدهم رصاصة إلا عندما يقترب العـدو بحيث لايخطئ أحد المـرمى ، وأنذر كل من تحـدثه نفسه بالتقهقر بالاعدام ، وكان من عادة النجديين فى الحرب أنهم إذا خرجوا للقاء أعدائهم قاموا بحركات سريعة واقتربوا منهم كاللمح الخاطف بدلا من القيام بمناورات تستنزف ذخائر أعدائهم ، فلما اقتربوا من المراكز المصرية التى أغفلت أمر تقدمهم فى أول الأمر ، تلقتهم بمقذوفات المدافع فحصدتهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل .

لازم جيش الدرعية بعـد ذلك خطة الدفاع ، بينما استفاد إبراهيم من الوقت تصله أثناءه الإمدادات من الرجال والعتاد ، وعنى إبراهيم بحالة الجرحى والمرضى ، وعاقته عنايته بأحوال جنوده عن التماس الراحة لنفسه ، فأخذ يشرف بنفسـه على معالجتهم على أيدى أطبائه الأوربيين الذين لم يألوا جهدا فى هذا السبيل ، حتى أن الطبيب (جنتيلى) أصابته قنبـلة فى رجله أثناء ذهابه لإسـعاف الجرحى ، فتولى بترها له زميله (تود سكينى)، وقد زاره إبراهيم يصحبه ڤسيير وأظهر له من العطف والرعاية ماأدخل السكينة على قلبه .

تواردت الإمدادات على ابراهيم ، وبعث إليه والده محمـد على برسول خاص (سليمان أغا الجركسى رئيس أغوات السراى) يحمل إليه بعض الارشادات ويفيده بأنه سوف يرسل إليه مددا بقيادة خليل باشـا محافظ الاسكندرية ليعينه على فتح الدرعيـــة .

وطلب إليه أبوه فى رسالته التى حملها إليه الرسول ألا يداخله ريب أو تأثر بسبب إرسال خليل باشا لمعاونته ، ولكن ابراهيم باشا ، الذى كان حريصا على إرضاء أبيه ومتفانيا فى طاعته ، كتب إلى محمد على يقول : "اطلعت على مضمون أمركم السامى وعلى ماتفضلتم بإشعارى فى متن هذا الأمر العالى من أنه لا يجوز أن يخطر لعبدكم شىء بسبب انتداب صاحب السعادة عبدكم خليل باشا لهذه الجهات بسبب حداثة سنى وأن يضطرب فكرى وأقول إن هذه المسألة يمكن إتمامها سواء انتدب المشار

اليه أم لم ينتدب ، وإنى أجيب بأن كلينا ، عبدكم وخليل باشا ، من غلمان أفندينا التى لا تعتق مما هو معلوم للجميع ، كما لا أشك فى أن قدوم خليل باشا باعث على الافتخار لى ، لأنه أولا من أقاربى وثانيا فإن معاونتـه لى لا تقاس بمعاونة غيره ، وفضلا عن ذلك فإن صداقتـه لأفندينا أمر بدهى ، ومجيئه هنـا يسهل المصلحة ولا يوجد لدى أى شك فى أنه عند حضور المشار إليه ورؤساء العساكر تقوم بعناية الله المـلك المتعال بالهجوم من خمس جهات فيتم الفتـح والنصر... ... وإذا كان أحد قد أنهى لأفندينا خلاف ذلك فإنى أقول إن الله يعلم أنى عبدكم صرت مسرورا وممنونا ، وبسطت يدى فى الحال أدعو الله دعاء جزيلا لأفندينا إذ أن ورود عساكر كثيرة بهذه الدرجة فى أوّل الأمر هو فخر عظيم لعبـدكم كما أنه لو تم بعناية الله فتح الدرعية بالسيف لكان فخر ذلك أكثر ممـا إذا كان الفتح بالمحاصرة ... فإن شـاء الله تعـالى لدى حصول العـلم لدولتكم بعبوديتى وكيفية الحال ، فإن الأمر مفوّض لصاحب الدولة والمرحمة سيدى وولى نعمتى وسبب فيضى وراحتى فى شأن التفضل بإبقاء حسن التوجهات السنية التى استأنست بها وألفتها من زمن بعيد وقريب"[1] .

ذلك جانب من رسالة إبراهيم إلى أبيه تنطق بمـا يفيض به قلبـه من حب وإخلاص ، وتدل على ما كان يحمله إبراهيم من نكران الذات بالنسبة لأبيه ، ولكنه فى الوقت ذاته كان حريصا على ثقة أبيـه فى كفايتـه ومقدرته الحربية ، وغيورا على مجده الحربى أن يهن أو يضعف أو يتخاذل بعد أن وضع أبوه كل ثقته فيـه ، فعزم عزما صارما على أن يفتح الدرعية قبل أن يصل خليل باشا بإمداداته الكبيرة .

بدأ الهجوم ، وحمـل ابراهيم على أهل الدرعيـة فى متاريسهم وفى معـاقلهم وفى أبراجهم وفى بيوتهم حملات شعواء استخدمت فيهـا المدافع الضخمة والشعل النارية والبنادق والسيوف ، ثم أحاطت جيوشه بالمدينة واحتلت حيا من أحيائها

(١) من ابراهيم باشا إلى والده : وثيقة رقم ٩٤ محفظـة رقم ٥ بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٣ بدار المحفوظات الملكية بعابدين .

وانتشرت فى الحدائق المحيطـة بالأحياء الأخرى ، فوهنت عزائم المدافعين ونظر عبد الله حوله فلم يجد من رجاله وحرسه الخاص سوى نفر ضئيل ، فحض عبد الله قومه على المقـاومة ، واستفز هممهم واستثار حميتهم ، ولكنهم أشاروا له على حى الطريف ، الذى دك عن آخره ، وعلا الصياح واشـتد الصخب ، فلم يسع الزعيم السعودى إلا أن يطرق برأسـه الى الأرض يأسا وحزنا ، واضطر الى إجابتهم الى ماطلبوه من الرضا بحكم القضاء والأمر الواقع ، وارتفعت راية التسليم تطلب الكف عن القتال .

وفى ٩ سبتمبر ١٨١٨ وصل رسول من طرف عبد الله الى خيمة ابراهيم ملتمسا بالنيابة عن أميره وقف إطلاق النـار وتعيين موعد لمقابلة عبد الله ومفاوضـته ، فأجابه ابراهيم الى طلبه ، و بعد ساعات حضر عبدالله يصحبه مائتان من حرسه ، فتلقاه ابراهيم بمظاهر الرعاية والاحترام ، وسأله لم ظل مصرا على المقاومة بينما كان جميع السكان قد أدركوا ألا فائدة من النضال ، فأجاب عبدالله : "لقد انتهت الحرب الآن وكان ما هو كائن بقضاء الله وقدره ، وما غلبتنا جنودك ، ولكن الله هو المعز المذل" وضعف صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهمرت دموعه فعزاه ابراهيم وتلطف معه قائلا : "إنه ما من بطل فى العالم إلا و به نقص وضعف ، وأن الكمال المطلق لله ، والانسان ليس معصوما من نوازل القدر" . ولمـا طلب عبد الله الصلح ، أجابه ابراهيم إليه ثم أضاف قائلا : "وإنى لحاملك الحكم فى شروطه وإنما هناك أمر لا تصرف لى فيه ألا وهو بقاؤك فى الدعية فإن الأوامر الصادرة الى تقضى بذهابك الى مصر" فأطرق عبد الله هنيهة وطلب تأجيل إجابته عن ذلك الى الغد ، وفى الغد وفى الأمير بوعده ، وجاء موافقـا على السفر الى مصر إذا ضمن ابراهيم له النجاة ، فقال له ابراهيم : "إذا كنت لا أستطيع أن أتدخل فى إرادة الوالى فى مصر فإنى من باب أولى أعجز عن التدخل فى إرادة السلطان" .

المؤرخين إنه لم يكن يفترق فى شىء عن المصريين ذوى الثقافة الأوربية[١] . ولما اكتمل تعليمه عينه محمد على كاتبا فى الديوان الخديوى بمرتب لا بأس به[٢]، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يحن أوانها إلا فى عام ١٨٣٦ ، عندما عزم الباشا على أن يرسله فى حملة أخرى إلى قلب الجزيرة، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسى كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها.

وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبى، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود ، ربيبه وصديقه، أميرا على نجد، وبذلك يكتسب رضاء الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه .

ولنعد إلى البطل ابراهيم، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانبا بعد أن انتهت الحرب ، ليكسب باللين والموعظة الحسنة ، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل ، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان . فأعلن أنه يؤمّن من يطلب الأمان، وأغدق المال على من انضم اليه ، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان ، بل ونجد أشد النجديين تعصبا ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعنيزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش[٣] . أضف إلى هذا حسن لقائه للناس، وبشاشته فى وجوههم وسعة صدره معهم، وكرمه وسخاءه .

---

(١) D'Avril: L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868.

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دفتر رقم ٧٤ ص ١٣٠ .

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧].

المؤرخين إنه لم يكن يفترق فى شىء عن المصريين ذوى الثقافة الأوربية[1] . ولما اكتمل تعليمه عينه محمد على كاتبا فى الديوان الخديوى بمرتب لا بأس به[2]، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يحن أوانها إلا فى عام ١٨٣٦، عندما عزم الباشا على أن يرسله فى حملة أخرى إلى قلب الجزيرة، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسى كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها. وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبى، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود، ربيبه وصديقه، أميرا على نجد، وبذلك يكتسب رضاء الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه .

ولنعد إلى البطل ابراهيم، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانبا بعد أن انتهت الحرب، ليكسب باللين والموعظة الحسنة، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان . فأعلن أنه يؤمّن من يطلب الأمان، وأغدق المال على من انضم اليه، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان، بل ونجد أشد النجديين تعصبا ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعنيزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش[3] . أضف إلى هذا حسن لقائه للناس، وبشاشته فى وجوههم وسعة صدره معهم، وكرمه وسخاءه .

---

(١) D'Avril: L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868.

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دفتر رقم ٧٤ ص ١٣٠ .

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧].

وقد عُنى عناية خاصة بمسألتين على جانب كبير من الأهمية ؛ أولاهما تنظيم التموين فى مكة والمدينة بجلب الأغنام والمسلى والمؤن والبضائع من الأقطار الشرقية، مما ألهج ألسنة السكان والحجاج والزوّار بالثناء والتقدير، وثانيتهما : العناية بالحجاج وتأمين الطرق حتى يشعر المسلمون فى أنحاء الأقطار الإسلامية بفضل الحكم المصرى فى الحجاز وحزم الإدارة واستتباب الأمن ، هذا إلى ما اقترحه على أبيه من ضرورة توزيع مرتبات من الغلال على فقراء البلدتين المقدّستين ومجاورى الحرمين (١) ، وقد رحب الباشا بهذا الاقتراح وأمر بتحرير كشوف بأسماء الأسر الفقيرة والمجاورين ليتسلموا نصيبهم سنويا من الشونتين المنشأتين فى مكة والمدينة، ولأوّل مرة منذ ابتداء الحكم العثمانى فى الحجاز سنة ١٧١٥ يشعر السكان والحجاج بالأمن المستتب بين مكة والمدينة حيث أصبح الطريق بين البلدتين آمنا هادئا ، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والإدارة الحازمة التى وضع أساسها ابراهيم باشا .

كان ابراهيم حريصا على أن ينفذ سياسة والده ، فكان يغضب أشدّ الغضب عندما يسمع أن أحدا من ضباطه أو جنوده اعتدى على أحد من السكان أو اغتصبه شيئا ، وكان يعمد فى أوامره التى يصدرها للجيش أو للموظفين المدنيين الى تحذيرهم من ظلم الأهالى وتنبيههم الى أن الجناب العالى (محمد على) لا يرضى باغتصاب الأملاك أو ابتزاز الأموال وأن الباشا (لا يرضى الجور أو إيقاع الأذى بجيران الرسول (٢)) .



تمت العمليات الحربية فى نجد ، ووصل أمر محمد على الكبير الى ولده البطل أن يغزو بقية المناطق المجاورة لنجد ، وهى تلك التى كانت داخلة فى نطاق الدولة السعودية إبان عظمتها فى عهد سعود الكبير ، أو تلك التى كانت تحت السيادة

(١) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ١٦ محفظة رقم ٩١ بحربرا .

(٢) المحفوظات الملكية : وثيقة رقم ٥٣ دفتر رقم ٧

السعودية . صدع ابراهيم بالأمر وغزا الجيش المصرى منطقة (الحسا) فى أواخر عام ١٨١٩ ، وهى تلك المنطقة الممتدّة على الساحل العربى من خليج فارس ، من حدود الكويت الى حدود قطر وعمان، وبذلك أطلت جيوش ابراهيم على الخليج الفارسىّ واحتلت مدينة (القطيف) وميناء (العقير). ثم استولت على (الهفوف) قاعدة منطقة الحسا وتقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المناطق المنزرعة وتنقسم الهفوف الى ثلاثة أقسام (الكوت) فى الشمال الشرقى ، و (الرفعة) فى الشرق و (النعاثل) فى الجنوب الغربى وقد عنى ابراهيم بالقسم الأوّل (الكوت) نظرا لأنه قاعدة إمارة الحسا ، ولمناعته وأهميته الحربية إذ يحيط به سور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما ، وقد شيد عليه ابراهيم عدّة أبراج وضع بها حاميات من جنوده (١) .

وكان لوصول جيش ابراهيم إلى سواحل الخليج الفارسى أثران سياسيان على جانب كبير من الأهمية :

أوّلهما أن الباب العالى قد حز فى نفسه ذلك النجاح الكبير الذى صادفه جيش محمد على ، وزاد من كمده احتمال وصول الجيش المصرى إلى خليج البصرة ، فكان يخفى فى قرارة نفسه خوفه من أن تصل هذه الجيوش فى وقت ما إلى العراق (٢) .

ثانيهما اهتمام الانجليز اهتماما كبيرا بوصول ابراهيم إلى تلك الجهات ، حيث بدأت حكومة الهند البريطانية تنظر إلى حركات الجيش المصرى فى تلك الأصقاع نظرة الشك والارتياب ، وخشيت أن يأتى يوم يتحكم فيه محمد على فى الساحل العربى من الخليج الفارسى فيضر ذلك بسيادتها فى مياه ذلك الخليج ويتعارض مع مشروعاتها التى تضمرها هناك .

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين — ص ٨٠

(٢) تاريخ جودت (باللغة التركية) ترتيب جديد — ص ١٥ جزء ١١

وكان الانجليز يعملون منذ سنين على مدّ سلطانهم نحو الخليج الفارسى ومحاربة القرصنة التى كانت تعترض الملاحة التجارية وتعتدى على مصائد اللؤلؤ حول جزر البحرين، لذلك فرضوا صداقتهم وأملوا إرادتهم على إمام مسقط ، ولما فتح عبد العزيز بن سعود الحساء ، حاول الانجليز أن يتصلوا به فى عام ١٧٩٩ لكى ينشئوا معه علاقة ودّ وصداقة ليضمنوا عدم الاعتداء على السفن الانجليزية فى الخليج ، فأرسلوا اليه بعثة يرأسها رينود Reinaud وهو أحد الموظفين الذين أقاموا مدة طويلة فى البصرة والكويت . وقد أقلت رينود سفينة انجليزية الى القطيف ، ثم ذهب الى الهفوف فى حماية أحد إخوة الأمير الوهابى ، وسار بعد ذلك الى الدرعية حيث قوبل هناك بالإكرام والرعاية وعاد فى سلام (١) . ولكن لم يكن فى استطاعة الحكومة السعودية أن تفرض سيطرتها على عصابات القراصنة التى عاثت فسادا فى الخليج الفارسى ، ورأى الانجليز أن من العبث الاعتماد على الاتفاق مع الأمير السعودى .

وفى عام ١٨١١ حاول سعود الكبير أن ينشئ علاقة ودّية مع الانجليز فأرسل رسولا إلى المقيم البريطانى فى (بوشير) ، ولكن حكومة الهند البريطانية لم تكن تميل إذ ذاك الى عقد معاهدة مع الأمير الوهابى انتظارا للحوادث التى كانت توشك أن تقع فى بلاد العرب ، عندما بدأت الحملة المصرية بقيادة طوسون تغادر السويس ، وفى عام ١٨١٤ قيل أن بعثة سعودية أخرى قامت تحمل رسالة من الأمير ومن شيخ القواسم لعقد اتفاق دائم بعدم اعتداء القراصنة القواسم على السفن التى تحمل العلم الانجليزى ، على أن تلك البعثة ردّت دون اتفاق ، انتظارا لما تتمخض عنه الحوادث ، وما يترتب على الحملة المصرية من نتائج (٢) . وكان من نتائج هذا الموقف الذى وقفه البريطانيون أن ازدادت حوادث القرصنة ، وازداد القواسم طغيانا واعتداء ، ولم تستطع

---

(١) Hagarth: The Penetration of Arabia. P. 104. London 1904

(٢) Wilson: The Persian Gulf. P. 250. London 1928

الحكومة النجدية وقف الاعتداءات ، بل إن نجاح القواسم وما أصابوه من ثروة وما جمعوه من الأموال المسلوبة قد أغرى مشايخ البلاد التى تقع على سواحل الخليج على تقليدهم فاقتفوا أثرهم فى القرصنة .

ازدادت قوة القراصنة نموا حتى أصبح أسطولهم لايقل عن مائة سفينة ، منها ستون اتخذت (رأس الخيمة) قاعدة لها ، والأربعون الأخرى كانت موزعة على بعض موانى الخليج الفارسى ، ولم يكتف بعض هذه السفن بالاغارة على السفن التى تمخر عباب الخليج بل جاوزت ذلك الى الخروج للاغارة على السفن التى تقترب من سواحل الهند .

وفى ذلك الوقت كان ابراهيم باشا يتقدم بجيشه فى منطقة الحسا فى طريقه إلى ساحل الخليج الفارسى ، وقد راع القواسم ما سمعوه عن النجاح السريع الذى لازم ابراهيم فى الحجاز ونجد فتوقعوا أن تكون الخطوة التالية للمصريين فى عملياتهم الحربية بعد الاستيلاء على القطيف تدمير وكرهم فى رأس الخيمة ففكروا جديا فى مغادرتها إلى إحدى الجزر النائية بالخليج ، وقد وصلت معلومات كثيرة إلى حكومة الهند تدل على هذا الاتجاه فتلقى الأسطول البريطانى فى الخليج الفارسى أمرا بالاستعداد لمنع القواسم القراصنة من التحرك فى داخل الخليج أو تثبيت أقدامهم فى أى جزيرة أو مكان آخر ، وقامت حملة قوية من بومباى تحت قيادة سير جرانت كير Grant Kier ، وتقرر فى الوقت نفسه أن يقوم الكابتن سادلير Sadlier فى بعثة ليقابل ابراهيم باشا وزودته حكومته بالتعليمات الكافية والأغراض التى ترمى بها من ورائه بعثته ، أما الحملة التى قامت لتدمير قوة القراصنة قبل هروبهم من التقدم المصرى وتوغلهم داخل الخليج ليعششوا حول بعض الجزر ، فقد تقدمت نحو رأس الخيمة ونجحت فى الاستيلاء عليها فى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد حصار دام ستة أيام

(١) Wilson. P. 251

وأحرقت جميع سفن القرصنة ثم عاد الأسطول إلى بمباى بعد أن قضى على أقوى معقل للقراصنة .

أما سادلير الذى كلف بالذهاب الى الحجاز لمقابلة ابراهيم باشا فكانت بعثته سياسية استطلاعية ، ظاهرها تهنئة البطل ابراهيم باسم الحكومة البريطانية بالهند بما أحرزه من نجاح فى بلاد العرب وعرض اتفاق معه على التعاون مع حكومة الهند ضد القراصنة الذين كانوا معتنقين للمذهب الوهابى ، أما الغرض الخفى من بعثة سادلير فنستطيع أن نلمسه فى التكليف السرى الذى أرسلته حكومة الهند الى سادلير تقول له فيه : " إنك مكلف أثناء وجودك فى المعسكر التركى (أى المصرى) أن تحقق تماما من المقاصد التى يرمى اليها ابراهيم باشا فى عملياته الحربية القادمة وغزواته نحو الخليج الفارسى دون أن يلحظ الباشا أن تلك هى مهمتك الأساسية (١) " .

كان الانجليز يقدرون قوة جيش ابراهيم باشا فى بلاد العرب بعد أن رأوا كيف أحرز النصر تلو النصر وكيف طوى بساط الجزيرة فى زمن قليل ، وها هم يرونه يصل الى الخليج الفارسى ويضع حاميات فى أهم موانى الساحل العربى من الخليج ، فاعتقدوا أن هذه الجهات التى فتحها ابراهيم بشق النفس وبذل الأرواح ، لا يمكن أن ينسحب منها قبل أن يثبت أقدام الحكم المصرى بها ، فهو لا شك يرمى إلى امتلاكها أو التسلط عليها ، وأن الحسا قد تصبح ولاية مصرية ، فرأوا من الخير أن يتفاهموا مع ابراهيم ، لعلهم يستطيعون إشراكه فى الحملة التى أزمعوا إرسالها لتدمير القراصنة ، ولعلهم أيضا يستطيعون الاشتراك معه فى العمليات الحربية ضد السعوديين فى نجد حيث يقاسمونه ثمرة النصر فى أول الأمر ثم يزحزحونه فى الوقت المناسب .

---

(١) Newnham: (acting-Chief-Secretary) Secret Department, Bombay to Captain Sadlier, 13th April 1918. Sadlier Diary. P, 131.

لم يصل سادلير فى الوقت المناسب لأنه وصل بعد أن نجح ابراهيم باشا فى تدمير الدرعية واحتلال الحسا والقطيف ، وفوجئ الكابتن سادلير بوجود حامية مصرية فى القطيف على رأسها قائد ينوب عن ابراهيم باشا ، ولو أن هذا القائد المصرى كان على وشك الانسحاب بحاميته لكى يترك الحسا يحكمها بنو خالد الموالون للحكم المصرى طبقا للسياسة التى رسمها محمد على لحكم هذه الجهات[(١)]. وقد علم سادلير عندما وصل إلى القطيف أن دولة عبد الله بن سعود قد دالت ، وأن الدرعية أصبحت أثرا بعد عين ، وأن محمد على قد أمر ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من نجد ومن البلاد التى فتحها على الخليج الفارسى على أن يترك فى المواقع المهمة حاميات صغيرة للمحافظة عليها ومعاونة الحكام المحليين الموالين لمحمد على هناك ، فوقع سادلير فى حيرة وارتباك إذ كان عليه أن يتم مهمته الرسمية والسرية ، ويتأكد بنفسه من نوايا ابراهيم أو بالأحرى من نوايا محمد على ، وعلى ذلك قرر مواصلة بعثته حتى يقابل ابراهيم أينما كان فى جزيرة العرب ليقف منه فى جلاء على مقاصد محمد على فى الخليج الفارسى .

وفى ٢٨ يونيو سنة ١٨١٩ ذهب سادلير إلى الهفوف قاعدة الاحساء فلم يجد ابراهيم ، فانتظر قيام قافلة حربية كانت على وشك أن تخرج إلى نجد ، وقد تحركت تلك القافلة الكبيرة فى ٢١ يوليه ١٨١٩ ، وكان سادلير يهتم أشدّ الاهتمام بدراسة كل موقع من المواقع التى يمرّ بها ، ويقيد ملاحظاته بعد أن يستفسر عنها بدقة من الخبيرين والأدلاء ، ثم ضمن كل ذلك تقريره الكبير الذى رفعه إلى الحكومة الإنجليزية فى الهند[(٢)] . وما أن وصل سادلير إلى بلدة (الرس) التى كان يعتقد أنه سيقابل إبراهيم بها حتى سمع أن الباشا قد غادرها إلى المدينة .

---

(١) Wilson. 71.

(٢) اهتم سادلير بدرس شئون تلك النواحى من الناحية التجارية ومواضعها ومزاياها ، ووضع عدة خرائط تبين توزيع البدو والحضر فى قلب الجزيرة العربية نجدها جميعا فى تقريره الذى طبع بعد ذلك فى بومباى سنة ١٨٦٦ بعنوان A Diary of a Journey across Arabia during the year 1819.

وأخيرا سار إلى المدينة ورأى عن بعد أشجارها ونخيلها ، ولما لم يكن مصرحا لأى مسيحى بدخول المدينة أو مكة ، فقد حط رحاله فى بير على حيث التقى هناك بالطبيب الايطالى سكتو الذى كان مرافقا للحملة المصرية (١) .

وفى ٨ سبتمبر سنة ١٨١٩ سمح له بالمثول بين يدى إبراهيم باشا الذى ذهب خصيصا إلى بير على لاستقباله ، فسلمه سادلير كتابا من حاكم بمباى يهنئه فيه باسم حكومة الهند على نجاحه فى حملته و يبثه أصدق تمنياته لعملياته الحربية القادمة ، ثم أهداه باسم الحاكم سيفا مرصع الغمد ومقبضه محلى باللآلئ الكريمة (٢) . ثم عرض سادلير على إبراهيم باشا أمر بعثته قائلا إن حكومته قد ساءها تكرار العدوان من القراصنة الوهابيين الذين يقيمون على ساحل الحسا على السفن التى تسير فى الخليج الفارسى ، وأنها لم تكد تعلم بأنباء الحملة المصرية فى نجد حتى قررت إرسال أسطول حربى لتخريب أوكار القراصنة فى الخليج الفارسى ، وأن حكومة الهند يسرها أن يتعاون معها إبراهيم باشا وأن تكون العمليات الحربية على سواحل الخليج مشتركة (٣) . ثم أخد سادلير يتطرق فى حديثه إلى ما ينبغى عمله ليستشف من إجابات إبراهيم باشا شيئا عما ينتوى عمله ، ولكن إبراهيم — كما قال فى رسالته لأبيه العظيم — كان متحفظا أشد التحفظ ولم يزد عن قوله بأنه لا يستطيع أن يبت فى أمر العمل المشترك لأنه إنما ينفذ أوامر أبيه فى كل خطواته كما هى ، وما هو إلا آلة فى يده يوجهها كما يشاء ، ولذا فليس فى وسعه أن يعده بشىء ، ثم عرض على سادلير أن ينزل ضيفا عليه حتى يصدر أمر الجناب العالى (٤) .

---

(١) Musil: Northern Najd. P. 270 New York 1928.

(٢) المحفوظات الملكية المصرية : من إبراهيم باشا إلى محمد على وثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦ .

(٣) Dodwell; The Founder of Modern Egypt. P. 58

(٤) المحفوظات الملكية المصرية : الوثيقة السابقة .

كان السلطان يكره اتصال محمد على بالانجليز وينظر بارتياب إلى قيام أية علاقة ودّية بينهما، خشية أن يعتمد (محمد على) على تحالفه مع الانجليز ليفلت من تبعيته للدولة العثمانية ؛ فلم يترك رجال الباب العالى فرصة إلا انتهزوها لإثارة الفتنة وإيجاد هوّة تفصل دائماً بينه وبين الانجليز .

فعندما أبلغ سفير انجلترا فى تركيا الباب العالى أن "قائد الانجليز الموجود فى الهند قد عقد النية على تجهيز عدّة سفن وتسييرها من بومباى الى الخليج الفارسى وأنهم قد أرسلوا ضابطا الى إبراهيم باشا للاتفاق معه" أسرع الصدر الأعظم بالكتابة الى محمد على قائلا : "إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الانجليز إذ ليس قصدهم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم — كما هو مبين فى المذكرة التى قدّمها سفير فرنسا — هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات"[1] وختم الصدر الأعظم رسالته الى محمد على بالاستعداد لمثل هذه الحالة واستكماله وسائل الدفاع عن بلاد العرب .

وصلت تلك الرسالة الى محمد على فى الوقت الذى كانت الفكرة قد اختمرت فى رأسه بأن لا يتعاون ابراهيم باشا مع الانجليز فى أية بقعة من بلاد العرب فكتب الى إبراهيم يطلب إليه أن يرّد طلب سادلير فى حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدرعية إزالة للتعب واستجماما للراحة[2] .
وهكذا فشلت بعثة سادلير، وعاد الى الهند ليقدّم تقريره الكبير عما شاهده أثناء رحلته الطويلة التى قطع بها شبه الجزيرة العربية من الشرق والغرب .

---

(١) من سيد على باشا الصدر الأعظم إلى محمد على : وثيقة رقم ٢٧ محفظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥ هجرية : المحفوظات الملكية بعابدين .

(٢) من محمد على الى إبراهيم باشا : مرفق بالوثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦ بحر برا .

أخذ إبراهيم باشا بعد ذلك فى تدعيم أركان الحكم فى بلاد العرب، وتأمين السكان على أموالهم وأملاكهم، وعنى بتعيين أنصار الحكومة فى الوظائف المحلية وخاصة ما اتصل منها برئاسة القبائل وزعامة الأشراف ولم يدخر وسعا فى تنفيذ سياسة أبيه من حيث مكافأة الموالين لمصر بتعيين المرتبات ومنح العلاوات وتوزيع الغلال والكساوى، وبلغ من رغبته فى استمالتهم وإظهار العطف عليهم أن عرض على بعضهم أن يرسل أولادهم فى بعثات تلحق بالأزهر الشريف على أن تخصص لهم الحكومة المصرية مرتبا كافيا يعيشون به فى القاهرة[1].

وبعد أن انتهت مهمته الكبرى تقرر سفره الى مصر، فذهب فى موسم الحج الى مكة المكرمة وأخذ مكانه بين الحجاج وصعد الى جبل عرفات وضحى بثلاثة آلاف رأس من الغنم وفاء بنذره إذ أوتى النصر من عند الله ووزع أثناء عودته من عرفات إلى مكة الصدقات والمنح، واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين تقرر سفرهم الى مصر، وودّع ضباطه وجنوده الذين كان من نصيبهم البقاء فى مكة والمدينة وجدة وينبع والقنفذة.

وفى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وصل إبراهيم إلى المياه المصرية وتراءت له أرض بلاده فخفق فؤاده العظيم ودمعت عيناه فرحا بتوفيق الله. وفى ١١ ديسمبر وصل إلى قصر شبرا حيث استقبله كبار رجال الحاشية والجيش والأعيان، وقام فى موكب فخم توجه به نحو القلعة وكان دخوله إلى القاهرة فى هذا الموكب العظيم من باب الفتوح فظل سائرا حتى صعد القلعة وكانت الحوانيت والشرفات والنوافذ والسطوح مزينة بأجمل الزينات، والمصريون الفرحون يحفون بموكبه من كل جانب وتعالت أصوات الهتاف والتهليل والتكبير إلى عنان السماء. وهكذا شهدت العاصمة يوما من أيام التاريخ لم تر له مثيلا فى ذلك العصر، ولكن شخصا واحدا كانت تبحث عنه

---

(١) من إبراهيم إلى محمد على : وثيقة رقم ٤ محفظة رقم ٢٦٧ عابدين.

الأنظار والأفئدة فلا ترى له أثرا ، ذلك هو الأب البار محمد على الكبير ، إذ آثر ألا تقع عليـه الأنظار فى ذلك اليوم ، فاليوم يوم إبراهيم ، فلا يجب عندئذ أن يؤثره أحد بالتمجيد أو الهتاف ، فولده البطل أولى اليوم منه بأن يتمتع بكل الحفاوة وكل التقدير ، واكتفى محمد على الكبير بأن يتخذ له فى مسجد السلطان الغورى مقعـدا بسيطا شهد فيه الاحتفال العظيم حتى إذا مر أمامه ابنه إبراهيم طفرت دموع الفرح من عينيه و بسط يديه لله حامدا آلائه ، شاكرا نعمائه ، داعيا إلى الله أن يحفظ له إبراهـــيم .



ابراهيم باشا فى طليعة جنوده

ابراهيم باشا فى بلاد اليونان

للأستاذ محمد أحمد حسونه بك أستاذ التاريخ بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأوّل)

حال اليونان قبل الثورة

لما كانت شبه جزيرة اليونان واقعة فى ملتقى أوربا وآسيا وأفريقية ، تطلعت اليها عيون الفاتحين من قديم الزمان ، فاضطر سكانها الى الخضوع للأجانب من مقدونيين ورومان وصقلب وصليبيين وبنادقة وترك . على أن كل عنصر دخل هذه البلاد اصطبغ بالصبغة اليونانية، اللهم إلا الترك فإنهم بقوا بمعزل عن السكان بسبب اختلاف الحكام والمحكومين فى المزاج والدين، ذلك الاختلاف الذى كان من أسباب الثورة .

ومن الطرق السهلة لمعرفة أهمّ هذه الأسباب، استعراض حال كل فئة من فئات الشعب اليونانى أيام خضوعه للحكم العثمانى، والتعقيب على ذلك بوصف حركة الرقىّ بين أفراد الشعب فى غضون ذلك الحكم الى قيام الثورة .

وأوّل ما نعجب له أن نرى الترك الفاتحين يعملون من أوّل الأمر، وعن غير قصد، على تنمية الشعور القومىّ بين المحكومين بوسائل متباينة : منها أن محمد الفاتح حين تسلم القسطنطينية طبق مبادئ الدين الإسلامىّ، «فعامل اليونانيين معاملة المسلمين فى كل ما يتصل بأمنهم على حياتهم وأموالهم وشرفهم، ولم يكتف بالسماح للبطريرك بكل الميزات التى كانت له أيام قياصرة الروم، بل منحه الى جانب ذلك جزءا من نفوذ أولئك القياصرة، حتى أصبح الرئيس الرسمى للمسيحيين من رعايا الباب العالى، لا فى أمور الدين فحسب، بل فى الأمور المدنية كذلك، ومن ثم صار المطارنة الذين ينوبون عنه يمثلون السلطة الدينية والسلطة المدنية فى آن واحد

فكانوا يفصلون فى جميع قضايا المسيحيين باللغة اليونانية، وطبقا للقانون الرومانى الذى ألفوه من قبل، وكان يحدث أحيانا أن يفضل أحد المسلمين الاحتكام اليهم فى نزاع شجر بينه وبين أحد المسيحيين . وبمضى الزمن صار رعايا الباب العالى من المسيحيين يدينون بالطاعة للبطريرك أكثر مما يدينون بها للسلطان، وبهذا أصبحت البطريركية دولة فى جوف الدولة العثمانية، على أن البطريرك — وقد صار مسئولا عن " شعبه " أمام السلطان — كان يعمل أيام السلاطين الأقوياء على توجيه نظر الشعب — بالفعل دون اللفظ — الى العقيدة المسيحية : " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

والى جانب عطف السلطان على البطريركية كان يشمل برعايته الخاصة فئتين من اليونان هما الفناريون ورؤساء المطارنة . والفنار — أو المنارة — اسم يطلق على الحى الذى كان يقوم فيه قصر البطريرك، والذى كانت تسكنه جالية يونانية نشيطة يعمل أكثرها فى التجارة والربا، ويختار السلطان من بين أفرادها كثيرا من أعوانه فى الأعمال المالية والسياسية، وأعظم هؤلاء الأعوان شأنا التراجمة، إذ كانوا يرقون من مجرد واسطة للتفاهم الى مستشارين، يستمع الى رأيهم فى كل ما يتصل بالسياسة الخارجية، وبلغ من ذلك أن نفوذ ترجمان الباب العالى كان فى بعض الأحيان يفوق نفوذ " الريس أفندى " وهو وزير الخارجية عند الترك، وكانت له كذلك إصبع فى السياسة الداخلية، لأنه كان منوطا بتبليغ " الديوان " رغبات اليونان وحاجاتهم — تلك الرغبات والحاجات التى كان يرفعها اليه رؤساء المطارنة عن طريق مندوبين يسمون " الوكلاء " .

ومنذ سنة ١٧١١ جعل السلطان يختار من الفناريين حكاما لولايتى البغدان والافلاق، وكان هؤلاء الحكام يتلقون من السلطان تقليدا، أسوة بالولاة من الباشوات، ويتسلمون من البطريرك تقليدا آخر يراد به استرضاء المسيحيين من أهل هاتين الولايتين .

وأهم خدمة أدّاها الفناريون لبنى جنسهم رفع مستوى التعليم بينهـم بإنشاء المـدارس فى أنحـاء الدولة العثمانيـة ، ثم فتح باب الوظائف المـالية والإدارية والسياسية أمام النابهين من خريجى تلك المدارس .

وأما رئيس المطارنة — ويسميه الترك " خوجا باشى " — فهـو المندوب الذى يختـاره المسيحيون لتمثيلهم فى مجلس القسم بينما يمثـل المسلمين عضو يسمى " أعيان " . وكان خوجا باشى والأعيان منضما اليهما أمين صندوق يؤلف ثلاثتهم مجلس القسم ، ذلك المجلس الذى يعاون حاكم القسم — البك — فى عمله ، ويشترك فى مجلس حاكم المورة كلها — مجلس الباشا — الذى ينعقد فى تربولتزا .

ومعنى هذا أن رؤساء المطارنة كان لهـم نفوذ فى الديوان عن طريق ترجمان الباب العالى كما رأينا ، ونفوذ فى مجلس الباشا بوصفهم أعضاء فيـه ، ونفوذ أكبر من هـذين فى مجلس البك ، وفوق هذا كله كان بيدهم حق تقدير الضرائب التى تدفعها كل أسرة ، وحق التعهد بجمعها ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل الملتزمين فى أقسامهم . وبهذا كانت فئـة رؤساء المطارنة تؤلف هيئـة اعتادت التضامن فى العمل واكتسبت خبرة بتفاصيل الإدارة . فلما اندلع لهيب الثورة وجد الشعب فيهم زعماء ذوى دراية مالية كما وجد فى النظم الديمقراطية التى تنتهى إليهم رياستها وسيلة لتنظيم العمل — بشكل ما — ولا سيما فى الأدوار الأولى من الثورة : ذلك بأن العثمانيين سمحوا لأهل المورة بقسط كبير من الحكم الذاتى وشجعوهم على التمرّس به . إذ كانت المورة مقسمة إلى ثلاثة وعشرين قسما فى كل قسم نظام ديمقراطى أساسه المساواة وحق جميـع الرجال فى أن يكونوا ناخبين بحيث تختـار كل قرية ممثليهـا الملقبين " شيوخ البلدية " (demogerontes) ؛ وتختار كل مدينـة ممثلين يلقبون " البـارزين " (prœstes) . وكان البك الحاكم فى كل قسم يدعو هؤلاء وأولئك إلى الاجتماع ليقرّروا مقـدار الضرائب التى يدفعها أهل القسم ، ولينتخبوا رئيس

مطارنتهم السالف الذكر ، والذى يجلس مع " الأعيان " وأمين الصندوق فى مجلس القسم .

وكان من أثر النظام الديمقراطى الذى أقره الترك، عن تسامح أو غفلة ، الإبقاء على فئات أخرى أشد على الحكم العثمانى خطرا من سابقتها : تلك هى فئات الأرماطول والكلفت والرهبان وصغار القسوس، وأخيرا — وليس آخرا — ملاحو الأرخبيل . وتفصيل ذلك أن أرض الروملى الجبلية اقتضت صنفا من الحرس لضبط الأمن فى الطرق عامة وفى الممرات بوجه خاص . وكان هذا الحرس يسمى الأرماطول[1] . فلما دخل الترك هذه البلاد كان المعقول أن يبطل السلطان هذا الحرس، ولكنه على العكس من ذلك زاد فى عدده، ووسع نفوذ رؤسائه ، وبهذا أتاح لفريق من رعيته فرصة مؤاتية للتمرس بحرب الكر والفر بجميع ضروبها ، حتى إذا أفاق " الديوان " من غفلته وشرع يقلل من عدد الأرماطول انقلب المسرحون منهم إلى كلفت وقطاع طرق وانضم إليهم كثيرون ممن هم على شاكلتهم . وعلى الرغم من أن عصابات الكلفت كانت تسلب التركى واليونانى على السواء فإن الشعب تغنى ببطولتها لأنها برهنت على أن الجرأة ومواجهة الأخطار ليستا مقصورتين على الترك . ومن ثم أصبح الانضمام إلى الكلفت مظهرا من مظاهر الوطنية، وبالتالى أصبح عملا يكاد يكون واجبا على الشبان الأقوياء من أهل " إيلاس "[2] . حتى إذا بدأت الثورة كان الأرماطول والكلفت متأهبين لمقاتلة الترك. وكان أكثرهم يأوى إلى الأقاليم الجبلية . وأما الرهبان وصغار القسوس فقد عاملهم الترك بما يوجبه الإسلام من الاحترام والتسامح الدينى فعاش الرهبان فى ديورتهم بمثابة جماعات جمهورية تقيم فى حصون منيعة واحتفظت الديورة الكبيرة بأثارة من مصباح الثقافة القديمة، وبقيت تنفث فى الشعب إجلالا غامضا لإبطال العهد القديم وكُتَّابه ،

---

(١) ومعناها باليونانية " حاملو السلاح " .

(٢) معناها هنا بلاد اليونان بأجمعها .

و بالتالى توحى إليه بروح وطنية مكبوتة . فلما جاءت الحرب دافع هؤلاء الجمهوريون عن أنفسهم بشجاعة عظيمة .

وأما صغار القسوس — ويلقبون الآباء — فكانوا فقراء لا يخشون أن تسلبهم الثورة شيئا ، وكانوا بحكم زواجهم أكثر ارتباطا بالشعب يقاسمونه آلامه وآماله ويبثون فيه روح العداوة والبغضاء لحكامه المسلمين .

على أن دورا أهمّ من دور القسوس كان مدّخرا لسكان الجزر ، وهنا أيضا نجد سياسة الباب العالى تعاون على نشوء أشدّ أسلحة الثورة خطرا : ذلك بأنه — فيما عدا دفع جزية سنوية وتقديم عدد من الملاحين للأسطول العثمانى — كان سكان الجزر مستقلين استقلالا تامّا ، ويستمتعون بأكبر قسط من حسن الحال المادّية ومن الحرّية فى أوربا ، لا يستثنى من ذلك إلا أهل سويسرة . فقد نالوا نصيبا من التجارة الشاطئية فى بحر المشرق على أثر طرد البنادقة من المورة سنة ١٧١٨ ، ثم جاءت معاهدة كجك كينارجة سنة ١٧٧٤ فأتاحت لهم التنقل بين البحرين الأبيض والأسود بكامل حريتهم مستظلين بالعلم الروسى ، ومنذ ذلك الحين بنوا سفنا أكبر حجما ، وطافوا بها فى آفاق أوسع مدى ، ودفعهم الخوف من قرصان بلاد المغرب الى تسليح سفنهم ، فنشأ الأسطول اليونانى قطعة قطعة تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها ، وكان من نتائج ازدياد هذا النشاط البحرى اتصال اليونان بغرب أوربا وتأثرهم بأفكار أهله عن الحرية والاستقلال .

وساير هذا الرقىّ المادى نشاط فكرىّ كان يهدف الى إحياء العصر الكلاسيكى من تاريخ اليونان عن طريق تلقين أدبه للشعب . وأبرز الأسماء فى هذا المضمار اسم أذمنديوس كورائيس (Adamantios Koraïs) (١٧٤٨ — ١٨٣٣) من أهل جزيرة خيوس . وقد وقف كورائيس حياته على خلق لغة وسط بين اليونانية التى كان أهل عصره يتخاطبون بها واللغة اليونانية الكلاسيكية . وبلغ من نجاحه فى هذا السبيل أن يسر لليونانى الحديث قراءة أدب أسلافه الأقدمين وعلومهم بلغة يونانية

حقا ، ولكنها لا ترهقه بتعلم اللغة الكلاسيكية . و بعبارة أخرى استطاع كورائيس أن يشعر أهل زمانه بأنهم سلالة أولئك الأبطال القدامى ، وأدت هذه الحركة العقلية ، والعناية باللسان القومى إلى التطلع إلى الحرية والاستقلال .

و إذ قد ألممنا بطرف من أحوال اليونان قبل الثورة فقد حق للقارئ أن يسأل عن أسبابها . والإجابة على سؤاله ينبغى أن نقول إن الثورة اليونانية والثورة الفرنسية تبرهنان على أن الشعوب لا تثور لمجرد ما تعانيه من البؤس والظلم مادامت لا تفطن إلى هذا الظلم وذلك البؤس و إن تفاقم أمرهما ؛ و إنما تندفع إلى الثورة متى أحست البؤس والظلم مهما رأتهما الشعوب الأخرى تافهين . وأول ما يشعر الناس بالبؤس والظلم حسن حالهم المادية والأدبية . وحال اليونان من أوضح الأمثلة فى ذلك فإنهم لم يثوروا لبؤس يعانونه و إنما ثاروا بسبب الرخاء الذى كانوا يستمتعون به ؛ ولم يشجعهم على الثورة عسف كان التركى ينزله بهم ، بل شجعهم على ذلك تسامحه فى الإبقاء على نظم وأسلحة استخدمها اليونان آخر الأمر فى مقاومته . وكان من نتائج هذا التسامح تزايد الذكاء بين اليونان وتزايد نشاطهم الأدبى وحريتهم فى اختيار نوع التعليم الذى يرتضونه لأنفسهم ، وارتقاء النابغين منهم إلى المناصب العليا فى الكنيسة والدولة ، وحريتهم كذلك فى جمع الثروة حتى كان المزارعون منهم أحسن حالا وأرفع فى نظر القانون منزلة من نظرائهم فى أكثر بقاع أوروبا .

وكان من سعد طالع اليونان أنه فى الوقت الذى أخذت فيه الدولة العثمانية تضمحل ظهرت فى الأفق الشمالى الدولة الروسية الأرثوذكسية التى يربطهم بها الدين والكراهية للترك . فنراها منذ سنة ١٧١١ تحرض اليونان على الثورة دون انقطاع . فلم يكن عجبا أن تنشأ فى أودسا الجمعية السرية المعروفة باسم إيتريا فلكى (Hetairia Philiké) ومعناها اللفظى " شركة الأحباء " تكونت سنة ١٨١٤ حين اتضح للجميع أن مؤتمر فينا لن يعمل شيئا لمصلحة اليونان . وكان هدف هذه الشركة إحياء الدولة البيزنطية الأرثوذكسية . وقد بلغ خبر هذه الشركة مسامع السلطان

محمود الثانى ، ولكن حسن حال " الرعية " وعطفه عليهم حمله على تكذيب الخبر . وبهذه الفكرة الخاطئة عن أسباب الثورات أتاح السلطان للشركة فرصة لنشر دعوتها بصورة تقرب من العلنية . فلم تمض سنوات ست حتى اندمج فيها كل يونانى ذى مكانة . فلما أقبلت سنة ١٨٢٠ كانت الفكرة قد اختمرت فى أذهان الكثيرين ، وكان عصيان على باشا حاكم يانية قد شجع الشركة على الشروع فى تنفيذ غرضها . ولما كانت تعتقد بمعاضدة إسكندر الأول قيصر روسيا لها اختارت لزعامتها جنديا يونانيا باسلا كان يعمل فى الجيش الروسى برتبة اللواء : ذلك هو إسكندر إبسلندس وكان هذا الضابط عظيم الثقة بمعاونة القيصر للحركة اليونانية . ومن أجل ذلك أقنع الشركة بالعدول عن إعلان الثورة بالمورة إلى إعلانها فى البغدان ليكون قريبا من العون الروسى .

وتنفيذا لذلك دخل إبسلندس ولاية البغدان فى عدد قليل من الضباط اليونانيين الذين كانوا فى الجيش الروسى وأعلن الثورة فى ٦ مارس سنة ١٨٢١ إلا أن الموقف العدائى الذى وقفه أهل البغدان والافلاق — وهما الآن ضمن دولة رومانيا — منضما إلى عدم كفاية إبسلندس وغروره ، وإلى تخلى القيصر عن المعاونة — كل ذلك جعل الإخفاق محتوما .

وفى هذه الأثناء كان " الأحباء " مشغولين بإثارة أهل المورة حيث تزعم الحركة غرمانوس مطران بتراس ، ولخص منهج الثورة فى كلمات قليلة : " السلم للمسيحيين ، والاحترام للقناصل ، والموت للترك " . ولم يمض عام ١٨٢١ حتى كانت المورة كلها — عدا حصونا قليلة — فى يد اليونان وحتى انتشرت الثورة شمالا إلى مقدونيا .

وكان زعماء الثورة إما مطارنة مثل غرمانوس وإما كبار أعيان مثل زيميس وإما ارماطول مثل كاريسكاكى وإما كلفت مثل كولوكترونيس واما فناريون مثل مفروكرذاتس . ولم يستطع فرد ولا هيئة أن يسيطر على جميع البلاد ويحتفظ

بالسيطرة إلى النهاية . على أنه يمكن القول بوجه عام أن الدفاع عن المورة كان بيد الكلفت وفيما يليها شمالا بيد الأرماطول ؛ وأن هؤلاء وأولئك اتبعوا فى الحرب طريقة الكر والفر حتى صارت هذه الطريقة من خصائص هذه الثورة . وبمثل هذه الطريقة كان الملاحون يقاتلون الترك فى البحر . وأشهر هؤلاء الملاحين مياؤليس وقد احتفظ بالزعامة طوال الثورة بفضل مقدرته وإخلاصه لبلاده ، ويليه سختوريس وقائد الحراقات كاناريس .

ولما قضى الترك على أتباع أبلسندس انقضوا على على باشا حاكم يانيه وما زالوا به حتى قتل ، ثم التفتوا إلى المورة فإذا بهم ينهزمون فى ثرموبيل ثم يفقدون تربوليتزا — عاصمة المورة — حيث ذبح اليونان جميع المسلمين الذين كانوا يقيمون بها دون استثناء ودون شفقة . وانتقم الترك لذلك بالقضاء على أكثر سكان جزيرة خيوس فى إبريل سنة ١٨٢٢ . ولكن لم يأت يونيه حتى تمكن اليونان من الفتك بالأسطول العثمانى ، ثم فتكوا به فى سبتمبر وأكتوبر من السنة نفسها ، وأعادوا الكرة سنة ١٨٢٣ فحطموا أسطولا عثمانيا آخر كان على رأسه خسرو باشا .

أما فى البر فحاصر الترك مسولنجى بقيادة عمر يونس سنة ١٨٢٣ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة . على أن الترك حاصروها مرة أخرى ورفع ذلك من شهرتها فانكب اليونانيون على تموينها وأقبل إليها أصدقاء اليونان من كل حدب ومن بينهم الشاعر الإنجليزى الذائع الصيت اللورد بيرون الذى دخلها بما جلبه من أسلحة وذخائر وبقى يدافع عنها إلى أن مات بها . فكان اللورد بيرون ميتا أنفع منه لليونان حيا لأن شهرته زادت حماسة أصدقاء اليونان فى أنحاء أوروبا وأمريكا حيث يدين المستنيرون لأسلاف ذلك الشعب بروائع الفن والعلم والأدب . فتدفق المدد إلى اليونان فى صورة نقود ومؤن وأسلحة ومتطوعين تبعث بكل ذلك لجان نصبت نفسها فى مدن القارتين لجمع الهبات والقروض ، ولنشر الدعاية عن طريق الخطابة والصحافة ، تستحث الحكومات على إنقاذ ذلك الشعب المسيحى من نير الترك المعروفين عند أصدقاء اليونان بالكفار .

إبراهيم باشا فى المورة

فى سنة ١٨٢٢ كان لدى محمد على جيش محترم من الزرّاع والصناع الأصحاء مفتولى العضلات "وكانت الإسكندرية تعادل طولون فى التحصن البحرى ولم يكن الأسطول المصرى يفترق عن أى أسطول أوربى جيد النظام اللهم إلا فى الملابس" وكان من الطبيعى أن يستولى الحسد على السلطان محمود الثانى كلما فكر فى مثل هذا الجيش وذاك الأسطول . ولعله حين استمع إلى نصح جنتز (١) بتكليف محمد على القضاء على الثوار اليونانيين فكر فى التخلص من خطرين بترك أحدهما يهلك الآخر. ومن ثم تلقى نجيب افندى وكيل الباشا فى القسطنطينية أمرا بأن يلحق بسيده فى سرعة وتكتم . فبلغه بالقاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٤ . ولا يعرف على سبيل التحقيق ما تحدث به الوكيل إلى الباشا ، إلا أن الحوادث التى وقعت بعد ذلك تدل على وعد بمنح ابنه ابراهيم ولاية المورة . و بعد أن تم الاتفاق على هذا الأساس وضع تصميم حصيف لو نفذ على الفور لكان من المنتظر أن ينهى الحرب : ذلك بأنه كان قد اتضح من مدّة أن القضاء على الثوار يستدعى انتزاع السيادة البحرية من أيديهم ، كما يستدعى مواجهة شجاعتهم غير النظامية بأورط منظمة . والخطوة الأولى فى هذه السبيل تحطيم جزر بحر الأرخبيل بوساطة الأسطولين المصرى والتركى مجتمعين . ثم يقوم ابراهيم بعد ذلك بإخضاع المورة بينما يقوم محمد رشيد المعروف عند اليونان باسم كوتاهيه لى بإخضاع بقية البلاد .

وقد عكف محمد على بهمته المعروفة على إنجاز نصيبه وجدّ ضباط البر والبحر الذين علمهم سيف وليتلييه Letellier فى تدريب أورط من الزرّاع والعمال لتزيد قوّة الجيش المصرى من ٢٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ رجل . وكان هؤلاء الجنود أحسن من الجنود التركية فى قوّة الأبدان وفى النظام، فضلا عن أنهم قد حنكتهم التجارب فى كريت حين عهد السلطان إلى محمد على فى إخضاع هذه الجزيرة

---

(١) وزير خارجية النمسا .

سنة ١٨٢٢ حيث قضى قائده حسن باشا ومن بعده صهره حسين بك الجريدلى على الثورة التى كان يتزعمها تومبازيس Tombazes بعد معارك عنيفة وتم ذلك فى أبريل سنة ١٨٢٤ .

وكانت الاسكندرية إذ ذاك تدوى أحواض السفن فيها بينما كان الجمهور يتلهى بمراقبة تدريب المقترعين . فلما كان يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٢٤ غادر إبراهيم الاسكندرية بأسطول جليل يضم ٥٦ سفينة حربية و ٢٠٠ نقالة ويقل ١٨,٠٠٠ جندى قاصدا ساحل الأناضول تنفيذا للخطة الموضوعة لمقابلة أسطول السلطان وعلى رأسه خسرو باشا وهو سياسى حصيف ولكنه أمير بحر كثير الخوف قليل الخبرة .

ومع هذا فقد بدأ نصيبه بهجوم ناجح على جزيرة بسارا Psara وهى مهد من أهم مهاد القرصنة اليونانية والاستقلال اليونانى . وساعده على ذلك أن أهل بسارا وضعوا ثقتهم فى بطاريات ضعيفة أقاموها على الساحل بدلا من التزام البحر وهو المجال الذى يفوقون فيه أعداءهم . وإذا بالصخور التى حسبوها منيعة قد تسلقها الألبانيون الخفاف الحركة وتغلبوا بكثرة عددهم على المدافعين المتفانين فى الواجب . وبلغ من ذلك أن جماعة منهم نسفوا مخزنا من البارود ليموتوا هم وبعض مهاجميهم إيثارا منهم للموت على الاستئسار . ولم ينج من السكان وعددهم ٧,٠٠٠ إلا نصفهم . ومن حسن طالع اليونان أن كان من بين الناجين كاناريس Canaris . وعلى الرغم من صغر الجزيرة كان تحطيمها ضربة مؤلمة للثوار كما نودى به فى تركيا باعتبار كونه نصرا عظيما .

وبعد أن قضى الأمر ظهرت سفن إذرا Hydra وسفن سپتس Spezzia وكل ما استطاعه مياؤليس وسختوريس لم يزد على إفساد تصميم القبطان باشا فى القضاء على جزيرة ساموس وإجباره على الانضمام الى إبراهيم . واشتبك الأسطولان المصرى والعثمانى بسفن اليونان . وفى أثناء هذه الملاحم لاحظ إبراهيم — والمقت يملأ قلبه — أن زميله يحاول دائما أن يتملص من واجبه كلما احتدم القتال . وكانت

نتيجة ذلك التملص أن إبراهيم حين عاد إلى كريت وجد أنه قد فقد ست سفن حربية ونحو ٥٠ نقالة كما فقد ثلث رجاله . أما اليونان فقد كانت خسائرهم كبيرة إذ فقدوا ٢٢ حراقة دون أن يقللوا من خطر الغزو المصرى مثقال ذرة : ذلك بأن السلاح الذى صهروه فى غضون الثورة وهو سلاح الحراقات الذى خدمهم طالما كانوا يواجهون الترك وحدهم ، أصبح عديم الفائدة فى مواجهة البحارة النظاميين من المصريين ، أولئك البحارة الذين لا يكلفهم تجنب الحراقة إلا مناورة تبعدهم عنها وتتركها تحترق دون خطر إلا على نفسها حتى يصل الحريق إلى مستوى سطح الماء .

وكان المتوقع من اليونان، وقد علموا بالخطر المصرى، أن ينتهزوا فرصة تقاعد قواد الترك عن القتال انتظارا لحضور إبراهيم وتنسيق خطتهم مع خطته — كان جديرا بهم يومذاك أن ينتهزوا هذه الفرصة للاستيلاء على الحصون التى ما برحت فى يد الترك ليمنعوا بذلك نزول المصريين أو يعوقوا ذلك النزول . ولعل من أسباب قعودهم عن انتزاع ما بقى بيد الترك من الحصون رغبتهم فى ألا تفلت منهم الغنائم التى كانوا يتوقعون استلابها من المصريين من شيلان كشميرية وخيل عربية وسيوف دمشقية؛ فضلا عن زعمهم أن العدو الذى يوشكون أن يسلبوه هذه الغنائم يتيح لهم فرصة لإظهار بسالتهم . وإلى جانب هذا كله زعم البحارة أن عدوهم لن يبرح كريت قبل حلول فصل الربيع؛ واضطر مياؤليس — ذلك النبيل البعيد النظر — أن ينسحب من مياه تلك الجزيرة . وما أسرع ما أفاق اليونان من هذه الأحلام اللذيذة . فان ابراهيم باشا ذلك العبقرى الحربى الذى تمرس بالحرب كان تواقا الى الاشتباك بهم ومن أجل هذا لم يعبأ بشهر فبراير — وهو أسوأ الشهور جوا فى البحر المتوسط — وبارح كريت فى غضونه ونزل فى موذون فى ٢٣، ٢٤ منه ومعه ٤,٠٠٠ من المشاة و٤٠٠ من الفرسان . وبعد أن استطلع موقع نوارين(١) بعث إلى جزيرة كريت فى طلب المدد وتسلم فى ١٧ مارس ٧,٠٠٠ رجل فيهم

(١) ينطق بها اليونان « نفارينون» .

بقية فرسانه . فلما اجتمع هؤلاء الفرسان الى زملائهم الذين سبقوهم الى موذون لم يزد جمعهم على ٨٠٠ فارس .

وكان القائد المصرى فى السابعة والثلاثين من عمره فوق المتوسط فى القامة فى شيء من السمن ناعم الوجه دائم البشاشة على الرغم مما يعلو محياه من كلف. وكانت حياته فى المعسكر معتدلة منظمة : يدخن دائماً ويتناول القهوة فى كثير من الأحيان بينما كانت خيمته معروفة ببساطتها . ويعترف له أشد أعدائه حقدا عليه ببعد نظر يفوق كل من حوله فى جميع الأحوال. أما فى الميدان فكانت حياته حياة أقل جندى . وهذا العدو نفسه يقر له بالشجاعة التى شهدت له بها من قبل بلاد العرب والسودان من بعدها فيقول هذا العدو ، وهو مسيو لوفرن (Lauvergne) "لقد رأيته يدخن غليونه فى هدوء على عشرين خطوة من ميدان القتال حيث كان من المتوقع أن تقتله رصاصة حسنة التسديد . وكان ذلك فى مولينى (Molini) وهى ليست بعيدة عن أرغوس(Argos) . ويرى مسيو لوفرن أن هذه الشجاعة أكبر جرائم إبراهيم باشا ويعقب على ذلك بقوله : " إن أوربا تعلم الخطر الذى يتعرض له استقلال الشعوب بسبب الرجال الذين يحترمهم الرصاص " . يشير بذلك الى نابليون .

وكان أول هم الفاتح الجديد تموين بتراس وكانت ما تزال بيد العثمانيين ثم حصار نوارين وكان يدافع عن هذا الحصن اثنان من أبناء بترو بك مفرو ميخاليس (Petro Bey Mavromichalis) وماكريانيس (Makrijanis) والقائد البيدمونتى كولينيو . وبعثت اليها الحكومة بنجدة أكثرها من الروملى ومقدونيا .

وكان هذا الجيش يتروح بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ وفيه زهرة أبطال المحاربين من اليونان وعسكر فى كروميذى (Kromidi) على الطريق الى موذون . "وأدرك إبراهيم خطة عدوه فلم يمكنه من اختيار نقطة الهجوم" بل تقدم ومعه ٣٠٠٠ رجل و ٤٠٠ فارس و ٤ قطع من المدفعية . وهجم المصريون على قلب أعدائهم بأسنة الحراب بينما صعد الفرسان من واد عميق لم يكن أحد إلى ذلك الوقت يظن

أنه يمكن تسلقه، وانقضوا على الجناحين فكانت هذه المعركة إيذانا بتفوق المصريين وسببا لمرارة الضغائن بين أهل المورة وأهل الروملي . لأن الآخيرين لم ترقهم مقاتلة المصريين فانكفأوا الى بلادهم وكان رشيد إذ ذاك يهدد باختراقها .

و بذلك أصبح إبراهيم حرا فى تضييق الخناق على نوارين دون مفاجأة . وخليج نوارين نصف دائرة بالتقريب تقوم على طرفه الجنوبى نوارين الجديدة وعلى طرفه الشمالى نوارين القديمة . وتكاد تغلقه من ناحية البحر جزيرة سفكتريا (Sphacteria) وكان الكولونيل رومى (Romey) ، وهو الذى وضع المدافع المصرية ، على اتصال بالثوار . ومع هذا فإن خيانته لم تجد إلا قليلا لأن حسين بك الجريدلى صهر إبراهيم لاحظ أن جزيرة سفكتريا هى مفتاح نوارين وذلك من غير أن يقرأ ثوكيذيذس (Thucydides) [1] . ومن ثم غيرت الخطة وصدر الأمر الى حسين بأخذ الجزيرة . ولم يدرك الثوار أهمية هذا الموقع إلا فى الساعة الحادية عشرة ، فألقى ماڤروكرذاتس (Mavrokordatos) وسنتاروزا (Santa Rosa) وتساماذوس (Tsamados) بأنفسهم اليها ومعهم قبضة من الرجال لا تزيد مدافعهم على سبعة . فلما نزل بها المصريون هرب كثير من المدافعين الى قواربهم وبقى الآخرون وفيهم تساماذوس وهو شاب ظريف من نبلاء إذرا كان يقود سفينته الحربية الخاصة ، وكان يميل إلى ادخال النظام الأوربى وما يرتبط به من تحسينات فى الأسطول اليونانى . فكان فقده لطمة قاسية على إذرا . وأما القائد البيدمونتى سنتاروزا فانه بعد أن يئس من نيل الحرية فى بلاده جاء يدافع عن حماها فى اليونان .

ولم يمض ثلاثة أيام على سقوط الجزيرة حتى سلمت نوارين القديمة وخرج رجال الحامية بعد أن تخلوا عن سلاحهم . وإذ ذاك اتضح للجميع أن نوارين لن تستطيع أن تقاوم طويلا ولذا عرض عليها ابراهيم شروطا مشرفة فوافقت الحامية على التسليم وسمح لها بالخروج واحدا واحدا بين صفين قويين من الحراس المصريين

(١) من أشهر مؤرخى اليونان القدامى .

مشرعة أسنة حرابهم فذهبوا إلى حيث السفن التى استأجرها إبراهيم لنقلهم الى كالاماتا (Kalamata) . و ياالهول الفرق بين هذا المنظر والمنظر الذى مثل على هذه البقعة بذاتها قبل أربع سنوات ، إذ نرى الرجال الذين اشتركوا مع مواطنيهم فى ذبح الترك المقيمين يومذاك بالمورة يسيرون بغير سلاح على مرأى من أقارب ضحاياهم ونار الانتقام تضطرم فى قلوبهم . ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أعطاهم طعاما لما رأى من سوء حالهم .

وخليج نوارين من أحسن الثغور الطبيعية فى أوربا وكان مرسى فائقا للأسطول العثمانى بينما كان المثلث كورون وموذون ونوارين قاعدة حسنة للعمليات فى داخل البلاد . وبهذا تمكن إبراهيم من التوغل فى المورة وكان توغله فى بطء وحذر . ولم تكن الهيئة التنفيذية ورئيسها كندوريوتس محبوبة يوما من الدهر بين أهل المورة لاعتقادهم أنها تعمل لصالح أهل إذرا ولذا ضعف نفوذها حين فارقها جنود الروملى . وكان ضعفها الادارى مما مكن للهيئات البلدية أن تستعيد جزأ من قوتها السالفة واستطاعت هذه الهيئات بمعاونة الشعب أن تجبر الحكومة على تخلية سبيل زعمائها بأن أعلنت الأمان العام فى ٣٠ مايو فعاد كولوكترونيس (Koloktrones) الى قوته السابقة وعاداته القديمة . وكان كولوكترونيس — وهو أشهر زعماء التحرير — نموذجا من الكلفت — قطاع الطرق — حببه الى الشعب بعده عن النظام العسكرى ، وعيشه كما يعيش الأبطال المحاربون ، وتكلمه بلهجتهم وتفوقه عليهم وقيادته إياهم للقتال .

وكان إطلاق سراح كولوكترونيس مما حتم على خصمه ذكيوس (Dikaios) المعروف باسم پاپا فليساس (Pappa Phlessas) أن يبزه فى الشهرة الحربية وأن يغادر ناڤيليو[1] (Nauplia) حيث كان الناس أدرى بنقائصه . وكان پاپا فليساس مايزال وزيرا للداخلية ، ومن أفظع من اضطهدوا زعماء المورة . وتنفيذا لهذا القصد

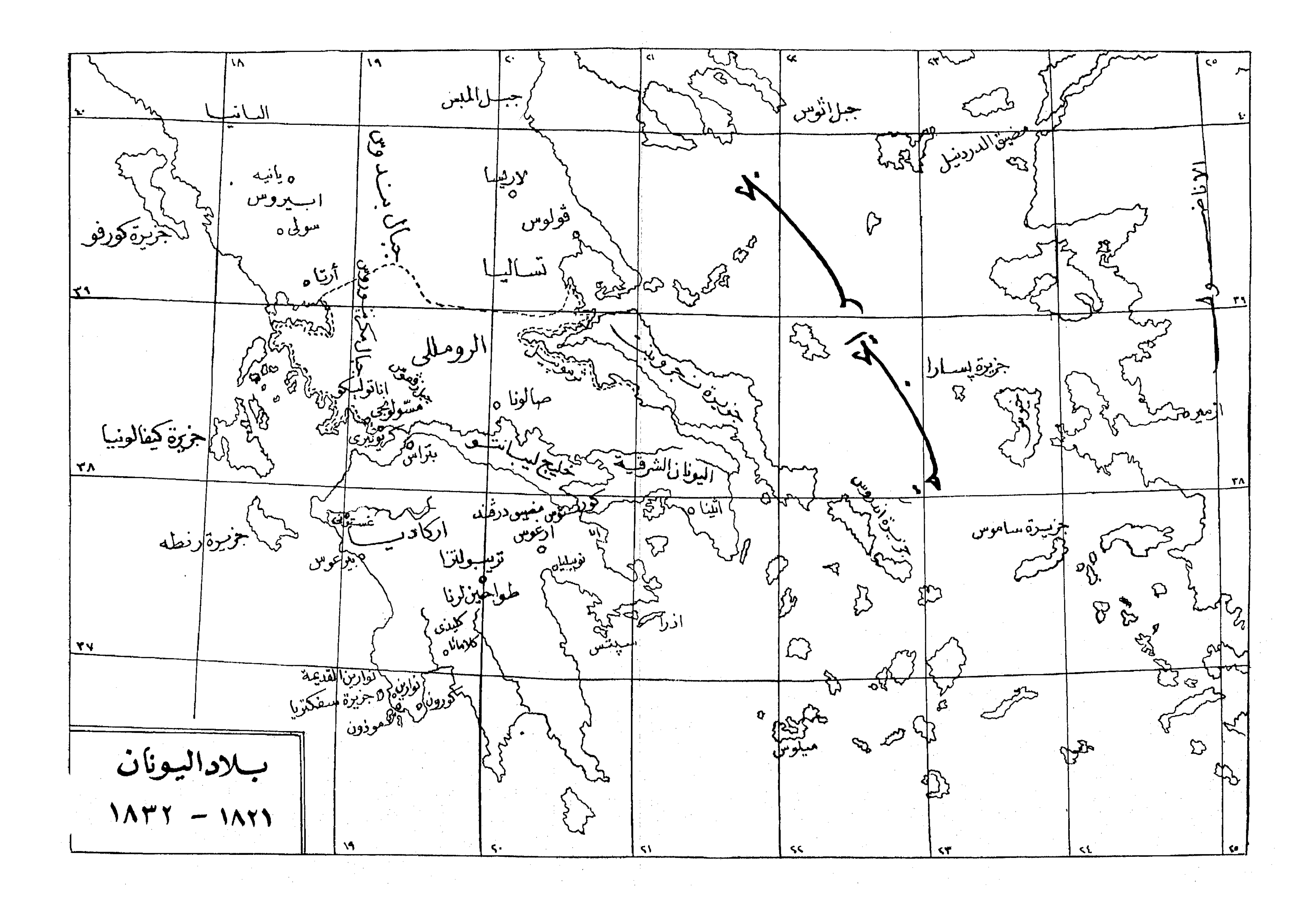
(١) شهرتها فى غرب أوربا نوبليا وتسمى أيضا نابلى دى رومانيا .

خرج من العاصمة فى جماعة من قدامى المحاربين فى أبهة كبيرة . وما أن وصل الى مانيا كى (Maniaki) حتى بلغ أتباعه ۳٫۰۰۰ وتقدّم إليه إبراهيم فى أوّل يونيه سنة ١٨٢٤ ففرّ نصف أتباع ذكيوس تحت جنح الظلام حين رأوا جيش الباشا واشتبك الباقون فى معركة أبلوا فيها بلاء حسنا وسقط قائدهم وهو يقاتل قتال الأسود . وكان من أثر هذه الهزيمة أن أنعشت الروح المعنوية بين الثوار إذ قالوا: "إذا كان القسيس المتهتك ومن كان معه من الفلاحين استطاعوا أن يناضلوا العدو الجديد بمثل هذه الشجاعة فماذا عسى أن يعجز عن تحقيقه شيوخ بلاد اليونان المدرّبين على القتال برعامة قائدهم المحنك كولوكترونيس ؟ " .

وكان قصد كولوكترونيس حماية الممرات المؤدّية الى مقاطعة أركاديا ومن أجل ذلك جعل مقرّ قيادته الرئيسى فى ماكريبلايى (Makriplaye) وأمر رجاله وهم ۷٫۰۰۰ بحفر الخنادق على حافتى وادى درڤند (Dervend) . ومع أن الوادى كان أوسع من أن يحميه رصاص البنادق لم يختر إبراهيم أن يهاجمهم من الأمام بل دار بمهارة حول جناح عدوّه ، وصوّب مدفعيته على بعض فرقه بينما أرهب الآخرين بمواجهتهم بفرسانه . فكانت هذه الهزيمة قاضية على الروح المعنوية بين المقاتلين من اليونان قضاء مبرما . وبلغ من ذلك أن تفرّقوا واعتصم زعيمهم بالجبال بعد أن أنذر أهل تربولتزا بأن يتصرفوا حسب ما تقضى به ظروفهم .

وإن تفوّق إبراهيم على كولوكترونيس باعتبار كونه قائدا وانحطاط الجنود غير النظاميين من اليونان عن مستوى فرق الجنود المصرية — هذا التفوّق لم يتح له أن يتجلى بصفة حاسمة كما تجلى فى تلك المعركة : ذلك بأن اليونان كانوا قد اختاروا موضعهم فى أرض تكاد تكون غير صالحة للقتال وكانوا يعرفونها حق المعرفة . فمزقت شملهم قوّة لا علم لها بتضاريس تلك البقعة ، ولا تستطيع الانتفاع بفرسانها ولا بمدفعيتها ، وفى أرض تضطر الرجالة النظامية أن تعمل بطريقة تكاد تكون غير نظامية .

وبهـذا الانتصار بات الطريق إلى تربولتزا مفتوحا ، وأخلى السكان المدينـة حين علموا باقتراب إبراهيم بعد أن حرقوا أكثرها . على أن الجنود المصرية وجدت بها مؤنا كثيرة حين دخلتها فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٢٤ . وبعد استراحة ثلاثة أيام ظهر إبراهيم أمام طواحين لرنا (Lerna) فعمت الفوضى فى مدينة نافيليو . أما كيف نجت عاصمة اليونان فإن الشروح متعـدّدة . وجميع التفسيرات المؤسسة على اعتزام إبراهـيم أخذ العاصمة فى تلك المناسـبة ينقضها نقضا تاما أن إبراهيم لم يستصحب فى ذلك اليـوم مؤنا إطلاقا ، ولم يسـتخدم إلا حرسه الأمامى . ولا يمكن قبول ما طالما كررته بعض الأخبار من أن مقاومة إبسلندس (Hypsilanti) وماكريانيس (Makrijanis) أذهلت القائد المصرى ؛ إذ لا يعقل أن مقاومتهما تذهل رجلا له عزيمة إبراهـيم ؛ بل أنها لا تذهل أى قائد من ذوى المقـدرة العادية لم تزل قوّاته الأساسـية رهن إشارته . وقد ابتكر بعضهم تفسـيرا حسبه مستساغا هو وجود الأميرال دى رينييـه (de Rigny) والكابتن هاملتون (Hamilton) فى مياه نافيليو والموقف الذى وقفـه هاملتن بحيث فهم اليـونان والمصريون فهما واضحا أنه قد يشترك فى المعركة . إلا أنه يلاحظ أن دى رينييه كان إلى ذلك الوقت وبعده بعام كامل معارضا أشدّ المعارضة لليونان لسخطه على شحهم ونهبهم وتنافسهم فيما بينهم ، وأن إبراهيم لم يكن ليخطر بباله أن فرنسا يمكن أن تعارضه . أما التفسـير الحقيق فهو أن إبراهيم كان فى ذلك الوقت أشدّ عناية بإتمام هزيمة كولوكترونيس ، وهو يومذاك يحوم حول تربولتزا ، أكثر منه بأخذ نافيليو . وهذا المسلك يتسق اتساقا تاما والخطة التى اتبعها فى غير هوادة وهى الاحتفاظ بطرق مواصلاته مفتوحة . وقـد حاول الكلفت القديم عبثا أن يكرر التكتيكات التى أفادته إفادة كبرى فى مواجهته لعلى باشا الدرملى وهى قطع خط مواصلات عدوه ، لكن خصمه هـذه المرة كان أكثر من كفء لإحباط خططه إذ لم تكن الحرب غير النظامية جديدة عليـه بعد أن جرب مايشبهها كثيرا فى بلاد العرب .



بلاد اليونان
١٨٢١ - ١٨٣٢
البانيا
جبل اثوس
مضيق الدردنيل
يانيه
ابيروس
سولي
جزيرة كورفو
أرتا
لاريسا
ڤولوس
تساليا
الروملي
صالونا
جزيرة كيفالونيا
بتراس
خليج ليبانتو
اليونان الشرقية
جزيرة بسارا
ازمير
أثينا
جزيرة زنطه
اركاديا
تريبولتزا
أرغوس
نوبليا
ادرا
سبتسس
جزيرة ساموس
ميلوس
كلاماتا
نوارين القديمة
جزيرة سفكتريا
مودون

ولما كان ٦ يوليو سنة ١٨٢٤ أفسد ابراهيم خطة عدوه بمهاجمة جميع مواقعه فى آن واحد وإكراهه على التراجع . وعلى أثر ذلك وقعت طواحين داريا (Daria) وتسروكوفيا (Zerekovia) وبيانا (Piana) فى قبضة ابراهيم، وبذلك نال الجيش المصرى مؤنا كثيرة . ومن تلك اللحظة لم تعد الحرب صراعا بين قوتين متكافئتين؛ فشكا أصدقاء اليونان "أن أعداءهم يقودهم قوّاد ليسوا ذوى خبرة حربية نحسب، بل لهم معرفة دقيقة بالبلاد وبالأخلاق القومية وأنه لم تتح لهم مناسبة واحدة وقفوا فيها أمام الغزاة الجدد موقفهم المجيد الذى عوّدونا إياه من قبل ، وأنهم تخاذلوا أمام الحراب المصرية فى جميع الأحوال تقريبا" .

ومن ثم فقد اليونان الروح المعنوية كلية وأيقنوا أنه لن ينقذهم إلا العون الأجنبى دون سواه . وهذا اليأس التام من جانبهم هو الذى حداهم على المطالبة بالحماية الانجليزية . ويتمثل فقدان الروح المعنوية فيهم فى قصة طريفة يقصها الجنرال غوردون عن ٤٠٠٠ يونانى كانوا يحتلون فرفنا (Vervena) تحت قيادة إبسلندس (Hypsilanti) ذلك الرجل الذى زعم بعضهم أنه أزعج ابراهيم فى طواحين لرنا بأقل من عشر قوّته هذه قبل ذلك بشهر أو مادونه . يقول غوردون : "بمجرّد سماع الصوت الهائل صوت طبول فرقة مصرية اختفت القوّة كلها ونجا قائدهم من الأسر بصعوبة كبيرة" . ولا صحة لما زعمه المغرضون من أن ابراهيم فكر فى استئصال سكان المورة، بل الواقع أنه أظهر نحوهم من الرحمة والرفق مثل ماسبق أن أظهره فى بلاد العرب وما ظهر منه بعد ذلك فى سوريا والأناضول : ذلك بأن ابراهيم كان على غرار أبيه فى إجلال العدوّ المغلوب أو العطف عليه . ويقول فيلمين (Villlemain) فى كتابه (Preface de Lascaris) : "إنه اتخذ الإنسانية باعتبار كونها من تكتيكات أوربا ، فلم يحرق القرى ولم يذبح المغلوبين، لأن فيه نوعا من الرحمة الحديثة قد عنى أناس بنصحه بها باعتبارها وسيلة للنصر" . وإننا لنجد غوردون وهو من أشدّ الناس حبا لليونان يقول عن ابراهيم : "إنه لم يستأصل غياض الزيتون لمجرد

حب التخريب ولا غياض التين والليمون وأشجار التوت وهى أساس ثروة البلاد".
بل إن ألد أعدائه[١] يعتقد أن أهل نوارين أبوا أن يفتكوا به علما منهم أنهم ينالون عطفه إن سقطت القلعة فى يده، وأنه سيعامل اليونان بمثل مايعامل به ملك فرنسا الروم الكاثوليك والبروتستنت من رعيته لأن هدفه ليس الحرب وإنما هو توطيد الأمن .

وماجاء سبتمبر من سنة ١٨٢٥ حتى كان إبراهيم قد أتم إخضاع المورة من الوجهة العملية . وإذ ذاك قصد الى معسكره الشتوى فى موذون حيث تسلم أوامر والده بالتقدم لمعاونة رشيد باشا الذى كان قد قضى ثمانية أشهر فى محاصرة مسّولنجى (Missolonghi) على غير جدوى . وفى ذلك الوقت رتب محمد على وخسرو الخطة الحربية والبحرية اللازمة للقضاء على ثوار اليونان سواء عاونتهم انجلترا أو لم تعاونهم .

حصار مسّولنجى (١٨٢٥)

كان عام ١٨٢٥ أشدّ أعوام الثورة اليونانية حلكة لأن الثوار لم يزالوا على انقسامهم القديم وأنانيتهم المألوفة بينما كان السلطان والوالى متفقين على إخضاعهم؛ ولأن عصاباتهم المسلحة زادت فى احتقار النظام بينما هم يواجهون المصريين النظاميين، ولأن سفنهم كانت على الدوام تأبى أن تجرب التحسينات العلمية، بينما الأسطولان العثمانى والمصرى قد انتفعا بهذه التحسينات إلى أبعد مدى ؛ وأخيرا لأن أرض اليونان لم تنجب عبقريا حربيا عظيما قادرا على قيادة جميع جنودها بينما كان السلطان يرميهم بأعظم قائدين فى دولته : ذلك بأنه بينما كان إبراهيم يخضع المورة كان الجيش المتوغل فى إيلاس[٢] بقيادة محمد رشيد الذى لم تنجب تركيا قائدا أقدر منه أو صدرا

(١) المراد مسيو لوفرن (M. Lauvergne) السالف الذكر .

(٢) كان إذ ذاك يطلق على بلاد اليونان الواقعة شمالى المورة .

أعظم أبرع منه منذ أيام آل كبريلى . وكان رشيد فى ريعان الشباب دون المتوسط فى القامة بهى الطلعة جم الأدب سريعا نشيطا ذكيا شجاع القلب . ويقال إنه مع منحه لقبى القائد الأعلى ووالى الروملى قد أنذر بأنه لا بدّ من سقوط مسّولنجى أو سقوط رأسه . وبلغ رشيد لاريسا (Larissa) فى يناير وقضى على الاضطراب فى أبيروس باسترضاء الزعماء وبذل الوعد للأرنؤود برفع رواتبهم . وخالف سابقيه فى الإسراع باحتلال مضيق ماكرينوروس (Makrynoros) . ثم عمد إلى أهم الأعمال الحربية فى شمال اليونان فى ذلك العام وهو حصار مسّولنجى . فلما نزل بها فى ٢٧ من إبريل بدأ العمل من فوره واستحث جنوده أن يضيقوا عليها الخناق ليمحوا عار إخفاقهم أمامها قبل ذلك بثلاث سنين . وكان اليونان من جانبهم مصممين على الاحتفاظ بها لأنها الثغر الجيد الوحيد الباقى فى أيديهم على خليج ليبانتو . وكانت مسّولنجى تسند ظهرها إلى جبال زفوس (Zygos) وتمتدّ على حافة سهل مستنقع تحدّه برك ضحلة عظيمة الاتساع بها مسالك ملتوية تشرف عليها شطوط من الطين .

ويختلف الحصار الثانى اختلافا كليا عن الحصار الأول : ففى سنة ١٨٢٢ لم يكن الحصار تاما بل مضطربا بين المفاوضات حينا والمناوشات حينا آخر ، بين عدوّين يفصلهما مستنقع وخندق . وفى مثل هذا الوضع استطاع جماعة من المدافعين أن يصدّوا عدوّهم المتردّد . أما منذ ذلك الوقت فقد زادت تحصينات المكان بفضل المهندس القدير كوكينس (Kokkini) تحت إشراف اللورد بيرون . ومن هذه التحصينات إقامة برجين أطلق عليهما الإسمان الفخمان فرانكلين (Franklin) وبوتساريس (Botzares) ؛ وعملت إصلاحات أخرى منها إنشاء رواق مسقف خارج الخندق ومنها تحصين بعض الجزيرات الموجودة بالبرك . وإلى جانب هذه التحصينات كان بالمدينة ٤٨ مدفعا من الحديد مختلفة العيار ومدفعان نحاسيان من نوع الهاون واثنان من الهوتزر . وبذلك صارت المدينة قادرة على مقاومة كبيرة ،

إلا أن الجنــود المدافعين وهم ٤٫٠٠٠ كانوا فى مواجهة عدوّ ذى عزيمة ونشــاط مستعد للإفادة من كل ما تقدّمه له الفنون الحديثة من حفـر تحت الأساسات ولغم وخندقة .

وقد لفتت أهمية الحصار وطول مدّته نظر الشرق والغرب جميعا : أما فى الغرب فكانت مسّولنجى تذكر بإقامة بيرون فيها ونهاية حياته المحزنة بها ونشأ عن شهرتها فكرة شاعت فى أوروبا هى أن مصيرها ومصير اليونان يكادان يكونان شيئا واحدا . وكان قوّاد الحامية أمثال نوتارى (Notari) ويوتساريس (Botzares) يلقون عونا قليا من إدارة مدنية قوامها ثلاثة على رأسهم كبير أعيان بتراس السابق وهو البطل بابا ذيامندوبولوس (Papadiamandopoulos) . وفى غضون مايو ويونيــو كان رشيد يقترب فى بطء وحذر من برج فرانكلين بإقامة تل كبير من التراب .

وبعد أن تسلم مدافع من بتراس بدأ يقذفه قذفا عنيفا بينما كان اليونان يجيبون على هذه النار بمثل نشاط رشيد ويحسنون فى وسائل دفاعهم ؛ وارتفعت روحهم المعنوية حين وافتهم فى ١٠ يوليه سبع سفن من إذرا تحمل إليهم مؤنا كثيرة وبعض المدد من المورة . وبعد شهر من ذلك التاريخ استبشر المحصورون بقدوم أسطول اتضح فيما بعد أنه أسطول خسرو وأنه قد أنزل حسين بك فى نوارين وجاء لرشيد بمدد مهم جدا من المدافـع والرجال والذخيرة المختلفة الأنواع ؛ وبذلك مكنه من مضاعفة همته . وفى هــذه الأثناء كان يوسف باشــا الذى استقر فى بتراس خمس سنين بعزيمة فائقة قد أعدّ ٣٦ قاربا مسطحة القاع قطع بها الاتصال مع أناتوليكو (Anatoliko) وحاصر هذا الحصن بحرا . وفى ٢٨ يوليه فجّر المحاصرون لغما تحت برج بوتساريس واستولوا على حطامه مرتين ولكن اليونان أخرجوهم منه فى كلتا المرّتين .

وخشى رشيد أن تموّن المدينــة من جديد ومن أجل ذلك قرّر أخذها عنوة فنسف برج فرانكلين فى فجر يوم ٢ أغسطس وهجم هجوما قويا بخمسة أرتال وغرز عشرين راية على أطــلاله . ولكن اليونان نالوا نصرا مجيدا فى ذلك اليوم بما يكاد

يكون البقية الباقيــة من ذخيرتهم . ولم يقل نجاح أسطولهم عن نجاح جنودهم إذ وفق مياؤليس (Miaoulis) وسختوريس (Sachtouris) أن يزعجوا خسرو ببعــض المناورات التى قامت بها حراقاتهم ، وأن يهزموا مجموعة القوارب التى أعدها يوسف باشا ، وأن يرفعوا الحصــار البحرى ويمدوا المحصورين بالمؤن والذخائر التى كانوا فى مسيس الحاجة اليها . وبانخذال القبطان باشا ذلك الانخذال المزرى أصبح رشيد بغير ذخيرة و بغير مال ، وليس عنده إلا قليل من المؤن . و بهذا تشجع المحصورون أن ينسقوا فى الخفاء هجومين فى وقت واحد أحدهما على معسكره والآخر على قواربه وتم ذلك فى ٦ أغسطس إذ انتصرت الزوارق اليونانية على قواربه وهاجمت الحامية المعسكر ، بينما كان كارايسكاكى (Karaiskaki) يهــاجم مؤخرته بخمسمائة رجل . على أن هذه المناوشة البارعة لم تبلغ أن تدفع كوتاهيه لى إلى اليأس ؛ فاستطاع بوساطة تل كبير من التراب أن يأخذ برج فرانكلين ؛ إلا أن المحصــورين كانوا قد توقعوا ذلك فأقاموا خلف البرج منشآت دفاعية قوية عادت يومذاك بفائدة أنستهم الجهود التى بذلوها فى إقامتها . وتركز الصراع فى غضون سبتمبر وأكتوبر حول هذا البرج وكان القتال قتالا وحشــيا حقا لأن البعد بين الخصمين لم يزد على بضعة أمتار ، وانتهى الأمر بانتصار الهمة اليونانية على العزيمة التركية فاستعيد البرجان ونسفت التلال الترابية التى كانت تهددها .

وأقبل الشتاء بما يلازمه من طاعون وملاريا ففتك بجيش رشيد بعدما أضعفه القتال والهروب . ولم يكن لقائده عزيمة رشيد مناص من أن يخندق على عسكره عند سفح جبل زئفوس . وفكر اليونان فى مهاجمته بالاتفاق مع أتباع كارايسكاكى المنتشرين فى الجبال من خلف العدو إلا أن خنادقه المعقدة وذيوع الخــلاف بين زعماء الأرماطول — حاملى السلاح — جعل النجاح موضع شك .

ولعل المقيمين فى مسولنجى كانوا راضين بما تهيأ لهم عمله وليسوا براغبين عن الاستمتاع براحة استحقوها بجهادهم . ومن ثم كان الحصار فى نهاية ١٨٢٥ فى حالة

توقف بعد أن عمل الترك آخر جهدهم تحت إشراف أحسن قائد لديهم . ومع هذا عجزوا عن تحطيم مقاومة رجال الروملي .

على أن الموقف لم يكن ليحمل أحدا من أصدقاء اليونان البعيدى النظر على الابتهاج وذلك بسبب قرب قاهر المورة . إذ كان يدور بخلدهم ماعسى أن يحدث لو أن السلطان ، على الرغم من حسده للوالى ، تنازل فطلب إلى محمد على أن يعاونه فى بقية بلاد اليونان . وهـذا ما حدث فعلا لأن كراهية محمود للثوار اليونان وللعاكسات الأوروبية المرتبة على الثورة سهلتا عليه طلب العون من مصر ، فتلقى ابراهيم الأمر بالاتصال برشيد . وبظهوره بات أمام مسّولنجى عدوّ جديد أشد بأسا من سابقيه لأن حرب المورة قد برهنت على أن شجاعة الأرماطول وحيل الكلفت لا توازيان ما للجيش المصرى من نظام وعلم وخبرة بالاستراتيجيـة والتكتيكات . وتجلى لليونان والترك وأصدقاء اليونان أن الحصار الذى سيجدّده إبراهيم أعظم شأنا من جميع العمليات الحربية الأخرى ، لعلمهم أنه إذا سقطت مسّولنجى فإن غرب بلاد اليونان سيصبح تحت رحمة العدوّ كما أصبحت المورة من قبـل سواء بسواء . وسيتمكن الجيش العثمانى من الانتشار فى البـلاد وإخماد أنفاسها . ولا غرو بعد ذلك إذا اتجهت جميع الأنظار الى ذلك المكان الذى تجلى فيه مقاومة الأبطال .

وكان محمد على قد أمدّ ابنـه مؤخرا بعشرة آلاف رجل فتقدم إبراهيم بسرعته المعتادة مجدّا فى السير وعبر ممر كليذى (Kleidi) المهم واستولى فى برغوس (Pyrgos) وغستونى (Gastouni) على مخازن الغلال التى كانت أعدّت لمسّولنجى والتى لم يرسلها اليونان إلى تلك المدينـة ، ولا هم أتلفوها حين فقدوا الأمل فى إنقاذها . وما أن اجتمع القوّاد العثمانيون أمام ميسولنجى حتى عقدوا فى ٢٧ نوفمبر مؤتمرا فى ليبانتو وممن حضروا هذا المؤتمر القبطان باشا ورشيد وإبراهيم ويوسف باشا . وتم الاتفاق فيما بينهم على أن يعاون كل منهم الآخر وأن ينفذوا الحصار بنشاط . على أن الوقت لم يكن يسمح بعمل شىء لأن المطـر الغزير حال دون كل شىء حتى حفر

الخنادق . ومن ثم قضى إبراهيم شهر ديسمبر فى جمع المؤن ؛ وكان الجند المصريون يعملون دون أن يكلوا وكان النظام الذى يسود معسكرهم مما أدهش رشيدا فضلا عن أنه امتعض من استقلال القائد المصرى بعمله .

ونهضت الحكومة اليونانية آخر الأمر لمعاونة الحامية الباسلة وبلجأت إلى جيوب الأفراد من المواطنين وبهذه الوسيلة تمكنت من إعداد ٢٠ سفينة من إذرا و ٤ سفن من بسار واقتحمت هذه السفن المدخل وألقت إلى الحصن بمئونة شهرين .

وبعد ضرب المدينة بالقنابل ثلاثة أيام هاجمها الألبانيون والمصريون فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٦ وتسلقوا الأسوار ثلاث مرات ، ولكن اليونان المستيئسين ألقوهم عنها فى كل مرة . فاتضح لإبراهيم أن من الضرورى حصرها حصرا تاما برا وبحرا ؛ وأعدّ لذلك ٣٢ قاربا مسطحة القاع أنزلها إلى الماء ووجه حسين بك هجومه على فاسيلاذى (Vasiladi) وهو الحصن المشرف على مدخل البركة واستولى عليه عنوة فى ٩ مارس فسلمت أنا توليكو (Anatoliko) بعد ذلك بأربعة أيام .

واعتقد إبراهيم ورشيد أن الفرصة مؤاتية لعرض شروط مناسبة ، غير أن الحامية اكتسحت فكرة التسليم فى لهجة جديرة بأجدادها : ذلك أن الباشا كتب إليهم " أن أبعثوا إلىّ برجال يعرفون لغات عدّة ليتهيأ لى أن انتهى معهم إلى تفاهم " فكان جوابهم جواب المعتز بنفسه إذ كتبوا إليه : " إننا شعب أمى ولا نفهم لغات كثيرة . إننا لا نعترف بالباشوات ولكننا نعرف كيف نعمل بالسيف والمدفع " . وكان لا يزال بأيدى الثوار نقطة فى البركة هى الجزيرة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من مسولنجى وكان المدافعون عنها ٢٠٠ رجل بقيادة الزعيم الباسل كتسوس دزا فيلاس (Kitzo Djavellas) وكان يحجبهم عن المدفعية العثمانية متاريس دفاعى منخفض من الطين ؛ وقد جعلوا من كنيسة قليلة الارتفاع أيضا مخزنا وقلعة . فلما كان يوم ٦ من أبريل حاول الألبانيون أخذها عنوة ولكن قواربهم لم تستطع

بلوغ ساحلها فتركوها وخاضوا فى الطين الأملس تحت وابل غزير من الرصاص وأتلفوا مانعا واطئا من الأشجار كان خارج القلعة . وعند ذلك أعوزتهم السلالم لتسلق الجدران فعادوا أدراجهم. وركب رشيد جواده ليحمس رجاله على الأقدام فأصابته رصاصة فى فخذه . .

وإذ ذاك أمر إبراهيم ۲٫۰۰۰ من رجاله أن يظهروا تفوقهم ولكن عبثا حاولوا، وجرح حسين بك فاتح سفكتريا (Sphacteria) جرحا مميتا فأهمل هذا الهجوم . وكان قتال هذا اليوم أعنف قتال رأته مسّولنجى ذهب ضحيته ألف عثمانى وتغير لون الماء من كثرة الدم وحملقت عيون أهل الأرض قاطبة إلى أولئك الأبطال إعجابا بأعمالهم التى ذكرت بأكبر أعمال البطولة الحربية فى العصرين القديم والوسيط . وممن ملئوا إعجابا بنكير من أهل جنيف هو إينارد (Eynard) . ومن ثم ضاعف هباته ونشاطه لصالح اليونان . وقد تشجع بما رأى من الملك لويس (Lewis) ملك بفاريا و بمعاونة لجنة باريس له فأرسل المال والقمح والذخائر الحربية إلى نافيليو و إذرا وجزر اليونان وكررت فرنسا وألمانيا وسويسرا هباتها الجزيلة، وجمع اليونان أنفسهم مليون قرش من التبرعات الاختيارية . ولكن ماذا عسى أن يعمل المال إذا لم يقدم الرجال ؟ وها هو كارايسكاكى أشجع زعماء الروملى وأعظمهم مقدرة لم يستطع رغم شهرة أعماله المجيدة السابقة أن يجمع حوله أكثر من ٥٠٠ ، وهى قوة لا يحلم أحد أن يرفع بها حصارا . ومع هذا فإن أهل مسّولنجى وحاميتها كانوا قد أقسموا أمام الله أن يدافعوا عن حصنهم شبرا شبرا ولا يصغوا لحديث التسليم وأن يدفنوا أنفسهم تحت أنقاضه . فلم يعد لهم مناص من اتباع إحدى خطتين : الموت جوعا أو اختراق الحصار طبقا لمشروع بوتساريس (Botzares) وهو مشروع جيد كان نجاحه محتملا و بمقتضاه قسم الرجال ثلاثة جماعات يقودها بوتساريس وماكريس ودزا فيلاس على التعاقب . و بين صفين من الرجال يحشد النساء بعد أن يلبسن

ملابس الرجال ويعطين السلاح ومعهنّ الأولاد وبيد كل منهم مسدس محشو .

ولما انتصف الليل هجمت الحامية على العدو واخترق أكثرهم صفوفها على الرغم من النار التى واجهتهم غير أنه بسبب خطأ فى الفهم أو بسبب حدوث ذعر ارتدّ السكان الى المدينة وليس معهم إلا عدد قليل من حاملى السلاح . أما الذين اخترقوا الخنادق العثمانية فانقض عليهم من فورهم فرسان أعدّهم ابراهيم لهذا الغرض . ولما شرعت بقيتهم تتسلق جبل زففوس وتحس أنها آمنة انهالت عليها طلقات قذفت بها فرقة من الألبان كان رشيد قد جعلها كمينا . فلم ينج من ٩٠٠٠ سوى ١٥٠٠ منهم ٢٦ بين امرأة وطفل . ولما طلع الفجر أمر ابراهيم رجاله بدخول المدينة وقابلهم السكان بإطلاق النار عليهم . وعمدت ثلاث عصابات الى نسف مخازن البارود على أنفسهم إيثارا للموت على التسليم . ولذا لم يأسر العثمانيون — فيما عدا النساء والأطفال — إلا قليلا .

وهذا الدفاع الذى أبداه أبطال مسّولنجى زاد صداقة اليونان استعارا فى جميع أنحاء أوربا . وكان الرأى العام — بقدر ما يمكن أن يوجد على القارة — متململا من نير مترنخ وسياسته الرجعية ؛ ومن أجل ذلك كان يتخيل اليونان شعبا باسلا يناضل ضدّ عدو مخيف لا طاقة له به من أجل الحرّية التى هى من حق كل إنسان . وقد دفع هذا الشعور الوزارة الفرنسية الى عمل شىء لصالح إخوانهم فى المسيحية ولم يعد فيليل (Villèle) رئيس الوزارة الفرنسية يستطيع المقاومة فجعل يفكر فى الانضمام الى روسيا وانجلترا بعد أن قررتا فى مؤتمر بطرسبرج سنة ١٨٢٦ معاونة اليونان ؛ وأدّى ذلك الى عقد معاهدة لندن كما سيجىء بعد .

الحرب فى اليونان باشراف أصدقاء اليونان

كان سقوط مسّولنجى نذيرا بسخط الشعب على حكومة كندوريوتس لأنانيتها وعجزها حتى اضطر أن يستقيل من الرياسة وتكوّنت حكومة جديدة من ثمانية أعضاء برياسة زايميس (Zaimis) استبعد منها كندوريوتس وكولوكترونيس

وكانت اليونان فى هذه الفوضى تنقسم الى ثلاثة أحزاب على أسس محلية فكانت الجزر من حزب انجلترا ، والمورة فى جانب روسيا ، والروملى يؤثر فرنسا . وقد صفى كندو ريوتس وكولوكترونيس ما بينهما من عداء وكوّنا حكومة ثانية برياسة سيسينى (Sissini) فصارت البلاد مهددة بحرب أهلية لولا توسط رجال من الإنجليز أمثال لورد كوكرين (Lord Cochrane) وسير رتشارد تشرش (Sir Richard Church) وكابتن هاملتون (Hamilton) فى إدماج الحكومتين . وانتخب تشرش قائدا أعلى للقوات البرية كما انتخب كوكرين أميرالا أعلى للأسطول وهو القوّة الوحيدة من قوى الثورة التى ما زال بها رمق . وبذلك اتضح أن التدخل الأوروبى وحده هو الذى ينقذ اليونان من الخضوع للسلطان .

وبعد سقوط مسّولنجى فى ٢٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ عاد ابراهيم الى المورة وسار رشيد فى شرق اليونان وظهر أمام أثينا فى يوليو سنة ١٨٢٦ واستولى عليها . وكان مسلك رشيد فى هذا اليوم مما أكسبه شرفا أزليا فقد أظهر أنه أرقى من سير رتشارد تشرش فى السياسة بقدر ما هو أرقى منه فى الميدان : إذ اتخذ كل احتياط يوحى به الحزم لمنع الترك من تدنيس سمعة المسلمين بأى عمل من أعمال الانتقام كما حدث من اليونان فى مواطن كثيرة : فكان الباشا يتفقد المكان بنفسه على رأس فريق قوى من الفرسان ليتأكد من أن جنوده الذين يرافقون اليونان الى حيث يركبون البحر يؤدّون واجبهم كاملا . وبسقوط أثينا تم إخضاع الجزء القارى من بلاد اليونان وكتب رشيد الى السلطان بذلك وجدّد بعض زعماء الروملى خضوعهم وانتقل الآخرون الى المورة . وعكف رشيد على توطيد سلطة الحكومة فى الناحية الإدارية .

أما فى المورة فلم يوجد جيش يقاوم ابراهيم فخضعت له كلها ماعدا مدينة نافيليو وتطوع بعض الزعماء فى خدمة القائد المصرى . ولم يعد أحد يسأل غير السؤال الآتى : هل يجد المسلمون من الوقت ما يكفى لإقرار الأمن قبل أن تقرر الدول القائمة بالوساطة استعمال القوة ؟

أما مقدرة المسلمين على نشر نفوذهم فى البـلاد بسرعة ما لم يعترضهم شيء من الخـارج فلم يك يسمح بأدنى شك . ولم يبق من أسلحة الثـورة صالحا للعمل إلا السفن ولذا قرر محمود ومحمد على أن يقضيا على هذا السلاح فنشطت دور الصناعة بالقسطنطينية والإسكندرية فى صنع أسطولين وتجهيزهما لسحق الجزيرتين المشهورتين بسفنهما وهما إذرا (Hydra) وسبتس (Spezzia) وكانا يعتقدان أنهما بهذا يطفئان آخر بريق فى الثورة قبل أن تتمكن الدول الأوروبية من التدخل بأساطيلها .

وأدرك كوكرين وجـود الخطر ومداه ، فاعتزم إحيـاء أيام دريك (Drake) بإحراق الأسطول المصرى بالاسكندرية . وأقبل الأميرال الأعلى بنحو عشرين قطعة ما بين سفينة حربية وحراقة حتى وقف أمام الاسكندرية فى ١٧ يونيه سنة ١٨٢٧ فغضب محمد على لهذه الإهانة غضبا شـديدا فركب البحر بنفسه وتعقب المعتدين حتى جزيرة رودس ؛ كل ذلك وكوكرين يتجنب المعركة حتى اضطر محمـد على الى العودة من هذه المخاطرة التى لم يسمع بمثلها فى الجرأة والإقدام . وبذلك فقد كوكرين البقية الباقية من سمعته ؛ وانكب اليونان على القرصنة البحتة .

وبعـد ذلك بقليل وصـل الى خليج نوارين أسطول طاهر باشا حيث بقى فى انتظار الأسطول المصري الذى حضر فى ٧ سبتمبر سـنة ١٨٢٧ بعد أن تفادى سـير أدوارد كدرنجتن (Sir Edward Codrington) الذى كان قد عهد اليه أن يعترض أسطول مصر وأن يرده الى الاسكندرية . وكانت رياسة الأسطول المصرى معقودة لمحرم بك ورياسة الأسطولين المصرى والعثمانى لإبراهيم باشا وبذلك بلغ عدد سفن المسلمين فى خليج نوارين فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٢٧ نحو مائة وتسع وعشرين على أهبـة الاستعداد للانقضاض على إذرا وسبتس وهما آخر أمل بقى لليـونان . وفى هذه اللحظة الحاسمة تقررت المعاونة الأوروبية التى طال انتظار اليونان لهـا : ذلك أنه على الرغم من تزايد أصدقاء اليونان فى كل مدينة من مدن أوربا وفى بعض أنحاء أمريكا ، وعلى الرغم من الحملات الشديدة التى وجهتها جمعياتهم الى الحكومات المختلفة بقصد دفعها لمساعدة اليونان ، بقيت هـذه الحكومات تؤثر الحياد كما ظهر

ذلك فى مؤتمر ليباخ سنة ١٨٢١ وفى مؤتمر فيرونا فى السنة التالية إذ تقرر « ترك اليونان لحظهم » وعدم التدخل فى جانبهم .

ولم يتغير موقفها عن ذلك كثيرا طيلة حكم اسكندر الأول قيصر روسيا بسبب محاولته الجمع بين مصالح روسيا ومقاومة الثورات حيثما كانت . فلما مات سنه ١٨٢٥ خلفه أخوه نقولا الثانى وكان معجبا ببطرس الأكبر وكترينا الثانية فشرع يعمل على إضعاف الدولة العثمانية تحت ستار مساعدة إخوانه فى الدين — اليونان الأرثوذكس . وجزعت انجلترا لتجدد هذه السياسة الروسية القديمة وعمدت الى التخفيض من نفوذ روسيا بالاشتراك معها فى العمل لصالح اليونانيين ، وذلك بإقناع السلطان بأن يمنحهم حكما ذاتيا . وتم الاتفاق على ذلك فى مؤتمر بطرسبرج — لينينجراد الحالية — سنة ١٨٢٦ ثم انضمت اليهما فرنسا وعقدت الدول الثلاث معاهدة لندن فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ . وأهم شروطها عقد هدنة بين المتحاربين وقيام حكم ذاتى باليونان بشرط دفع جزية سنوية للسلطان . و إذا رفض أحد الطرفين تنفيذ الهدنة فإن للدول الثلاث أن تحول دون تصادم الطرفين بدون أن تشترك فى الأعمال العدائية . وخولت الدول الثلاث سفراءها بالقسطنطينية مفاوضة الباب العالى فى تنفيذ شروط المعاهدة ، كما خولتهم إصدار التعليمات اللازمة لأمراء البحر المكلفين مراقبة تنفيذ الهدنة . وبهذا دخل أمراء البحر الأوروبيون الحلقة لحسم النزاع بالسيف والمدفع .

واقعة نوارين

بقى الباب العالى ممتنعا امتناعا كليا عن الإصغاء لأى اقتراح يؤدى الى توسط الدول الأوربية بينه و بين رعاياه الثائرين . وهذا الامتناع أجج نار الغضب فى نفوس السفراء . ومن هؤلاء سفير فرنسا مسيو ريبو بير (Ribeaupierre) وكانت مهمته السرية أن يخلق مشكلة مع تركيا ، ومنهم سفير انجلترا سترا تفورد كاننج (Stratford-Canning) وكان يمقت الإقامة فى مدينة لم يكن يحبها يوما من الأيام ، بين أولئك الترك الفظعاء فى رأيه ، وكان إلى جانب ذلك قد سئم ما يعلق بمهمته من التقلقل ، فكتب أكثر من مرة الى جورج كاننج رئيس الوزارة الإنجليزية أن يعمل شيئا : إما الأخذ

فى إجراءات إكراهية قدر الطاقة دون إعلان حرب، وإما إهمال الوساطة كلية، والقضاء على كوكرين وشركائه.

وفى أوّل سبتمبر سنة ١٨٢٧ أصدر إلى السير ادوارد كدرنجتن "أن منع المؤن[1] ينفذ آخر الأمر بقنابل المدافع عند الضرورة وبعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى". وقد كتب ستراتفورد كاننج فى ذكرياته بعد ذلك: "لو أنى تسلمت أقل اشارة عن حدة طبع السير ادوارد وجرأته لتجنبت التعبير (بقنابل المدافع)".

على أن تعليمات ستراتفورد كاننج حتى فى الصيغة التى بلغت إلى كدرنجتن كانت خاصة بوقف المؤن. ومن ثم كان من الخطأ أن يحتج بها كدرنجتن عن تصرفه بعد ذلك فى موقعة نوارين. ولو لم يكن لدينا شيء غير شهادة كدرنجتن نفسه لكانت شهادته كافية لإثبات التهمة عليه: ذلك بأنه شعر أنه يجب عليه أن يعتذر لستراتفورد كاننج عن سوء تفسيره لتعليماته. ثم إنه حين اقترح الأميرال الفرنسى دى رنيى دخول الأساطيل الى خليج نوارين كشف كدرنجتن عن شعوره بأن مثل هذا العمل لم تصدر به تعليمات: فيقول عن دى رنيى: "قد نبهته الى ما عسى أن يكون من النتائج إذا لم توافق الحكومات على هذا الإجراء" فقال: "إنه استعرض كل النتائج وأنه مع ذلك على أتم استعداد" وفى ٤ سبتمبر أصدر السفراء تعليماتهم الى أمراء البحر بأن يحاصروا الساحل اليونانى بأجمعه من خليج أرتا (Arta) الى خليج فولوس (Volos). وفى اليوم التالى بلغت معاهدة لندن الى اليونان فتلقوها بأعظم مظاهر الابتهاج ووعدوا بمراعاة شروط الهدنة المطلوبة. أما ابراهيم فلم تبلغ اليه المعاهدة إلا بعد ذلك بسبعة عشر يوما. وقد جاء فى المذكرة المرافقة للمعاهدة: أن الحلفاء — مدفوعين بعوامل الإنسانية — قد جمعوا قوّات بحرية كبيرة بقصد منع كل مقاومة من جانب القوّاد الترك — تلك المقاومة التى قد تؤدّى إلى القضاء عليهم وتسبب للسلطان ضررا كبيرا يمتدّ أثره زمنا طويلا. وقد تسلم أمراء البحر الأوروبيون أوامر بأن ذهابهم إلى أبعد حد أولى من التقصير فى بلوغ الهدف الذى ترمى إليه معاهدة لندن.

(١) المراد منعها عن العثمانيين والمصريين.

ووصل أمير البحر دى رني إلى نوارين فى ٢٠ سبتمبر وقابل إبراهيم فى صباح اليوم التالى، وحاول فى هـذه المقابلة أن يقنعه بالاستجابة لرغبات الحلفاء . وكان حديث الأميرال الفرنسى بلهجة مستفزة يراد بها إثارة الروح العالية والرجولة اللذين كان يعرفهما عن إبراهيم ، حتى لقد سأله إبراهيم "هل يلزم تسليم الحصون كذلك ؟" فكان جواب دى رني " هذه مسألة تقرر فيما بعد أما اليوم فإنا إنما نريد هدنة تنقذ والدك وتراثة . فكر فى أنه مسنّ وقلق ومختلف عما كان عليه من قبل، وفكر فى أن مصر الغنية ستكون خيرا لك من المورة المخربة" . وكان مما قاله إبراهيم : "عندى كل ما يلزم لإخماد الثورة، ولتوقيع ضربة قاتلة على إذرا وهى الوكر الأخير للحراقات اليونانيـة" فقال دى رني : " أنه اتفق مع كدرنجتن على أن يمنعا بالقوة الأسطول التركى المصرى من السير فى أى اتجاه اللهم إلا اتجاه الدردنيل والإسكندرية".

وتم التفاهم على ألا يقوم إبراهيم بعمليات جديدة إلا بعد أن يتسلم من الباب العالى أو من الوالى أمرا رسميـا بذلك ، وأنه إلى صدور ذلك الأمر سيحتفظ بأسطوله فى نوارين .

وفى ٢٥ سبتمبر زار الأميرالان البريطانى والفرنسى القائد المصرى زيارة رسمية فى كثير من الأبهة . ويقول كدرنجتن : "إن إبراهيم باشا تظاهر بأن له رغبة خاصة فى تنفيذ طلبنا ، ولعله كان كذلك فى الواقع ونفس الأمر" وعلى الرغم من هذا فإن دى رني لم يتمالك أن يتحدث عن تبادل الرصاص والبارود. وإذن، فإن إبراهيم كان مستعدّا لوقف القتال، أما اليونان فإنهم بدلا من تنفيذ الهدنة التى وافقوا عليها أحسوا بأنها — فيما يخصهم — مجرّد عبارة رسمية ، وأنه لن ينالهم عقاب من قبل الدول التى توسطت فى إنقاذهم . وبهـذا الاعتقاد أرسل الجنرال الفرنسى فابفيير (Fabvier) إلى خيوس وعهد إلى بعض الزعماء بتحريك الثورة فى تساليا وحوصرت كريت ، بينما حاول تشرش وكوكرين النزول إلى اليونان الغربيـة . وأهم من هـذا كله أن القائد هاستنجس (Hastings) وهو من أصدقاء اليونان أباد قوة عثمانيـة أمام

صالونا (Salona) . فلا عجب إذا أعان إبراهيم فى غضب : "أن العثمانيين مكتوفو الأيدى بينما اليونان أحرار فى متابعة الأعمال العدوانية" وأضاف إلى ذلك "أنه ما دام اليونان لا يحترمون الهدنة التى قبلها هو على كره شديد منه ، فإنه لا يعدّ نفسه مقيدا بأى احتياط فى جانبهم" . وفى ذلك يقول المؤرخ الانجليزى فنلاى (Finlay) : "تأبى علينا الصراحة أن نتجاهل أن إبراهيم وافق على وقف القتال وهو يعتقد أنه لن يسمح لليونان — أسوة بالترك — بأن يمضوا فى الأعمال العدائية" . ومن ثم كان إرسال جزء من أسطوله لمعاقبة هاستنج ، وهو إذ ذاك فى خليج كورنثوس ، عملا مبررا من كل وجه . وكذلك كان عمله فى تموين بتراس التى كان كوكرين يسير قاصدا أخذها .

وما أن علم كدرنجتن بخروج الأسطول المصرى ، حتى أقلع من جزيرة زنطة وأنذر السفن الإسلامية بإطلاق النار على أية سفينة تتقدم فى اتجاه بتراس وكان من نتيجة ذلك أن عادت السفن الى نوارين فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ومن الممتع تخيل النتيجة لو أن إبراهيم أصرّ على تموين بتراس فى ذلك اليوم ، ونفذ الأميرال الإنجليزى تهديده فى حين لم يكن معه غير سبع سفن .

وبعد ذلك اجتمعت الأساطيل الثلاثة المتحالفة فى مياه زنطة وبلغ عددها عشر سفن من خط القتال وتسع فرقاطات وثمانى سفن صغيرة . وهنا برز الى عالم الوجود ذلك التصميم الذى أدّى الى معركة نوارين ؛ ومؤدّاه : "أن أمراء البحر اقتنعوا — كما اقتنع كل رجل مفكر ما عدا أعضاء الهيئة الدبلوماسية — بأن العقدة التى عليهم حلها لن يفصل فيها إلا السيف" وفى هذا المضمار أخذ دى رنيى القياد وتبعه كدرنجتن وهيدن (Heiden) مختارين غير مكرهين .

ولا عجب فإن دى رنيى كان قد غير رأيه فى المسألة اليونانية وشرع ينصح لرئيس الوزارة الفرنسية باستعمال القوة لوقف العدوان لاعتقاده "أن هذا يعدّ لفرنسا موقفا نبيلا جدا" . وبهذا التحمس لإرضاء التلهف القومى لنيل المجد جرف رئيس الوزارة إلى وجهة نظره مؤقتا . ويؤيد رغبة دى رنيى فى إنهاء المسألة

عن طريق القتال ما يقصه عنه كدرنجتن من أنه "لا يحب البحر ولا يستطيع أن يتخيل الحصار" وأنه من أجل ذلك كان مستعدا للتدليل على "أن استمرار الحصار طول الشتاء عمل شاق ، كثير النفقات ، ولعله عديم الجدوى : ذلك بأنه قد تهب عاصفة تشتت شمل الأساطيل الأوروبية ، فتتاح لإبراهيم فرصة نقل جيشه الى نواح متعددة من المورة والجزر" ومن ثم كان يرى "أن خير سياسة ما تنجزه المدافع" . وبناء على ذلك قرر أمراء البحر أن أقصر الطرق وأضمنها لتنفيذ معاهدة لندن هى حرمان السلطان من وسائل الاستمرار فى القتال .

وكتب دى رني خطابا الى الضباط الفرنسيين فى الأسطول المصرى يحذرهم "أنه من الجائز نشوب معركة ، وأنهم إذا ضبطوا يقاتلون ضد علم دولتهم فإن النتائج بالنسبة لهم قد تكون خطيرة جدا ، وأنه لذلك ينصح لهم بالتخلى عن أعمالهم" وكذلك فعلوا .

وفى ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٢٧ كتب أمراء البحر إلى إبراهيم يعنفونه — فى غير استحياء ولا خجل من الكذب — بأنه أخل بتعهده وأنه بذلك وضع نفسه خارج نطاق القانون الدولى .

ولما كان إبراهيم غائبا أعيد الخطاب دون أن يفض غلافه . وفى اليوم التالى وقع أمراء البحر بروتوكول المفاوضات الذى نفذ بعد يومين فى نوارين . ونصت المادة الأولى منه على استبعاد الحصار أثناء الشتاء ، وتحدثت الثانية عن جمع الأساطيل فى نوارين نفسها حتى تكون إقامتها الدائمة هنالك ضمانا لعدم تحرك الأسطول العثمانى .

ولو أن أمراء البحر كانوا حقا يقصدون مجرد مظاهرة — كما كانوا يجاهرون — لكانت هذه المادة وافية بغرضهم . لكنهم أوضحوا أنهم بيتوا النية على تحطيم الأسطول العثمانى حين استرسلوا فى القول "بأن هذا الوضع وحده لا يؤدى الى الغاية ، لأن الباب العالى يصر على عدم تغيير خطته" . ومعنى هذا أن وجود الأساطيل الأوربية بصفة مستديمة فى نوارين لا يكفى لتحقيق أغراضهم . وعلى

الرغم من ذلك فإنهم بالمـادة الأخيرة أقنعوا أنفسهم بأن " مجـرد وجود الأساطيل بأبهتها فى نوارين يتولد عنه عزم يحقق الهدف المطلوب " .

والشيء الذى ما يزال بحاجة الى تفسيرهـو المنطق الذى سوّغوا به أن وجود الأساطيل بصفة مؤقتـة يحدث أثرا أكبر من وجودها بصـفة مستديمة ؛ اللهـم إلا إذا كان الوجود المؤقت يفسر على طريقـة دى ريني " بأنه يجب إدخال الأساطيل الثـلاثة الى نوارين نفسها و إنذار الأساطيل العثمانيـة — و يدنا على المـدفع — بأن تخرج ؛ و إلا هاجمناها على الفو ر " ومن ثم يتجـلى أن بروتوكول أمراء البحر يبرهن بذاته على أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا أقل من تحطيم الأسطول العثمانى : ذلك بأن دى ريني كان يعلم حق العـلم بأن روح إبراهيم العالية ورجولته تحولان دون انسحابه من نوارين؛ حتى ولو طلب إليه أمراء البحر — و يدهم على المـدفع — أن يفعـل ذلك ؛ اللهـم إلا إذا صـدر له أمر بهذا الانسحاب من السلطان أو من والده .

وفى ٢٠ أكتو بر انتهز كدرنجتن هبوب ر ياح شرقية مناسبة ودخل الى الميناء، وقد وجد القائد المصرى محرم بك والقـائد التركى طاهر باشا نفسيهما فى موقف حرج؛ لأن رئيسهما الأعلى وهو ابراهيم باشا كان غائبا ، ولأنهما يعلمان جيدا أن محمود ومحمد على يكرهان الاشتباك مع أور با .وفى هذه الساعة المنحوسة الطالع سمحا لنفسيهما بأن تسيطر عليهما هذه الاعتبارات السياسية بدلا من أن يقوما بواجبهما كقائدين . و بذلك عمـلا على نقيض ما اعتزمه خصـومهما إذ أن أمراء البحـر الأورو بيين كانوا قد قرروا التضحية بالدبلوماسية إيثارا لمـا رأوه صوابا ومنتجا ، بينما القائدان المصرى والعثمانى قد عكسا الآية فضحيا بما يوحى به عقلاهماخوفا من اعتبارات سياسية بسبب فرط حرصهما على الإبقاء على حسن العلاقات مع أورو با ، و بسبب إصرارهما على ألا يكون العـدوان من جانبهما إن كان ولا بدّ من قطع هذه العلاقات .

وهذه الاعتبارات بذاتها هى التى حدت محرم بك على اقتراف خطأ كان ينبغى أن يحاكم من أجله أمام مجلس عسكرى : ذلك لأن مكانه كان عند مدخل الخليج، ولأنه كان يدرك موقف التحدى الذى يقفه خصومه ؛ فكان ينبغى عليه أن يعترض دخولهم ، فاذا هم أبوا الرجوع ، هاجمهم وهم يدخلون فرادى ، بسفنه وبطارياته المنصوبة على البر .

وبما أن ابراهيم لم يكن يسمح البتة لعدوه بأن يختار نقطة الهجوم ، فمن الجائز أنه لو كان حاضرا لنفذ هذه الخطة . وإذن ، لجاز أن تكون نتيجة المعركة مخالفة لما حدث . وها هو كدرنجتن نفسه يقول : " لو أن محرم بك عجل قليلا بضرب النار لواجهنا صعوبة كبيرة " . لكنه بدلا من الوقوف موقف الرجولة انخدع بوعد الأميرال البريطانى بأنه لن يطلق النار حتى يبدأ محرم بك، ومن ثم احتفظ بحياده .

وبعد أن استغل الأميرال البريطانى حياد الأميرال المصرى المخدوع استغلالا كاملا، انقلب عليه دون أن يشعر بوخز الضمير؛ وهاجمه فى الوقت الذى كان فيه قبطان مصرى يتحدث الى ياور الأميرال البريطانى .

وبينما العثمانيون يتلفتون يمنة ويسرة لا يدرون ما يعملون كانت الأساطيل الأوروبية تأخذ أماكنها فى فسحة من الوقت : ففى منتصف الساعة الثانية دخلت السفن البريطانية حتى صارت فى وسط الهلال بالضبط فى مواجهة سفينتى أميرى البحر التركى والمصرى، ودخلت السفن الفرنسية فأخذت مكانها عن يمين كدرنجتن فى مواجهة الفرقاطات المصرية ؛ وذلك بقصد التأكد من تخلى الضباط الفرنسيين . وأما الأسطول الروسى فوقف عن يسار زميله البريطانى .

وقد ثار الجدل حول الجانب الذى أطلق القذيفة الأولى ويقول ابراهيم : "إن كلا الفريقين يتبرأ منها ؛ والثابت أن الفرقاطة البريطانية "دار تموث" بدأت أولا وبدون مبرر تستولى على حراقتنا فكان الدفاع المشروع من جانبنا سبب القذيفة

الأولى التى ألقتها دار تموث" . ولتأكيد المؤكد أطلق دى رنى على الأسطول المصرى كل مدفع على سفينته يواجه ذلك الأسطول ؛ فلم يكن من قبيل المصادفة أن أول قذيفة مصرية وقعت على السفينة لاسيرين (La Siréne) التى كان الأميرال الفرنسى على ظهرها . وهـذان الحادثتان كانا بمثابة إشارة الاشتباك العـام، وهو اشتباك لا يترك مجالا للمناورة ولا للفن البحرى بحكم ضـيق الخليج فلم تكن هناك حاجة لغير الضرب الشديد . ويقول دى رنى فى وصفه : " فى وسط هذا التنور كانت ترى سفن بأكملها مشتعلة ، وأخرى تقفز فى الهواء بانفجار مروع . ولمـا غطيت الميناء بالحطام بدت فى صورة بحيرة من تلك البحيرات الجهنمية التى يعوم فيها الكفار بين أمواج من النار والقار الملتهب " . وكتب كدرنجتن الى زوجتـه فى اليوم نفسه : " إيه ياعزيزتى ، لقد حارب الترك والحق أنهم أجادوا الحرب، وقد أعدمنا أسطولهم، وكلفنا ذلك ثمنا غاليا" .

ولم يكن أحد يشك فى النتيجة إذ الواقع أن تفوق الأساطيل الغربية تفوقا لاشك فيه هو الذى شجع أمراء البحر على المخاطرة بهذه الخطوة : ذلك بأن الوحدات المقاتلة إنما هى سفن خط القتال . وكان نصيب العثمانيين من هذه الوحدات أقل من ثلث نصيب خصومهم من حيث العدد . وفضلا عن هذا فانهم كانوا مقيدين بنطاق ضيق .وزاد الحال سوءا أن السفن الصغيرة والنقالات الكثيرة لمـا حطمها الأعداء — ولم يكن ذلك عملا شاقا — صارت خطرا على أصحابها وعائقا لهم . فما جاءت الساعة الخامسة حتى كان الأسطول العثمانى لا وجود له باعتبار كونه قوة بحرية .

هكذا حدثت موقعة نوارين تلك الموقعة التى قيل عنها بحق إنها دقت ناقوس الاستقلال اليونانى ؛ فان دم بحارة الحلفاء وقد اختلط فى خليج نوارين ربط بعضهم ببعض على الرغم من تباين مصالحهم . ولا ننسى أن زعماء جيش ما أو أسطول ما لا يناط بهم تفسير نص معاهدة ما ، ومط موادها مطا كثيرا بحيث تناقض معانيها الحرفية، كما لا يجوز لهم أن يقيموا أنفسهم قضاة يفصلون فى أمور السلم والحرب .

ومن ثم وجد كدرنجتن أن عمله هذا بحاجة الى التبرير فكتب الى الوزارة البريطانية يقول : " إن أوّل أثر عظيم سيكون قبول السلطان للهدنة المقترحة حين يجد ، بعد فقد أسطوله ، أنه لم تعد له وسيلة للاستمرار فى الحرب . وسيكون الأثر الثانى إقلاع الروس عن عزمهم على تسيير جيوشهم نحو القسطنطينية ذلك العزم الذى أخاطر بالقول بأنه الآن موضع التنفيذ" . على أن هذا التبرير لم يحل دون تجريده من القيادة .

وإذن فان التدخل بالقوة بين تركيا واليونان كان من أوله الى آخره من اقتراح القيصر نقولا الأول ومن خوف انجلترا من ازدياد النفوذ الروسى فى تركيا ، وكانت موقعة نوارين النتيجة المباشرة لمعاهدة ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ كما توقعها نقولا ومترنخ ومحمد على . وإنما وافقت عليها فرنسا لأن حكومة شارل العاشر كانت فى مسيس الحاجة الى شيء من المجد ينسى الشعب إدارتها المستبدة المحدودة النظر ، وبخاصة لأن الشعب كان قد سئم جمودها وكان يرى فى هذا الجمود مضيعة لحسن الصيت وهو لدى الفرنسيين غذاء شهى .

وما أن وصلت أخبار المعركة إلى الحكومات الثلاث وشعوبها حتى تجلى شعور هذه وتلك : ففى لندن كان الرأى العام منقسما فالهويج قابلوها بالابتهاج بينما أحس التورى — ومعهم الحكومة — بأنها على أحسن الفروض « حادث مشئوم » . وفى باريس أعلن " أن الشعب هو الذى كسب المعركة ، وأنها مبدأ انتصار الرأى العام » ، وسر شارل العاشر بما لاحظه من حب الشعب لوزرائه كأثر حسن من آثار المعركة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمتدحها دون تحفظ . أما فى بطرسبرج فان الفرح كان غير مشوب ، وظن حزب الحرب أن نوارين تؤدّى إلى حرب مع الترك طالما رغبوا فيها . وكان نقولا الملك الوحيد الذى ابتهج بها فحلى صدور أمراء البحر الثلاثة بالأوسمة ، وهنأ كدرنجتن " على النصر الذى ينبغى على أوربا

المتحضرة أن تعترف لك بجميله مضاعفا " . ولم يكن وزيره أقل منه سرورا وعبر عن ذلك بقوله : " إن أمراء البحر يستحقون أن يكونوا رؤساء وزارات يدبرون السياسة " .

أما ابراهيم باشا فلم تخفض موقعة نوارين البحرية من شجاعته مثقال ذرة، فبقى ثابتا كما كان من قبل؛ بل لعل تحطيم الأسطول جاء منقذا له بإزاحة الضباب الدبلوماسى الكثيف الذى كان يحجب الطريق عن عينيه؛ فأصبح بعد هذا الحادث يستطيع أن يؤدّى واجبه للدولة العثمانية من غير أن تعوقه عن ذلك اعتبارات السياسة الدولية . ومن ثم شرع يعمل على الفور لقضاء الشتاء فى المورة . واتضح له بعد الحساب الدقيق أن ما عنده من المؤن، مضافا إليه ما يرغب تجار اليونان فى بيعه له، يكفيه الى أن يظهر المحصول الجديد . ولبلوغ هذه الغاية أرسل الى مصر كل من يعوق وجودهم تنفيذ الخطة وهم ٢٤,٠٠٠ شخص حملهم على ما بقى من سفنه وهى قوة أكبر مما قدّر الجمهور المصرى إذ كان فيها ٢٦ سفينة حربية و ٢١ نقالة .

ومهما يكن من أمر فان أخبار نوارين لم تحدث فى مصر حنقا يذكر، بل أظهر الوالى فى هذه المحنة تجملا وسموّ نفس عظيمين فكان فى أثناء قراءة التقرير الطويل الذى بعث به اليه ابنه يتوقف و يقول فى صوت مسموع " لقد أخبرتهم بهذه النتائج " . ولا غرو فان الخبر لم يجئ مفاجئا لمحمد على إذ كان قبل ذلك بأشهر مشغولا بعمل الترتيب اللازم " لإرجاع حملته سالمة" . ولما أشار القنصل البريطانى باركر (Barker) من طرف خفى الى أن الترك هم الذين أطلقوا القنبلة الأولى قال محمد على: "كلا كلا! إن الموقعة كان لا بدّ أن تحدث " وأصر على أننا نحن[1] المعتدون ؛ وأكد أن تحطيم الأسطول بأجمعه لا يؤثر فى حال الأوروبيين المقيمين فى تركيا . واستهجن القول بأن السلطان سيأمر بذبح الأوروبيين المقيمين ببلاده مؤكدا: " أن مثل هذا المسلك

(١) يقصد الأوروبيين عامة والبريطانيين خاصة .

يخالف مبادئ الدين الإسلامى على خط مستقيم ، وأن السلطان لو ارتكب مثل هذا العمل فانه لا يعدّه مسلما ، بل يعتبره كافرا " .

وتحقق ماتنبأ به محمد على من أن السطان لن يفكر فى مذبحة عامة ، بل على العكس بقى هادئا وطلب تعويضا واعتذارا وألح على السفراء بالبقاء فى عاصمته ، إلا أنهم حين رأوا أن الباب العالى ما يزال مصرا على موقفه غادروا القسطنطينية بغير جوازات سفر .

ولما أحس السلطان بأن الحرب آتية لا ريب فيها عرض على محمد على أن يمنحه ولايات سوريا الثلاث ثمنا لمساهمته فى حالة نشوب حرب مع الفرنج . ومع أن الوالى لم يكن يخطر بباله يومذاك أن يفكر فى الاستقلال فانه اقتنع اقتناعا تاما بأنه قد أدّى واجبه نحو السلطان ، وضحى فى هذه السبيل بأسطوله وجزء من جيشه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدرك بثاقب فكره أن المضى فى معاونته للسلطان لم يعد من المستطاع أن يؤدّى إلى إخضاع اليونان ، ولا أن ينجى الدولة العثمانية من الإذعان لأمر أوروبا . وعلى أساس هذا التفكير السليم استقرّ عزمه على استنقاذ مصر من شراك السياسة الأوربية وتجنيبها التورّط فى خطة العناد التى اندفع فيها محمود الثانى على غير بصيرة بعاقبة الأمور .

ومن ثم شرع يترقب أنسب الظروف وأشرف الوسائل التى تمكن لابنه وجيشه وبقية أسطوله من العودة إلى مصر . وحانت له الفرصة حين قرّرت انجلترا وفرنسا والروسيا فى يوليه سنة ١٨٢٨ إبعاد ابراهيم عن المورة وتكليف فرنسا تنفيذ هذا القرار ، فعمد إلى الاتفاق مع الأميرال كدرنجتن فى أغسطس من تلك السنة على إخلاء المورة وأصدر أمره إلى ابنه بالعودة إلى بلاده .

وبينما ابراهيم يعدّ العدّة لتنفيذ أمر والده إذا بجيش فرنسى قوامه ١٥,٠٠٠ جندى ينزل بالمورة بقيادة الجنرال ميزون « Maison » بعد أن أصبح الموقف فى غنى عن تجريد الجيوش ، ولم يبق إلا أن يتآخى القائدان والجيشان . وأبدى زعماء الجيش

الفرنسى فى هذه المناسبة نهاية التعظيم والمجاملة لابراهيم باشا : ومن ذلك أن الجنرال « ميزون » أمر بإجراء عرض حاشد إكراما له ودعاه فى اليوم التالى إلى طعام العشاء . وتتابعت حفلات التكريم والولائم للقائد المصرى إلى أن جلا عن المورة فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ ؛ وعاد البطل المفدّى إلى وطنه . وما أن وقع بصره على والده بين رجال دولته حتى انكب يقبل أطراف الأريكة التى كان محمد على جالسا عليها . فكان هذا اللقاء من أسعد اللحظات فى حياة ذلك المصلح الفذ .

وبعد ، فان الحملة المصرية إلى بلاد اليونان كانت — على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بها — مليئة بالأعمال المجيدة التى سجلت لإبراهيم ومحمد على ومصر فخرا أبديا : فقد كان عامة الأوروبيين لا يعرفون هذه الأسماء الثلاثة إلا مقرونة بالتوحش والجهل والتأخر . فجاءت الحملة من أولها إلى آخرها عرضا شائقا لبطولة ابراهيم وعظمة محمد على ونهوض مصر : فإن الأسطول المصرى ما كاد يتصل بالأسطول العثمانى فى بحر الأرخبيل سنة ١٨٢٤ حتى أعجب الناس بحسن سفنه وسرعة سيره وبراعة مناوراته وقرنوا ذلك بارتباك الأساطيل العثمانية وبطء حركتها ، مما مكن اليونان من تحطيم ثلاثة منها ، واضطرار خسرو باشا الى الفرار أمامهم الى الدردنيل حتى لم يجد السلطان بدّا من أن يترك لمحمد على التصرّف فى الأسطولين العثمانى والمصرى ، وبينما كان ابراهيم فى مياه جزيرة ساموس ، أطلقت عليه إحدى السفن اليونانية رصاصها فبقى فى مكان الربان ينظر باسم الثغر الى الرصاص وهو يقع حوالى قدميه . ولم يمض كثير على نزوله بالمورة حتى كان صوت نفير جيشه يملأ قلوب اليونانيين فزعا ويفرّق جموعهم فى أنحاءٍ شتى ، وذلك بعد أن مزّقوا أربعة جيوش تركية ، منها جيش من خمسين ألف مقاتل كانت قيادته الى خورشيد باشا الذى كان يوما من الدهر ينازع محمد على ولاية مصر .

وما أن استولى إبراهيم باشا على المورة حتى أقرّ بفضله خصمه فى المستقبل محمد رشيد باشا فكتب إليه : " لقد أفنيت هذا الجنس الممقوت جنس الموراليةـــ

سكان المورة — فسارع بالحضور لتنكل بأولئك الصيادين سكان مدينة مسّولونجى ، فانهم أصبحوا من الشياطين بما هم مكبون عليه من عمل السحر . ومن آيات سحرهم أنى أقمت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه «كوكينس» . ويشتغل هؤلاء الكفار كل يوم بترميم أبنيتهم كلما سقطت جدرانها ، ويجرءون على شتمى من أعلى الأبراج . فهل يرضيك أن تتركنى هكذا هزأة لهؤلاء الملاعين ولعبة فى أيديهم ؟ إن امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ أسوار مسّولونجى ، فهلم إليها من غير تأخير" .

وأهم من هذا فى تقدير ابراهيم باشا أن السلطان كان قد كتب اليه خطابا بخط يده يوليه المورة ، ومعه كتاب آخر يطلب اليه فيه المسير الى مسّولونجى إذا استنجد به رشيد .

ومن مواقف البطولة التى وقفها ابراهيم أنه حين بلغت اليه معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ كان جوابه لأمراء البحر الأوربيين : "ليس لى أن أعمل إلا بأمر الوالى أو السلطان ؛ ومهما يكن الخطر الذى أصبحت به مهدّدا فلن أحيد عن الخطة التى رسمت لى قيد شعرة" . وبقى إبراهيم على هذا التصميم فى أقسى الظروف وأشدّها هولا الى أن تسلم من والده أمرا بإخلاء المورة .

ولم تكن الشجاعة وثبات الجنان كل ما عرفه الأوربيون من فضائل ابراهيم بل لقد أدركوا منه جانبا آخر ما كانوا يتوقعونه من أهل الشرق فى ذلك العصر ، ذلك هو الجانب الإنسانى ، الذى تجلى فى مناسبات تفوق الحصر ، نكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال ، منها أن أسقف موذون الذى حرّض مواطنيه سنة ١٨٢١ على ذبح جميع مسلمى نوارين بعد أن استسلموا إليهم وقع سنة ١٨٢٥ أسيرا فى يد إبراهيم فاكتفى بإبقائه فى الأسر حقيرا مهينا وأبى أن يأمر بقتله . ولم يكن هذا الحادث فريدا فى بابه ، بل كان إبراهيم يعامل اليونانيين عامة بالرفق والإحسان ، ويترفع عن سفك الدماء خارج ميادين القتال ، مقتديا فى ذلك بوالده العظيم فإن محمد على كان فى أثناء حرب اليونان وبعدها يستبق الموظفين ،

اليونانيين فى خدمته ويتجاوز ذلك الى استخدام بعض مهاجريهم ولا يتعرّض بسوء للتجار منهم حتى فضل كثير من أسراهم البقاء فى مصر على العودة الى وطنهم .

ولم يقف إبراهيم فى رفقه عند هذا الحد بل تخطاه الى درجة تخجل كثيرا من متحضرى أوربا فى عصرنا الحالى، إذ كان يعنى بالمرضى والجرحى من أعدائه عناية فائقة ويكلف طبيبه الخاص علاج بعضهم . وبلغ من ذلك أنه أحيى تقاليد صلاح الدين الأيوبى حين شكت إليه عجوز يونانية فقيرة أن ضابطا مصريا أسر ابنها الوحيد فأعطاها إبراهيم من المال مايكفى لافتداء ابنها وردّ حريته إليه .

وتأصل تقدير البطولة فى قلب إبراهيم حتى كان يكبرها فى أعدائه : جاءه وهو يحاصر مسّولنجى ضابطان يونانيان ومعهما قسيس يرجونه السماح لهم بمغادرة المدينة بحجة وثوقهم من قرب سقوطها فكان جوابه : "عودوا بسلاحكم إلى مراكزكم لتخبروا مواطنيكم بأنى أحترم من يحمون ذمارهم إلى النهاية" .

ومن هذا القبيل أنه بصر يوما ببعض جنوده يطلقون الرصاص، فى غير معركة، على ألد خصومه «كولوكترونيس» فزجرهم وناداه : "سلم نفسك أيها القائد" . فكان جواب « كولوكترونيس » أن أطلق الرصاص يريد قتل إبراهيم ، ولكنه أخطأ الهدف فأصاب أحد أتباعه .

ولا غرو بعد هذا أن يشهد له جميع من اتصلوا به من الأوربيين بالشجاعة التى لا يرقى اليها ضرب من ضروب الخوف، أقرّوا له بالعبقرية الحربية وسعة العلم بالسياسة الأوربية، إلى جانب التفكير العميق والتدبير الحصيف، والرفق بالخصم المغلوب والعطف على المحتاجين من أعدائه وأسراه ومساواتهم فى توزيع المؤن بجنوده؛ فكان بذلك مثلا حيا لمحمد على الكبير وعنوانا لما نالته مصر على يديه من النهوض من كبوتها والخروج من ظلمات الفوضى والارتباك إلى نور الاطمئنان والنظام .

وهكذا كانت الحملة اليونانية وسيلة لتعريف أهل أوربا بما بلغته مصر يومذاك من رقىّ مادى ومعنوى وتنبيه أذهانهم الى ما يرجى لها من مستقبل باهر .

فهرس بأهم الأسماء والألفاظ اليونانية الواردة فى هذا الفصل ورسمها بالحروف العربية كما ينطق بها اليونان

أذمنديوس كورائيس	Adamantios Koraïs
أناتوليكو ومن معانيها الشرق	Anatoliko
أرغوس	Argos
أرماطول ومعناها حامل السلاح	Armatole
أرتـا	Arta
بوتساريس	Botzares
كاپوذ ستر ياس	Capodistrias
كندوريوتس	Condurotti
كورنثوس	Corinth
ذاريـا	Daria
ذيموچيرنتس ومعناها شيوخ البلدية	Demogerontes
ذرفنــد	Dervend
ذيكيوس	Dikaios
غستونى	Gastouni
غيورغيوس ماڤروميخاليس	George Mavromichalis
غرمانوس	Germanos
إلاس	Hellas
إتيريا فليكى ومعناها "شركة الاحياء"	Hetairia Philiké
هوسپودار ومعناها حاكم البغدان أو الافلاق	Hospodar
إذرا	Hydra
إپسلندس	Hypsilanti

Kalamata	كالاماتا
Kanaris	كاناريس
Karaiskaki	كارايسكاكس
Casos	كاسوس
Kleidi	كليذى
Klepht	كلفت
Krioneri	كريونيرى
Kromidi	كروميذى
Kitsos Djavellas	كتسوس دزاڤيلاس
Larissa	لاريسا
Maina	ماينا
Maniaki	مانياكى
Makrijanis	ماكريانيس
Makriplaye	ماكريپلايى
Makris	ماكريس
Makrynoros	ماكرينوروس
Mavrocordatos	ماڤروكورذاتس
Movromichalis	ماڤروميخاليس
Miaouli	مياؤليس
Missolonghi	مسولنجى
Modon	موذون
Nauplia	نافليو
Navarin	ناڤارينون

Olympus	أوليمبوس
Pallicar	باليكار ومعناها بطل
Pappadiamandopoulos	باپاذيامندوبولوس
Pappa Phlessas	باپافليساس
Peta	بيتا
Philhellenes	فيلهيلينس ومعناها أصدقاء اليونان
Piana	بيانا
Pindus	بنذوس
Proestes	بروستس ومعناها رجال بارزون
Psara	بسارا
Pyrgos	برغوس
Rhegas	ريغاس
Sachtouris	سختوريس
Skourtis	سكورتس
Souli	سولى
Spezzia	سپتس
Sphacteria	سفكتريا
Theodore Koloktrones	ثيوذوروس كولوكوترونيس
Thucydides	ثوكيذيذس
Tombazes	تومبازيس
Tricoupi	تريكوبس
Tsamados	تساماذوس
Vasiladi	ڤاسيلاذى

Vervena	ڤرڤنا
Volo	ڤولوس
Zaimis	زايميس
Zerekovia	تسيروكوڤيا
Zygos	زڤفوس

جهود ابراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة

للدكتور أحمد أحمد الحته

اشتهر ابراهيم باشا ببطولته وكفايته الحربيـة فى ميادين القتال ببـلاد العرب والسودان واليونان والشـام والأناضول ، فذاع صيته فى الشرق والغرب حتى أن شهرته الحربيـة حجبت لدرجة ما النواحى الأخرى من مواهبـه، فلم يعرفه بعض الناس إلا قائدا ماهرا و بطلا فذا، قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر .

حقيقة كان ابراهـيم باشا قائدا مظفرا، امتاز بالشجاعة وحب النظام، ولكن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربيـة فقط، إذ تجلت جهوده الاقتصادية فى مصر والشام و بلاد العرب، وظهرت كفايته الإدارية فى حكم الشام، وفى المهام الإدارية التى تولاها فى مصر [1] .

---

(١) فى سـنة ١٨٠٧ عين ابراهيم دفتردارا أى مفتشا عاما للحسابات فأدّى عمـله بجدارة خليقة بالإعجاب ، وفى سنة ١٨٠٩ عين حاكما على الصعيد علاوة على منصبه الأوّل فنجح فى إدارته ، وفى سنة ١٨٢٩ تألف مجلس المشورة برئاسة ابراهيم باشا للبحث فى مسائل الادارة والتعليم والأشغال العمومية والقضاء ، وفى نفس السنة كان ابراهيم باشا على رأس الادارة المدنية والعسكرية ، لايمل من التفتيش على أعمـال تلك الادارة ، وقد اضطلع بقسط وافر من إصلاح الحالة الإدارية بمديرية الشرقية مما جعل والده يصرح بأن ابراهيم قد حمل عنه عبئا ثقيلا ، وفى يناير سنة ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصى برئاسة ابراهيم باشا للنظر فى شؤون الحكومة الكبرى وسنّ اللوائح والقوانين وإصـدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وفى ابريل سنة ١٨٤٨ تولى ابراهيم باشا حكم مصر ، واستمر واليا حتى وفاته فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨

Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 355. — Crabitès Ibrahim of Egypt , pp. 5-7, 122-123.

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٦٢٤ — ٦٣١

وجهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر معظمها فى الزراعة، فقد كان شديد العناية بها شعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك زعيم المماليك وهى : " إذا طلبت الذهب فى مصر فانبش أرضها "[١] ويقرر هامون أن " ابراهيم باشا ينكب على الاقتصاد الزراعى، ويعكف عليه بسرور، ويمكن القول قطعا بأنه يحب الزراعة"[٢] ولا غرابة فى ذلك، فقد لمس ابراهيم باشا بنفسه — وهو لايزال فى مقتبل العمر — أهمية الزراعة المصرية فى الحياة الاقتصادية عندما كان «دفتردارا» ثم حاكما على الصعيد .

وقد اهتم ابراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى : وهى الأرض والعمل ورأس المال، والمقصود بالأرض تلك العناصر التى يقدمها الينا الوسط الذى نعيش فيه من أرض وماء وهواء وضوء وحرارة، ويقصد بالعمل كل مجهود اقتصادى للانسان سواء كان باليد أو العقل، أما رأس المال فهو كل ثروة سابقة ما عدا الأرض يعتمد عليها الانسان فى إنتاج ثروة أخرى .

ففى العامل الأول ساهم ابراهيم باشا فى الانقلاب الذى أحدثه والده فى حيازة الأراضى الزراعية، إذ قام بتنفيذه فى الصعيد، وذلك أن محمد على أخذ فى تغيير نظام الحيازة حتى أصبحت الأراضى الزراعية فى يده، واستطاع بذلك تنفيذ نظامه الاقتصادى، ولا شك فى أن رغبته فى زيادة موارده المالية وفى بسط نفوذ الحكومة كانت من أهم أسباب ذلك الانقلاب إذ كان فى احتياج دائم الى المال منذ توليته، فلما وجد أن نظام الالتزام حجر عثرة فى طريقه، وأن أراضى الرزق معفاة من الضرائب صمم على فك الالتزام ووضع يده على الرزق حتى

---

(١) ادوارجوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٧٩٠

(٢) Hamont: L'Egypte sous Méhémet Ali (Paris, 1843), T. I, p.186.

تزداد موارده المالية ويتمكن من تنفيذ إصلاحاته وتقوية نفوذه وبسط سلطته ومحاربة أعدائه[1].

ساهم ابراهيم باشا فى ذلك الانقلاب باستيلائه فى سنة ١٨١٢ — بناء على أمر والده — على معظم أراضى الالتزام فى الصعيد، وبخاصة حصص الالتزام التى كانت فى حوزة المماليك والتى استولوا على بعضها بعد نزوحهم الى الصعيد، وبذلك لم يبق من أراضى الالتزام بالوجه القبلى إلا النزر اليسير[2].

وفى نفس السنة أمر محمد على ابنه ابراهيم بالاستيلاء على أطيان الرزق المرصدة على المساجد والخيرات بالصعيد فنفذ الأمر ومسح الأراضى، ولم تنته السنة التالية إلا وكان ابراهيم قد أخذ للحكومة معظم أطيان الرزق بالصعيد المرصدة على المساجد وعلى الأهالى والخيرات وعلى البر والصدقة[3].

كذلك استولى ابراهيم باشا على ما فى الصعيد من الأطيان الأميرية المعروفة باسم اطلاق، والتى كانت معدّة لتموين خيل البكوات المماليك بالعلف، وذلك بعد القضاء على سلطة المماليك فى سنة ١٨١١[4].

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨)

نظام الالتزام هو أن يلتزم شخص ما للحكومة بدفع ضرائب الأطيان على أن يترك أرض الفلاحة للفلاحين يزرعونها نظير دفع الضرائب عنها له ويستولى على أرض الوسية يستغلها لحسابه الخاص.

أطيان الرزق بعضها ملك ينتقل بالميراث ويتصرف فيه أصحابه كيفما شاءوا وأكثرها أوقاف أهلية وأوقاف على مكة والمدينة وعلى المساجد والأضرحة، وعلى أعمال البر والصدقة والإحسان من مستشفيات وأربطة (تكايا) وسبل لسقى الناس وأحواض لسقى الدواب ومقارئ لتلاوة القرآن وبعض طلبة العلم والفقراء.

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٦٤ (حوادث سنة ١٢٢٧) Reybaud et autres: Histoire de l'Expédition Française. Vol. 9. p. 407.

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٦٤ و١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٧ وسنة ١٢٢٨).

(٤) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨) Estève: Mémoire sur les Finances de l'Egypte. (Description de l'Egypte, T. 12. p. 51) — Reybaud et autres: Op. cit. Vol. 9. p. 407.

وفى سـنة ١٨١٣ عين ابراهيم مأمورا لمساحة القطر المصرى وشرع المساحون فى العمل بمباشرة محمود بك الدويدار والمعلم غالى وفى مايو سـنة ١٨١٤ ظهرت نتيجة المساحة بعد صدور الأمر فى فبراير من تلك السنة بفك الالتزام (١) فكانت تلك المساحة ناسخة لنظام حيازة الأطيان الذى كان قائما فى مصر من قبل ونهاية لذلك الانقلاب الذى قام به محمد على منذ سنة ١٨٠٨ .

وتبعـا لتلك المساحة التى كانت تحت إمرة ابراهيم أخذت الحكومة ما زاد فى قياس أطيان الالتزام سـواء كان من أرض الفلاحة أو أرض الوسـية وأعطت الملتزمين إيرادا سنويا يعرف باسم الفايض يستمر طول حياتهم تعويضا لهم عن أخذ حصص التزامهم كما منحتهم أطيان الوسـية طول حياتهم إن شاءوا زرعوها وإن شاءوا أجروها وأعفت تلك الأطيـان من الضرائب ومنحت أصحابها حق التنازل والهبة وصرحت لهم ببيعها للحكومة فقط (٢) .

وبذلك تم استيلاء محمـد على على أراضى الالتزام ولم يخـرج عمله هـذا عن الأشياء المشروعة حيث كانت ملكية الأرض للحاكم ولم يكن الملتزمون مالكين الأرض بل وساطـة بين الحكومـة والفـلاح لجمع الضرائب وكان رفع أيديهم عن التصرف مدعاة إلى تحصيل الضرائب على الوجه الأكمل وإخراجا للفلاح مما كان فيه من ظـلم بعض الملتزمين الأقوياء وجشعهم ولقـد شعر الفلاحون أنفسهم بهـذا

(١) أمين سامى : تقويم النيـل ج ٢ ص ٢٤٤ — الجبرتى ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٥ (حوادث صفر وربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى ورجب سنة ١٢٢٩) .

(٢) دفـتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٣ (افادة من الروزنامه الى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .
Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Ali, T. II. p. 339.

الانقلاب فبعـد أن كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد صاروا يواجهونهم بقولهم: "أنتم إيش بقالكم فى البلاد قد انقضت أيامكم إحنا صرنا فلاحين الباشا"[1].

هـذا هو موقف الفـلاحين الذين لم يقوموا بأية حركة ضـدّ الانقلاب بل تقبلوه بقبول حسن نظرا لخروجهم من حالة الذل والظلم فقـد "كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشترى فربما أن العبـد يهرب من سـيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب وأما الفـلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنـه وأولاده وعياله ويهرب وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أسـتاذه مكانه أحضره قهـرا وازداد ذلا ومقتا وإهانة وكان من طرائفهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضـير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهـم الغفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير إلى شـغل الملتزم فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشدّ وسحبه من شنبه وأشبعه سـبا وشتما وضربا وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة واعتادوا على ذلك بل يرونه من اللازم الواجب وهذا خلاف ما يلقونه من الإذلال والتحكم من مشايخهم والشـاهد والنصرانى الصراف وهو العمدة والعهدة خصـوصا عند قبض المـال فيغالطهم ويناكرهم وهم له أطوع من أسـتاذهم وأمره نافذ فيهـم فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواقى لا يدفعها وإذا غلق أحدهم ما عليه من المـال الذى وجب عليه فى قائمة المصروف وطلب من المعلم ورده وهى ورقة الغلاق وعده لوقت آخر حتى يحرّر حسابه فلا يقدر الفلاح على مراددته خوفا منه فإذا سأله من بعد ذلك قال له بقى عليك حبتان من فدان أو خروبتان أو نحو ذلك ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفى منه قدر المـال أو يصانعه بالهدية والرشوة وغير ذلك أمور وأحكام خارجة عن إدراك البهيمة فضـلا عن البشرية كالشكاوى ونحـوها وذلك كما إذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئى بادر أحدهم بالحضور الى الملتزم وتمثل بين يديه قائلا أشكو اليك فلانا بمائة ريال مثلا فبمجرد قوله ذلك

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٢١ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩).

يأمر بكتابة ورقة خطابا إلى قائممقام أو المشايخ باحضار ذلك الرجل المشتكى واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكى قليلا أو كثيرا أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ويكتب بهامشها كراء طريقه قليلا أو كثيرا ويسمونه حق الطريق فعند وصوله أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق ثم الشكوى فان بادر ودفعها وإلا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه فيوعده الحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تلفظ به الشاكى وإن تأخر عن حضوره أو حضور المعين أردفه بآخر وحق طريق الآخر كذلك ويسمونها الاستعجالة وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد ربوا عليها واعتادوها لا يرون فيها باسا ولا عيبا ... ... وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالما يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحيهم لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين . وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث فى هذه الدولة من قياس الأراضى والفدن[1] » .

وقد أخذت الحكومة أيضا فى مساحة ١٨١٣ ما ظهر من الزيادة فى أطيان الرزق وقيدت ما بقى منها بعد ذلك باسم واضع اليد على الرزقة وواقفها وزارعها وقررت عليها المال مثل ضريبة البلدة فإن أثبتها صاحبها وكان عنده سند بها تقيد له فى الروزنامه معاشا سنويا يعرف باسم الفايض ومقداره يساوى نصف أجرة رزقته ولا يضاف للحكومة عند وفاة صاحبه وقد أخذ محمد على على عاتقه الأنفاق على المساجد والخيرات التى من أجلها أرصدت أطيان الرزق[2] .

وعلى هذا كان محمد على بمثابة ناظر على أطيان الرزق الموقوفة وهذا مشروع كما أنه نظم أحوال الوقف بما يتفق مع مصلحة الوقف ومصلحة الدولة فأعطى معاشا

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٢ (افادة من الروزنامه إلى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

من كانت تلك الأطيان فى حوزتهم وأخذ على عاتقه الإنفاق على المساجد والخيرات تنفيذا لأغراض الوقف وأفاد الحكومة بفرض الأموال الأميرية على تلك الأطيان وبإدارتها من الوجهة الزراعية كبقية أراضى القطر وعلى هذا فإن محمد على لم يلغ أطيان الأوقاف بل أدخل عليها تعديلات تتفق مع نظامه الاقتصادى .

وتبعا لمساحة ١٨١٣ وزعت أطيان كل ناحية بين أهاليها القادرين على الزراعة وفرضت عليها الضريبة على حسب جودتها وأعطى مشايخ البلاد جزءا من الأراضى بنسبة خمسة أفدنة من كل مائة فدّان معفى من الضرائب مقابل خدمتهم للحكومة وضيافة الواردين على القرية وعرفت تلك الأطيان باسم مسموح المشايخ والمصاطب[1] .

هكذا تم الانقلاب فى حيازة الأطيان ذلك الانقلاب الذى ساهم فيه إبراهيم باشا فنفذه فى الصعيد حيث كان حاكما وأشرف على مرحلته الأساسية إذ كان مأمورا لمساحة ١٨١٣

هذا وقد أنعم محمد على على نفسه وعلى أفراد أسرته بأطيان واسعة من الأبعادية والمعمور رزقة بلا مال صارت ملكا مطلقا لهم فى فبراير سنة ١٨٤٢ يتصرفون فيها كيف يشاءون على الوجه الشرعى بدون قيد ولا شرط وعرفت تلك الأطيان باسم الجفالك ونتج عن ذلك إصلاح مقدار كبير من أطيان الأبعادية وزراعته فزادت بذلك الثروة الزراعية وقد اتسعت مساحة الجفالك بضم مقدار كبير من الأطيان

---

(١) دفتر ١٨٨٩ أوامر رقم ١ (أمر فى ٢٤ المحرم سنة ١٢٧٤) — دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٥٨ (لائحة ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٣) — دفتر ٧٣٦ ديوان خديوى تركى رقم ١٠٨ (قرار المجلس فى ٤ ذى الحجة سنة ١١٤٢) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٢ و ٣٣٢ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ وحوادث سنة ١٢٣٥) — أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية (ترجمة)، ص ٤٧

إليها وذلك أن محمد علي أضاف إليهـا أطيان بعض القرى العاجزة عن دفع ما عليها من الضرائب المتأخرة والمـال وأعفاها من المـال وكانت الروزنامة تعطى صاحب الجفلك تقسيطا باسمه يثبت إعطاء الأطيان له رزقة بلا مال[١] .

وتبعا لذلك امتلك إبراهيم باشا أطيانا واسعة فكانت چفالكه كثيرة العـدد[٢] وبذا ساهم فى زيادة الإنتاج الزراعى والثروة القومية .

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالرى فى چفالكه لمـا له من أهميـة كبرى فى الإنتاج فأدخل وابور الميـاه فى مصر لرفع المـاء اللازم لزراعاته ويدار ذلك الوابور بالبخار[٣] وقد اقتـدى به فى ذلك بعض الأغنياء حتى أن كبار الزارعين فى الوجه القبـلى ممن فى حوزتهم أطيان كثيرة استعملوا وابور المياه فى زراعاتهم حوالى سنة ١٨٥٢[٤] .

هـذا ما عمله إبراهيم باشا فى العامل الأول للإنتاج وهو الأرض أما فى العامل الثـانى وهو العمل فقد اهتم منـذ البدء بالقائمين به وهم الفلاحون إذ وضـع حدا لاستبداد المشايخ فى الوجه القبلى عندما كان حاكما عليه وكان هؤلاء المشايخ يسيرون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم كما دافع عن حقوق الفلاحين فى الصعيد بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه[٥] .

---

(١) تقاسيط الجفالك باسم محمد على وأفراد أسرته بدار المحفوظات العمومية — دفتر ٥٦ معية تركى رقم ٢٨ و ٢٠٠ (أمر فى ٢٥ ذى الحجة سـنة ١٢٤٩ وأمر فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٠) — دفتر چفالك نبروه والنجرية وبشبيش وطنبارة وبسنديلة بدار المحفوظات العمومية (أمر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧) — دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٤٥ و٢٤٦ (فرمان عالى فى ٥ المحرم سنة ١٢٥٨) .

أطيان الأبعادية هى التى لم تدخل فى مساحة ١٨١٣ لكونها بورا خالية من الزرع إذ ذاك بخلاف المعمور .

(٢) Hamont: Op. Cit. T. I, p. 82.

(٣) St. John: Village life in Egypt. Vol. I, p. 62.

(٤) Bellefonds: Mémoires sur les Principaux Travaux D'Utilité Publique, p. 548.

(٥) أدوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٥٩٣

وعندما كان إبراهيم باشا يزور أوربا فى سنة ١٨٤٥ كتب إلى والده يقول : إن أفضلية الحضارة الأفرنكية راجعة إلى أن الطبقات الفقيرة أحسن حالا[1] ويدل قوله هذا على موقفه من الفلاحين ورغبته فى إصلاح حالهم وهم يكونون معظم الطبقة الفقيرة فى مصر .

وفى عهد ولايته على مصر من ابريل سنة١٨٤٨ إلى ١٠ نوفمبر من نفس السنة قامت الحكومة بحماية الفلاحين من ظلم المتعهدين وذلك أن محمد على كان قد أنشأ من قبل نظام العُهَد فى بعض القرى التى عليها ضرائب متأخرة تعرف باسم البقايا وبها أطيان متروكة بدون زراعة وتبعا لذلك النظام كان المتعهد يلتزم للحكومة بدفع ما على القرية من الأموال الأميرية والبقايا ويترك للأهالى أطيانا على حسب قدرتهم يزرعونها ويدفعون له ما يخصها من الأموال والبقايا أما هو فيزرع ما بقى من الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين غير المقتدرين مقابل إعطائهم أجرا على العمل فى زراعته بشرط أن تترك للأهالى أطيانهم تدريجيا كلما تحسنت حالتهم المالية حتى إذا عمّ التحسن جميع الأهالى أعيدت إليهم أطيانهم نهائيا[2] ، وعلى حسب تقسيم الأطيان بين المتعهد والأهالى فى أوّل الأمر كان كل من الطرفين يزرع أطيانه ويدفع أموالها الأميرية وما يخصها من البقايا فإذا عجز بعض الأهالى عن زراعة أطيانه أو عن دفع ما عليها من ضرائب وبقايا ترك بعضها أو جميعها للتعهد وكذلك إذا أصبح بعض الأهالى مقتدرا وطلب أطيانا من المتعهد أعطاها له وفى الحالتين يضاف على من يأخذ الأطيان بعد التقسيم الأوّل ما يخصها من البقايا التى دفعها الطرف الآخر[3] .

---

(١) Paton: A History of the Egyptian Revolution, Vo. II, p. 239.

(٢) دفتر ٨٥ معية تركى رقم ١٧٢ (إرادة إلى مفتش عموم الحسابات المصرية فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٥٢) — دفتر ٦ رقم ٧١ (أمر إلى حسن بك مدير القليوبية فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥١) .

(٣) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤

ولكن بعض المتعهدين ظلم الفلاحين فأعطاهم القمح وغيره من الحبوب مقابل أجرتهم بثمن أعلى من سعر السوق وألزمهم شراء القمح التالف بسعر الأردب خمسين أو ستين قرشا مع أنه لا يساوى عشرين قرشا فما كان من حكومة ابراهيم باشا إلا أن أجبرت هؤلاء المتعهدين على دفع الفرق بين السعر الذى أخذ به الفلاح الحبوب والسعر المتداول فى الأسواق عند صرفها له كما قررت أن يكون سعر الحبوب التى تعطى فيما بعد الفلاح نظير أجره موافقا للسعر المتداول فى السوق وقت الصرف [١].

كذلك وزع بعض المتعهدين البقايا على أطيان الفلاحين ولم يفرضوا على الأطيان التى زرعوها لحسابهم الخاص نصيبها من تلك البقايا فصار الفلاحون بذلك مكلفين بمال أطيانهم وجميع البقايا التى على القرية وفى هذا ظلم للفلاحين ونقض صريح لشروط العهد ولذا تدخلت حكومة ابراهيم باشا لحماية الفلاحين فأمرت المديرين بمراجعة دفاتر هؤلاء المتعهدين وإضافة نصيب أطيانهم من البقايا عليهم مع خصمه مما على الأهالى كما أوجبت على المتعهدين التدقيق فى توزيع البقايا بالتساوى على أطيانهم وأطيان الأهالى على أساس الفدان وحذرتهم من مخالفة ذلك وقررت عقاب من يقترف منهم فيما بعد مثل تلك المظالم فى توزيع البقايا على أطيان القرية [٢].

كذلك حمى ابراهيم باشا الفلاحين من أنفسهم وذلك أنهم لجأوا إلى تشويه أعضاء أولادهم منعا لذهابهم إلى الخدمة العسكرية فى الجيش والأسطول وقد سرت تلك الروح فى الشبان حتى تحملوا عن طيب خاطر إتلاف أعضائهم ما دام ذلك موجبا لبقائهم بين أسرهم بعيدين عن شبح الجندية التى لم يتعودوها من قبل ولا شك فى أن إتلاف الأعضاء من سمل الأعين وبتر أصابع الأيدى والأرجل

---

(١) دفتر مجموع أمور إدارة وإجراءات ص ٨٧ (قرار عليه أمر فى غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤)

(٢) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ — دفتر مجموع إدارة وإجراءات ص ٨٧ — ٨٨ (قرار المجلس العمومى وعليه إرادة فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٤).

وإسقاط الأسنان أنقص من كفايتهم فى العمل[1] فأثر ذلك أثرا سيئا فى الزراعة ولذا اتخذ محمد على عدّة إجراءات ضد إتلاف الأعضاء حتى أن ذلك العمل قلّ ولكنه لم ينقطع فلما تولى ابراهيم باشا حكم مصر ورأى استمرار قطع أصابع الأيدى قرر فى يونيه سنة ١٨٤٨ نفى من يقطعون أصابع أيديهم مؤبدا الى جبل ددل بالسودان للعمل فى أشغال المعدن إن كانوا بالغين فان كانوا دون البلوغ ينفى بدلهم من تسبب من أهاليهم فى قطع أصابعهم[2].

ورغبة فى المحافظة على صحة الفلاحين وغيرهم من المصريين حرّم محمد على زراعة الحشيش فى مصر منذ أوائل سنة ١٨٣٨ تبعا لمنع استعماله لما له من آثار سيئة فى صحة الأهلين وعلى الرغم من ذلك ومن معاقبة من يتجاسر على زراعته عاود الناس زراعته خفية بعد مدّة يسيرة وأخذوا يستعملونه من جديد ولذا اتخذ ابراهيم باشا فى يونيه سنة ١٨٤٨ تدابير حاسمة لمنع زراعته وبيعه منعا باتا وذلك بتشديد الرقابة على زراعته وفرض غرامة على من يزرعه مقدارها خمسمائة قرش تعطى من يخبر عنه فضلا عن قلعه من الأرض[3].

هذا وكان الفلاحون فى چفالك ابراهيم باشا أحسن حالا من زملائهم فى المزارع الأخرى إذ كانت أجرة الواحد منهم ٤٠ بارة يوميا يأخذ منها خبزا كل يوم بمقدار ٣٠ بارة والباقى يأخذه نقدا من وقت لآخر وفى مقدوره تربية بعض الحيوانات.

---

(١) Bowring: Report on Egypt and Candia, pp. 13, 52, 196. Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, p. 177.—Combes: Voyage en Egypte, En Nubie, Vol. I, p. 133.

(٢) دفتر مجموع أوامر جنائية ص ١٩٦ و ٢٠٢ (أمر فى ١٣ رجب سنة ١٢٦٤ وإفادة فى ١٨ رجب سنة ١٢٦٤) .

(٣) دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٦٤ (الى مديرى الوجهين البحرى والقبلى فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٣ — قرار المجلس العمومى فى ٥ رجب سنة ١٢٦٤) — دفتر ٤٥٢ ج ٤ معية تركى رقم ٦٦ (الى جميع الجهات فى ٢٢ رجب سنة ١٢٦٤) .

والدجاج فى الوقت الذى كانت فيه أجرة الرجل القوى الماهر فى الزراعة تتراوح بين ٢٠ بارة و ٣٠ بارة فى الصعيد وبين ٣٠ بارة و ٤٠ بارة فى الوجه البحرى [١] . وإليك ما جاء فى أمر محمد على الى مدير النصف الثانى للوجه القبلى : " اطلعت على التقرير المؤرخ فى ٩ شوال سنة ١٢٥١ الذى أرسلته ورأيت فيه أنك بحثت مع نظار الأقسام موضوع جلب العمال اللازمين لزرع قصب السكر المرتب زرعه فى أراضى نجلنا الباشا السرعسكر الكائنة فى مديريتك وأنهم تعهدوا بتقديمهم ورأوا من المناسب ترتيب عشرة قروش شهريا لكل منهم ... ... يامحرم أغا إن نجلنا السرعسكر رتب لكل من العمال المستخدمين فى أعماله الكائنة فى هذه الجهات أجرا يوميا قدره قرش واحد (أربعون بارة) وهذا يدل على أنه لم يطلب إليك أن ترتب لكل منهم عشرة قروش شهريا ويخيل إلىّ أن النظار هم الذين ظلموا الأهلين هذا الظلم وأنت أقررتهم عليه للزلفى والتظاهر بالإخلاص ... ... " [٢] .

هكذا اهتم ابراهيم باشا بالأرض والعمل أما العامل الثالث للانتاج وهو رأس المال ويشمل المبانى المقامة على الأراضى وما تحتويه من الآلات الزراعية المستعملة فى الخدمة والحصاد وآلات الرى وحيوانات الزراعة والبذور والسماد [٣] فقد اهتم به أيضا ابراهيم باشا إذ أدخل فى چفالكه كثيرا من الآلات الزراعية

---

(١) Gliddon : A Memoir on the Cotton of Egypt, P. 26. —
Hamont : Op. cit., T. I., p. 77.
القرش = ٤٠ بارة .

(٢) دفتر ٦٣ معية تركى رقم ٣٢٦ (من الجناب العالى الى مدير النصف الثانى للوجه القبلى فى ١٨ شوال سنة ١٢٥١) — تمتد مديرية النصف الثانى للوجه القبلى من وادى حلفا الى فرشوط .

(٣) جيد : مبادئ الاقتصاد السياسى ص ١٠٥ — ١٠٨ ، ١١٢
Carver: Principles of Rural Economics, pp. 204 — 207, 211 — Rew: A Prime of Agricultural Economics, pp. 64, 66, 73.

الحديثة التى كان الأهلون يجهلونها حتى ذلك الوقت[١] وأدخل من آلات الرى وابور المياه الذى يدار بالبخار[٢] كما كانت الحيوانات الزراعية فى جفالكة قوية معتنى بها[٣] .

هذه هى جهود ابراهيم باشا فى عوامل الإنتاج الزراعى أما فى الثروة النباتية فقد بذل جهودا محمودة أفادت الزراعة المصرية فائدة جليلة فقد ساهم مساهمة قيمة فى أقلمة النباتات إذ أنشأ بجزيرة الروضة حديقة من قسمين أحدهما على النسق الإنجليزى والآخر على النمط الفرنسى ووكل أمرهما الى اثنين من مهرة الإخصائيين فى فلاحة البساتين هما : (تريل) الإنجليزى و (نقولا بوفيه) البلجيكى وجمع فى الحديقة أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية[٤] وبذلك أصبحت الحديقة بقعة لأقلمة النباتات وإجراء التجارب الزراعية وإليك ما قاله هامون فى صدد ذلك :

"أشار بعض المؤلفين الى النباتات الأجنبية التى جلبها ابن محمد على الى أرضه بجزيرة الروضة فهذه النباتات عددها كبير جدا وحديقة الأقلمة يمكن ذكرها كواحدة من أحسن الحدائق الموجودة ... وقد جلب ابراهيم باشا الى مصر النباتات الثمينة فى العالم المعروف وفى الهند خاصة[٥]" ويقرر بورنج أن "حديقة ابراهيم باشا بجزيرة الروضة إحدى الحدائق المغرية ... وقد أجريت فى هذه الحديقة تجارب كثيرة مفيدة جدا ومهمة[٦]" .

وقد تقدمت فلاحة البساتين فى مصر فى ذلك العهد ودخلت فى الحدائق المصرية أشجار ونباتات أجنبية كثيرة من جهات مختلفة وكان لإبراهيم باشا يد طولى

(١) Hamont: Op. cit. T. II, p. 305.

(٢) راجع ماذكر عنه أثناء الكلام على الأرض .

(٣) Hamont: Op. cit., T. I, p. 77.

(٤) كلوت : لمحة عامة الى مصر (ترجمة) ج ١ ص ٢٤٣ — دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها (ترجمة) ص ص ٦٦ و ٩٥ و ٩٥ Bowring: Op. cit. p. 26.

(٥) Hamont: Op. cit., T. I, p. 186.

(٦) Bowring: Op. cit., p. 26.

(٧) تريل (Traill) — نقولا بوفيه (Nicolas Bové) .

فى هـذا التقدّم فقد طلب من حديقة النباتات بباريس أن ترسل إليـه إخصائيا فى فلاحة البساتين فأرسلت إليه (نقولا بوفيه) البلجيكى سنة ١٨٢٥ فأنشأ لإبراهيم باشا حديقة عظيمة لأقلمة النباتات الأجنبية فى جزيرة الروضة وأدخل فى أطيان ابراهيم باشا بجزيرة الروضة عددا كبيرا من الأشجار النافعة من الهنـد وبلاد العرب وقد سافر فى ديسمبر سنة ١٨٣٠ الى بلاد العرب لجلب نباتى الكاد (الشاى) والبن ورجع من رحلته هذه فى يونيه سنة ١٨٣١ ثم سافر ثانية فى أبريل من السنة نفسها الى بلاد العرب والشام للبحث عن نباتات جديدة لإدخالها فى حدائق ابراهيم باشا ورجع الى القاهرة سنة ١٨٣٢ (١)

وأيضا أرسـل ابراهيم باشا بستانيه الى بلاد الهنـد للبحث عن نباتات نافعة للزخرفة والزينة وقد زرع معظمها فى حدائق ابراهيم باشـا بالمنيل وجزيرة الروضة ومصر القديمة وبحديقة الوالى بشـبرا وحديقة القبة وحديقة سليمان باشا وحدائق أخرى كثيرة بالقاهرة والإسكندرية (٢) .

وكذلك أرسل ابراهيم باشـا الى جزيرة جميكا عمر أفندى الاخصائى فى صناعة السكر بعد رجوعه من بعثته فى أوربا فأحضر منها نوعا من القصب الأحمر (٣) .

ومن أهم النباتات الأجنبية العظيمة القيمة التى أدخلها ابراهيم باشا فى حدائقه الجوافة والبن وشجرة التيكا والبباز والقشطة وشجرة الصمغ المرن وشجرة كف مريم

---

(١) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ص ٥٨ — ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٥
Delchevalerie: Calendrier Egyptien, p. 33.

(٢) Delchevalerie: Flore Exotique de Jardin d'acclimatation de Ghézireh et des Domaines de S. A. le Khédive, pp.14—15.

(٣) محفظة ٧٧٩ ديوان خديوى تركى (من الديوان الخديوى الى سامى بك فى ٢٩ ربيع الأول سـنة ١٢٤٨) — Mazuel: Le Sucre en Egypte, p. 33.

وأم ألف ورقة والزنجبيل والصنوبر الهنـدى وشجرة كابيوت والخيزران والمـانجو وجوز الهند والفلفل الأسود والقرفة والشاى(١) وشجرة الأبنوس وشجر البقم الهندى(٢) .

وقد ذكر دلشيفالرى النباتات الأجنبية التى أدخلها ابراهيم باشا فى حديقته بجزيرة الروضة فنجحت زراعتها واستمرت نامية حـتى رآها بنفسه عند ما كان فى خدمة الخديو اسماعيل فيما بين سنتى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وها نحن نلخصها فيما يلى :

١ — أشجار الأخشاب :

أبنوس الحبش وأبنوس الهند وخشب السرسوع من الهند وخشب المهجنو من سان دمنج وخشب الصندل الأبيض من الهنـد الشرقية والخشب الأملس من جزيرة موريس وخشب بليساندر من الهنـد والخشب الوردى من أمريكا الجنوبية وخشب التونة من اليبنول بالهند وخشب سندروس من أمريكا الجنوبية وخشب الكابلى من أمريكا الجنوبيـة وخشب مـورايا ايكزوتيكا من الصـين وخشب الاماريس جونانسيس من الجويانة وخشب الزيتـون من جزيرة موريس وخشب الصندل من جزيرة بوربون وخشب البقم من الهنـد الشرقية وشجرة تين الوثنيين المعروفة بين العامة بالجميزالافرنكى من الهند وشجرة التيك الهندية من الهند .

٢ — أشجار الفاكهـة :

المـانجو من الهند واللوز الهندى من الهند الشرقية والبكان من أمريكا والتمر الهندى من الهنـد والكوكا من السنغال والتبلدى من السودان والكاكى من اليابان والجوافة والقشطة والجمبوزا .

---

(١) أدخلت هـذه النباتات الأجنبية فى حدائق ابراهيم باشا منذ نشأتها سنة ١٨٣٠ الى أوائل سنة ١٨٣٨ Bowring: Op. cit, pp. 26 — 27 — Delchevalerie: Calendrier Egyptien, P. 33.

(٢) فيجرى : حسن البراعة فى علم الزراعة ج ٢ ص ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣

٣ — أشجار الزينـة :

(أ) من الهند : شجرة تفاح الفيل والازادرخت وميليا سمبر فيرنس واليسار وشجرة الجناجل وخف الجمل وشجرة المرجان الهندية .

(ب) من أمريكا الجنوبيـة : بيجنونيا سبيسيوزا والجهنمية وودن الفيل ودورانتا بلوميراى وبنت القنصـل الحمراء والبيضـاء وفلفـل أبو ورق رفيع .

(ح) من اليابان والصين : الباسقة والغاب الافرنجى والرابص .

(د) من بلاد أخرى : نخـل الرخام الهافانى من جزيرة كوبا واللاتانيـا العادية من جزيرة بوربون والكادى من مدغشقر .

٤ — أشجار أخـرى :

الكاد (الشاى) والبن من بلاد العرب ونخلة الدقيق من جزيرة سيلان وشجرة الدهن اليابانية والبوسيانوس من مدغشقر وشجرة الفيكوس تسيلا من الهند الشرقية وجزائر الفلبين وشجرة الصـمغ المرن والفيكوس أبو لسان من جزيرة جاوه والفيكوس بوبوليفوليـوم من الحبشـة والفيكوس لوريفوليوم من أمريكا الجنوبيـة (١) .

هذا ويبين فيجرى فضل ابراهيم باشا ووالده فى أقلمة الأشجار الخشبية الأجنبية فى مصر حيث يقول : " إن اقليم وادى النيـل والدلتا مناسبان لتعود عدّة أشجار أجنبية يتحصل منها الخشب والذى يثبت ذلك ويحققه التجارب التى فعلت فى شأن ذلك جملة سنوات ببستان شبرا والمنيل ومصر العتيقة وأثرالنبى وأكناف الاسكندرية أيام جنتمكان الحاج محمـد على باشا ونجـله جنتمكان ابراهيم باشا والى الآن يوجد

(١) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٥٣ — ٦٩ .

بالبساتين المذكورة عدّة أشجار منها نجحت وتكاثرت بالبزور أو العقل المتحصلة منها وهذا يؤيد أنها تعودت على أهوية هذا القطر[١] ".

ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ غرس ابراهيم باشا فى الحدائق والحقول كثيرا من الأشجار الأجنبية من توت وزيتون وبرتقال وأنواع أخرى فنجحت زراعتها وتأقلمت ومن بين تلك الأشجار التوت الأبيض المجلوب من الصين والتوت المنسوب الى الفلبين وكذلك البرتقال الدموى وهو نوع نادر إذ ذاك لون لحمه فى حمرة الدم وكان فى حدائق ابراهيم باشا مثل نظيره فى مالطة والبرتغال[٢] .

وقد أدخل ابراهيم باشا ووالده فى مصر زراعة أنواع العنب المعروفة فى أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا واستخرج منها الأوربيون نبيذا جيد النوع فالنبيذ الأبيض كان مشابها لنبيذ مرسالا بجزيرة صقلية والنبيذ الأحمر كان مماثلا لنبيذ اسبانيا[٣]، وقد زرع ابراهيم باشا أصنافا كثيرة أجنبية من العنب فى بساتين المطرية والقبة فتحصل منها عنب جيد استخرج منه نبيذ كالذى يستخرج من هذه الأصناف فى بلادها الأصلية[٤] .

كذلك أدخل ابراهيم باشا زراعة الخضر الأجنبية مثل الهليون والشليك والبطاطا والبطاطس[٥] .

---

(١) فيجرى ج ٢ ص ٩٦ — جاء فيجرى إلى مصر حوالى سنة ١٨٢٧ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الطب فى عهد محمد على ثم رئيس الصيادلة فى عهد اسماعيل وألف كتابه هذا فى أوائل عهد اسماعيل .

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٤٤ — كلوت ج ١ ص ٢٧٠ : Delchevalerie : Aperçu Général sur les Vegetaux. Exotiques Naturalisés en Egypte, pp. 2, 13, 14, 53.

(٣) كلوت ج ١ ص ٢٧٢ . Bowring: Op. cit. p. 25.

(٤) فيجرى ج ٢ ص ١٢٢

(٥) كرتوا جيرار : الروضة البهية فى زراعة الخضراوات المصرية (ترجمة) ص ٥

وبالاختصار أدخل ابراهيم باشا فى الزراعة المصرية جميع النباتات الأجنبية التى اعتقد أنه من المستطاع نجاحها فى مصر من فاكهة وخضر وأشجار نافعة وأشجار الزينة[١] .

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية اهتم ابراهيم باشا بزراعة الحاصلات المصرية حيث كان مزارعا عمليا من الدرجة الأولى فعنى عناية خاصة بزراعة القطن وحسن صفاته كثيرا[٢] .

كذلك أولى إبراهيم باشا زراعة القصب كثيرا من رعايته فكانت له مزارع من القصب فى الصعيد وبخاصة فى بلدة الروضة بلغ إنتاج الفدان منها سبعا وعشرين قنطارا ونصف قنطار من السكر فضلا عن العسل والمكسب الصافى من الفدان ٣٢ جنيها استرلينيا[٣] .

وبلغ من رغبة إبراهيم باشا فى توسيع مزارعه من القصب أن طلب من والده أن يمنحه ألف فدان من أطيان الابعادية فى مديرية النصف الأول من الوجه القبلى (جرجا وأسيوط) لزراعتها قصبا لحسابه الخاص فوافق والده على ذلك وأمر بإعطائه ذلك المقدار من الأطيان من أحسن أطيان الابعادية بالبلاد التى عينها فى طلبه[٤] .

كذلك أرسل إبراهيم باشا بعض الأشخاص إلى الوجه القبلى للبحث له — بدلالة أناس من أصحاب الخبرة — عن أطيان تصلح لزراعة القصب[٥] .

---

(١) داشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٦٧

(٢) Charles — Roux; La Produciion du Coton en Egypte, p. 82.
Crabitès: Ibrahim of Egypt, p. 124.

(٣) Bowring: Op. cit., pp. 21 — 23 — Taylor: Journey to Central Africa., p. 104.

(٤) دفتر أوامر عربى أمر رقم ٨٣ (أمر إلى مدير نصف أول قبلى حسين أغا فى ١٩ شوال سنة ١٢٥٠) .

(٥) دفتر ٦٢ معية تركى رقم ٥٠٩ (من المعية السنية إلى باقى بك فى ٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٠) .

وقد عمل إبراهيم باشا على تكثير أشجار الزيتون فغرس أشجارا كثيرة منها نجحت نجاحا حسنا وأثمرت ثمارا جيدة[١] حتى أن فيجرى قرر أن "تكاثر شجر الزيتون بالقطر المصرى أحدث فى ولاية جنتمكان الحاج محمد على باشا ونجله جنتمكان إبراهيم باشا[٢]".

كذلك أمر إبراهيم باشا بغرس مئات من أشجار خيار شنبر[٣] كما زرع آلافا من أشجار اللبخ فى مصر السفلى وغرس[٤] أشجار التوت فى مئات كثيرة من الأفدنة[٥].

وقد اهتم إبراهيم باشا بغرس الأشجار سواء كانت من أشجار الغابات أو أشجار الفاكهة وأنفق الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء البلاد المصرية فغرس حتى سنة ١٨٣٥ لحسابه الخاص ٥,٠٠١,٥٣٤ شجرة من ٢٥ نوعا من أنواع أشجار الغابات و ٥٨٦,٢١٤ شجرة من ٤١ نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى ٧٣٤ صنفا مختلفا[٦]. وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل ذلك لا يتجاوز ١٢ نوعا كما كان لا يوجد من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ١٨ نوعا وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفردة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقى[٧].

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية والعناية بزراعة الحاصلات المصرية اهتم إبراهيم باشا بالدعاية الزراعية فى مدة ولايته على مصر فقد رأى أن ينشئ صحيفة

---

(١) Bowring: Op. cit., p. 24.

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) Crabitès: Op. cit., p. 124. — شجرة خيار شنبر من النباتات الطبية وتستعمل ثمارها فى الشئون الطبية.

(٤) دلشيفالرى: حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٩٣.

(٥) Bowring: Op. cit., p. 21.

(٦) Marmont: Voyage du Maréchal duc de Raguse, T. 3. p. 349.

(٧) كلوت ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١.

أسبوعية باللغة العربية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة والإعلانات الملكية تنشر على جميع البلاد والقرى زيادة على الوقائع المصرية ليعلم أرباب التجارة والزراعة منها رواجهما ومحسناتهما وقد عملت لائحة ببيان الإفادات والكشوف والإعلانات الواجب إرسالها فى كل أسبوع إلى ديوان المدارس بالأخبار المذكورة وحررت أوّل نسخة من هذه الصحيفة وطبعت ونشرت على المديريات فى الأسبوع الأوّل من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م)(١) ولا نعلم من أمر تلك الصحيفة شيئا بعد ذلك ولعلها ألغيت بعد وفاة منشئها فى الأسبوع التالى لصدورها ولا شك فى أن تلك الصحيفة لو قيض لها الاستمرار لأدّت خدمات جليلة للزراعة والتجارة .

هكذا كانت جهود إبراهيم باشا فى الثروة النباتية أما فى الثروة الحيوانية فقد ساهم أيضا فى تقدّمها وزيادتها وذلك أنه عندما فتح بلاد العرب أخذت مصر تجلب منها الخيل النجدية وهى أولى أنواع الخيل وأجملها وأسرعها فاتخذ منها المصريون والأتراك فى مصر فحولا للنزو على أفراسهم إذ أن الفحل النجدى ينجب نتاجا ممتازا كما استخدمها الوجهاء والأعيان للركوب أو للإنتاج والتناسل(٢) .

كذلك عندما فتح إبراهيم باشا الشام أرسل منها بعض مئات من الأفراس إلى قرى الوجهين البحرى والقبلى فأعطيت للأتراك لتربيتها من أجل التناسل وتكاثر النوع(٣)، والخيل الشامية عدة أنواع أحسنها العنيزى نسبة إلى قبيلة عنيزة وله مكانة عظيمة ويعتبره الشرقيون والأوربيون أوّل خيول العالم بعد النجدى ولذا استخدم فى مصر لركوب العظماء أو للإنتاج وفى كلتا الحالتين كان مفيدا جدا وقد تفوق الحصان العنيزى على الحصان المصرى تفوقا عظيما كما أن نتاجه كانت له قيمة كبيرة(٤) .

---

(١) الوقائع المصرية عدد ١٢ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وعدد ٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ .

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 529, 531 — 536.

(٣) Hamont: Op. cit. T. II. p. 237.

(٤) Hamont: Op. cit. T. I, pp. 529 — 531.

وقـد أنشأ إبراهيم باشا اصطبلا لتربية الخيل لحسابه الخاص يقع على ضفاف النيـل بالقرب من قصره عند القصر العيني وكان به ٤٠٠ رأس من الخيول منهـا بعض الأفـراس والفحول المصرية وكثير من الفحول العنـيزية التي تلي النجدية في المرتبة أما أكثر الأفراس والفحول فنجدية أخذها إبراهيم باشا من بلاد العرب عندما فتحها، وكان الاصطبل في أوّل الأمر على النظام المتبع إذ ذاك في مصر فلما وقف إبراهيم باشا على حالة اصطبل شبرا الجديد الذي أنشأه والده حوالي سنه ١٨٣٧ بإشراف (هامون) ناظر مدرسة الطب البيطري استشار (هامون) فقدّم هـذا إليه تقريرا بالإصلاحات اللازمة غير أن إبراهيم باشا ترك له الحرّية في العمل كما يرى فقام بالإصلاحات بمساعدة رجل فرنسي في خدمة إبراهيم باشا فعدّلت أحوال الاصطبل ونظـامه وأنشئت حظائر يطلق فيهـا سراح الأمهار أثناء النهـار وأعطيت إدارة الاصطبل لطبيب بيطري مصري يراقبه (هامون)[١] .

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالحيوانات الزراعية في چفالكه فكانت قوية كما خصص بعض الأبقار والجاموس في عزبه للذبح لاستهلاك الأوربيين في القاهرة[٢] .

كذلك ساهم إبراهيم باشا في تربية دود القز بغرس أشجار التوت في مئات كثيرة من الأفدنة لتوفير الطعام اللازم للدود[٣] وكانت مصر تزرع التوت البلدي والشامي من قبـل بجلبت نوعين آخرين هما التوت الأبيض من الصين والتوت المنسوب إلى الفلبين والنوع الأخير أوراقه كبيرة محدّبة مدوّرة تنبت قبـل أوراق التوت المعتاد وتستعمل غذاء لدود القز الصغير الذي يخرج من بيضه قبل الأوان وفيما بعد تصير هذه الأوراق يابسة فتستعمل غذاء للحيوانات الكبيرة وبخاصة الخيل والضأن والمعز

---

(١) Hamont: Op. cit., T. I, 530, T. II, pp. 234, 236.

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 77, 336.

(٣) Bowring: Op. cit., p. 21.

وقد عرف هذا النوع من التوت فى مصر باسم البكير وقد زرعه إبراهيم باشا كما زرع التوت المجلوب من الصين فضلا عن التوت البلدى والتوت الشامى (١) .

كذلك حاول إبراهيم باشا أقلمة دودة الصباغة فزرع فى بستان المنيل النبات الذى تعيش عليه وهو نوع أجنبي من التين الشوكى وجلب حشرات تلك الدودة فتكاثرت تكاثرا عظيما على نحو أربعة أشجار من التين الشوكى الخاص بتربية هذه الحشرات لكن هذه الأشجار اختنقت وماتت بسبب تراكم هذه الحشرات عليها وبذا لم تأت التجربة بنتيجة جيدة غير أن هذا ليس ناشئا عن عدم تعوّد هذه الحشرة على أهوية مصر بل عن نفاد الطعام وعدم تعوّد النبات الذى تعيش عليه (٢) .

هذه هى جهود إبراهيم باشا فى الزراعة أما فى الصناعة فقد اهتم بصناعة السكر تبعا لعنايته بزراعة القصب فأنشأ مصنعا يدار بالبخار لتكرير السكر بالقرب من فرشوط (٣) .

كذلك أدخل إبراهيم باشا صناعة الروم فى مناطق القصب التابعة له ولكن نوع الروم كان متوسطا فأرسل إلى جزيرة جميكا عمر افندى للوقوف على صناعة الروم هناك وادخال أحسن أساليب إنتاجه فى مصر وقد رجع هذا المبعوث بمعلومات أتاحت للباشا إقامة معمل لصناعة الروم يعمل على أحدث الأصول (٤) .

---

(١) فيجرى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، ١٢٧ — ١٢٨ — كاوت ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ — دفتر ٧٣١ ديوان خديوى تركى رقم ٧٧ (إلى زكى أفندى فى ٥ شوّال سنة ١٢٤٠) — دفتر مصلحة الحرير ص ٣ (لائحة ترتيب زراعة أشجار التوت وتكثير محصول الحرير فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧) .
Delchevalerie: Aperçu Général sur les Végétaux Exotiques; p. 53.

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٩ — تستخدم دودة الصباغة فى صبغ الطرابيش .
Hamont: Op. cit., T. I. pp. 186 — 187, T, II, P. 249.

(٣) Taylor: Journey to Central Africa, p. 104 — Pascal: La Cange, Voyage En Egypte, p. 147.

(٤) Bowring: Op. cit. p. 23. — Mazuel: Op. cit., p. 33.

أما عن جهود إبراهيم باشا فى التجارة فقد أصلح المحكمة التجارية وذلك عندما أمر بإخراج الأرائك من دارها و وضع بعض الكراسى ومنضدة بدلا عنها وتعيين كاتب خاص ليدوّن محاضر الجلسات (١) .

وقد أنشأ إبراهيم باشا صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة وقد سبق الكلام عليها فى الزراعة .

هذا ويفضل إبراهيم باشا حرية التجارة على الرغم من أن الاحتكار كان أساس النظام الاقتصادى فى مصر فى عهد والده وأن الحكومة كانت تأخذ حاصلات معينة بالثمن الذى تحدّده ، وكان إبراهيم باشا يعتقد أن نظام الاحتكار لا بدّ أن يؤدّى إلى تدهور ثروة أى قطر وأن مثله كمثل قطع الشجرة الطيبة التى تبشر بثمر عظيم فى موسمها للحصول عاجلا على مقدار تافه من الفاكهة الفجة (٢) .

هذه هى جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر أما فى الشام أثناء الحكم المصرى فقد عمل على تنمية موارد الثروة والحصول على إيراد للحكومة دون الأضرار بالاقتصاد القومى وأولى الزراعة جل عنايته واهتمامه لأنها الفرع الأساسى للاقتصاد الشامى فتقدمت تقدّما عظيما (٣) .

وقد اهتم إبراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى فعمل على زيادة الأراضى الزراعية وذلك بأن أعطى الأطيان لأى شخص يريد زراعتها مع إعفائه من ضريبتها إن كانت فى حالة غير حسنة كما شجع الفلاحين على زراعة الأراضى وتعمير القرى المهجورة وأمّنهم من غارات البدو عليهم تلك الغارات التى كانت فيما مضى تحملهم

---

(١) Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 356. (Pezzoni à Heyden, 25 août, 1829.)

(٢) Yates: The Modern History and Condition of Egypt, (1843), Vol. II, p. 172.—Douin: La Mission du Baron de Boislecomte, p. 248.

(٣) Sabry: L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, pp. 351, 358, 366.

على ترك الأراضي وكذلك ألزم الموظفين الكبار والأهالى الأغنياء إصلاح القرى الخربة وزراعة أطيانها وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية مما أدى إلى تعمير قرى كثيرة كانت مهجورة من قبل والى زراعة أراضيها وأيضا اهتم ابراهيم باشا بزراعة الأطيان البور فأرغم الأهالى على زراعة الأراضى الصالحة وأنفق مبلغا كبيرا من المال فى مشروعات من هذا القبيل ليكون مثلا أعلى لغيره وألزم ضباط الجيش حتى رتبة بكباشى الإنفاق على مشروعات مماثلة لذلك وزرع لحسابه الخاص سهل انطاكية الفسيح وكان بورا وأيضا طهر النهر الصغير بين عنتاب وحلب مما جعله يأتى بكمية أكثر من المياه وقد زادت الأراضى الزراعية ٨٠,٠٠٠ فدان فى مدى سنتين فى سنة ١٨٣٦ وزاد إيجار الأطيان فى بعض الأماكن الى ثلاثة أمثال إيجارها من قبل (١).

وأيضا اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثانى للانتاج الزراعى فاهتم بالفلاحين وعمل على ما فيه خيرهم فأمنهم من ظلم الحكام ونهب البدو واعتداءاتهم فصاروا سعداء ميسورين لعدم تعرضهم للجور الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك رغب ابراهيم باشا البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى المهجورة وأرغم بعض القبائل الرحالة على الإقامة فى سهل انطاكية لزراعته على حسابه الخاص ، وبذا تحول آلاف من البدو الى زراع (٢) .

كذلك اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثالث للانتاج فأنشأ البنك الزراعى وأقام صرافا فى كل من حلب واطنه ودمشق معه ٥,٠٠٠ جنيه لتسليف المال اللازم للزراع المحتاجين كما أعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا القرى المهجورة

---

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨ Dodwell: The Founder of Modern Egypt, p. 253 — Sabry: Op, cit., pp. 351 — 356, 367.

(٢) Dodwell: Op. cit., pp. 253-254 - Sabry: Op. cit, pp. 341 - 343, 351, 352, 354, 355, 358. — محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨

لإصلاح بيوتهم وتموينها وأعفاهم من الضرائب ثلاث سنين وقدم فى سنة ١٨٣٦ للفلاحين المساعدات الآتيــة : ٣٣٠,٤٠٠ قرشا و٤٤٧ شنبلا من القمح و ٢٠٧ شنابل من الشعيركما أنشأ فى السنة السابقــة ١,٧١٨ محراثا وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية .

هذا عن عوامل الإنتاج أما عن الثروة النباتية فقد بذل ابراهيم باشا مافى وسعه لتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج فأدخل فى الشام كثيرا من الخضر الجديدة وبخاصة البطاطس وجلب ١٤,٠٠٠ شجـرة من عنب بردو زرعها بالقرب من حلب وعمل على تكثير الزروع المختلفة فلم تنقص زراعة أى محصول بل بالعكس اتسعت زراعة الحبوب والخضر اتساعا كبيرا وصـارت من حاصلات التصـديركما زاد محصول القطن وكثرت أشجـار التوت والزيتون والعنب حيث أُلزم الفلاحون زراعة عدد كبير منها فى كل قرية كما زادت أشجار الخروع وأجريت التجارب فى زراعة القصب والنيلة وشجر البن وقطن مصر، وكان ابراهيم باشا يفتش دائما على الأعمال الزراعية ويحرث الأرض بنفسه ليشجع الفلاحين وليضرب لهم المثل الأعلى ، كما كان يبذل أقصى جهده فى مقاومة الجراد حتى لايتلف الزرع وذلك بتكليف الأهالى والجنود القضاء على الجراد وقيامه بمباشرة العمل بنفسه وجمعه بعض الجراد بيديه تشجيعا للأهالى[٣].

أما عن الثروة الحيوانية فقــد كان الحرير المحصول الرئيسى للشام وعماد ثروتها ينتج بالأخص فى مناطق صيدا وبيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية

---

١ محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ — الشنبل = ٥٠ رطلا = ١٠٠ أقة شامية . Sabry: Op. cit, pp. 351, 353

٢) سليمان أبو عز الدين : ابراهيم باشا فى سوريا ص ٣١٦ — ٣١٧ ,.Sabry Op. cit . pp. 335, 353—355, 357, 360, 365.

(٣) محمــد كرد على : كتاب خطط الشـام ج ٣ ص ٦٩ Barker: Syria and Egypt under the last Five Sultans of Turkey, Vol. II, pp. 209—210—Sabry: Op. cit, p. 354.

وانطاكية تلك الأقاليم التى توجد بها مزارع واسعة من أشجار التوت زادت كثيراً أثناء الحكم المصرى، وقد تحسن نوع الحرير نتيجة لإدخال بيض دود القز من فرنسا و إيطاليا على يد باركر القنصل الانجليزى فى الشام الذى اتبع الطريقة الأوربية فى تربية دود القز فأثر ذلك البيض وتلك الطريقة فى تحسين الحرير عامة[١] .

كذلك ادخلت الأغنام الاسبانية فى ضواحى نابلس وأرسلت بعض الذكور من الأغنام الاسبانيــة لضمها الى الأغنام الموجودة فى عكا كما طلب ابراهيم باشا إرسال أغنام من كريت الى الشام لتربيتها هناك[٢] .

هكذا استأثرت الزراعة بمعظم نشاط ابراهيم باشا الاقتصادى فى الشام لأنهـا الفرع الأساسى للاقتصاد القومى أما الصناعة فكان الاهتمام بها أقل من الزراعة ومع هذا فقد استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسى للصانع ففى سـنة ١٨٣٦ استهلك نحـو ١,٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام فى مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماة وبيروت ودير القمر وصيدا، وكذلك أنشئ فى صور مصنع لنسج الصوف، وعمل ابراهيم باشا على إدخال طريقة أكثر إتقانا لاستخراج زيت الزيتون فى طرابلس وما جاورها بجلب معاصر الزيت من فرنسا واسـتخدم عمالا أوربيين فى العمل وكانت النتيجة سارّة جدا بالنسبة الى الكم والكيف للزيت الناتج، وأيضا بذلت الحكومة المصرية جهودا عظيمة لكشف المعـادن واجتهدت فى التنقيب فى جبال الشام بواسطة اخصائيين ففى الجنوب بحث بعض الفرنسيين عن الرخام وفى لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيـدا من الفحم الحجرى وفى الشمال اختبر بعض النمساويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بهـا ومهما يكن فمن الثابت أنه عند نهاية الحكم المصرى تأكدت الحكومة من وجود الفحم والحديد بكثرة فى مناطق مختلفة[٣] .

(١) Barker: Op. cit., Vol. II, p. 255 — Sabry: Op. cit., pp. 335, 352, 355.

(٢) أسدرستم : بيان بوثائق الشام ج٢ ص ٢٩٤ Sabry: Op. cit. p. 335.

(٣) Sabry: Op. cit., pp. 358 — 362.

هـذا وقد أدّت العناية الخاصـة بالزراعة إلى نشاط التجارة فزادت التجارة الخارجية زيادة مستمرة كما تأثرت التجارة الداخليـة تأثرا عظيما من زيادة الإنتاج الزراعى وتقـدّم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزا عظيما للتجارة مع بغـداد والبصرة والفرس والبـلاد المجاورة كما زادت تجارة حلب زيادة عظيمة وأصبحت مصر الأولى بين الدول فى تجارتها مع الشام بعد أن كانت فى أوّل الأمر فى الصف الثانى، وقد امتازت سياسة ابراهيم باشا التجارية فى الشام بزيادة الإنتاج الزراعى من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبإلغاء ما كان موجودا من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وبتنظيم توزيع الضرائب ، وقد عمل ابراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مركبا للملاحة فى نهر الأورنت حتى أنطاكية ، وكانت حرية التجارة من قواعد السياسة المـالية فى الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشاميين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق ابراهيم باشا مبادئ الحرّية كل ذلك كان مضادّا لإنشاء الاحتكارات فى الشام غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما أنشأ ابراهيم باشا — بناء على أمر والده — احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع هذا فقد منح حرية تصدير الباقى بعـد ذلك الى الخارج[١] .

تلك هى جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى الشام أما فى بلاد العرب فانه عندما فتحها وضع أساس الإصـلاح الزراعى فيها فأمر بحفر الآبار فى الأماكن الجـدباء التى ظنّ فيها ماء[٢] .

هكذا كانت جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر والشام وبلاد العرب وهى جهود محمودة تنهض دليلا على أن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية التى اشتهر بها بين الجميع بل تعدّتها الى الناحية الاقتصادية .

---

(١) Sabry : Op. cit., P· P· 363 — 368

(٢) Crabitès: Op. cit., P. 36.

إدارة الشــام

روحهــا وهيكلها وأثرها

للدكتور أسد رستم

دخل بطل مصر الى ربوع الشام فاتحـا منتصرا . وقضى عشر سـنوات فيها موطدا مؤسسا . وكان رحمـه الله مؤمنا برسـالة والده الكبير مخلصا لهـا مندفعا فى تنفيذها اندفاعا نادرا . وكانت رسالة العزيز هـذه تتلخص بمـا يلى : أوّلا بالاعتراف بتأخر « المـلة المحمدية » بتعبير ذلك العصر و بضعف الدولة العثمانيـة وبعجزها عن حماية هذه الملة . وثانيـا بوجوب الصمود لطمع أوروبة وجشعها ودفع شرها عن الملة . وثالثـا بوجوب التذرّع بجميع الوسائل الفعالة للوصول الى هذا الهدف النبيل . قال العزيز فى كتاب له أرسله الى إبراهيم عند تأزم العلاقات بينـه و بين الباب العـالى للمرة الثانية و بمناسبة تدخل الدول الأوروبية مامعناه : لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانيـة ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كى يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الإسلامية بسهولة ولذا فإن قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتمـام استقلالها . فبدلا من أن نقبل هـذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت فى سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا . هذا إذا غلبونا وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فحينئذ نجد فى الدنيا الجنة التى يبحث عنها الناس فى الآخرة . فيدوى فى الافاق صـدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده.[1]

---

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٣٦ ، يراجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية . بيان بوثائق الشام ج ٤ ص ٢٨٦

وكان العزيز يرى من واجبه إزاء ماتقدّم ذكره عن رسالته أن يؤمن العباد ويعدل بينهم ويوحد قلوبهم ويزيد فى إنتاجهم كى يتسنى له الذود عن الملة والدين . ولم ير ما يمنعه عن الأخذ بجميع ماتوصلت إليه أوروبة من أسباب الرقى والعمران للقيام بمهمته وأداء رسالته . فاستقدم من أوروبة رهطا كبيرا من أهل الاختصاص فى الحرب والسلم . ووكل إليهم أمر الإصلاح . وأيدهم كل التأييد وأرسل الوفد تلو الوفد من أبناء بلده الى أوروبة لتحصيل العلوم والفنون كى يتمكن فى النهاية من الاستغناء عن الغربيين الغرباء . ولم يقم فى ذلك العهد فى الآستانة من كان يصلح أن يعدّ للعزيز نظيرا . ولكن شاءت الأقدار أن ينبرى من رجال الحاشية السلطانية من يعترض سبيل العزيز ويشوّه سمعته أمام السلطان، فخشى العزيز سوء العاقبة ، واضطرّ أن يستعدّ لمحاربة السلطان وحاشيته فى سبيل الدفاع عن النفس .

حمل ابراهيم رسالة والده الى الشام ، وبدأ بتأمين الأمن، فامتنع عن إرهاب الأهالى ، وامتثل فى ذلك لأمر خاص صدر من والده يوصيه فيه "بوجوب تأمين الأهالى وعدم اتباع سياسة التخويف والتهويل"[1] .

وكان قد استدعى اليه منذ بدء أعمال الفتح الأمير اللبنانى الكبير بشير الشهابى للتداول معه فى تدبير الأمور، وقد أكبر بعمله هذا مواهب الأمير وخبرته وإصالة رأيه وإخلاصه ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى القائد المصرى عددا لا يستهان به من ولاة الأمور فى البلاد، وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة ، وأوصى "بوجوب المحافظة على راحة الأهالى ، وتأمين العباد، وزجر المعتدين، وتحاشى أسباب الجور والاعتساف"[2] . ووضع فى الوقت نفسه تحت تصرّف هؤلاء الولاة فى جميع المراكز الهامة عددا كافيا من الجند لتنفيذ الأحكام وإحقاق الحق ، ثم

---

(١) عابدين دفتر ٣ رقم ٩٣ : راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ١ ص ٧٦ .

أمر عددا من كبار معاونيه بالتجوّل فى البلاد وتفقد أحوال السكان للتثبت من تنفيذ أوامره السابقة .

وكان العزيز نفسه شديد الاهتمام بهذه المراقبة ملحا كل الإلحاح بتنفيذها موجبا على ابراهيم نفسه أن يقوم بشىء منها . فقد جاء فى إحدى رسائله الى ابنه فى الشام " ان التجول فى الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا أفضل من إصلاح الطرق ومجارى الأنهار فى ادنه وطرسوس " .

وبعد أن أتمّ ابراهيم كل هذا منع جباية " الخوة " فى معابر البلاد ومسالكها وكانت السلطات العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها أجيالا طوالا ، فانحطت كرامتها وقلّ نفوذها ، وأصبح جباة هذه " الخوة " أسيادا فى مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . من هؤلاء آل أبى غوش فى الطريق المؤدّى من يافا إلى القدس وآل رستم فى جسر شغور عبر العاصى بين اللاذقية وحلب وعشيرة الدنادشة فى تل كلخ بين طرابلس وحمص . نهى إبراهيم عن الخوة وهدّد بالعقاب الصارم فامتنع جباتها عنها وامتثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد ومسالكها حرة طلقة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين بالامنة . ومما جاء من هذا القبيل قوله فى مرسوم له وجهه إلى قاضى القدس وشيخ الحرم فيها ومفتيها ونقيبها وخدّام المسجد الأقصى " انه ليس خافيكم أن القدس الشريف محتوى على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع أملال العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج و يقصدونها من سائر الأقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الأغفار الموضوعة بالطرقات ولأجل إجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين فى ايالة ألوية صعيدا وألوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم[(١)] .

---

(١) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ ، راجع أيضا عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٢ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٨٨

ورأى بطل مصر موطد الأمن فى الشام أن لا بدّ من جمع السلاح وتجريد السكان منه فأمر بذلك وشرع فى التنفيذ . وما أن بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك أزواجهم خيرا لهم وأجل وأشرف من ترك أسلحتهم فعقد الزواج بنادقهم . ومما زاد فى الطين بلة أن عملاء الآستانة استغلوا الموقف وحرضوا السكان على الصمود فى وجه الحكومة المصرية فاشتدّ ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرّد ابراهيم على كل من عصى حملة أكرهه فيها على الإذعان والطاعة . وتكبد فى سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فمن حرب فى فلسطين عم البلاد بأسرها الى حملة تأديبية على النصيريين إلى مواقع دامية فى وادى التيم وجبل الدروز إلى محاربة الأكراد فى أقصى الشمال إلى فتنة مستعصية فى لبنان أدّت فى نهاية الأمر إلى تدخل الدول الأجنبية و إقصاء المصريين عن البلاد .

أما عن العدل وهو وسيلة العزيز الثانية فحدّث عنه ولا حرج . والواقع الذى لا جدال فيه إن الشام لم تنل من العدل فى أى عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب ما نالته فى ظل العزيز. قال العزيز فى رسالة له وجهها إلى أحد رجاله ناظر الجهادية : "كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية[1]" .

هذا هو العزيز وهذا هو رائده فى الحكم . فاذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابعته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول وأثره فى توجيه القضاة ورجال الإدارة والجيش .

---

(١) معية تركى دفتر ٣٦ رقم ١٦١ . المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦ .

وفهم العزيز عقلية شعبه فهما تاما ، فأمر بشدّة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر، ومثال ذلك أن تشا كى كبار الموظفين انتشار الرشوة فى دوائرهم فى الشام فأمر العزيز بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم، فنفذ حكم الإعدام أكثر من مرّة فى أناس ثبت عليهم هذا الجرم، قال ابراهيم فى كتاب له الى سامى بك معاون العزيز : " ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعوم نوفل[١] أن أهل عربستان ميالون جدا الى إعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدّى ذلك إلى اكتشاف خباثة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم. وقد تحملنا فى سبيل إنقاذهم من بلية الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا فى السلب والنهب خوض المقدمين على الإغارة[٢]" .

وأبقى اتفاق كوتاهيه تعيين قضاة الشرع فى الشام بيد السلطان فخشى العزيز عدول هؤلاء عنه وانحيازهم إلى جانب السلطان وأثر ذلك فى أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة[٣] وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الإدارة قبل تنفيذها . ثم لمس عجزهم عن النظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طلقة . ولم يتردّد العزيز عن التدخل عند الحاجة فى فهم الشرع الشريف وتطبيقه . فرضى رحمه الله عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة فى اللاذقية عندما أفتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيريين ونسائهم وعندما قاومه اللواء المصرى وهدّد بإنزال العقاب بمن يفعل ذلك[٤] . وقل الأمر نفسه عن موقف العزيز من علماء دمشق عند ما اعترضوا على نظام الكرنتينا . قالوا : " إن حبس الناس فى البيوت وإقامة خفراء مأجورين عليهم وإخراج بعضهم على

---

(١) كاتب الخزينة فى طرابلس .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ١٣٠ . المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) عابدين دفتر ٦ رقم ١١٠ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٠١ .

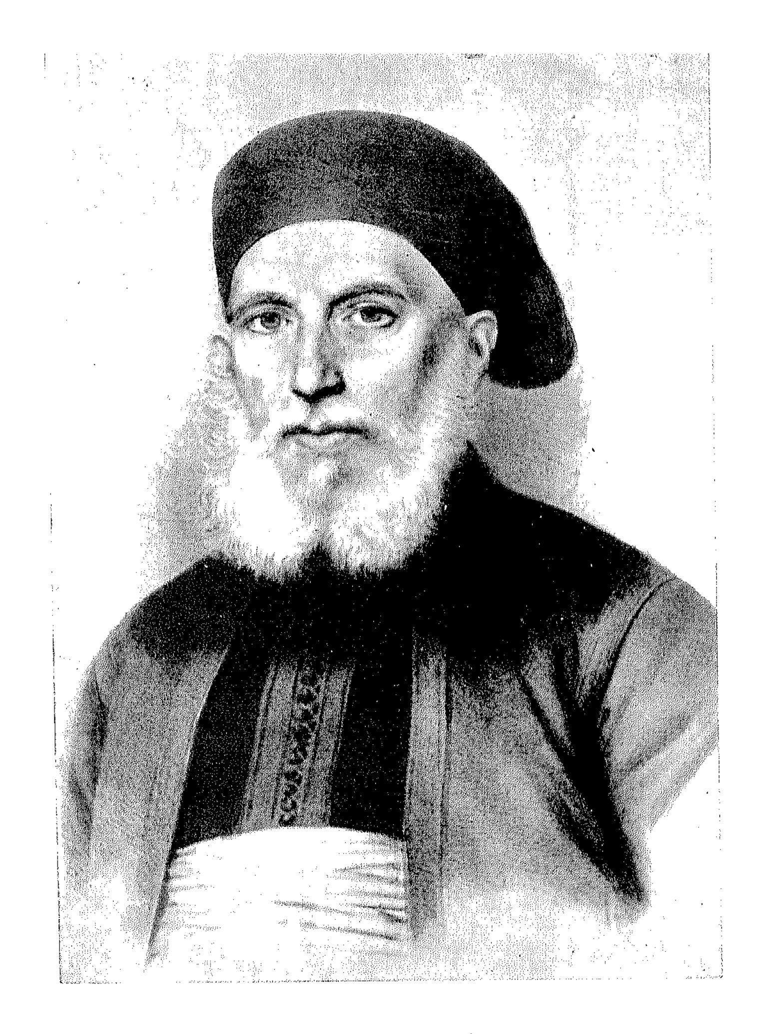
(٤) عابدين محفظة ٢٥٠ رقم ٢٣٦ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٤٨١ .

هيئة مرعبة وإحراق بعض أشيائهم ودفن المـوتى بملابسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك دليـل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه من مخالفة الشرع إذ أن الحبس وإخراج الناس فى هيئة مخيفة إنما يجوز فيمن يكون مجرما ولا جناح على الذى ظهر الطاعون فى بيته ولا يستحق الأجرة إلا من قام بعمل نافع للأجر . ولا ينبغى أن يضايق المحبوس فى عيشه " .
قالوا هذا كله فاستقدم العزيز من أفتى بما يلى : " لقد دلت أخبار السلف وآثارهم على أن الأجواء تختلف وأن بعضها قد تكون ضارة وأن الانتقال من محـل ثبت فساد جوّه إلى محل آخر واشتمام الروائح الطيبة واستعمال البخور لإزالة الروائح الكريهة والفصد والحجامة والاستقاءة لمـا وردت بها السنة المحمدية ولا تنكر إذا نفذت بطريقة لا تخل بإحدى الفرائض . فإذا أمر ولى الأمر بإجرائها بشروط هى أن لا يضيع حق المطعون ولا الذى ظهر الطاعون فى بيته وأن لا تكون معيشة أحد عرضة للضيق وأن لا يحتفل بالميت مطعونا دون الاحتفال بالمـائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخـل بالشعائر الدينية فإن إطاعة أوامره فى إتيان المباحات واجبة فكيف بالحجر الصحى وهو بين الوجوب والاستحباب[(١)] " .

وعندما رحب العزيز بقدوم صارم أفندى إلى مصر رجاه أن يغض النظر عن بقائه مدّة طويلة فى الحجر الصحى ثم أبدى رأيه فى هذا التدبير فقال : " إن مسألة الحجر الصحى وإن كانت سببا صوريا لصيانة البرية والرعية من الأمراض المعدية إلا أنها بفضـل السلطان تدبير لترويج التجارة الملكيـة التى لا يخفى أمر ارتباطها بالتجار الأوروبيين والمسؤول عنها قناصل الدول فلو تدخل الجناب العالى فى أمرها لعدّ تدخله تجاوزا على العرف المرعى وهذا لا يوافق مزاج الجناب العالى ولا يحوز رضى صارم أفندى[(٢)] " .

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٤٦ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٨٣ = المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) عابدين دفتر ٦ رقم ٢٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ١٨١ .



ابراهيم الفاتح



محمد شريف باشا

وقال العزيز بوجوب توحيد القلوب فقام ابنه إبراهيم ينفذ هذه الرغبة السامية وكتب فى أوائل عهده فى الشام إلى متسلم اللاذقية يقول : " والتعرض إلى الرعايا وعدم مؤاساتهم هــذا مخالف لرضانا لأن الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ماله مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجري إسلامه والعيســوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد "[١] . واحترم إبراهيم زعامــة النصارى والدروز فى لبنان احترامه لزعامــة إخوانهم المسلمين فى سائر الأقطار الشامية . ولم يتأخر قيــد شعرة عن ترقية النصارى والدروز عند ثبوت الاســتحقاق فعرض على الشهابى الكبير الأمير بشير الثانى حاكمية جميع الأقطار الشامية قبل أن يرشح محمــد شريف باشا للمنصب نفســه . وكان قد عين هــذا الأمير مديرا لمصالح البلاد يختم الأوراق التى تصــدر عن مقر السرعسكر[٢] وقال عنه سرا لا يوجد عندى فى بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم وحيث أنه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهمنا قط أكثر عدد الأصدقاء أم قل[٣] . وقدر إبراهيم نصرانيا آخر حق قدره أعنى حنا بحرى فرقاه إلى المرتبة التى استحقها وجعله مديرا عاما للمالية متنعا برتبة البكوية . وهو أول نصرانى فى الأقطار العربية نال هذا اللقب . ولم يتردد العزيز وابنه إبراهيم عن منح هذا اللقب نفسه لأربعة من دروز لبنان هم نعمان جنبلاط ونصيف أبو نكد وخطار العماد وعبد السلام العماد[٤] . وسمح العزيز وابنه ابراهيم بترميم الكنائس والأديرة و بإنشاء الجديد منها وغضا النظر عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كانوا قد قبلوا الإسلام فاستمالا قلوب «الرعايا» وخطا فصلا جديدا فى تاريخ الحكم فى الشام . ولكنهما

---

(١) عابدين محفظة ٢٣٨ رقم ٢٤٥ — ٢٤٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١١٧

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ١٢١ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦
عابدين محفظة ٢٣٧ رقم ١٥٦ = المحفوظات ج ٢ ص ٨٦

(٣) عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٧٦ = المحفوظات ج ١ ص ٢١٨

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٥٣٢ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٣

لم يسمحا بتنصر بعض الدروز خوفا من إساءة الفهم واستفزاز الجمهور[١] وعاقب محا
بيروت بعض المسلمين علنا لأنهم تفوّهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى[٢]
ورأى العزيز أن يجند العيسويين لتيأس الدول المسيحية عن إثارة الفتن فى الشـ
ولتزول عداوة المسلمين ولتتوطد صداقتهم[٣] .

ومن الوسائل التى تذرّع بها العزيز وابنه لتوحيد القلوب أنهما حافظا على العـ
فى التوظيف فامتنعا عن إغراق الشام بالموظفين المصريين ولم يستقدما من واد
إلا من استوجبت الضرورة قدومه . ومن ذلك أن العزيز أمر محمـد شريف
لدى تسلمه أزمة الحكم فى الشام بوجوب إسناد منصب المتسلمية فى دمشق الى أ
أعيان هذه البلدة أو الى مصرى إذا تعذر وجود كفؤ لها من الدمشقيين أنفسهم[٤]
وقال أيضا فى كتاب أرسـله إلى سليمان باشا بأنه عين حراس الصحة فى المـرا
المسـافرة إلى بر الشام من أبناء مصر لأنه لم يجـد من هو أهل لذلك فى بر الشا[٥]
وكان من نتائج النزاع الذى نشب بين مصر والباب العالى أن شـعر العزيز بأ
العنصر العربى وبوجوب التودّد إليه والاتكال عليه فخرج عن تقاليد الادارة فى
ووافق على ترقية البارزين من أولاد العرب فى القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباشى
وذهب ابراهيم إلى أبعد من هذا فأكد لوالده بأن نسبة المخلصين من العرب الملتحقـ
بالخـدمة كانت أعلى من نسبة المخلصين من زملائهم الأتراك وحبذ إفسـاح الـ

---

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٣٦ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤٤ .
عابدين محفظة ٢٥٥ رقم ١٩٩ : المحفوظات ج ٣ ص ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٥ .
عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٦٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٧ وغيره .
(٢) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٢٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤١٥ — ٤١٦ .
(٣) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٣٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٢٦ .
(٤) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨٠ .
(٥) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٥٧ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٣ .

لترقية بعض العرب الى رتبة بيكباشى[١] . ونوه بفضل العرب على المدنية فى التاريخ وقال فى ظروف معينة أنه أتى مصر طفلا وأن شمسها غيرت دمه بجرى عربيا[٢] .

ومما ساعد على توحيد القلوب أن العزيز فرّق فى سياسته بين وطنى آمن و بين أجنبى طامع فشمل الأوّل بعطفه وحذر بطش الآخر فوافق مثلا على السماح لتابع قنصل انكلترا فى رودس باستخراج الإسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التى تمتع بها التجار الأجانب وساوى بين الوطنيين و بين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مراقئ بر الشام . وجاء فى رسالة من المعية السنية إلى ابراهيم باشا أنه لا يمكن ائتمان الأجنبى المتجنب على مصالح البلاد وأنه نظرا لتصلب اسكواره بك فى رأيه واستئثاره بشؤون مدرسة المدفعية تقرّر تشكيل لجنة من خريجى مدارس أوربة من أبناء البلاد للنظر فى تنظيم المدارس[٣] .

عنى العزيز وابنه ابراهيم بالمحافظة على ثروة البلاد و بزيادة الإنتاج فيها وسعيا سعيا حثيثا للوصول إلى مرحلة معينة من التطوّر الاقتصادى يتمكنا فيها من الاستغناء عن أوربة . ولم ير العزيز مبررا لخوف ابراهيم من تسرب النقود الى الخارج لأن الشام ستقدّم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغنى به عما يستورده من أوروبة ولأنه كان يأمل أن يكفى بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم الصناعات فلا يبقى القطر الشامى والحالة هذه بحاجة إلى منتوجات البلدان الأجنبية[٤] . والواقع أن العزيز وابنه ألحا منذ بدء

---

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢٣١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ١٥٠٢ المحفوظات ج ٣ ص ٦٧ وج ٤ ص ٤٦٠ .

(٢) يراجع كتابنا أسباب الحملة على الشام ص ٦٤ — ٩٥ .

(٣) عابدين دفتر ٢١١ رقم ١٠٥ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٢ وعابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٧٧ المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٨ وج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢١٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

حكمهما فى الشام بوجوب إرسال عشرين أو ثلاثين صبيا من بر الشـام إلى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرابيش ولإدخال هذا الفن إلى بلاده "فتتحول إذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد (١) " . ووافقا بعد مدة وجيزة " على إنشاء معمل لصنع العباءات فى عكة تدار دواليبه بواسطة الميـاه و إصدار الأمر لإرسال الدواليب والمدقات اللازمة من مصر (٢) . وكان إبراهيم يعير الزراعة فى الشام شـطرا وافيا من اهتمامه الشخصى فنراه يستطلع رأى الجناب العالى" هل يسمح بإعفاء من يحيى الأراضى المهمولة بغرس الأشجار والعنب من الأموال تشجيعا له أم لا (٣) " ونرى اللواء أحمد بك يكتب الى ابراهيم نفسه مبينا عدد القرى والمزارع التى تم إحياؤها حتى سنة ١٢٥٢ فيقول أن عددها فى جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ وأن عدد الأفدنة التابعة لهـذه القرى والمزارع نفسها بلغ الرقم ١٠٣٧ (٤) . ونلمس فى موضـع آخر وصـول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة فى فرنسا إلى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الأشجار (٥) . وحمى العزيز وابنه مصالح التجار الوطنيين فمنحاهم الامتيازات نفسها التى كان يتمتع بها التجار الأجانب واستغلا لهذه الغاية ظرفا دوليا دقيقا : وتفصيل ذلك أن الحكومة الانكليزية كانت قـد احتجت لدى البـاب العالى على جباية بعض الضرائب المستحدثة فى بر الشام . فقامت الحكومة المصرية تغض النظر عن جميع الرسوم الجمركية وتطلق حرية التجارة لاستمالة جميع الأوروبيين الى جانبها كى يقول هـؤلاء " إذا كان الإنكليز قد رجعـوا الى الدولة فى أمر تافه فمحمد على رفع جميع الرسوم من تلقاء نفسه (٦) " ثم استطرد العزيز فساوى بين التجار

(١) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٩٥ : المحفوظات ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٥٤٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ٢٤٣ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٧٠ : المحفوظات ج ٣ ص ١٤٨ .

(٥) عابدين محفظة ٢٤٧ رقم ٢٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٦) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ٢٩١ المحفوظات ج ٣ ص ٩٩ .

الأجانب و بين زملائهـم الوطنيين كما أشرنا سابقا . وطعن بعمله هـذا فى صميم الامتيازات الأجنبية فبدأ فصلا جديدا فى تاريخ العرب الحديث لم ينته إلا بعـد مرور مائة عام ! ولمس إبراهيم الظلم الذى لحق بالفلاح و بالمزارع أيضا من جراء تلزيم الضرائب فهب للدفاع عن الحق المهضوم وكتب رسالة الى معاون العزيز يلح فيها بوجوب الغاء التلزيم و بجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الإدارة . قال : " إنى لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لجانب الميرى فقط بل إنى رأيت فى ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا . فقد تيقنت ما يلقاه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخسارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرها و يقيمون فيها فمأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يمرون عليهـم فى أثناء السفر جميع هـذا على حساب الأهالى وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملزم بذلك . فقد تبقى هـذه الغلال على بيادرها حتى موسم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما أننا لا نحجم عندئذ عن إجراء التحقيق اللازم . ولقـد سأل شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره فيها إننا سمعنا أن ضرائب العشر ستطرح على الأهالى بالمقطوعية فقل لنا ماذا تم[١] " .

هـذه نماذج متنوعة من أقوال العزيز وابنه ورجالها الذين قاموا بأعباء الحكم فى الشام زهاء عشر سنوات . وقد اقتبسناها مما بقى من أوراق الادارة فى ذلك العهد . ورائدنا فى ذلك إظهار الرسالة التى تحمس لها العزيز ودرجة تطبيقها . والشهادة التى تشهد بها هذه الأوراق لاتحتاج إلى الكثير من الجرح والتعديل . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دوّنت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

(١) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ٤٦ : المحفوظات ج ٣ ص ١٢٠ — ١٢١ .

* * *

ولا بدّ قبل الخوض فى الكلام عن هيكل الإدارة من إجلاء أمرين أساسيين هامين أوّلهما حدود الشام والثانى صلاحيات العزيز. فالشام فى عرف العزيز ورجاله شملت آنئذ أيالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وسنجق القدس ونابلس . بيد أن قلة الثقة بين السلطان وبين العزيز أدّت إلى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية لأيالة حلب والى أخذ ورد نتج عنه غموض فى المراجع الأوّلية يضيع الباحث ويحيره وجل مايمكننا أن نقوله الآن بهذا الصدد هو أن الفرات كان بوجه إجمالى الحد الفاصل بين الأراضى التابعة لحكم العزيز وبين سائر الولايات الشرقية وأن عينتاب وكلس وقسما كبيرا من كورد داغ وقعوا جميعا ضمن الحدود المصرية .

والأمر الثانى الذى لا مفرّ عن الانتباه اليـه هو أن العزيز بقى من الناحية القانونية حتى السنة ١٨٤١ واليا من ولاة السلطنة يحكم جزيرة كريد ومحصلية أدنة وأيالات الشام والحـرمين الشريفين وما يليهما ومصر بموجب أمر سلطانى يوجه اليه سنة فسنة . ولكن الواقع الذى لا جدال فيه هو أن هذا الوالى كان أقوى ولاة السلطنة وأجدرهم بالحكم وأنه كان يضاهى السلطان نفسه قوة وعزة ومجـدا وقد تمكن بالفعل من قهر الجيش السلطانى ومن أسر قائده الصدر الأعظم نفسه . ولذا فاننا نرى علماء الشام يعترفون بالواقع فيخاطبون العزيز بالعبارات التالية :

اللهم ياواجب الوجود منك نسأل وبرسولك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولىّ النعم صفى الشيم الدستور الوقور (المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء فى العالم مدبر أمور جمهور أخص وأشرف بنى آدم الخديوى الأعظم أدام الله تعالى ظل أبهة دولته ونصره وتأييده فى الأمم أفندم سلطانم)(١) .

ولم يختلف رأى العزيز فى نفسه وفى صلاحيته عما تقـدّم فهو المرجع الأعلى فى الحكم وحكمه لايردّ ولكنه يرى هو أن يشترك الأعيان فى حكمه فيستشير فى كثير

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ١٠٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٢٤

من الأمور ويحتفظ بالرأى الأخير لنفسه . فهو إذا من دعاة الحكم المطلق الذين يصغون لأصحاب الرأى . وميزاته الكبرى بين حكام العرب فى العصور الحديثة أنه كان يحب النظام ويحترمه ويلح فى تطبيقه إلحاحا شديدا فيطلع يوميا على جميع التقارير الإدارية وغير الإدارية التى كانت ترفع إليه فيبدى رأيه فيها ويردّها للتنفيذ . ومن ذلك قول إبراهيم إلى والده عن عكة : "إنى لم أكتب شيئا من ذلك إلى الأعتاب الكريمة لأن التقارير اليومية ترسل كل يوم إلى الجناب العالى فيطلع منها على جميع الوقائع ولا شك فى أنه قد أطلع على مايوجب إصدار هذا الفرمان فأصدره بدون أن يكون لى أدنى علم بذلك[1] . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن معاون العزيز كتب إلى حنا بحرى بك ينقل إليه رضى العزيز عن تقاريره ويطلب إليه أن يرفقها بترجمة تركية لأن " الجناب العالى " يودّ الاطلاع عليها لدى وصولها . فإذا وردت وهو فى دار الحريم تعذر نقلها .

وقام العزيز بنفسه يأمر حنا بحرى بك بوجوب إرسال محاضر المجالس فى دمشق يوميا إذ لا فائدة من تأخيرها لديه حتى تتراكم فترسل دفعة واحدة[3] .

وقدّر العزيز ابنه إبراهيم حق قدره فسلمه قيادة الحملة على الشام وجعله حاكم الأقطار المحتلة . وما أن بدأ هذا البطل أعماله فى الشام حتى شعر بوجوب فصل القيادة عن الحاكمية فطلب إلى والده أن يعين حاكما عاما محله يعنى بإدارة الأراضى المحتلة ورشح لهذا المنصب الرفيع الأمير اللبنانى الكبير بشيرا الشانى وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد المصرى تعيين محمد شريف بك أحد أقرباء العزيز وحاكم الصعيد فى المنصب نفسه فلبى شريف الدعوة وجعل دمشق مركزا لحكمه واتخذ لنفسه لقب حكمدار الآيالات الشامية أو كتخداى

---

(١) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ٥٨ : المحفوظات ج ١ ص ١٤٠

(٢) عابدين دفتر ٣ رقم ٦٩ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥١

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٢٧٢ : المحفوظات ج ٢ ص ١٨٢

خديو أعظم وحكمدار أيالات عربستان أو ما قارب ذلك . ومما كتبه الحكمدار فى هـذا الموضوع إلى أعيان حلب مثلا قوله "لا خفاكم ما فاضت به بحور إحسانات سعادة أفندينا ولى النعم الخديو الأعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض أحكام أيالات الأقطار الشامية لعهدة عجزنا الخ"(١) .

وما أن اتخذت هـذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات أخرى فقسمت البلاد إلى مديريات أربع وإمارة ممتازة وأشرف الحكمدار بنفسه على مديرية دمشق وتولى أعمال مديرية حلب أحد أنسباء العزيز إسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الإدارة فى مديريتى طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبد الهادى وولده بعده . أما لبنان فإنه بقى فى عهـدة شيخه الجليل وأميره الكبير واكتسب عزا فى ظل العزيز لم ينله من قبل واحترم استقلاله الداخلى احتراما تاما . قال الحكمدار إلى القائد العام : "فكتبت أستعلم عن موضع إقامة مير أفندى فتبين أنه مقيم فى قرية مشغره الكائنة بداخل الجبل المتحول لحكومة الأمير بشير فأوقفت إرسالى الفرسان للقبض عليـه واكتفيت بعرض الحالة على الأعتاب السنية" . فأجيب الحكمدار : "يجب أن تشـعر الأمير بشير بمن أخبرك بهـذا الخبر"(٢) . وهنالك دليل آخر على استقلال هـذا الجبل : عندما أوشك حكم العزيز أن ينتهى ، وبدأت أصابع الدول تلعب فى لبنان كتب ريتشارد وود عميـل بريطانيا الأكبر آنئذ إلى الأمير بشير ما نصه بالحرف : "لم يجب تخشوا من وجه كون الأربع دول المشار اليهم يتعهدوا بأن يعطوا لجبل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الإنعامات التى كانت تتمتع بها الأهالى تحت أحكام السلاطين"(٣) .

وكان على رأس كل مدينـة أو قرية كبيرة من هـذه المديريات وقراها متسلم يعينه الحكمدار بموجب أمر رسمى صادر عنه ، وكان المتسلم يعنى بأمور الإدارة ،

(١) يراجع كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ٢ ص ٥٠ — ٥١

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ١٣ : المحفوظات ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) عابدين محفظة ٣٦٠ رقم ٢٢٤ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٣٢ .

و يبت فى بعض الدعاوى الحقوقية البسيطة و يتعاون ومجالس المشورة فى حل المشاكل الإدارية المهمة ، وكانت هـذه المجالس تتألف من عدد معين من أعيان المدن والقرى وتمثل فيها جميع الطوائف تمثيلا نسبيا ، أما صلاحية هـذه المجالس فانها لم تكن فيما يظهر دائما واضحة محدّدة . فبينما نرى مجلس حلب ينصرف بكليته تقريبا للمحافظة على مصالح الحكومة المادّية[(١)] نفاجأ بأمر من العزيز الى ابنه ابراهيم يستنسب فيه إنشاء مجلس شورى فى قونية "للنظر فى أمور تلك البلاد ومصالحها ولإصدار البيانات اللازمة لتشويق الأهالى وحضهم على الطاعة[(٢)]" ونرى فى الوقت نفسه مجلس بيروت ينظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التى لا علاقة لها بمصالح الحكومة .

وكان العزيز بنوع خاص شديد الاهتمام بالمال يقول : "إن النقود رأس كل عمل ، ويوجب بذل الهمة فى تحصيلها على كل محب مخلص له[(٣)]" ولا غرو فى ذلك فالمال المقنن عليه سنويا للآستانة فقط بلغ فى أوائل عقده فى الشام ١٩٨٧٧٦٥ غرشا . ثم طلب منه بموجب جداول ممثلة فى الآستانة ٥٠٢٢٠١٥ غرشا[(٤)] وإذا ذكرنا المبالغ الطائلة التى يستوفى بها رجال الآستانة ونفقات جيشه العظيم وأسطوله الكبير وإدارته الواسعة إذا ذكرنا جميع هذا رفعنا لومنا عن هذا الرجل الفذ فى تمسكه بالمال وفى إلحاحه على رجاله بوجوب جمعه وضبطه .

شعر العزيز بما تقدّم فأنشأ فى الشام إدارة خاصة للمال وعين على رأسها برتبة مديرحنا بحرى بك ثم أرفق كل متسلم فى البلاد بموظف مالى خاص أطلق عليه لقب الصراف . وحاول بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وأن يقوم بواجبه

---

(١) يراجع كتابنا الأصول ج ٤ ص ١٠٧ ، ٢٣١ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ ورقم ٣٣٧ ؛ المحفوظات ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ١٧٧ : المحفوظات ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) عابدين دفتر ٤ رقم ٣٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٣

"كمحب مخاص" ولكنه لم يفلح فعرض عندئذ على العزيز مشروعا لإصلاح الحال يلخص بما يلى :

(١) تحديد المبالغ المطلوبه من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح فى دفاتر معينة وطبع غيرها للحاسبة وتعليم خطباء القرى وفقهائها استعمال هذه الأوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين أو ثلاث وتعيين "معاون" لكل خمسين قرية يشرف على أعمال الخطباء وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة .

(٢) مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء أصحاب القوة والاقتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون .

(٣) إعداد دفاتر خاصة يوضع على رأس كل صحيفة من صحائفها رقمها المتسلسل وتختم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التى تستعمل فيها .

(٤) الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وإبطال ما كان مختلا منها .

(٥) جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة فى أوقات غير معلومة وفحص حساباتهم[١] .

وعندما تم إصلاح الدواوين فى مصر وانتهى على تقسيمها إلى أقلام أسس قلم خاص "بمصالح بر الشام" . فكتب العزيز الى الكتخدار يقول : لما كان لبر الشام ككل قطر من الأقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل أمرها ويستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجناب العالى يطلب الى شريف باشا أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطلعا على قواعد بر الشام فيرسله عاجلا الى مصر ليستقيم فى القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حينا فحينا . ثم يعود فيقول : "أنه عاد ففكر فى كثرة أيالات بر الشام فاستبعد وجود رجل واحد تتيسر له معرفة أصول كافة الأيالات ولذا فانه يرى أن يستحدث فى بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٣٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٧ — ٣١

والالتزامات يتولى بحث الأوراق العديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بخلاصة بحثه ونتيجة تدقيقه الى مصر . يفضل الجناب العالى هذا على إرسال الدفاتر والأوراق المتنوعة الى مصر ويستطلع رأى شريف باشا بالأمر(١)» .

وعهد العزيز بعد موافقة ابنه إبراهيم الى سليمان باشا الفرنساوى بمراقبة شؤون الأجانب فى بر الشام . فحاول هذا ضبط هويتهم وأمر بتطبيق قوانين التجوّل المتبعة فى البلدان الأوروبية . ففرض على الأجنبى وجوب اتصاله بقنصله للتأشير على جواز سفره لدى وصوله الى بر الشام ووجوب مثوله أمام السلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب(٢) . وكان إبراهيم باشا قد عهد الى إسماعيل عاصم بك مدير أيالة حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للغرض نفسه . فلما بدأت علاقات العزيز مع السلطان تتأزم من جديد أراد إبراهيم باشا أن ينشئ قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسيو إليه رئيس الاستخبارات بجزيرة كورسكه(٣) . وعنى إبراهيم عناية خاصة بتحسين المواصلات ولاسيا بتنظيم البريد العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى وبريد مستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر فى ستة أيام(٤) . ثم أراد إبراهيم أن يخدم الجمهور فأمر بإعداد مشروع خاص لإنشاء بريد عام ينقل رسائل جمهور الناس . وما أن علم قنصل بريطانية فى دمشق بهذا حتى احتج مدّعيا أن إنشاء بريد عام يضر بالبريد الإنكليزى الذى كان يصل بيروت بدمشق . فاستدعى العزيز قنصل بريطانية العام اليه وفاوضه فى الأمر فوعده بالتدخل . فأمر العزيز ابنه ابراهيم

---

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٢٣ و ١٢٥ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٠

(٣) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٩٦ : المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٣) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٦٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤١

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٤٧

بوجوب المضى فى العمل وإجراء التغييرات اللازمة لإنشاء البريد الجديد[١] . وقبيل انتهاء الحكم المصرى فى الشام أمر العزيز بانشاء أبراج للاشارة بين مصر والعريش ورأى أن المصلحة تقضى بإكمال هذه السلسلة وأنشأ أبراج للاشارة بين العريش وعكة[٢] . وكان سليمان باشا الفرنساوى قد اقترح على سامى بك معاون العزيز إنشاء طريق تصل بيروت بدمشق وطريق أخرى تربط قرنايل ببيروت[٣] .

وأراد إبراهيم إصلاحا حقيقيا فرقب الإدارة الجديدة رقوبا شديدا وتفهم ضعفها فكتب مرارا وتكرارا الى القاهرة يشكو الاضطراب الذى وقع فى هذه الإدارة ويعزو ذلك إلى إهمال الموظفين وانصرافهم عن المصالح العامة الى ملذاتهم وشؤونهم الشخصية ومن هؤلاء محمد شريف باشا واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الإدارة بنفسه فألفاها ملوثة تلويثا ووجد بحرى بك مهملا ولمس تراكم أعمال المجلس فى دمشق سنة ونصف سنة فأمر بحبس أعضائه فى قاعة المجلس الى أن يتموا رؤية الشؤون الموقوفة . وشكى ارتباك الأمور فى أيالة صيدا بنوع خاص فأفاد أن رجلا أتى اليه وادّعى أنه بامكانه أن يثبت أن متسلم غزة اختلس ما لا يقل عن ألفى كيس وأنه قرر أن يقضى فصل الشتاء فى أيالة صيدا للاعتناء بشؤونها . وكتب فى إحدى رسائله الى معاون العزيز يقول : "أخى ، تعلمون أنى مريض أتمتع بالصحة يوما فينتابنى المرض يومين وأنى أتنقل من محل الى آخر لإخماد الثورات التى تظهر بدون انقطاع ولذا فإنى لا أقدر على إدارة الشؤون العسكرية والمدنية فى آن واحد . فلا بدّ والحالة هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . و إنى أرى فى شرمى أفندى خير

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٢٤٦ ومحفظة ٢٥٩ رقم ١١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٦٦ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٠٨ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٤ رقم ٢٦٥ : المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨ .

من يقوم بهذه المهمة . فإذا وافقت الإرادة السنية على تعيينه قام هو فى التفتيش وقمنا نحن بتفتيش آرائه[1]" .

والغريب المستغرب أن القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تأخر مرتبات هؤلاء الموظفين تأخرا قد لا نجد مبررا له . قال رحمه الله فى الرد على الخطاب الذى التمس فيه الحكمدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل أربعة أشهر : "أيها الباشا إذا كان لهؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتبا . وقد كتبت اليك غير مرة فى مسألة النقود وكانت تأتى منك كتب يحتوى كل منها على أربع مائة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى أن ينام الناس فى أحضان أزواجهم ويظل الجنود التعساء تائهين فى الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود" . وكتب الى الأمير بشير فى الموضوع نفسه مانصه بالحرف : "وردت ورقتكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شأن صدقة . ياامير يلزم فى هذا الخصوص تحلم علينا . فى الواقع يقولوا الصدقات ترد البلاد وتزيد العمر . ولكن فى حقنا العسكر بقا لهم واحد وعشرين شهر لم أخذوا نصف فضة . وقال بحرى بك فى كتاب رفعه الى ابراهيم باشا ما معناه : لقد تفضلتم فى أثناء وجودكم فى هذه الجهة فأصدرتم إرادتكم العلية بصرف مرتب شهرين من مرتبات الموظفين الملكيين بعد صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر . والآن وقد تم صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر فانى أعرض ما يلى :

إن الموظفين الملكيين مثل المتسلم والكاتب أصبحوا فى حاجة الى قوتهم اليومى من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمدّوا بضغط

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٣٣ : المحفوظات ج.٣ ص ٤١٧ — ٤١٨.

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٤٣ و ٤٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٠٦ و ٢٠٨

الضرورة أيدى العبث والتطاول الى المصالح الأميرية المحولة إلى عهدتهم والى أموال الأهالى . ولذلك فإنى أقترح ما يأتى : يصرف مرتب شهرين لمن أوقف مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد فى كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجيش[(١)] .

ولم يكتف إبراهيم بمثل هذه المطالبات الرسمية . فإنه هدد أكثر من مرة بالاستقالة فكان لتهديداته وقع أليم فى نفس والده " ولا سيما وأن هذه التهديدات صدرت عن ابن العزيز الذى هو من صلبه[(٢)] " .

هذه هى حكومة العزيز فى الشام ومميزاتها الكبرى إنها كانت حكومة قوية أحلت النظام محل الفوضى والارتباك . قال إبراهيم عن حكمه لمرعش وأورفة : "إننى فى خلال المدّة التى وليت فيها القيام بخدمة الجناب العالى الخديوى لم أتسبب فى أذية أى إنسان ولم أعمد إلى إيقاع الضرر بملك أو مال أى فرد من الناس . وهذا أمر يعرفه جميع أولى الأبصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان التى جبتها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن . ولما كنت أعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم أيضا أثرى ولم يحرفوا عن هذه القوانين . إنى وإن كنت لم آت بعد أورفة فإننى منذ عشرة أشهر أقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة أنهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يستولون على ما فى بنادرنا من غلال وينهبون أثمار بساتيننا وهب الله سلطاننا العمر الذى لا يفنى وعساه ألا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك أننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلا

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ١٧٩ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨١ .

من حيث التجنى عليهم وإتهامهـم بدون حق لغرض ما . والأهالى الآن يؤدّون الويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا أقل. إننى أدفع أثمان جميع حاجياتى اللهم إلا إيجار المنزل الذى أقيم فيه وثمن المـاء الذى أشـتريه وأنا متكفل أمر استقامة العساكر وحسن سيرهم"[(١)] .

ومن ميزات هذه الحكومة أنها كانت تميل إلى المشاورة فى الأمور قبل إبرامها وإنها كانت متنورة تحب العلم وتشجع طلابه موظفين وعاديين وقـد أشرنا سابقا إلى ترقيـة الضباط الذين أثبتوا مقـدرتهم على القـراءة والكتابة . ونزيد الآن أن الحكمدار كتب مرة إلى معاون العزيز يفيـد أنه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى الحكومة فى بر الشام استعداد ديوان المدارس لبيع بعض الكتب التى كانت تطبع فى بولاق. وإنه مقـدّم لنا القوائم التى وردت عليـه من الشام وحلب وطرابلس واللاذقية وغزة ويافه : أما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة وكتاب الحكمة وعلم الحساب وتاريخ أميركة وكتاب المعاون والتشريح البشرى وقلائد المفاخر وعقـد الجمان وشرح المثنوى وكليلة ودمنـة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ الإسكندر وتاريخ المصريين والجغرافيـة الطبيعيـة وكتاب الطبيعة وأخلاق علائى وكتاب الطاعون وكتاب الفطر وتاريخ إيطاليا وابن عقيل وتطعيم الجدرى والتشريح العام ورحلة الشيخ رفاعة وقانون الزراعة وإنشاء الشيخ عطار وكتاب المنطق وصناعة الأقرباذين واللوغرتمة وجر الأثقال وتاريخ الأديان وكتاب الجراحة والفسيولوجية والبتالوجية[(٢)] . ونرى حنا بحرى بك ينوّه بأهميـة تاريخ ابن خلدون ويذكر المساعى التى أمر الجناب العالى ببذلها لاستنساخه عن نسخ المغرب ولنقـله إلى التركية ثم يرجو التفضل بإرسال ما ترجم منه كى يمرّن أولاده عليه ويعلمهم أصوله[(٣)] . وقـد

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٣ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٥ .

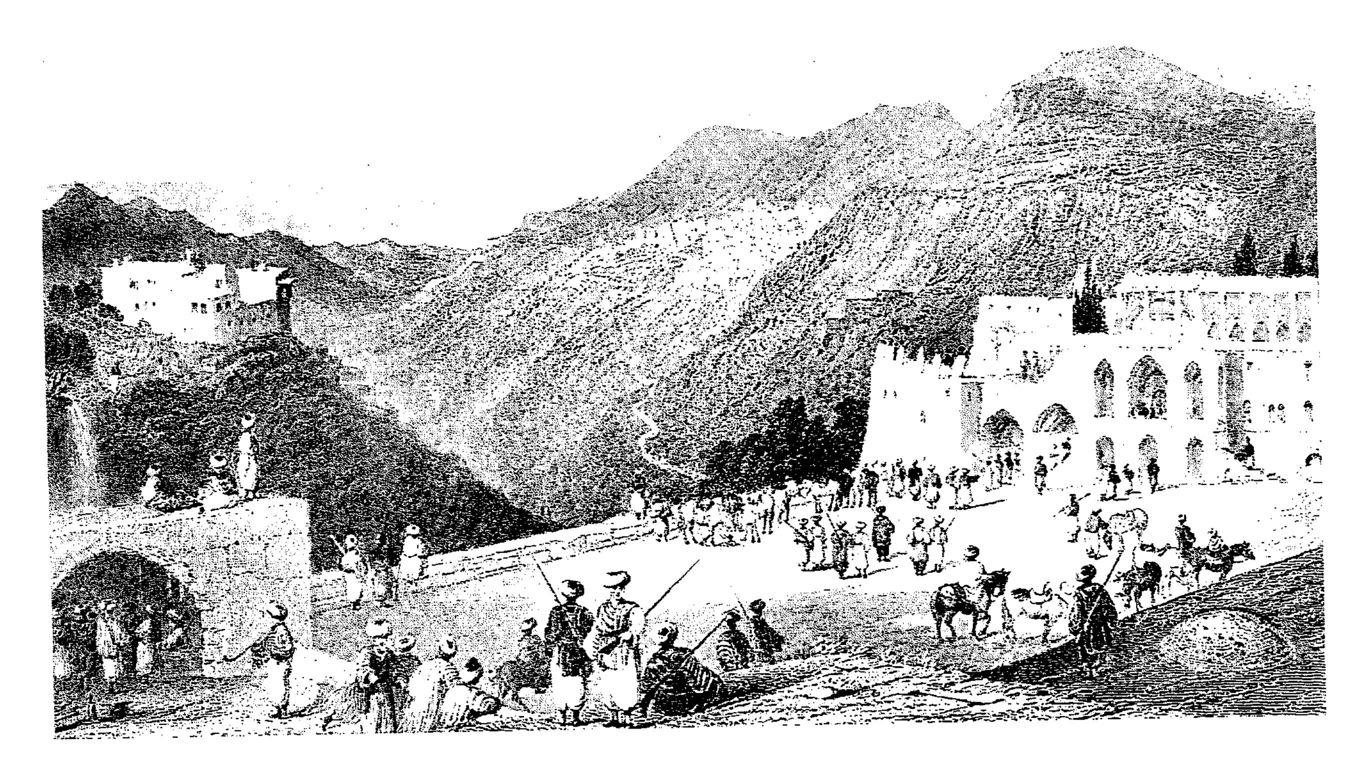
(٢) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٠٤ : المحفوظات ج ٤ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٥٧ : المحفوظات ج ٤ ص ٣١٧ .

أشرنا سابقاً إلى اهتمام هذه الحكومة بالصحة العامة أن من حيث إنشاء المستشفيات أو من حيث تطبيق قوانين الصحة .

ولعل أبهج ميزات هذه الحكومة وأقربها إلى نزعة العرب في هذه الأيام أنها سبقت أخواتها في سائر الأقطار العربيـة في ميدان الوطنيـة والعروبة . فقدّمت الوطني على الأجنبي كما سبق فقلنا وعنيت بطبع الكتب العربية و بنشرها بين الناس وقبلت العرب في الوظائف الهامة وقللت الأتراك

عن بيروت في ١٥ أيلول سنة ١٩٤٨



بيت الدين

القسم الثاني

التاريخ الحربي

الجيش الذى قاده ابراهيم

للبكباشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى

لم يرث محمد على ملكا موطد الدعائم منظم الأركان . ولم يهبــه الله دولة كاملة الموارد مستحوذة للســيادة ! بل أتى إلى مصر — كما لا يجهل أحد — ضابطا برتبة البكباشى ضمن أفراد حملة تركية ، ابتغاء طرد الأعداء من أرض الوطن .

وما زال يدرج به الحال ، حتى استقرت له الأمور، وأسلس اليه القياد، بمـا أحرز من فطنة بادية ، و بما تحلى من شخصية ظاهرة . وصار على رأس وادى النيل . الربان الأمين، يوجه السفين بيد حكيمة ، وعين بصيرة، رغم ما تحوطه من أنواء عصافة، وأمواج هدارة .

وأحس بشىء فى أعماقه يربط مصر بحياته ، ويستحثه لأن يخلص لها الحب ، ويوفى إليها بالجهاد . فنذر لها العمر بما فيه من بذل وجهد وتضحية .

فانطلق يقطع الشوط تلو الشوط — منافحا ومجاهدا — سنين طويلة ليجعلها أمة خليقــة بالاستقلال ، جديرة بالحياة . وقد واتاه التوفيق بل ما هو أكثر من التوفيق،وظفر بتحقيق ما ساور رأسه من أمان . رغم ألوان الصعاب التى واجهته ، وأشتات المتاعب التى بثت فى طريقه .

وغنى عن القول إن إنشاء الجيش المصرى كان الدعامة الأولى التى حقق بهـا معظم أمنياته ، بعد إصلاحه أداة الحكم فى مصر، واكتسابه عطف العالم الإسلامى، ثم عنايته برفع مستوى البلاد الاقتصادى .

فكيف تهيأ لهذا العاهل الكبير إعداد مثل هــذا الجيش الذى تشيد صفحات التاريخ بمفاخره ، وتكاد تنحنى هامة الزمن قبالة فتوحاته . كيف عالج هذا القائد

الأسباب والمسببات التى أفضت به إلى الحصول على "إدارة عسكرية" كانت لها صولة وجولة ، فى عهدها المنصرم ! ؟

ينبغى أن نعود إلى الماضى، ونقفو آثار الخطوات التى انتهجت، والممهدات التى اختطت ، ففيها الضوء ، وعليها الإبانة .

من البداهة بمكان، إنه لم يك فى مصر جيش منظم يستند عليه محمد على، لتأسيس ملكه الجديد . فبذل همه، مذ تبوأ الولاية، فى تهيئة جيش وطنى من أشبال البلاد .

ولكن مثل هذه الفكرة الصائبة بيّتها فى نفسه متحيّنا الفرصة الملائمة لتنفيذها، ورأى من الحكمة — مهما استطال الوقت — ألا يتعجل فى إيقاظها . وظل يستخدم جنوده من أخلاط الأجناس العثمانية فى حروبه لمعاونة سلطان العثمانيين ، فى بلاد العرب واليونان ، وفى حملته السودانية . وكانت هذه الجيوش تنتهج الأساليب الحربية العتيقة ، سواء فى مطالب التسليح أو طرائق القتال . حتى إذا خرج ابنه القائد إبراهيم ظافرا ، أقدم الوالد بما أوتى من الشجاعة الأدبية، والسعة الفكرية ، على تحطيم آلته الحربية القديمة ، ليستبدل بها آلة أخرى من نوع مستحدث .

وشرع محمد على بالفعل — وقد اختمرت الفكرة — فى تنفيذ الخطة . وبمعنى أوضح لكى يهيئ فى وادى النيل جيشا جديدا مدرّبا على أحدث القواعد والنظم العسكرية .

واستهل محمد على سبيله الشائك بأن راح يقنع قواد الجندية بأفضلية النظام المبتغى وما زال بهم حتى أفضى الأمر أن يتقبله بعضهم . فلم يأت أغسطس عام ١٨١٥ حتى أشاع رغبته الملحة على رؤس الأشهاد، وصحبها بما يتسمى بـ"التنفيذ".

وقد وصف الجبرتى مؤرخ ذلك العصر ما حدث من الجند عقب المحاولة الأولى التى أرداها الفشل، ونراه يسجله بين أحداث (٢٥ شعبان عام ١٢٣١ هـ — ٣ أغسطس عام ١٨١٥ م) فيقول :

"أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان قبيل الفجر للتعليم على طريقة الإفرنج إلى الضحوة فأخذوا فى الرماحة والبندقيـة المتواصلة المتتابعـة مثل الرعود ورجعوا داخلين فى المدينة فى كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصا بخيولهم بل وحميرا أيضا".

وقد دبر الجنود غير النظاميين مؤامرة وسيعة النطاق بين جوانح القاهرة فى وجه هـذا المشروع الجرىء . فنشهدهم ينسابون أو يتوزعون فى طرق المدينـة ينهبون ويهشمون بل ويقتلون كل ما صادفهم فى طريقهم . ولولا الذين تصدّوا لهم من الأهالى بالبنادق، وغلق أبواب الأحياء والمتاجر، لكانت الحال أفظع ! .

ولكن قابل محمد على هذه الحركة اللاذعة بسمات الحلم والأناة . وتسنى له أن يستغل تلك الحوادث المنكرة لخـدمة مشروعه العظيم . وبادر إلى إبداء مظـاهر استـيائه وعوامل استنكاره بما اقترفه المتمرّدون — وأكثرهم من شبان المماليك والألبان — وقرّر تعويض جميع التجار الذين نهبت حوانيتهـم ، مما جعل الشعب يلهج بالثناء عليه ، ويسخط على الجند المتمرّدين . بل وكان فى هذا العمل دعاية طيبة " للنظام الحديث " .

وطفق الباشا يهيئ الوسائل لإدخال ذلك النظام ، الذى لم يقـدم على تنفيذه إلا سـنة ١٨٢٠، بينا كان يتحين الفرص تدريجيا للتخلص من أدران الجنود غير النظاميين ، وإبعادهم عن القاهرة، حتى لايكون احتشادهم فيها عونا على تمرّدهم، وباعثا لتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور المختلفة .

وفى هذا السياق نأتى على ما سطره الجبرتى فى حوادث عاشر المحرم سنة ١٢٣١ — ١٢ ديسمبر ١٨١٥ :

"رجع الباشا من الإسكندرية وأول مابدأ به إخراج الجنود مع ضباطهم الى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية وأخذوا صحبتهم مدافع وبارود وآلات الحرب واستمر خروجهم على دفعات كل يوم وذلك

لإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة واستهل ربيع الأول عام ١٢٣١ هـ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا الى ناحية رشيد ونصبوا خيامهما (عرضيهما) عند الحماد وناحية أبى منضور (من أعمال مركز دسوق) وذلك لكى يدخل على الجند أنه أخرج معهم أنجاله للمحافظة ومعهم الكثيرون من كبراء البلاد الى جهة البحر الشرقى ودمياط" .

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : إن الباشا أمر ببناء مساكن للجند الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلاقات بكل جهة من الأقاليم لسكن الجند المقيمين بالنواحى لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام فى الصيف والشتاء واحتياج الخيام فى كل حين الى المحافظة والعناية بها .

واضطلع محمد على بمحاولة ثانية — وهو الصبور الذى لا ييأس — عقب حملته فى السودان ، فأمر بجلب عدد من السودانيين ليجندهم ، غير أن المرض أنشب أظفاره فى جسومهم ، حتى كاد يستأصل شأفتهم . فأخفقت تجربته الثانية .

فلم يتبق قبالة محمد على — والحالة هذه — إلا أن يرجع الى الأمر الطبيعى ، وأن يعهد بالدفاع عن مصر الى سواعد بنيها البررة .

وكان أن أنشئ المعسكر الأول لتدريب النواة الأولى للجيش فى ربوع اسوان . وتشاء الظروف المواتية أن يصل الكابتن سيف الى مصر ، فيطلب اليه أن يكون رئيس المدربين العسكريين فى المعسكر الجديد . ثم بعث بابنه إبراهيم ليشرف على تدريب الغلمان الذين يعهد اليهم فى قابل حياتهم مهمة تدريب الجند (يوليو عام ١٨٢٠) .

وفى الثالث من أكتوبر عام ١٨٢١ (٦ محرم ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من لدن محمد على باشا الى محمد بك لاظ أوغلو ناظر الجهادية ، أشار به الى تعيين أمين أفندى المعمارى للقيام ببناء ثكنات اسوان ، تسع كل ثكنة ألفى جندى ، على أن تبعد الواحدة

عن الأخرى مدى ربع ساعة . وأمره بأن يتعاون مع أحمد باشا طاهر متصرف جرجا، لكى يستكمل العمل سريعا .

وفى التاسع عشر من أكتوبر من العام الآنف (١٢ المحرم) صدر أمره الى مدير دنقلة لتشييد ثكن بالصعيد الأعلى بمعرفة محمد بك لاظ أوغلو، ليكون مأوى السودانيين المجندين من السودان، وأوصاه ببذل ما يستطاع من الجهد والهمة . ولم ينس أن يكتب الى محمود بك مدير بربر وشندى يشير له باستعمال الوسائط الضرورية للعناية برفاهية السودانيين ومأكلهم ومشربهم وسفرهم برا وبحرا ؛ لأنه وصل الى مسامعه نزول تلف جسيم بهم فى خلال الطريق . كما أشار — فى خطاب بنفس المعنى — الى نجله إبراهيم باشا والى جدة وأمره بوضع النظم والتسهيلات التى تكفل تسيير أحوالهم فى متباين الظروف .

وفى نفس الوقت (١٣ المحرم ١٢٣٨ هـ) صدر أمر من محمد على الى محمد بك لاظ أوغلو ذكر فيه أنه انتخبه دون سواه لوثوقه به ناظرا على الجهادية — مؤسسته الجديدة — ومن معه من الضباط المعينين وأغلبهم من غلمانه الذين رباهم ، وأن له أملا أن يسلكوا السلوك الحميد .

ميلاد النظام العسكرى فى وادى النيل

وفى السابع عشر من شهر فبراير عام ١٨٢٢ (٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من محمد على الى أحمد باشا طاهر ذكر له فيه أنه لضرورة إعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد استصوب جمع أربعة آلاف مصرى من الوجه القبلى لينضموا الى محمد بك لاظ أوغلى ناظر النظام العسكرى، ومن يجمع يرسل الى سليمان بك أغا (الفرنسى) معلم الجنود باسوان، لتعليمهم حسب مقتضيات النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع التكليفات . وإنما يعدون من الجنود ما داموا على قيد الحياة . وكان هذا أول تأسيس للنظام العسكرى بمصر .

ومثل هذا النظام الحدث، كان بحاجة ماسة الى إقناع القائمين به قبل سواهم بقيمته، و توجيه نظرهم الى أهميته، وما يعقد من الآمال على نتائجه، لكى يعنوا به عناية وفيرة ويؤتى ثماره . ولذا لم يك بدعا حين نرى محمدا عليا يبعث برسائله فى هذا المعنى الى المختصين .

فمن رسالة وجهها الى ناظر مصلحتى اسوان وفرشوط يقول :

” لقد اقتضت التجليات الإلهية التى أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل — أى النظام الجهادى الجديد — من حيز القول الى حيز الفعل فى زمان شيخوختنا فماذا عسانا صانعون ؟ ... اللهم إلا أن نكون قد أدّينا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة “ .

وجاء فى رسالة أخرى كتبها لابنه إبراهيم بمناسبة تجنيد الفلاحين ما يلى :

الى مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا (١)

لما كتبنا الى أحمد باشا متصرف جرجا والى محمد بك ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط أمر جلب وجمع الأفراد المعلمين المراد تدريبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم وسطرنا أن يفهموا من مقتضى الحال أنها مهم أن يكون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنا فى القرية التى يجلب منها وإذا أهل وسكن فيها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين الذين لا يضبطهم رش ولا يقفهم زمام وأن يحرر هؤلاء الأفراد بمعرفة حكام أقاليمهم وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين فى أماكنهم مهيئين للطلب وأن يثبت فى الدفتر أسماء قراهم وأسماؤهم وأسماء آبائهم وأنهم سيستخدمون ثلاث سنين ويعطون فى أثناء خدمتهم لحما وأرزا مفلفلا مرتين فى الأسبوع ومرتبا قدره ثمانية قروش كل شهر والكسى اللازمة لهم فى كل عام ثم يطلقون ويسرحون بعد السنين الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومه تتيح لهم الإقامة فى قراهم معافين من التكاليف .

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦٨ دفتر ١٠ معينة تركى بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (مارس ١٨٢٢) .



ابراهيم باشا

وقد جاءنا والحالة هذه عثمان أغا "أمين ملابسنا"(١) فقال لنا إن الفلاحين المتوطنين لا يحترزون بل سيفرون وأن متصرف جرجا وناظر مصلحتى أسوان وفرشوط يشاهدان هذه الحالة فيميلان الى تحرير الفلاحين الدخلاء . وأنه اتخذ طريقا يمر بكم فعرج عليكم وأخبركم بما هو واقع ومع أن هـذه المصلحة الخيرية ظاهر أنها من الأمور الدينيـة وبديهى وظاهر أنها على كل حال ستكون موجهة للسعادة إلا أنه لمـا لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على هـذا الأمر فلم يكن ثمـة ما يوجب إرغامه عليـه ولا معاملته بالعنف فيـه بل كان يلزم تحـرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه وذلك بتفهيمهم تدريجا أنه أمر منطوٍ على الخير ويملأ آذانهـم بالأقوال التى تستوجب حسن قبولهم إياه وقد يكون ذلك بوساطة الواعظين والفقهاء الذين يمرّنونهم على الانعطاف إليه وتولية وجوههم شطره فالذى يلوح لى هو أنه لم يشرع فى إنشاء أساس هذه المصلحة على هذا الوجه الذى تتطلبه طبيعة العمل فيهـا بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هـذا داعيا الى إباء الفلاح وامتناعه . وعلى هذا التقدير فلو كتبتم سعادتكم الى متصرف جرجا والى ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرّج وعدم اتخاذ سبيل الجهر فى التجنيد بل تلقين الفلاحين وملء آذانهـم واستدراك أذهانهـم بواسطة الوعاظ والفقهاء ولـو أن الطرق التى من شأنها جلب الفلاحين أرشـد إليها ودل عليها لكان من البديهى أن يقترن هذا العمل بالتنفيذ على وجه السهولة كما أن من البديهى أنه لو ذكر الفلاحون مثـلا بأن الفرنساويين لمـا أرادوا أخذ عسكر من القبط لم يخالف القبط فى ذلك ولم يتخلفوا عنه نظرا لمـا هو معلوم من غيرتهم على الكفر فاذا كان هذا شأن القبط فلا بدّ من أن الفلاحين الذين شرفوا بنور الإيمان تأخذهم الغـيرة على ذلك فـلا يمتنعون عن قبول هـذه المصلحة الخيرية لمـا خلا تذكيرهم بمثل هذه الأقوال من الفائدة . فاذا سارت الحـال على هذا النهج فحينئذ لا يحـزر الجنود من الدخلاء الشاردين بل يقيدون كما نفضل ونستصوب من

(١) اللواء عثمان نور الدين باشا فيما بعد .

المتوطنين المستقرين وعلى هذا فان مما يوافق المصلحة أن تتذاكروا وتبحثوا مع أهل المجلس ثم تكتبوا الى كل من المومأ إليهما رسالة على الوجه المحرر بعاليه ".

سـير العمل فى المعسكر

وحين أقبل الثامن عشر من رجب عام سنة ١٢٣٧هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٢٢) صدر أمر من محمد على الى ابراهيم أبان فيـه عن وصول تقرير من سليمان أغا ومن أحمد أفندى المهندس ومن عثمان نور الدين، أساتذة العلوم العسكرية، عن تشكيل وتهيئة النظام الجديد — وعلم منه أن مشروعه ينطوى على تأليف أورطتين مكونتين من ١٩٤٣ جنديا بقيادة لواء . وهذا الترتيب اتبعه نابليون على مقياس كبير وهو لا يوافق عليه، ويرى أن يجتمع لديه الضباط لوضع ترتيب التشكيلات العسكرية . وفى خطاب آخر نرى محمـدا عليا يبدى الموافقة على شريطة أن يؤلف الآلاى من ألف الى ألف ومائتى جندى على غرار ترتيب السلطان سليم العثمانى .

الوحدات العسكرية الجديدة

وكان ناظر الجهادية على اتصال مستمر بالباشا — يبلغـه نتيجة أوامره أولا بأول، ويفيده بمـا يتم إنشاؤه من الوحدات الجـديدة . والوثيقة الآتيـة تبين لنـا تأييد هذا الرأى (١) .

من الجناب العالى إلى ناظر مصالح اسوان وفرشوط :

قـد علمنا من مكاتبتكم الواردة أنه صار تنظيم الأمور اللازمة للأورطة المشاة فى اسوان وفرشوط بحسب الحـاجة وانضمام رأى حضرة صاحب العطوفـة نجلنا الباشا والى جدة وأن نجلنا الباشا المذكور قد عاد إلى مصر وأنكم قصدتم إلى اسوان ولمـا وصلتم إليها أنشأتم ثلاثة أورط أخرى فبلغ مجموع الأورط أربع عشرة أورطة

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧١ دفتر رقم ١٠ معية تركى ورقة ٧٢ بتـاريخ ٢٤ ذى الحجـة ١٢٣٧ هـ (١١ سبتمبر ١٨٢٢) .

وأن الأغوات الموجودين لدى خورشيد أغا والقائمين بتعلم فن الهندسة صار قيدهم فى الأورط وأن الذين يقومون منهم بالواجب تبــذل لهم الرعاية والاحترام والذين لا يقومون بالواجب يسرحون . وأنه ورد من لدن نجلنا الباشا سر عسكر السودان ٩٥٠ نفرا من العبيــد على دفعتين فوزع منهــم ٧٥٠ على الأورط كما إنه ورد منى طرف نجلنا الباشا السرعسكر المشار اليه ٤٥٠ جمــلا فقام حاكم بربر بسوقها نحوكم إلا أن عربان البشارة قطعوا عليها الطريق واعترضوا مسيرها واستولوا عليها فنبلغكم سرورنا وحبورنا من غيرتكم وحميتكم المشهورتين ولا يخفى عليكم أنى منتظر منكم الأخبار كل خمسة عشر يوما لما تقتضيه الظروف الحالية وعليه يجب أن تبادروا الى بذل حميتكم فى إشعارنا و إبلاغنا أخبار تلك الجهات كل خمسة عشر يوما بانتظام .

أوامر محمد على إلى ضباطه [1]

وفى ١٢ المحرم ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٢٢ م) وجّه محمد على الى نواة ضباط جيشه الجديد بأسوان رسالة تفصح عما فى مكنون نفسه للنهوض بدولته الجديدة — قال لهــــم :

مرسوم إلى ضباط الجيش بأسوان

اليكم يامفاخر الأماثل والأقران بكباشية جنودنا — الجهادية المقيمين فى اسوان وضباطهم من رتبة الصاغ قول أغاسى والصول قول أغاسى واليوز باشى والملازمين وحاملى الأعلام والضباط الآخرين ... نبلغكم أن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الدينية والشعبية وأن الشئون الحربية هى أهم الشئون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن . وقــد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلكوا هذا المسلك القويم فى قرآنه الكريم و بين نبينا الكريم المبعوث للإنس والجنّ كافــة فى حديثه الشريف مقدار ما يصيب سالكو هــذا الطريق من العزة والشرف والسعادة من كل الوجوه .

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٥ — دفتر رقم ١٠ معية تركى بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٢٢ م) .

يا أيها البكباشية وغيرهم ... لقــد واتاكم السعد ونالكم الحــظ الأوفر وأمدكم التوفيق الأزلى فجاء كل منكم وأصبح مظهرا للطف والعناية ومصدرا للشرف والسعادة كل على قدرها وتراعوا حقوقها فهــذا التقدير وهذه المراعاة لايكونان مرة أخرى إلا إذا تركتم عاداتكم التى كنتم مطبوعين عليهــا ونبذتموها ظهريا وتشبثتم بقواعد المسلك الجديد والحمــد لله فكل منكم محــترم الجانب مرعى الخاطر وكل قوانينكم ونظمكم موافقة فارجعوا الى أنفسكم واقرؤا ضمائركم واعملوا بمقتضى الرجولة واسلكوا سبيلكم بمقتضى الإنسانية ... وليقم كل منكم ببــذل همته فى أمور تعليم وتدريب الموجودين فى أورطتكم ولا يهملان فى ذلك وليسع الى أن يكون كل شىء منظما أحسن نظام وفقا لقوانينكم وقواعدكم المقرّرة .

أما ناظركم محمــد بك : فهو رجلى الأمين الوفى وهو ناظركم الرؤف بكم كأنه أبوكم فرضاؤه رضائى وإدارته إدارتى . فلا تخرجوا من رأيه ولا تنحرفوا عن طاعته ولا تحيدوا عن إدارته بأى حال من الأحــوال . ويقضى واجبكم بأن تكونوا يدا واحدة فتقوموا بالاتحاد على إجراء ما يوافق القانون والنظام والابتعاد عن كل مايخالفها واصرفوا رويتكم فى تنفيذ هذا النظام ولا تغفلوا عنه ولا تهملوا فيه أبدا . وقصارى القول إن ما نؤمله فيكم أن تراعوا المواد التى ذكرتها لكم وهــذا ما دعانا الى تسطير مرسومنا هذا وإرساله اليكم فلدى وصوله بمشيئة الله تعالى اقرءوه وكلكم حاضرون واعملوا بمقتضاه " .

الجيش فى نظر محمد على

وحدث أن بلغ محمــد على أن بعض رجال الجيش فى أسوان قد ارتكبوا بعض الذنوب — فكتب الى ناظر اسوان وفرشوط يبسط له الرأى الذى ينتهجه فى علاج هذه الحالة الطارئة ويلقى على عاتقه تصفية مجرى الأمور ... فيقول[1] :

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٦ دفتر رقم ١٠ معية تركية (ورقة ٤٧) بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨٢٢) .

من الجناب العالى الى ناظر اسوان وفرشوط

تعلمون أن المصالح العسكرية الجليلة أهم من كل أمورنا وشئوننا وقـد توفقنا الى تنظيمها وتسوية أمورها وأن تنفيذ هذه النظم مناط على اهتمام رجالنا الصادقين وبناء على ذلك قـد انتخبتك من بين أولئك الصادقين وأحلت عليك هـذه المهمة الجليلة ... إن فريقا من الأغوات المماليك قد عنيت بتربيتهم ونشأتهم و يغلب على ظنى أنهم وصلوا الى درجة الرجولة ونضجوا وأظنهم قاموا بتعليم هـذه الرجولة الى الفريق الآخر . فان كان الأمر كذلك حقا فلا بدّ أن يقـدّر أولئك الذين عنيت بتربيتهم هذه النعمة حق قدرها ويراعوا حقوق هذه العادة فان قيام واحد من بينهم بعمل ينافى مبـدأ الرجولة لسبب قلة أدبه وعقله أو سلك طريقه مخالفا للشروط فلا يقتضى إلا تسريح أمثال هـذا الرجل وأن العقلاء الذين يديرون حركة مثل هذه الجماعة لم يراعوا الخاطر فى وقت ما أبدا ولم يظاهروا قط أولئـك الذين يتسببون فى الإخلال بروح المصلحة، ولو كان أخاهم، لا بل أبرهم ؛ فاذا تقـرر ذلك فانى أيضا شديد الأمل أنهم لايظاهرون أحدا من بين الذين ربيتهم ونشأتهم من أمثال أولئك السفهاء قليـلى الأدب والإدراك وإذا ما دعى أحد رجالى المعتمدين لدى . وقال : إنى وإن كنت لا أظاهر فلانا ولكن كيف أصل الى إفهامه الكلام وهو عديم الفهم قليل الإدراك . ففى هذه الحالة لا يقتضى بقاء مثل هـذا القليل الفهم ثمـة فان كان ذا شارب فدائرة أغوات الحرم مفتحة الأبواب فأرسلوه الينا وليأت ليكون أغا للحرم وإن كان لمـا ينبت شاربه فالحقوه بالحاج حسين أفندى الموجود فى ذلك الجانب ليتعلم وإذا ما ظاهر أحد من رجالى الذين أعتمد عليهم واحدا من ذوى العقول الغليظة بسابق الشبوبية وأهمـل فى إبعاده ثم ظهرت بادرة منـه من وقت ما مخالفة للشروط بسابق قلة الإدراك واقتضى الأمر مس المصلحة التى أوجدتها بالتعب والمشقة فى ذلك الوقت يعجز رجلى المعتمد الذى ظاهر ذلك الشخص عن الاجابة ولا ينجو ذلك الشخص من يدى .

انظروا يا أولادى...لقد جاهدت سبعا وثلاثين سنة حتى أوجدت هذه الجماعة بأمل إسداء خدمة لديننا الدين المحمدى نخدمتكم وإذا كانت من الظاهر لنا فهى فى الحقيقة لله ورسول الله . لو كنتم تقدّرون قدر هذه الخدمة على حقيقتها لكنتم أقدمتم على العمل لدوامها وقيامها بأكثر من اهتمامكم الحالى ألف مرة ولسعيتم لنيل الأجر الجزيل من الله تعالى ولطلبتم الحصول على الذكر الطيب من عباده .

وقصارى القول إن وقاية هـذه الجمعية المباركة من تطرّق الخلل اليها فرض علينا . وعليه فقد حررنا أمرنا هـذا بطلب التوسل بالأسباب الكفيلة بوقايتها وأرسلناه إليكم فاذا ما وصل اليكم بمشيئة الله تعالى نطلب منكم أن تعقدوا مجلسا خاصا — وتقرؤه فى مواجهة الجميع وتعتنوا فى إفهامهم مزاياه .

تنظيم الجيش

وإذا طرحنا الخطاب السابق جانبا، نلق محمدا عليا ينهض بنفسه لتنظيم الجيش، ولا يدع صغيرة أوكبيرة إلا ويتعهدها بالموالاة ووضعها فى نطاقها .

وخلال الرسالة التالية يستبان لكل ذى عينين أن هذا العاهل كان لا ينى عن تتبع أفكاره بما نسميه التدعيم، ولا يكف عن الاسترسال فيما استهدفه ...

من الجناب العالى الى ناظر أسوان وفرشوط

إن الأورط التى نظمت فى اسوان وفرشوط كانت بلغت الى الخامسة عشرة، وقد اقتضى إنشاء أربع أورط من السود فى أسوان فى الوقت الحاضر فاعملوا على إنشائها. ثم عينوا البكباشية والقول أغاسية والملازمين وحاملى الأعلام — واليوز باشية اللازمين لها وفقا للتعليمات الشفوية التى أدلينا بها الى مندو بكم محمود أغا. فاذا لم يتيسر إكمال عدد الضباط الموجودين فى اسوان فيمكن أخذ الضباط اللازمين من أورط فرشوط أو من القوة الموجودة بمعية ابراهيم اغا وإكمال النقص منهما . وحيث أن المماليك أجدر بالمعاونة بالنسبة للجنود الاتراك فيجب البدء بهـم فيؤخذ من بينهم

من يليق بأن يكون ضابطا ثم يكمل العدد الباقى من الأتراك . ولما كان الجنود الترك لا يقاسون بالمماليك فاذا ما انتخبوا — ضابطا فانه يجب العناية جهدا باستعدادهم واستحقاقهم ولذا يجب أن تهتموا بذلك ولا تجهزوا الاهمال أو الغفلة .

وبعد انشاء الأورط المذكورة تقرر أن تبقى أربعة أورط منها فى إسوان وأورطتين أو ثلاثة فى فرشوط والأورط الباقية تعسكر فى القرى التى أعطى بيان بأسمائها الى محمود أغا السالف ذكره فعليكم أن تستبقوا الأورط المقررة بقاؤها ثم ترسلوا الأورط الأخرى الى الجهات التى تقرر نزولها فيها . وحيث أنه يقتضى تعيين موظف كناظر للإشراف على مأكولهم ومشروبهم فعليكم تعيين النظار الذين ينتخبونهم من بين رجالكم وابلاغهم التنبيهات اللازمة و إرسالهم مع الأورط . ومن المستحسن توزيع كل ما يرد من العبيد الذين سيقدمون من السودان وكردفان على هذه الأورط بالتساوى فاعملوا على توزيع كل طائفة ترد فى أى وقت على هذه الأورط بالتساوى بدون زيادة أو نقصان .

أما أوامرنا الأخرى فقد أحلنا أمر تبليغها على دراية محمود أغا المذكور وحسن إفادته فستحيطون علما بها منه — وهذا ما دعانا الى تحرير مكاتبتنا هذه و إرسالها إليكم (١) .

معنويات الجند

وكان من جملة التدابير التى اتخذها محمد على لإقناع الجمهور "برعية النظام الجهادى الجديد أنه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب لأنها جامعة للفيوضات الأزلية" . فقد ورد فى خطاب صدر عنه الى محمد بك ناظر مصلحتى إسوان وفرشوط ما يلى :

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٢٧ — دفتر رقم ١٠ معية تركى ورقة ١٤ بتاريخ ١٣ محرم ١٢٣٨ هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٢٢) .

"إن فاتحة الكتاب (سورة الفاتحة) لا ريب فى أنها جامعة للفيوضات الأزلية فاذا ما قرأها جنود الجهادية فى أيام التدريب قبل الشروع فيه ثم باشروا التمرينات عقب القراءة لكان ذلك مستوجبا للفيض والبركات — فالمأمول منكم أن تبلغوا حضرات البكباشية سلامنا وتفهموهم أن إرادتنا تقضى بقراءة الفاتحة قبل التمرينات النهارية والتمرينات الأخرى" .

وقام من طبقة العلماء من ناصر "العزيز" فى مشروعه الجديد وأكد للشعب المصرى أن النظام الجديد يتفق وأصول الشرع الشريف وقواعد الدين "الحنيف". ومثال ذلك أن شيخ الاسلام آنئذ الشيخ محمد العروسى أوعز الى الشيخ خليل الرجبى أن يؤلف كتابا فى تاريخ محمد على باشا يظهر فيه مآثر العزيز وخدماته[1] وأن الشيخ الرجبى خصص المقالة السابقة من كتابه هذا "النظام الجهادى الجديد" مبينا فيها شرعية هذا النظام مؤيدا ذلك بخمسة أدلة ملخصها ما يلى :

(١) أن حفظ الثغور الاسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين واجب شرعا وفرض محتوم أصلا وفرعا .

(٢) أن الصبر وحده لا يفيد فى الدفاع عن بلاد المسلمين إذ لا بدّ له من أن يقترن بالطاعة والنظام .

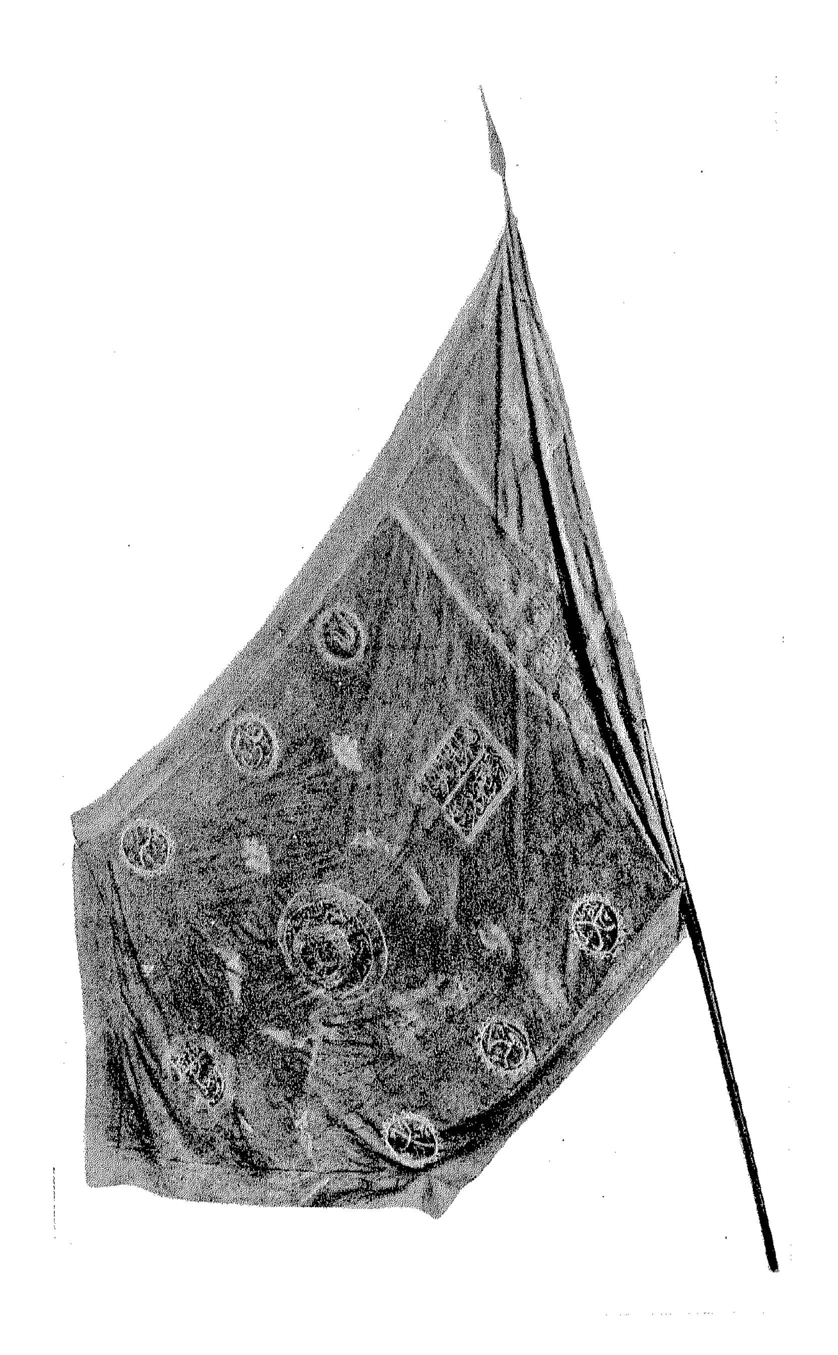
(٣) أن كتب الفروسية مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هى أشكال وصنوف هندسها الأوائل وأهملها الأواخر فبدت باهمالها أهوال الغوائل وليس أمرها فى المؤمنين مبتدعا ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحدا من الأواخر لهم متبعا ... وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما كان من تلك المسالك

---

(١) كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى — مخطوطة جامعة بيروت الأميركية رقم ١٨٣٧٩ ص ٣ ومخطوطة دار الكتب الملكية .



سليمان باشا الفرنساوى



علـــم ابراهيم باشـا فى معسكره

(الوجـــه الأوّل)



علم ابراهيم باشا فى معسكره

(الوجه الآخر)



أمير اللواء خورشيد طاهر باشا

وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية و تعريفهم أشكالها واختلاف الصور و إتقان هـذه الكيفية فقد وجب شرعا المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليـه إن تأخر وأبدى امتناعه وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليـل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل .

(٤) أنه لمـا قوى العدوّ بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه البضاعة حصل الضرر والإضرار وبدت المنابذات والمناضلات من الكفار وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهـل الجحود والفجور وكذلك الثغـور المعـلومة التى هى لأذهانهم وأبصارهم مشاهـدة مفهومة وحيث كان الأمر على ما قلنـاه و بحسب ما ذكرناه ووقعناه فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهـل الحل والعقد من الموفقين أن يخاطبوا أمير القطر فى تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا توافقوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحرب وأشكالها إذ هى ضروب حيث تميزت الأعداء فى هذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الجسيمة فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنـين و يتقنوا عرفانهـا أجمعين ليدرؤا الشر بمثله و يطاردوا العـدو بوزان صنعه وشكله ومن تأخر عن ذلك فقـد باء بإثم كبير وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير .

(٥) أن حفظ الدين والنفـوس والأعراض والأنساب والعقول والأموال واجب شرعا وذلك متوقف على القوّة لرد الأعداء الصائلين على الأموال والنفوس ولا سيما إذا كانوا كفارا فيزداد عنـد ذلك الخوف على الدين والعرض مع المـال والنفس ولا شك أنه إذا وقع الخلل فى الدين والعرض والمـال تلف العقل أو كاد وضاعت النفوس والأنساب فى الأماكن والبلاد فكان الخوف من الكفار جامعا لكل مفيـد ومتلفا لكل سيد تق عفيف فإذا ظهـرت من الخوف أسبابه وطغى العدوّ وسال عبابه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربته ومصارعته وجب على الأمير بالقطر إحضار جنـد معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرؤن

الصفوف وصنوفها وترتيب الضربات وصروفها ووجب عليهم تعلم صناعة حرب الكفار إن لم يكن لهم بها إلمام وتذكار ليدرأ الشر بمثله وينقمع العدوّ بطبق صنعه وشكله وهذا محتم فى الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعوّل عليه (١) .

كان محمد على مخلصا لدينه شديد الحرص عليه فسعى جهده فى أن تكون معنويات الجيش قائمة على أساس هذا الدين تستمد منه قوة ومناعة . وبهذا استطاع أن يحظى بتأييد جميع عناصر الأمة . ولعل من الخطأ أن نقلل من أهمية هذه الظاهرة أو أن نزعم كما زعم بعض المؤرّخين أن جيش العزيز كانت تنقصه الروابط المعنوية . فإن فى هذه الظاهرة وحدها، فى مثل ذلك العصر، ما يكسب الجيش قوّة معنوية تؤلف بين أفراده وتحضهم للدفاع عن حياض الوطن والدين .

التجنيد ومصلحة الشعب

ولم تنقص محمد على، على شدته، تلك المرونة التى يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم — لين فى غير ضعف وشدّة فى غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان ابراهيم باشا يتولى أمر جمع الجنود فى الأرياف، أن هناك شيئا من التبرم عند فريق من الأهالى فى بعض المناطق . فدرس الأمر ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم فى ذلك الوقت بتلبية مثل هذا الطلب . فبعث إلى ابنه ابراهيم بكتاب ملؤه الحكمة يذكر له فيه : الاختلاف بين الشعب المصرى والشعوب الأوروبية التى عرفت مثل هذا النظام، والفرق بين الحكومات الأوروبية وحكومة مصر، ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر، وأن يستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة (٢) .

---

(١) وثيقة رقم ٣٧٩ معيـة تركية دفتر رقم ١٠ بتاريخ ١٤ محرم ١٢٣٨ ه وكذلك تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى ص ١٧٠ — ١٨٤ .

(٢) سجل ١٦ معية تركى — وثيقة ٢٠ ص ١٩ بتاريخ ٨ شوال ١٢٣٨ ه .

من الجناب العالى إلى والى جدّة[1] :

" فى أوائل رمضان جند عدد وافر من الفلاحين من الوجه البحرى توطئة لإلحاقهم بالعساكر الجهادية ، فأحضروا إلى مصر وأرسلوا بواسطة المأمورين الى الجهات المطلوب إرسالهم إليها بيد أن الأعمال الحربية دقيقة والقيام بأعبائها يتطلب وجود الشبان الأقوياء على حين أن أكثر الذين جندوا كانوا عليلين كبار السن لا يصلحون لشىء وقد اتصل بنا أن العساكر الذين من هذا القبيل يعادون الى قراهم وعليه فقد لزم أن يعنى بأمر تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد بحيث لا يجندون كيفما اتفق وهذا ما حملنا على أن نكتب بتاريخ ٢ شوال و ١٢ يونيو إلى الأفندى ناظر الأقاليم البحرية نخطره بوجوب اجتماعه والأغوات النظار لتداول الرأى فى هذا الصدد أو أن يحضر معهم الى مصر لبيان رأيهم فى هذا الشأن لإقرار الخطة التى يجب السير عليها وأن لا يطيل هذه المسألة وينظر فى أحسن الطرق المؤدّية إلى تنفيذها . وفى يوم الثلاثاء ٨ شوّال و ١٨ يونيو وهو اليوم الذى يجتمع فيه المجلس حضر الأفندى الموما إليه والأغوات النظار إلى شبرا حيث بسط الموضوع وأفهموا أن عددا وافرا من الفلاحين الذين أرسلوهم فى أوائل رمضان قد أعيد بعضهم من مصر والبعض الآخر من الجهات الأخرى وأن الذين أبقوا منهم دون المأمول فاستأذنوا بمناسبة تقرّب أوان الزراعة أن يرجأ تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفق والموقف وأكد عليهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة على أن أهالى مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالى أوربا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئة الحكومة فى أوربا ومن البديهى أنه لا يستطاع والحالة هذه تجنيد العساكر وفقا لأصول الجهادية المقرّرة وعليه فإن من الجلى الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا وأن نرى أعمالنا على

(١) المقصود هو ابراهيم باشا .

قدر قـدرتنا فإذا ما وافقتم على ذلك أنتم أيضا أوفدوا من قبلكم من يفحص هؤلاء العساكر عند احضارهم إلى مصر ونبهوا عليه بأن يفرز منهم من يصلح نوعا ما للعمل ويرسلهم إلى الأورط ويعيد الذين لا يصلحون إلى قراهم ولمـا كان من اللازم أن توزع العساكر التى يتم إرسالهـا على الأورط وأن لا يعـاد منهم أى نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك . وجامع القول فكروا فى هذا الموضوع من ناحية العسكرية والفلاحية مع مراعاة الحالة والموقف وانهوه بطريقة مناسبة .

حاشـــية :

والحاصل أن العقـلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون فى بادئ الأمر إلى تنظيمها كيفما اتفق أى على بركة الله ومن ثم يأخذون فى وضعها فى نصابها . كلما ثبتت أقـدامهم حتى تتاح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لمـا يرغبون فيجب علينا أن نتشبه بهم نحن أيضا فنسير بأمورنا حسبما يقتضيه الموقف وكلما اتسع لنا الموقف وسمحت الظروف عمدنا إلى إتمام ما ينقصنا فابذلوا الهمة فى اتخاذ هذا الأسـلوب ولئن نوهنـا بوجوب إرسال من يتولى فرز العساكر الذين يصلحون للخـدمة من العساكر الذين سيأتون إلى القصر العينى بمصر إلا أننا نترك لرأيكم أمر حالة هـذا الفرز إلى القواص باشى المـأمور فى القصر كما كانت الحالة قبلا أو إرسال آخر لهذه الغاية من قبلكم فافعلوا ما ترونه مناسبا فى هذا الشأن واعنوا بإجراء ما يتفق ومصالحنا .

استقدام بعثة عسكرية

لتدريب الجيش

وكان محمـد على بالغ العناية بتدريب الجيش الجديد فاتخـذ الجيش الافرنسى مثالا له ينسج على منواله . ورأى قبل اختياره للمدربين الفنيين أن يدرس كفاءاتهم ودرايتهم العسكرية وأحوالهم الخاصة حتى إذا وقع اختياره على من راقه منهم أغراه بالمـال وأطلق يده فى العمل . ومع أننا لم نوفق بعد للوقوف على الوثائق التى تبين

علاقات العزيز مع الكابتن سيف الافرنسى فى مستهل عهده فى خدمة الجيش فاننا نستطيع أن نقطع بوجود هذه الظاهرة التى ألمعنا إليها حين نقرأ رسالة العزيز الى ابنه إبراهيم المؤرخة فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ ﻫ (١٨٢٣ م) حيث يقول :

لقد فكرنا فى استخدام رجل قدير يتولى تنظيم عساكرنا الجهادية وفقا للأصول العسكرية المقررة ويكمل النقص فى الأنظمة القائمة الآن ويرفع مستوى التعليم والشئون الأخرى على الوجه المطلوب وقد تحدثنا فى هذا الموضوع الى صديقنا الخواجة دورفنى قنصل فرنسا عندما جاءت مناسبة . فكتب جنابه بدوره عن فكرتنا هذه الى الجنرال الذائع الصيت المعروف باسم بوييه أحد جنرالات بونابرت الذى سيصبح بعد رتبة واحدة مرشالا والذى حضر مع بونابرت أكثر حروبه . وقد استوضحنا القنصل مقدار المكافأة التى تمنح للجنرال فيها إذا حضر . ثم جاء فى الخطاب الذى أرسله الجنرال المذكور أنه سيحضر وفى حالة حضوره سيقطع عنه الإيراد المقرر له من حكومته وأبان القنصل أن هذا الإيراد لو اشترى لبلغت قيمته مئة ألف ريال على الأقل وأنه يجب أن يخصص له ٢٥,٠٠٠ غرش شهريا ولكل من معاونيه ثلاثة آلاف ريال سنويا . إن هذه المبالغ ليست بالشيء المرهق إزاء رفع مستوى مصالحنا الى الحد المطلوب ووصولنا الى غايتنا . ولكن هل الجنرال المذكور هو فى الواقع كما قيل عنه . فاذا كانت شهرته قد بلغت الى هذا الحد فلابد أن يعرفه الافرنج الذين معكم وعليه استوضحوهم أمر هذا الجنرال بطريقة مناسبة [١] " .

ومن الغريب أن بينما كان العزيز يبحث عن أشهر المدربين وأقدرهم فى أعلى الأوساط العسكرية فى فرنسا كان أولو الأمر فى الأستانة يسألونه أن يبعث إليهم بمدربين وطنيين من قواده لتدبير شئون الجيش فيها [٢] .

(١) من محمد على باشا إلى إبراهيم باشا — ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ — معية تركى دفتر ١٦ رقم ٣٢

(٢) الوثيقة التركية رقم ٤٣٧ تاريخ ١٢ المحرم ١٢٤٢ ﻫ (١٦ أغسطس ١٨٢٦) بدفتر ٣٢ معية تركى من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

تخير الجنرال بليار — أحد القادة الفرنسيين فى المعاش — من القادة الافرنسيين الجنرال البارون بوييه (General Boyer) [1] ليكون رئيسا للبعثة العسكرية التى تنظم جيش محمد على الجديد . ومعه كولونيل المشاة جودا (Gaudin) والشقيقان أدولف وبولان دى تارليه وكان أولها قائد كتيبة وثانيهما يوزباشى فى الخيالة . وبعض ضباط آخرين وطبيب . وتطوع ليفرون (Livron) للعمل بصفة شبه رسمية وكان على نصيب كبير من الفطنة . واكتسب فيما بعد ثقة الباشا وعينه مندوبا عنه لدى الحكومة الفرنسية بدلا من تورنو .

وصل بوييه الى اسكندرية مع معاونيه فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يستصحب هدايا ثمينة من أسلحة وذخيرة . فلما قدمها للباشا تأثر هذا كثيرا من عطف الحكومة الفرنسية . وقال — بعد تجربة — إن البارود أحسن نوعا من الذى استورده من انجلترة ! .

وحل الجنرال بوييه بالقاهرة حيث سكن فى قصر فخم بمصر القديمة خصص لإقامته وليكون أيضا مقرا للرئاسة العامة للبعثة . وفى هذا القصر استهلت الأعمال الأولى لمشروعات الجيش وتدريبه .

وقد جرى الاتفاق على أن يتصل بنفسه بالباشا للتفاهم فى كل ما يراه من آراء وما ينتهجه من خطط . كما جعل لجودان الإشراف على تعليم المشاة [2] .

ويتسنى لنا أن نقف على أعمال الجنرال بوييه من مخابراته مع بليار مدة ١٨ شهرا ومراسلات شهود العيان من أمثال بريس دافن الذى شغل بعض الوقت وظيفة أستاذ فى مدرسة المشاة بدمياط . ومدرسة أركان الحرب فى جهاد أباد .

---

(١) ولد الجنرال بوييه (١٧٧٢ — ١٨٥١) فى بالفورت — وكان برتبة ادجوتانت جنرال فى الحملة الفرنسية على مصر . وصار قائد فرقة فى عام ١٨١٤ . وعقب انتهاء مهمته فى مصر شغل قيادة كبرى فى الجزائر فى عام ١٨٣٠ .

(٢) جولز بلانا — Histoire de la regeneration de l'Egypte ص ٧٣

والملازم جولز بلانا المدير والمؤسس للكلية الآنفة . وفيلكس منجان قنصل فرنسا العام . والدكتور كلوت بك مؤسس الخدمة الطبية العسكرية فى مصر . والمالى كادلفين وزميله دى بروفوى اللذان اكتشفا بعض المجهول فى إقليم النوبة .

ومما هو قمين بالتنويه فى هذا المجال أن "بليار" كان على اتصال بـ "بوييه" . يراسله باستمرار ويتبدى مما كتبه له أنه لا يوافق مطلقا على اشتراك محمد على فى حملة المورة خشية أن تفقد فيها مصر جيشها الفتى ! وكان يرى من الأصوب أن ينسحب محمد على من هذا المشروع ولا يجابه الأمم المسيحية . ويجنى ثمار النصر بالوسائل السلمية لتحظى مصر بالتقدم وتستمتع بالمدنية الحديثة .

وقد ألح بليار مرة أخرى ليوجه نظر محمد على الى وجهة أخرى فيها فائدة كبرى لمستقبل مصر، ويجعل لها قوة يدفعها صوب الشرق الأدنى وأفريقية، مما يفتح لمصر أبواب التوسع والرفاهية، بدون أية خسارة مرتقبة[١] .

ومن المتفق عليه أن محمدا عليا كان مقتنعا بهذا الرأى . بيد أنه لم يك بعد واثقا من قوته، ومن نتائج محاولته، ليقطع العلائق مع أمير المؤمنين . وكان يأبى المغامرة خوفا من فقد ملكه الجديد .

والواقع أن حرب المورة وحرب الحجاز كلفتاه كثيرا . فقد خسر فيهما حوالى ثلاثين ألف من خيرة جنوده . ثم إن التشكيلات العسكرية الجديدة التى نظمها سيف فيما بعد لم تك قد استكمل تعليمها وبعبارة أوضح كانت ناقصة الى حد يذكر . ولم يك غير الضباط العظام ملمين بالقراءة والكتابة مما جعل محور أعمالهم يدور على محض الذاكرة . فلا كتب مأثورة، ولا قوانين مطبوعة، ولا تعليمات محفوظة . ولم يك من بينهم أحد يعتمد على الدرس والكتابة سوى القائمقام أدهم بك، الذى درس المدفعية فى استانبول[٢]، وقام برحلات شتى فى انجلترة .

(١) Belliard a'Boyer. 10 Fevr. 1826, p. 103. رسالة .

(٢) جول بلانات — ص ٦٥ Jules Plant

وتجلو الوثائق الآتية أهم المراسلات الخاصة بالبعثة العسكرية فى عهدها الجديد، حينما زاول أعضاؤها العمل فى الجيش ...

من الجناب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

"لقد أرسلنا إليكم جناب المحترم الجنرال بوييه وزميله الجنرال ليورون ومن فى معيتهما من الضباط وهم الهيئة العسكرية التى استحضرت من دولة فرنسا، وحيث إن مرتبات الجنرال بوييه والضباط وتعييناتهم اليومية مدرجة فى عقودهم فعليكم أن تنظموها وفقا لما أدرج فى العقود .

أما الجنرال ليورون فليس له عقد بل خصص له مرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال، فقيدوه فى الدفاتر بهذا المرتب، وأصرفوه له لدى استحقاقه، وعليكم أن تصرفوا له أيضا تعييناته اليومية بحسب اللازم ؛

ولما كان هذا الجنرال بوييه من رجال الحرب، وواقف على شئون الجند، وخبير بفنون الحرب، فقد استحضرناه إلينا ابتغاء الحصول منه على معلومات خاصة بالشئون العسكرية ولا يخفى عليكم أجمعين ذلك . ولذلك لم تعد هناك حاجة الى تغيير أسمائهم ورأينا الاكتفاء بتغيير زيهم وملابسهم فاعلموا ذلك وضعوا خطة لاستخدامهم بموجبها بحسب ذلك ولدى وصولهم الى ذلك الجانب عليكم أن تسلموا كل واحد منهم حصانا كامل العدّة كالمعتاد واصرفوا لهم الملابس اللازمة على ألا يكتفى بإعطاء الجنرالين حصانا واحدا لكل منهما بل يزاد فى عدد الخيل وأن تكون ملابسهما من النوع الجيد ويزاد لهما شال كشمير .

ولدى تشرف الجنرال المذكور بتقديم هدية ملكية رأينا فيه مخايل العلم والعرفان لذلك يقتضى إيفاء واجب الرعاية لهم والعمل على اكتساب المعلومات التى تؤدّى الى ازدهار هذه المصلحة العسكرية من الجهة العلمية ما دمنا قد أنشأناها واضطرتنا كلنا الى تنظيمها أحسن نظام[1]" .

(١) وثيقة رقم ٤١٨ ورقة ٦٣ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١١ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٢٤ م) .



أمير اللواء أحمد المنكلى باشا

من الجناب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

"جاء فى مكاتبتكم الواردة أخيرا ما نصه : وصل الجنرال بو بيه فأنزل فى منزل الخواجه جوانى الكائن بمصر القديمة ، وأن الجنرال ليورون والضباط آثروا الإقامة فى المعسكر ، فأعدّ لهم ما يحتاجون اليــه من الخيام وغيرها ، وأنه خصص للجنرال ليورون مرتبه والتعيينات اللازمة ، كما أنه ربطت مرتبات الجنرال بو بيه والآخرين وتعييناتهم بموجب عقودهم وأعدّت حاجاتهم وفقا لطبائعهم التى اعتادوا عليها ، ولمــا كان العقد الخاص بالجنرال بو بيه ينص على إعطائه خمسة رؤوس من الخيل فصرف له حصانان روميان وحصان نجدى ، وسيعطى له الحصانان الآخران قريبا أما الجنرال ليورون فقــد أعطى له حصانان روميان وآخر نجدى بحسب رتبتــه ، وصرفت لهم الملابس اللائقة وأعطى لكل منهما سرجا مفضضا ، ولم نعلم إن كان الحصانان النجديان اللذان سيعطيان لها داخلين ضمن هذه الخمسة والثلاثة أم لا ؟ اضطررنا الى الاستعلام ، ولقــد صرفنا الى الضباط السروج اللائقة بهــم والخيل اللازمة لهم والملابس . كما أننــا أعطينا الى هذين الجنرالين سيفين مذهبين ، وقد أخرنا إعطاء الجنرال بو بيه سيف الافتخار وإلباسه الفراء (الكورك) الى أجل .

فأحطت علما بما حررتموه فنبلغكم أن الحصانين النجديين المقرر إعطاؤهما الى الجنرالين المذكورين داخلان ضمن الخيل الخمسة والثلاثة المقرر صرفها لهما ، وليس ثمة خيل أخرى عند صرف الحصانين للجنرال . وبهذه الصورة يكون عدد الخيل المقررة لهما قد تمّ فعلا ، ولا حاجة الى إعطائهما أكثر من ذلك .

ولقد استحسنا ما فعلتموه من تأجيل إعطاء سيف الافتخار الى الجنرال بو بيه ومن الســياسة الحقة ، لأننا عازمون على الحضور الى ذاك الطرف فى هذه الأيام ولدى وصولنا بمشيئة الله سيعطى له السيف ويلبس الفراء[(١)]" .

(١) وثيقة رقم ٤٣٠ ورقة ٦٥ دفتر ١٦ معيــة تركى بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ ١٩ ديسمبر ١٨٢٤ م) .

من الجناب العالى الى ناظر الجهادية [١] :

"لقد أرسلنا اليكم الكولونيل رى من ضباط الطوبجية الذى جىء به من باريس بوساطة الجنرال ليوزون ، وهو خبير فى فنّ الطوبجية وفيما يتعلق بالمدافع والمهمات المتنوعة الخاصة بهـا وفى نظم تعليماتها وتدريباتها ، وستقفون على درجة خبرته من العقد الخاص به ، فعليكم أن تأمروا بترجمة عقده حتى تتبينوا مأموريته ، ثم استخدموه فى خدمات المدفعية وكلفوه بفحص الآلات والمهمات الخاصة بالمدافع وليخبركم بمـا ينقصها ، وقد أنبأنا الأغا كتخدانا تحريرا بإعطائه تصريحا للتفتيش على المدافع وعلى المهمات واللوازمات والأدوات الخاصة بها حينا بعد حين" .

وكتبت صورة من هذا الأمر بعبارته الى البك الكتخدا .

وأُلحق بهذا الأمر مادّة أخرى الى البك ناظر الجهادية :

"لقد أرسلنا اليكم المدعو بريبه الذى استقدم بوساطة الجنرال المذكور بصحبة الكولونيل المـار ذكره ، وهذا أيضا خبير فى الأسلحة والمهمات وله علم تامّ بكل الأدوات واللوازم ، فعليكم أن تقوموا بترجمة عقـده ، ثم تبـادروا الى استخدامه فى الشئون الخبير بها" .

وهـذه العبارة نسخت بعبارتها وزيد عليهـا بعض الوصايا وأرسلت الى البك الكتخدا .

خدمة الجيش واجب نبيل

ولكى يغرس العاهل الكبير فى نفوس ضباط الجيش الصفات النبيلة ، ويبث بين جوانحهم السجايا القويمـة ، التى يتألف من نسيجها العسكرية الحقـة ، كان يوجه من حين الى آخر نصائحه وإرشاداته ، ليعمل الضباط بها . وفى النداء التالى نلمس روح محمد على [٢] .

---

(١) دفتر ٢٠ معية تركى — الوثيقة رقم ١٧٠ ورقة ٣١ بتاريخ ٣ صفر ١٢٤١ هـ (١٧ سبتمبر ١٨٢٥ م) .

(٢) الوثيقة رقم ٤٩ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم ١٢٣٩ هـ (٢١ سبتمبر ١٨٢٣) .

مرســوم خديوى صادر للجيش المصرى

الى مفاخر الأماجد والأعيان عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك ميرالايات العساكر الجهادية زاد مجدهم ، والى مفــاخر الأماثل والأقران قائمقامى الآلايات وبكباشــية الأورط والصاغ والصول قول أغاســية واليوزباشية والملازمى الأول والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين وأمنــاء البلوك والجاويشية زاد قدرهم ، نبلغكم أن المصلحة الخيرية التى عينتم لهــا ليست مصلحة عبارة عن مجرد جمعية ، بل هى مصلحة ربطت كل ناحية منها بنظام ، وكل شىء فيهــا مرتبط بشروط ، ولذلك كنا وضعنا فى أيدى اســتحقاقكم الوسائل الكفيلة بإجراء مايقتضيه هــذا النظام ، ولمــا كان كل واحد منكم قد نشأ على يدينا ، ومنح الرتبة والاعتبار اللذين لم يشاهد مثلهما فى عهــد أسلافنا ، فكان أمر اهتمامكم بتنفيذ الشروط والقيود معــدود من جملة أمانينا .

ففيما مضى كان اتصل بنــا نبأ بعض الأفعــال غير اللائقة التى صــدرت من بعضكم ، فكنا أصدرنا لكم مرسوما بتاريخ ١٨ ذى الحجــة خطابا لكم جميعا ضمناه التنبيهات والوصايا ، قلنــا لكم فيه : « لاتسلكوا السبل الملتوية بتجويز الأوضاع المنافية لأصولكم ونظمكم ، وإن وجد فيكم من لا يصغى للقول ويسلك هذا السبيل الوعر ، فلا تقبــلوا أن يتطرق الخلل الى النظام بسبب مخالفة واحد منكم ، لأن هذه الجمعية الخيرية إنما وجدت بعد تعب كبير ومشقة عظيمة ، وانبذوا من كان على هذه الشاكلة من بين ظهرانيكم وإن كان صاحبكم أو من أقاربكم حتى ولو كان أبا لكم أو أخا » ، وأرسلناه اليكم مع خفتانيينا سليم أغا . ولقد اتصل بسمعى من الغادين والرائحين أن أولئك الذين ارتكبوا تلك المخالفة إنمــا هم الحمق الذين وجدوا فى الرئاسة بدون استحقاق وأهلية وكان وجودهم فى الرئاسة وسلوكهم هذا السبيل المعوج ناجما من محاباة بعضكم لهم ومظاهرتهم إياهم .

يا قوم ! فكروا فى ما بذل من الجهد وما أنفق من المال الجسيم حتى وصلتم إلى هذه الدرجة ووصلت جمعيتكم إلى ما وصلت إليه ، وفى المصاعب التى ما زلنا نحتملها وفى ما ننفقه من المال فى الوقت الحاضر حتى إننا أخذنا عددا جما من الفلاحين من القرى التى يقيمون فيها ورضينا بتعطل كل شىء حتى الخدمة الزراعية التى عليها مدار الغنى والثروة للجميع .

هذه المصلحة هى مصلحة هامة لا يبذل فى سبيلها المال فحسب بل تبذل فيها الأرواح أيضا ! فكيف يتهيأ تجويز إنقاص قدرها واعتبارها بمثل هذه الأفعال المنكرة التى يأتيها أمثال هؤلاء الحمقى ؟ ... فهل نؤثر الصمت وندعهم وشأنهم ؟ لا ولو كانوا غلمانى الذين نشئوا على يدى بل ولو كانوا أولادى ... .

إذن وجب عدم مظاهرة هؤلاء الناس ولو كانوا من البكباشية لا من صغار الضباط فاخرجوهم من بينكم باتفاقكم أجمعين وبمعرفة ناظركم وأرسلوهم إلينا ... فإن كان أولئك المبعدون من كبار الضباط فانتخبوا من يكون ذا أهلية وكفاءة واستحقاق من بين ضباط تلك الأورطة بوساطة ناظركم وانصبوه مكانه ، أما إذا كان ذلك الرجل المبتغى إرساله إلينا يتعظ ويرجع إلى نفسه ويرضى برتبة أدنى بمحض اختياره ، تتفق وكفاءته ، فاعملوا على قيده بالرتبة التى ارتضاها بمعرفة ناظركم أيضا . واتخذوا هذا النظام دستورا للعمل يعمل به فى كل آن ولا تؤدّوا شهادة فى مصلحة فرد لا يكون ذا حق ولا تنكروا حقا لذى حق فتبوءوا بالندم ، ومجمل القول إن وجود الرتبة المخصصة للضباط مسندة إلى من يستحقها مؤدّ إلى زيادة رفعتكم كما أن وجودها مسندة إلى من لا يستحقها مفض إلى مذلتكم وهذا أمر معروف بالبداهة ... فاعلموا ذلك جيدا وعوه واعملوا كما ينبغى عمله وفقا لذلك ولا تصاحبوا ذوى الحماقة متبعين هوى نفوسكم حتى لا تندموا فى نهاية الأمر وليقم كل منكم بأداء الخدمات اللازمة المفروضة عليه وليؤدّها حق أدائها طبقا للنظم وليتحاش ما من شأنه الإخلال بالنظام كالغفلة والتباطؤ تنفيذا لما ذكرناه

فى مرسومنا الآنف الذكر . واعنوا واعتنوا بإيفاء مطالب الإخلاص والاستقامة التى آملها منكم فى كل آن واتقوا المسئولية بمخالفة ما فيه وانتهجوا اليقظة والانتباه دينا لكم على الدوام . واكتبوا لنا مشاهداتكم عن الشئون العسكرية فى صورة تقارير تبعثون بها إلينا شهرا فشهرا ... هذا ما تقضى به إرادتنا ومطلوبنا القاطع إجراؤه وتنفيذه .

فإليكم ياأيها الميرالايات والقائمقامات والبكباشية والضباط الآخرين أبلغكم بأننا أصدرنا هذا المرسوم من ديوان مصر بالتنبيه عليكم والتوبيخ والتشديد كما أننا أحلنا على صاحب العزة الأفندى مهردارنا إبلاغكم إياه وأوامرنا الأخرى وقد أرسلناه مع حضرته إليكم"[1] .

ونتبع هذا النداء بمرسوم آخر يحمل نفس المعنى ويهدف إلى أغراض الباشا .

مرسوم خديوى إلى ضباط الجيش

إليكم يا مفاخر الأماجد والأعيان ميرالايات العسكر الجهادية عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك زاد مجدهم .

وياقائمقامات الآلايات وبكباشية الأورط والصاغ والصول قول أغاسى واليوزباشية والملازمى الأول والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين والباشجاويشية وأمناء البلوك والجاويشية والأونباشية زاد قدرهم .

نبلغكم أنه لا يخفى عليكم أجمعين أن شئوننا الجهادية فهى نتيجة كل مصلحة من مصالحنا ، وأن كل أفكارنا واهتمامنا منصرف فى نظامها وانتظامها ، وأن ما نملكه إنما نبذله لدوامها وقيامها ... هذا شىء واضح وجلى ... إذن يقضى الواجب أن تكون كل حركات عساكرنا الجهادية وسكناتهم مطابقة للشروط النظامية والأصول المقررة فلأجل إبلاغ هذا الواجب إليكم كنا قد أرسلنا لكم مرسوما

---

(١) وثيقة رقم ٤٩ — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٣٩ (٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٣).

بتاريخ ١٨ ذى الحجة وأتبعناه بمرسوم آخر بتاريخ ١٥ محرم وأرسلنا أولهما مع الأغا خفتانينا وثانيهما مع الأفندى مهردارنا .

فيا أيها الميرالايات المذكورون لقد جاء فى عريضتكم الواردة فى معرض الإجابة على مرسومنا المرسل لكم مع خفتانينا "إنه لما كانت الخدمات العسكرية المكلفين بها هى أهم ما تصبو إليه نفوسنا وأعظم ما نرغب فيه فإن تنفيذ أصولها المقررة فرض على ذمتنا ولنقوم بإجرائها وسنسلك سبيل الرضا ونعمل فى طريق الاستقامة بدافع إخلاصنا .

وإذا وجد فينا من يخالف ذلك لا نظاهره ولو كان المخالف أخانا أو أبانا بل نقوم بتأديبه وفقا لنظامنا وإذا لم يفلح معه التأديب ننظر فى أمر إبعاده ... وفى كل الأحوال سنكون يدا واحدة باتحاد القلوب فنطيع من هو أعلى منا ونحترم من هو أصغر منا ولا نقصر فى ذلك ونتعهد بتحرير الدعاوى العسكرية التى تعرض يوميا على ديوان الآلاى ونقدمها فى صورة تقرير شهريا ، وسنسعى إلى إيفاء ما تفرضه علينا عبوديتنا باذلين فى سبيل ذلك أرواحنا ورؤوسنا فداء " .

فعلمت ما حررتموه واستحسنت ما أظهرتموه من الغيرة وحسن النية فأدعوا الله أن يوفقكم جميعا وأطلب منكم أن تقوموا بتحقيق هذه النوايا الحسنة .

وقد أصدرنا أمرنا هذا من ديوان مصر إليكم جميعا لإبلاغكم استحساننا وأرسلناه مع صاحب العزة حسين أغا جوقدارنا (١) .

تعيين القادة

كان يجرى محمد على باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائدا لأحد الالآيات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع ، حتى يبث فيه قوة على قوته ، ويحضه

(١) وثيقة رقم ٥٣ (ورقة ١٢) — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٩ (٩ أكتوبر سنة ١٨٢٣) .

على العمل بما يفضى الى تحقيق نظرته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ، ليكونوا على بينة من قائدهم الجديد ، الذى عهد إليه أمر زمامهم ، وتوجيههم فى قابلهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالتخليد . إن دل على شىء فعلى أن محمداً عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة ، التى تعود على الجيش بالخير والبركة .

والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاى ٥ جى بيادة[1] :

" إليكم يا افتخار الأماجد والاكارم سليم بك المعين ميرالايا خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

ويا قدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام ٥ جى بيادة .

ويا مفاخر الأماثل والأقران عثمان أغا بكباشى ٢٠ جى أورطة وحسين أغا بكباشى ٢٢ جى أورطة وسليمان أغا بكباشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم أغا بكباشى ٢٤ جى أورطة .

ويا صاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوزباشيتها وملازميها الأول والثناة وحاملى أعلامها وحاسبيها وباشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاى انك لما أظهرته من الإخلاص والصداقة فى وظيفتك كسلحدار للمرحوم نجلنا الباشا سرعسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاى الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكباشية الأورط وضباطها الاخرين بحسب مواد

(١) وثيقة رقم ٩٦ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ١٢٣٩ هـ (٢٢ ديسمبر ١٨٢٣)

القانون ووفقا للنظام المعمول به فى الآلايات ١ جى و ٢ جى و ٣ جى و ٤ جى بيادة وبإيفاء لوازم الحمية والغيرة المأمولين منك .

وأنت أيها القائمقام ويا بكباشية الأورط والصول أغاسية وجميع الضباط ، اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه فى المسائل التى تكون موافقة للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد فى التعليمات العسكرية والخدمات الجهادية واسعوا فى إبراز ماشاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا . وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى " .

تعليمات محمد على إلى قادة الجيش

ولم يكف محمد على عن توجيه تعليماته لقادة الجيش الفينة بعد الفينة . فهو لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته ، لكى يكونوا على بينة من خطواته ، ويقتفوا آثار توجيهاته . فمثل هذه الارشادات أو التوجيهات كانت مصابيح الهدايا فى الطريق المستحدث ، يمضون على ضوئها نحو الهدف المرموق .

ولسنا بصدد عرض جميع هذه التعليمات أو التنويه بمختلف الارشادات وإنما نأتى على أمثلة منها .

مرسوم خديوى إلى ناظر الجهادية ورجال الجيش المصرى (١)

إلى افتخار الأمراء والأكابر محمد بك ناظر الجهادية دام اقباله وإلى افتخار الأماجد والأكارم عثمان بك رئيس رجال الجيش والميرلوا حسن بك دام مجدهما .

وإلى مفاخر الأماجد والأعيان حسين بك وسليم بك ميرالاى رجال الجيش ومحمود بك وأحمد بك وعلاء الدين بك وسليم بك ميرالايات الآلايات ٩ جى و ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة زاد مجدهم .

(١) وثيقة تركية رقم ٢٣٦ ورقة ٤١ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٢٤١ هـ (٥ ديسمبر ١٢٨٥) .



أمير اللواء ابراهيم يكن باشا

و إلى مفاخر الأماثل والأقران الأغوات القائمقامات والأغوات البكباشية والصاغ والصول قول أغاسى والحاسبين واليوز باشية وحاملى الأعلام والملازمى الأول والثناة والجاويشية والأونباشية وأمناء البلوكات زاد قدرهم و إلى جميع الجنود ...

بعد السلام — نبلغكم أن طريق الجهاد والفداء الذى هو للفيض رفيق هو طريق الله القوى وسبيل سلطان الأنبياء وهـذا شيء بديهى . والذين سلكوا هذا المسلك القويم من أصحاب الصدق والوفاء حصلوا على مرادهم ونالوا مبتغاهم وهذا أمر واضح لذلك قد صرفنا ما فى مقدورنا لتقوية نظام هـذا الطريق ولوينا عنان همتنا نحو استقرار هـذا النظام ونحمد الله إذ كانت الأزلية معنية بنـا ولازمنا التوفيق فقمنا بتنظيم الآلايات والأورط ووضعنا لهـا النظم التدريبية وكانت نتيجة ذلك أن شوهدت الفضائل العديدة والخصائل الجميلة للجنود الجهادية وشاع أمرها فى الأقطار المعمورة . وكان الواجب يقضى بتقدير هذا الفضل الإلهى وعرفان حق هذا الفيض اللانهائى و إبقاء الشكر والثناء على هذه النعم ولكنى يا حضرات الأمراء والضباط أسمع أن بينكم من لا يحترم هـذا السلك العسكرى الذى هو مبدأ العز والسعادة ومنشأ المجد والمناقب ولا يراعى أصول القوانين المودعة فى يد أمانتكم وأجاز لنفسه الغفلة والتراخى واستباح لنفسه سلوك طريق ملتوٍ غير موصل . ولا ريب فى أننا لا نرضى إطلاقا أن يصيب أصول نظام الجيوش الحسنة والجنود الغر الميامين ، الذين صرف فى سبيلهم أعظم الهمم حتى وجدت وأكبروا التوفيق حتى استقرت فنالوا بوضعهم الحديث استحسان الوكلاء ، أى خلل يودى بالشروط المقررة لهم أو أن يطرأ على قانونهم المحترم أى اعتلال .

كما أنه قبل كل شيء لا جدال فى وجوب وقاية هذا السلك من هذه العوارض فعليكم أنتم أيها الأمراء والضباط أن ترجعوا إلى القانون المسلم إليكم فى جميع حركاتكم وسكناتكم باتخاذكم جميعا وأن تسعوا للعمل بمقتضاه و إذا وجد من بينكم من يتبع الهوى و يفعل أفعالا مخالفة للشرع و يسلك سبيلاً منافيا للأصول مناهضا للشروط

فلا ترعوا خاطره وإن كان قريبا أو صديقا لكم حتى ولو كان أبا أو أخا لكم ، وقوموا بتأدية التأديب اللازم طبقا لما توضح فى نص القانون واعنوا العناية الصادقة فى تعليم الأنفار وتحكيم أصول التعليمات حتى يتسنى لكم بذل مقدوركم فى إيفاء واجبات الصدق والإخلاص والسداد من بعد الآن كما هو المرتقب منكم وكما شاهدناه فيكم إلى الآن وفى وقاية نفوسكم من أن تكون معيوبة معاتبة بتجويز أدنى إهمال أو تراخ .

وأنتم يا صغار الضباط ويا جميع الجنود عليكم أن تطيعوا كباركم اعتبارا من رتبة أونباشى حتى البكباشى وأن تتبعوا أوامرهم وأن تبذلوا جهد المستطاع لتكونوا متخلقين بأفضل الأخلاق .

وأنت يا أيها الناظر عليك أن تفرغ قصارى جهدك وتبذل حميتك وغيرتك فى جل الشئون المتفرعة من نظارتك وأن تعمل على استكمال الوسائل الحسنة المؤدّية إلى ازدهار الجيوش الجهادية وازدياد محاسنها النظامية واحذر أن تكون مسئولا بتجويز أقل ما يمكن من التهاون فى هذا الباب .

وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر من باب التنبيه والتأكيد وأرسلناه إليكم فاعملوا بإذن الله بمقتضاه وتحاشوا أوضاع المخالفة له والمنافية للرضا".

وهناك عامل آخر كان له الأثر الكبير فى معنويات الجيش هو عزم "العزيز" على تأييد هذه المؤسسة وتنشيطها وشعور رجالها بذلك . فإنا نلمس هذا الأمر لمس اليد فى خطاب أرسله "العزيز" إلى ناظر الجهادية فى خريف سنة ١٨٢٧ وإليك النص [(١)] :

من الجناب العالى إلى محمود بك ناظر الجهادية :

إن مؤسسة الجهادية عمرها الله لهى فى حدّ ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى ما زلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها قائلا : "أيكون لى أنا الآخر

(١) دفتر ٢٦ معية تركى — مكاتبة تركية رقم ١٦١ بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

سعادة نيلها " بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى و بعرضى ومالى و بذلك العدد الكبير من أصدقائى وأتباعى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى . ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضار والأخطار أملا فى إحداث هذا السلك الجهادى الذى تذكره يا محمود بك كيف كان وقع لفظه عليك حين سمعته لأول مرة فإن تكن حينذاك على حق فيما أظهرت من آثار الاستكبار الناشئ عن توقعك مخاطر هـذا المشروع الظاهرة وجرائره المنتظرة فإنى لم أحفـل بأوضاع الحـيرة التى تملكتك ولا أبهت لأحوال غيرك من سائر المقربين ولكنى وصلت ليلى بنهارى مضحيا بنومى وراحتى وماضيا فى عزمى وإقدامى حتى بلغت وله الحمد مرادى ووفقت وله الشكر الجزيل إلى نبيل مرامى كما أنك تذكر كم بذل بعـد ذلك من جهد فى المحافظة على هذا السلك لئلا يحيد عن جادته السـديدة جنوحا إلى الأودية المعهودة وكيف لم أضن فى سبيل ذلك حتى بعلى أغا كسكين زاده قائمقام آلاى ٥ جى بياده إذ أعدم رميا بالرصاص فى مواجهة الصفوف العسكرية وهو ذلك الذى نشأ فى رعايتى من الصغر وربيته حتى شب وكبر .

فلهذا كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والولاية والغفلة والرخاوة والغرض والصفينة والمحاباة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية . وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكياسـة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنـا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية ولكن بينما نحن مطمئنون إلى هـذا الأمل إذ صـدمتنا جرائم محمود أفندى القائد السابق للآلاى ١ جى بيادة التى تبيناها سـواء من العريضة التى كان قدمها إلينـا أو من محرراته الواردة عليكم .

وإذا كنا قد حولنا قضية (محمود أفندى هـذا) عليكم لاستجوابه وفقا لقواعد النظام الجهادى المستحسـنة ثم لعرض أمره علينا بعدما يتفق يتخـذ المجلس بشأنه

قرارا موافقا لمقتضى العدالة والقانون . وكنتم بدوركم قد ألفتم بهذا القصد مجلسا جهاديا ثم حوّلتم القضية على سليم بك للفصل فيها . فان المجلس المذكور ما كاد يتلقى ردّ محمود أفندى على سؤاله حتى قنع بهذا الجواب فلم يبد من أحد من أعضائه أى ميل إلى الاعتراض على معاودة الشعوذة والولاية . ولا دحض جوابا بالجواب الذى يستوجبه ويقتضيه . وإنما ضرب المجلس فى أودية المحاباة فاعتبروا الجريمة ناشئة عن شكاية (أحمد باشا) ولم يحملوها فى قرارهم إلا هذا المحمل وهكذا صرفوا أنظارهم عن أداء الواجب بذمتهم وإبقاء من مهمتهم ولم يرعوا أصول الوظيفة والمصلحة . بل لقد حاولوا استدراجنا معهم إلى طرائق ولايتهم . فكان هذا داعيا إلى تعجبنا باعثا على دهشتنا وتحيرنا حتى ليعلم الله أن كبدى كادت تنفطر من شدّة الأسى وتقطر دما من فرط الأسف فهل ضاع الانصاف أيضا (يامحمود بك)؟ أم تراهم اكتفوا برؤية الدعوى على ضوء القانون ظانين إنى نسيت مضمون عريضة (محمود أفندى) ومحرراته أو كانت الدعوى المذكورة قد نظرت حقا بحسب القانون وكان كل ما يستحقه الرجل هو ذلك الجزاء الذى قرره المجلس فى مضبطته بإجماع الآراء بعد وزنه بجرائمه وتقديره لها بموجب مضمون عريضته ومحرراته فليبعث إلىّ بتلك العريضة والمحررات لأحقق أنا أيضا المسالة . فقد أكون لها ناسيا . حتى إذا أسفر تحقيق عن صحة قرار المجلس فيها نعمت . وإلا حق علىّ أن أقاضى أعضاء المجلس وأفصل بنفسى فى دعواى فأوفى كلا منهم جزاءه .

وبناء على ذلك لقد أعدت إليكم فى طى كتابى هذا مضبطة المجلس ، كى تردوها إليهم وترسلوا معها العريضة والمحررات عسى أن ينعموا النظر فى المطابقة والموازنة . فان هم اجترأوا بعد ذلك على انتهاج خطة الخلاف فليعلموا علم اليقين إنى لابدّ موردهم موارد التلف تبعا للنصوص الواردة فى القانون .

أذن فليرعوا ذلك ويحكموا فى هذه الدعوى بمقتضى الحق والنصفة مسترشدين بما فى النظم الجهادية من أصول صحيحة مستحسنة وبما تنص عليه القوانين القيمة ليختاروا لأنفسهم واحدة من هاتين الخطتين ثم ليجيبوا مخبرين بها مشيرين إليها .

هذا ما لزم تسطيره فاذا أحطتم علما بفحواه فأخص مطلوبنا أن تبادروا إلى إيفاء مقتضاه [(١)] " .

العناية بالرماية

أما أن محمدا عليا كان يعنى بتدريب الجيش على شئون الرماية ، فهذه حقيقة لا ينكرها الواقع . وكيف لا والرماية هى « الصناعة » التى يتعين أن يجيدها كل جندى شاء أم لم يشأ . فحسبك أن تعلم مدى أهميتها حين نعترف بأن الجندى الذى لا يجيد الرماية أشبه بالبندقية التى لا تصيب الهدف ... كلاهما إن لم يك صالحا فهو مضر للغاية .

وفى الأمر التالى يلوح لنا جليا كيف كان هذا المصلح يفحص مثل هذا الأمر بعين محدقة ، ويوجهه برأس مفكرة ... .

من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية

" إنه لمن البداهة أنكم ستعنون كل العناية بتعليم الآلايات الماثلة بمعسكر بنى عدى وفى تفنن الضباط والعساكر كما ينبغى ، بيد أنه من المعروف أيضا أن اصابة الهدف من الأمور التى لها أهميتها وخطورتها . فمن الواجب — والحالة هذه — أن تعنوا أيضا بأمر الرماية وتعليم أصولها عنايتكم بالأمور الأخرى . فنبهوا على الميرالاى الثالث خورشيد بك والميرالاى الرابع حسن بك والميرالاى الخامس سليم بك

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦١ دفتر رقم ٦ معية تركى بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٢٧ م) .

بأن يعنوا أيضا بتعليم الرماية وأفهموا سليمان بك أيضا بأنه يجب عليه بعد أن يفرغ من تعليم الفصول المطلوبة أن يشرع فى تمرين الجنود على الرماية أسوة بالتمرينات الأخرى وأن يوصلهم إلى درجة الكمال فيها وأن لا يتكاسل عن ذلك . فمتى علمتم أن هـذه إرادتنا فى هذا الصـدد أرونى يا أخى همتكم واعملوا على تنفيـذ ارادتنا ووافونا بالاجراءات التى أتخذتموها فى هذا الشأن " .

ديوان الجهـادية

لم يكن لدى محمد على مجلس للنظار أو الوزراء كما هـو الحال اليوم . بل كان لكل فرع من فروع الادارة الحكومية ديوان أو هيئة وعلى رأس كل ديوان ناظر ينفذ الأوامر التى يصدرها اليه بدون تحوير أو تعديل .

وكان عدد هذه الدواوين سبعة وهى :

الديوان العالى — ديوان الايرادات — ديوان الجهادية — ديوان البحرية — ديوان المدارس — ديوان الأمور الأجنبية — ديوان الفابريقات .

وقـد أنشئ ديوان الجهادية فى عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) وكان يرجع اليه فى ادارة شئون الجنود البرية ، وتعليمهم ، وضبط حركاتهم ، وبنـاء الثكنات والمشافى ، ومشترى المهمات والأسلحة وسواها .

ولم يكن على ناظر الجهادية سوى إصدار الأوامر التى يتلقاها من محمد على باشا وملاحظـة تنفيذها بدقـة و بسرعة و بدون الرجوع الى نظـام المكاتبات و بطئها المعـروف .

وكان لناظر الجهادية اثنان من الكتبة الأقباط يقومان بتحرير الرسائل الضرورية لفروع ادارة الجيش وأسلحته .

ومما يذكر أن أوّل من تقلد هـذه الوظيفة (ناظر ديوان الجهادية) محمد بك لاظ أوغلو ثم خلفه محمود بك عزت الذى بقى فى منصبه حوالى العـام ثم استبدل بالفريق أحمد المنكلى باشا وقد جرح فى معركة قونية .

المـــدارس الحـــربية

مدرســة القلعــة

بعد مذبحة المماليك فى سنة ١٨١١ ، جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة، على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمونها فى قصورهم . وأحضر لهم المعلمين يلقنونهم القراءة والكتابة التركية والفنون الحربية ، ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الايطالية .

ومن ثم أوفد — فيما بعد — كبار تلاميذ هذه المدرسة و بعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه الى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدى المدربين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن « سيف » الذى تسمى بعد باسم "سليمان الفرنساوى" .

تنظيم التعليم العسكرى :

وما لبث أن ارتأئ محمد على أن ينظم التعليم العسكرى فى البلاد — فأمر بتأليف مجلس يهمن على شئون التعليم فى الجيش و يتولى الإشراف على تدريبه وسمى ديوان «قومسيون» المدارس العسكرية . وقد تألف هذا الديوان من ناظر الجهادية رئيسا وعثمان نور الدين بك وقادة الآلايات العسكرية فى مصر والكولونيل جـودا مدير تعليم المشاة والبكباشى فوجت وزميله ديلفورت، وكان يقوم بأعمال السكرتارية — أحيانا — القومندان بلانا .

وكانت من أعمال هـذا الديوان البحث فى مطالب تعليم الجيش، ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها على حسب الأحوال . وقد أسندت رئاسة هذا الديوان لأمير اللواء مصطفى مختار بك .

مدرسة البيادة بأسوان

فى اليوم الثامن من أغسطس عام ١٨٢١ صدر أمر محمد على بإنشاء المدرسة الحربية بأسوان وتنظيمها والعناية بأمرها وتدريس العلوم بها . وفى اليوم السابع والعشرين وافق على ترتيب دروس المدرسة الحربية .

وحين حل الخامس والعشرون من يناير ١٨٢٢ صدر أمر بتعيين محمد بك لاظ أوغلو ناظرا على مدرسة أسوان المذكورة ولتنظيمها ولادارة شئونها . وفى الأمر الآنف نصح تلامذة المدرسة بصفته والدهم على الانقياد للناظر و بالاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون لأجل ترقيتهم .

وفى ١٦ فبراير ١٨٢٢ صدر أمر من محمد على باشا لهذا الناظر بالاجتهاد مع سليمان أغا (الفرنساوى) لعمل ترتيب للمدرسة حسب التعليمات التى أعطيت للمذكور، وانتخاب من يلزم من المدرّسين ، وترقية المجتهدين من التلامذة الى جاويش أغاسية أو "بلوك باشية" ، لحث الباقين منهم على التقدّم أسوة بغيرهم .

بيد أن أسوان لم تك ملائمة للدراسة العسكرية — ولذلك نقلت المدرسة الحربية الى (إسنا) فانتقل سليمان أغا و بصحبته أحمد أفندى — وهو من الرجال الفنيين — وكان يتردّد عليهما بين الحين والآخر إبراهيم باشا ليقف بنفسه على نجاح تدريب النواة الأولى للجيش المصرى .

واستمرّت مدرسة إسنا الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش الجديدة ، الى أن نقلت الى أخميم ثم النخيلة (على مقربة من أسيوط) . وأخيرا استقرّ معسكر التدريب أو المدرسة الحربية بالخانقاه . وقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية[1] .

---

(١) ذكر مسيو جو يمار فى كتابه (La Reforme en Egypte) أن قائد هذه المدرسة كان ضابطا سردينيا اسمه (بلاسو) وكانت تسع خمسمائة طالب ، ولم يقدّر لهذه المدرسة البقاء سوى بضع سنوات .

مدرسة البيادة بالخانقاه

أنشئت مدرسة البيادة على مقربة من الخانقاه فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ لتخرج ضباط وحدات المشاة . بيد أنها لم تعمر بالخانقاه طويلا . إذ نقلت فى مايو سنة ١٨٣٤ ، أى بعد نحو عامين من إنشائها بالخانقاه ، الى مدينة دمياط . فظلت بها حوالى سبع سنين ثم نقلت سنة ١٨٤١ الى أبى زعبل فى مكان المدرسة التجهيزية . ومكثت بها الى نهاية عهد محمد على . وقد نصت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ على أن مدّة الدراسة بمدرسة البيادة بدمياط ثلاث سنوات . يدرس فى غضونها التلاميذ المواد التالية : مبادئ التحصين ، والطبوغرافيا ، ورسم الخطط ، ونظريات وحركات البيادة ، والتمرين على استخدام السلاح ، وواجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات .

وكان موظفو المدرسة هم : مديرها يوسف أغا بعد أن كان الضابط بولونيينو ووكيله وأستاذ للطبوغرافيا والخطط ، وآخر للتحصين والهجوم ، وأربعة ضباط من المشاة ، وأربعة ملازمين ، ومدرّب للسلاح ، وآخر للرياضة البدنية . وكان يرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش .

وقد نص قانون المدرسة على اعتبار تلاميذ مدرسة المشاة كتيبة فى الجيش . ومما يذكر أنهم كانوا فى سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة . منهم الأنفار وضباط الصف ثم أربى العدد عقب ثلاث سنين على الأربعمائة . حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر فى تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة إلى مدرسة المشاة ماتزال ماسة حتى بعد إنقاص الجيش لإلغاء معسكر النخيلة الذى كان يمدّ الجيش بالضباط . ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباط للمشاة سوى مدرسة البيادة . لهذا استبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات . فى كل بلوك مائة وعشرة من التلاميذ ماعدا ضباط الصف . وقد تضخمت أعداد التلاميذ حتى صارت المدرسة تحتوى

على ثمانية وستين تلميذا بعد الثمانمائة وبذا كانت المدرسة الوحيدة بمصر التى ازداد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٥١ عما كانت عليه من قبل .

وقد ظلت المدرسة الى أخريات أيام محمد على زاخرة بعدد وفير من التلاميذ يربو على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر (٣٣٠ تلميذا) . وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة البيادة من ابى زعبل الى الجيزة ثم ألغيت وسرح تلاميذها .

مدرسة أركان الحرب

أنشئت مدرسة أركان الحرب بقرية "جهاد أباد" بقرب الخانقاه بمشورة عثمان نور الدين أفندى . وقام على تأسيسها الكابتن الفرنسى "بلانا"[١] و بدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٥ .

وأقيم للمدرسة بناء جميل، وشيدت منازل على النسق الحديث، وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطا وكان (بلانا) ينهض بنصيب موفور من التعليم وبمعاونة بعض المدرّسين الأوروبيين والشرقيين .

وكانت مدّة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان فى نية منشئها زيادة مدّة الدراسة سنة رابعة يتناول فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون "أركان حرب" فى الوحدات الفنية فى الجيش ، أو فى المدفعية ، أو فى المناجم ، أو فى الإدارة الحربية أو المدنية أيضا .

---

(١) خدم جول بلانا مصر من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٨ ومات فى فرنسا فى العام التالى .

مدرســة الســوارى

أنشئت مدرسة السوارى فى ذى القعدة ١٢٤٦هـ (أبريل ١٨٣١م) وخصصت لها قصر مراد بك بالجيزة. وقد استمرت به حتى ألغيت فى بداءة عصر عباس الأول.

وقد نصت لوائح المدرسة (سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧) على أن يلحق بها :

(١) ضباط يعدّون ليكونوا معلمين بالجيش .

(٢) تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

(٣) جنود من الجيش ليكونوا نافخى الأبواق و"ترومبتجية" .

أما الضباط فتبعث بهم الى المدرسة فرق الجيش على ألا تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة . ويشهد رؤساؤهم بكفايتهم وحسن أخلاقهم . وتختبر مهارتهم فى الثلاثة أشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة . حتى إذا قبلوا بها نهائيا ظلوا بين جوانحها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تؤهلهم ليكونوا فيما بعد معلمين فى وحدات الجيش .

أما التلاميذ الذين يؤخذون من المدرسة التجهيزية فيمكثون بمدرسة السوارى ثلاثة أو أربعة أعوام يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش . وكان تلاميذ المدرسة يتلقون دروسا مختلفة بعضها فى نظريات الخدمة العسكرية وبعضها فى اللغات العربية والتركية والفارسية . وبعضها الآخر فى الهندسة والحساب والرسم والخط . هذا إلى التدريب العسكرى فى القفز وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسة . وكان تلاميذ المدرسة مقسمين أربع فرق فى دروس الخدمة العسكرية ، وبالمدرسة فرقة للرسم وأخرى للفروسية . وفيما عدا ذلك يقرأ التلاميذ كتبا متباينة فى العربية والتركية والفارسية ويمرنون على خط الرقعة أو الثلث . وكان ضباط المدرسة وفريق من تلاميذها يتعلمون اللغة الفرنسية .

وكان على التلاميذ أن يخدموا خيولهم بأنفسهم فى الثلاثة أشهر الأولى من دراستهم .

وكانت مدرسة السوارى — كما ذكرنا — تنتظم ضباطا وتلامذة وجنودا ضاربين على الطبل ، وآخرين نافخين فى الأبواق .

أما الضباط فكانوا يقومون على تعليم التلاميذ وتدريبهم و يتلقون دروسا تعدّهم ليكونوا معلمين بالجيش .

أما التلاميذ — وكانوا الأغلبية فى المدرسة — فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وسواها من المدارس الحربية والخصوصية .

أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ويلتحقون بالمدرسة و يقرءون بها القرآن الكريم و يتعلمون القراءة والخط .

وأما النافخون فى الأبواق " البروجية " فكان مقررا للمدرسة أربعة وأربعون وكانوا ينتخبون من تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين على درجة " دون الدون " فى الامتحانات .

وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة فى عهدها الأوّل من الترك والمماليك حوالى المائتين . أما المصريون فكانوا يقصرون على تعليم العزف فى الأبواق . ولكن ما لبث العنصر المصرى ينمو بها و يتزايد حتى إذا مضت سنوات قلائل أصبح تلاميذ المدرسة كافة من المصريين وزال منها العنصر الأجنبى أو كاد .

وأكبر عدد بلغته مدرسة السوارى (٧٥٠ تلميذا وجنديا) وفى سنة ١٨٤٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ منهم ثلاثون ضابطا و ٣٢٨ تلميذا و ٢٨١ جنديا ونافخا فى البوق وضاربا على الطبل .

وفى مستهل حكم عباس الأوّل ألغيت المدرسة .

ومما يذكر أنه قد تولى منصب (مدير المدرسة) فى عهدها الأول ضابط فرنسى يدعى " فارن " (Varin) فنظمها على غرار المدارس الحربية الفرنسية وقد رفع محمد على رتبته إلى أميرالاى عقب انتصار الجيش فى حروب عام ١٨٣٢ . وقد خلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى " واسيل " أو " واسيل أغا " وقد ظل مديرا للمدرسة حتى شارف عصر محمد على النهاية .

مدرسة المدفعية

لما مست الحاجة إلى ضباط لوحدات المدفعية المنشأة فى ذلك العهد تقدم ضابط إسبانى اسمه " دى سيجويرا " إلى إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى باقتراح إنشاء مدرسة خاصة بالمدفعية فوافقت الحكومة على اقتراحه وأنشئت المدرسة وعين مديرا لها . وجمعوا لها ثلاثمائة من تلاميذ مدرسة قصر العينى التجهيزية . وكان إنشاء المدرسة فى سنة ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) .

أنشئت المدرسة فى طرة وكان غالبية تلاميذها — أول نشأتها — من المصريين والأتراك كما كان منهم يونانيون من كانديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وقد تراوحت أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية .

فالذين يعدون للخدمة فى الأسطول يتعلمون الإنجليزية . والذين يعدون للجيش يتعلمون الفرنسية أو الإيطالية . أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء .

وكان يضطلع " رفاعة رافع الطهطاوى " وقد عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب " كنيك " (Kœnick) وظل بها سنتين (١٨٣٣ — ١٨٣٥) .

وفى سنة ١٨٣٦ ندب شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية بطرة لجنة مؤلفة من مختـار بك مدير الشورى و " حكاكيان أفندى " مدير مدرسـة المهندسخانة والمسيو " لامبير " وكان آنذاك مهندسا بشورى المدارس . وانضم اليهـم " مظهر أفندى " المهندس و " بهجت أفندى " مدير مدرسة المدفعيـة والمسيو " برونو " مدرّب التلاميذ بها . ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لائحتين [(١)] .

وقد أصبح برنامج الدراسـة فى أواخر عصر محمـد على حافلا بالدروس المنوعة كفيلا بتخريج ضباط أكفاء للهنة التى أعدّوا لها .

وفى سـنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى وكل إليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة على أن يكون قوامها عددا من التلاميذ كافيا لإدارة " بطاريتين اثنتين " . بيـد أن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيرا منه قبل تلك السنة .

فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى ضباط لفرق الجيش التى تتزايد يوما إثر يوم . الشئ الذى طالمـا دعا الى تخريج التلاميذ قبل أن يستكملوا دراستهم . ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش وأصبح كثيرا من خريجيها الذين أتموا علومهم على قلتهم لا يكادون يجدون عملا . فكانوا يظلون بالمدرسـة يستعيدون دروسهم حتى تحتاج اليهم أو إلى بعضهم فرق الجيش .

وكان عدد تلاميذ المدرسة وقت إنشائها ثلاثمائة تتراوح أعمارهم بين الحادية والخامسة عشرة أو تزيد على ذلك أحيانا .

ولمـا نظمت المدرسة فى سنة ١٨٣٦ لم تستطع المدرسة أن تستوفى إلا نحو مائة وثمانين تلميذا موزعين على ثلاث فرق دراسية .

وفى سـنة ١٨٤٣ كان بهـا ثمـانون ومائة تلميـذ فحسب موزعين على أربع فـــرق .

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر — أحمد عزت عبد الكريم . ص ٤٠٩ — ٤١١

وفى العام التالى استوعبت المدرسة أكثر من مائتى تلميذ موزعين على ست فرق دراسية . ولكن عدد التلاميذ ارتدّ يهبط سريعا حتى وصل فى سنة ١٨٤٦ الى أقل من مائة ثم الى ثمانية وسبعين تلميذا موزعين على أربع فرق دراسية .

وفى أخريات أيام محمد على تقرّر إبلاغ عدد تلاميذها الى ثلاثمائة بأ كملهم من تلاميذ المكتب العالى بعد امتحانهم .

وفى أوائل عهد عباس الأوّل أغلقت المدرسة أبوابها . وقد كان أوّل مديرى المدرسة الكولونيل (الدون أنطنيودى سيجويرا) بيد أنه اعتزل الخدمة بعد أربع سنوات وخلفه مصطفى بهجت أفندى (باشا فيما بعد) عضو بعثة عام ١٨٢٦ الى فرنسا ثم ناظر مدرسة قصر العينى التجهيزية .

وكان يعاونه مدرّب فرنسى يدعى "برونو" ثم خلفه "خليل أفندى" مديرا للمدرسة وبعد ذلك استقل الضابط المدرّب "برونو" بإدارة المدرسة وظل بها الى أواخر عصر محمد على .

مدرسة الموسيقى العسكرية

أنشئت فى قريه "جهاد أباد" مدرسه لتعليم الموسيقى لنفر من أبناء المصريين ليكونوا موسيقيين فى وحدات الجيش والأسطول . وكان يعلمهم معلم أجنبى يدعى الخواجة كلود كاريه . ثم نقلت المدرسة الى "الخانقاه" وكان عدد تلاميذها يبلغ المائتين .

وكانت هذه المدرسة تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٨٢٧ تابعة لديوان المدارس .

ورأى الديوان أن عدد تلامذتها — وكان مائتى تلميذ وخمسة تلاميذ — أكبر مما تحتاجه فرق الجيش وأنهم يزيدون على نسبة المعلمين — فقرّر الاكتفاء بمائة وخمسين منهم ونقل الباقين الى مدرسة المبتديان وعين لهم مدرّسين من الأجانب .

وفى عام ١٨٤١ ألغيت المدرسة ووزع تلامذتها على المدارس الحربية .

وكان عدا مدرسة الخانقاه — ثمة مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة بأثر النبى ثم نقلت الى سوق السلاح فى البناء الذى كان مصنعا للصوف . ومدرسة بالقلعة — وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين فى تفهم الموسيقى الغربية وأداء أدق القطع لأمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين .

مدارس الوحدات

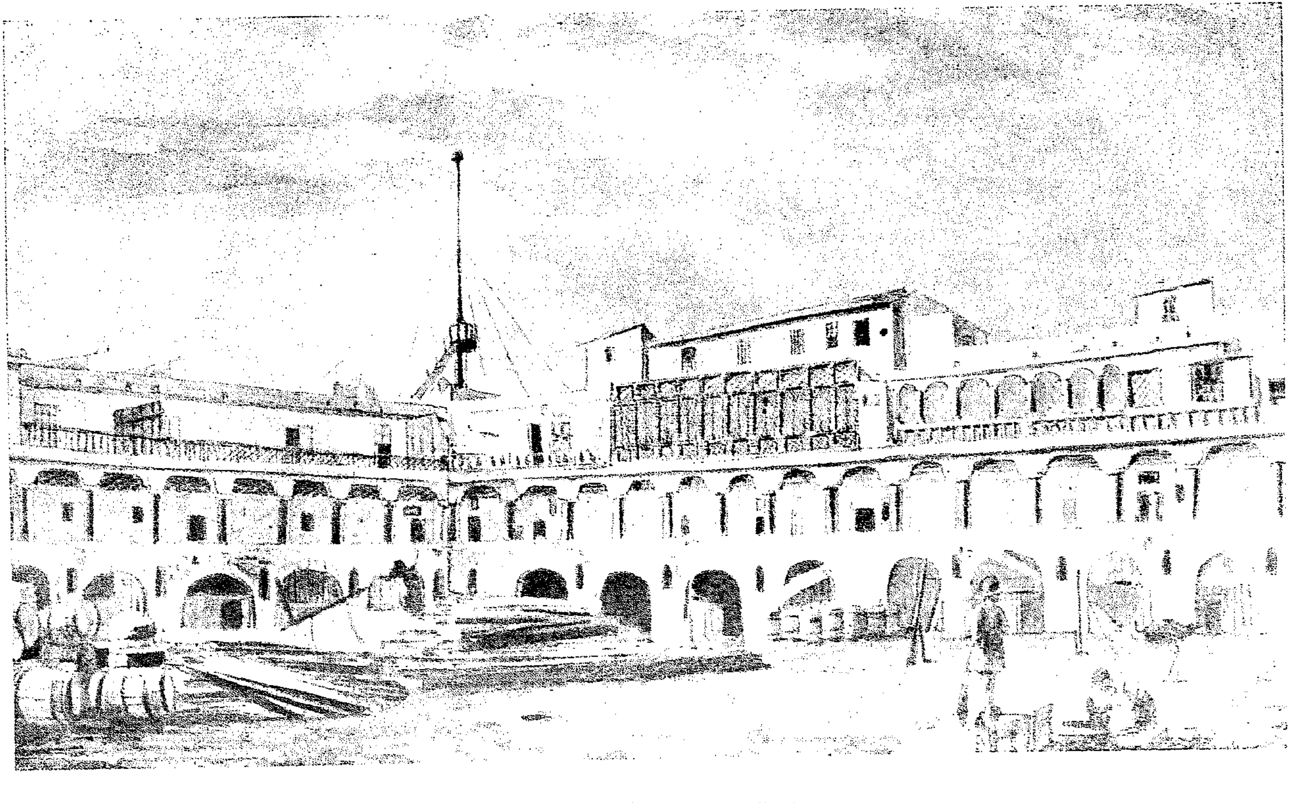
لم تهمل حكومة محمد على تعليم جنود جيشنا . فهيأت مدارس بفرق الجيش ووحدات الأسطول يتعلم بين جوانحها الجنود (جنود البر والبحر) القراءة والكتابة والحساب . وكانت الحكومة تولى تشجيعها للمتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

البعثات العسكرية

ورأى محمد على باشا — بعد إنشاء النظام العسكرى الحديث فى مصر وتأسيس المدارس الحربية والمؤسسات التى لا غنى لجيش وطنى — أن حاجة البلاد الى الأجانب من مديرين ومدرسين لا تزال حيث كانت . ولما كانت نفسه الطموحة لا تريد أن تحتاج البلاد الى شىء ما من الخارج . عوّل على إيفاد البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر الى أوروبا ليتموا دراستهم بها ليتهيأ تمصير تعليم الجيش . وشرع يرسل التلاميذ تباعا إلى مختلف البلدان الأوروبية لتكون منهم نواة لإحياء المجد العلمى بمصر الحديثة ، وتخير مسيو جومار رئيسا للبعثات المصرية بفرنسا وغيرها للاشراف على البعوث العلمية .

بعثة الجيش الأولى

كانت أولى البعثات التى أوفدها محمد على — عام ١٨١٣ — للتخصص فى الشؤون الحربية وكان أعضاؤها :



دار الصناعة بالاسكندرية

دويدار مصطفى مختار — أرسل لتعليم الإدارة الحربيــة . ومن المناصب التى تولاها مدير ديوان الجهادية عام ١٨٣٥ ثم مدير ديوان المدارس (١٨٣٦) . وكان أول ناظر للمعارف فى مصر .

محمد مظهر — تخصص فى دراسة الرياضيات والهندسة وبعودته الى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطرة ، ومن أهم أعماله إنشاء فنار الاسكندرية برأس التين .

أحمد يكن مصطفى القللى — تعلم صناعة الدخيرة .

البعثة الثــانية

كان عدد أعضاؤها قليلا وقد سافروا عام ١٨١٨ . ومن أظهر أفرادها عثمان نور الدين (باشا فيما بعد) وقد ترقى الى أرفــع المناصب العسكرية ثم رئيسا للاسـطول المصرى (١٨٢٨) .

البعثة الثــالثة

أوفدت عام ١٨٢٦ — وقد تخصص معظم طلبتها فى الصناعات العسكرية فتعلم أمينى أفندى وأحمد حسن حنفى صب المدافع وصناعة الأسلحة . ودرس المدفعية عمر أفندى وسليمان لاظ (الطرابزونى) . وتلقى علوم الإدارة الحربية رشيد أباظة وسليمان الجركسى .

البعثـــة الرابعـــة

أوفدها محمد على فى عام ١٨٤٤ وهى أعظم البعثات العسكرية وبلغ عدد تلامذتها سبعين تلميذا ثم لحق بهم غيرهم . ومن أعضائها :

أحمـد حلمى بك وكان من أهم الوظائف التى شغلها ناظر المدرســة الحربية بالقلعة السعيدية .

أحمد خير الله بك .

أحمد راسخ بك .

الأمير أحمد رفعت .

أحمد عجيلة السبكى بك وكان من كبار رجال الرى فى مصر .

أحمد عبيد بك وله عدة مؤلفات عسكرية مترجمة .

أحمد نجيب (باشا) .

الخديوى اسماعيل باشا .

حسن أفلاطون باشا — عين فى عهد سعيد باشا رئيسا للصنائع الحربية بالحوض المرصود .

الأمير حسين باشا .

الأمير محمد عبد الحليم باشا .

حماد عبد العاطى باشا — تخصص فى المدفعية — وفى عام ١٨٥٤ عين مديرا لمصنع الحوض المرصود ، وله عدة مقالات عسكرية نشرت فى مجلة أركان الحرب المصرية .

حنفى هند بك .

خورشيد بك برتو بك .

سعيد نصر (باشا) تقلد عدة مناصب مدنية وعسكرية وقضائية .

سليمان نجاتى (بك) عين مأمورا لإدارة المدرسة الحربية بالعباسية فى عهد الخديو اسماعيل .

شافعى يعقوب رحمى (بك) . اضطلع بعدة أعمال طبوغرافية واشترك مع المهندسين العسكريين فى عمل أبحاث شق قناة السويس .

شحاتة عيسى (بك) كان فى عهد الخديو اسماعيل ناظرا لمدرسة أركان الحرب.

صادق سليم شنن — عبد الرحمن محمد — عبد الفتاح بك — عثمان شريف — عثمان صبرى — عثمان نورى (باشا) .

على ابراهيم (باشا) عين فى عهد الخديو توفيق ناظرا للمعارف ثم ناظرا للحقانية .

على شريف (باشا) .

على فهمى (باشا) .

على مبارك (باشا) تقلد عدّة مناصب عسكرية فى الجيش وفى المعاهد واشترك فى حرب البلقان وعين فى عام ١٨٧٧ لادارة الأوقاف والمعارف ثم أسندت اليه نظارة الأشغال واشترك فيما بعد فى عدّة نظارات واستعفى فى مايو ١٨٩١ وأدركته الوفاة فى ١٤ أكتوبر عام ١٨٩٣

محمد اسماعيل الطوبجى — محمد خفاجة — محمد راشد (باشا) — محمد شريف (باشا) وكان من أعظم رجال مصر .

محمد صادق (باشا) قام بعدّة أعمال جغرافية فى وادى النيل وبلاد العرب .

محمد عارف (باشا) .

مراد حلمى (باشا) .

ولى حلمى (بك) ... وآخرون ... .

ولا ريب أن مصر قد أفادت من خدمات هؤلاء الرجال الذين نشأوا على عهد محمد على وبرزوا على أيام أحفاده ... بل نستطيع القول بأنهم كانوا العمد الذين ازدهى بهم بناؤه .

وحدات الجيش

آلاى المشاة الأوّل (١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن حملة هكس باشا وأبيد عن آخره فى صحارى كردفان مع أفراد الحملة فى نفس العام .

آلاى المشاة الثانى (٢ جى آلاى بيادة)

هيىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أنشئ من جديد فى أواخر السنة المذكورة وأنفذ إلى السودان ضمن حملة (هكس) باشا وانقضى عن آخره فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى نهاية تلك السنة .

آلاى المشاة الثالث (٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه من جديد فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن قوّات (هكس) باشا وأبيد فى فلوات كردفان مع باقى أفراد الحملة فى أواخر تلك السنة .

آلاى المشاة الرابع (٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان ضمن جيش (هكس) باشا وتلقى إبادته فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى أواخر تلك السنة .

آلاى المشاة الخامس (٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ ، وفى سنة ١٨٧١ ، عندما أدخل الخديوى اسماعيل نظام الفرق فى الجيش ، فاتخذ هذا الآلاى رقم (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد التخفيض الذى أصاب الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء حالة القطر المالية ، نمر فى سنة ١٨٨٠ بالنمرة الأصلية . ثم فى الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز نمر مرة أخرى (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) وألغى بعد الثورة فى سنة ١٨٨٢ ، وحدث أن أعيد إنشاؤه من جديد تحت رقمه الأصلى فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان بين حملة (هكس) باشا وظل فى الخرطوم كحامية لها . وبعد

حصارها وسقوطها فى سنة ١٨٨٥ أبيد هذا الآلاى وكان أطول آلايات الجيش عمـــرا .

آلاى المشاة السادس (٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هــذا الآلاى فى ســنة ١٨٢٣ واشترك فى حرب سورية ســنة ١٨٣١ ولم يعد منها لخيانة قائده الذى سلمه لجيش الحلفاء بعد وقعة بيروت فى سنة ١٨٤٠ ومع كونه منتصرا على هــذا الجيش فقد فعل هــذا خوفا من إبراهيم لغلطة كان قد اقترفها فى غضون القتال .

وعقب عودة الجيش من هــذه الحرب ، فى ســنة ١٨٤١ ، أعيد إنشاء هذا الالاى من جديد .

وفى سنة ١٨٧١ ، عندما نسق نظام الجيش على وتيرة فرق منفردة، حمل هذا الآلاى رقم (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد تخفيض الجيش فى ســنة ١٨٧٩ ، لسوء مالية مصر، نمر بنمرته الأصليــة . وفى الثورة العرابية ، عنــدما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز، نمر مرة أخرى (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى بعــد الثورة الآنفة فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

وعندما هيأ الخديوى إسماعيل الجيش فى فرق منفردة فى سنة ١٨٧١ ، وزاده فى ســنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى : ٣ جى فرقة ، أنشأ هــذا الالاى من جديد ونمره (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء المــالية المصرية فى ذاك العهد . ثم أعيد إنشاؤه مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢م وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (١جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى مع باقى وحدات الجيش بعد الثورة المذكورة فى سنة ١٧٨٢م .

آلاى المشاة العاشر (١٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ . ثم توجه لحرب سورية سنة ١٨٣١ م ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد . وبعد عودة الجيش من هذه الحرب فى سنة ١٨٤١ م

أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٥ وبعد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ م . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيأ الخديوى اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره . (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٧٨٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذلك العهد . وأعيد إنشاؤه للمرة الخامسة فى سنة ١٨٨٢ م حينما زاد العرابيون الجيش لمحاربة الانجليز ونمره نمرة أخرى : (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفرق فى الجيش ، أخذ هذا الآلاى رقم (٣ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذلك العهد .

وعندما قبض العرابيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى سنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش نمر الآلاى الآنف (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك العهد ، وبعدما قبض العرابيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى برقمه الأصلى .

وعندما زيد الجيش فى تلك السنة الأخيرة لمحاربة الانجليز نمر مرة أخرى (٤جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى عام ١٨٢٤ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ، ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأوّل مساعدا للدولة العلية فى حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٠ .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥م . ثم ألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأوّل مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م، وحدث أن ألغى فى سنة ١٨٥٦ م وأنشئ مرة ثالثة ثم ألغى فى سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشئ مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى عقب الثورة المذكورة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش

المرسل من قبــل عباس باشا الأوّل لمساعدة الدولة العليــة فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعــد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧م وألغى فى سنة ١٨٧٠م وعند ما استحدث الخديو اسماعيل فى الجيش الفرق المنفردة فى ســنة ١٨٧١ م وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هــذا الآلاى من جديد ونمره : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى فى ســنة ١٨٧٩ م عند ما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذاك الوقت . ثم أنشىء مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمقاتلة الانكليز ونمر مرة أخرى : (٤ جى بيــادة ٣ جى فرقة) وألغى بعــد الثورة الآنفة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثالث عشر المشاة (١٣ جى آلاى بيادة)

أنشىء فى سنة ١٨٢٨ وألغى فى سنة ١٨٤٢ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب . وكان هــذا الآلاى قسما منه . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشــا الأوّل مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٦ وألغى فى سنة ١٨٦٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشىء مرة ثالثة فى ســنة ١٨٦٧ وألغى فى ســنة ١٨٧٠ ثم أنشىء للمرة الرابعــة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابيــة عند ما زيد الجيش لمهاجمة الانجليز ونمر (١ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع عشر المشاة (١٤ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حروب سورية فى عهد محمــد على باشــا ثم أنشىء من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس الأوّل لمعاونة الدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشىء مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢

فى وقت الثورة العرابية عنـدما زيد الجيش لمحـاربة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى الخامس عشر المشاه (١٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سـنة ١٨٣١ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعـد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبـل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العليـة فى حرب الروس من ١٨٥٣ — ١٨٥٥م وألغى فى سـنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م. ثم أنشئ مرة رابعـة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحـاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى السادس عشر المشاة (١٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا وعودته من جزيرة كريت التى كان فيها هـذا الآلاى . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبـل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العليـة فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م ثم أنشئ مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٤ جى لبيادة ٤ جى فرقة) . وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى السابع عشر المشاة (١٧ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعـد عودة الجيش من حرب سـورية فى عهد محمـد على باشا . ثم أنشىء من جديد لتأليف الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ عقب انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ م وألغى فى سنة ١٨٧٠، ثم أنشئ مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر (١ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية الجيش .

الآلاى الثامن عشر المشاة (١٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ م وأرسل مع الجيش الى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م عقب انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٦٨ ، ثم أنشئ للمرة الرابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى التاسع عشر المشاة (١٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى العشرون المشاة (٢٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤م لتكوين الجيش المصرى المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦م بعد تصرم هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر (٤ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى الحادى والعشرون المشاة (٢١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .

الآلاى الثانى والعشرون المشاة (٢٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثالث والعشرون المشاة (١٣جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الرابع والعشرون المشاة (٢٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنه ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد ارتداد الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الالآى الخامس والعشرون المشاة (٢٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى السادس والعشرون المشاة (٢٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى السابع والعشرون المشاة (٢٧ آلاى جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هـذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثامن والعشرون المشاة (٢٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هـذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى التاسع والعشرون المشاة (٢٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى المحاربات ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثلاثون المشاة (٣٠ جى الآى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الحادى والثلاثون المشاة (٣١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثانى والثلاثون المشاة (٣٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٨ ولم يشترك فى حرب من الحروب وألغى فى سنة ١٨٤١ م عقب أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثالث والثلاثون المشاة (٣٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمـد على باشا بعـد رجوع الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يجدّد إنشاؤه .

الآلاى الرابع والثلاثون المشاة (٣٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سـورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يجدد إنشاؤه .

الآلاى الخامس والثلاثون المشاة (٣٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش فى حرب سـورية ولم يعـد من هذه الحرب من هـذا الآلاى سوى تسعة جنود فحسب ، لأنه كان يكوّن حامية عكا وفى خلال دفاعه من هـذه المدينه قبالة أسطول الحلفاء انفجرت (جبخانته) وأفنت أكثر جنوده وألغى فى سنة ١٨٤١ ولم يجدّد إنشاؤه .

سـلاح الخيـالة

الآلاى الأوّل (١ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنه ١٨٧٢ م .

الآلاى الثانى (٢ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلاى الثالث (٣ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذياك العهـد . وفى الثورة العرابية، عندما زيد الجيش فى سـنة ١٨٨٢ لمحاربة الانكليز، أنشئ مرة ثالثة وألغى بعد هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع (٤ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ ثانيـة فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما أصيب الجيش بالتخفيض لسوء ماليـة مصر آنذاك . ثم فى الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز فى سنة ١٨٨٢ أنشئ لثالث مرة وألغى عقب هـذه الثـورة فى تلك السـنة مع باقى الواحدات العسكرية .

الآلاى الخامس (٥ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعـد عودة الجيش من حرب الشام ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وحدث أن أنشئ لثالث مرة فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سـنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء المـالية فى ذياك العهد .

الآلاى السادس (٦ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعـد عودة الجيش من حرب الشام . وأنشئ مرة تاليـة فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٤م وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت .

الآلاى السابع (٧ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حروب سورية ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الثامن (٨ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من معارك سورية . ثم استعيد مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى التاسع (٩ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد رجوع الجيش من وقائع سورية ثم أنشئ مرة ثانيــة فى حرب القرم فى ســنة ١٨٥٣ وألغى بعد انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى العاشر (١٠ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى ســنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من معارك سورية ثم أعيد إنشاؤه مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ وألغى عقب انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الحادى عشر (١١ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة القوات المصرية من حرب سورية .

الآلاى الثانى عشر (١٢ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى ســنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من حرب سورية .

الآلاى الثالث عشر (١٣ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحروب السورية .

المدفعيـــــة

آلاى المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٨٠ بعدما قبض العرابيون على أزمة الحكم وزادوا الجيش فى أوائل عام ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى . ثم ألغى بعد الثورة العرابية فى السنة المذكورة مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثالث (٣ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد أوبة الجيش من معارك سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ مرة ثانية فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز وألغى بعد هذه الثورة فى السنة المذكورة مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المدفعية الرابع (٤ جى آلاى طوبجية)

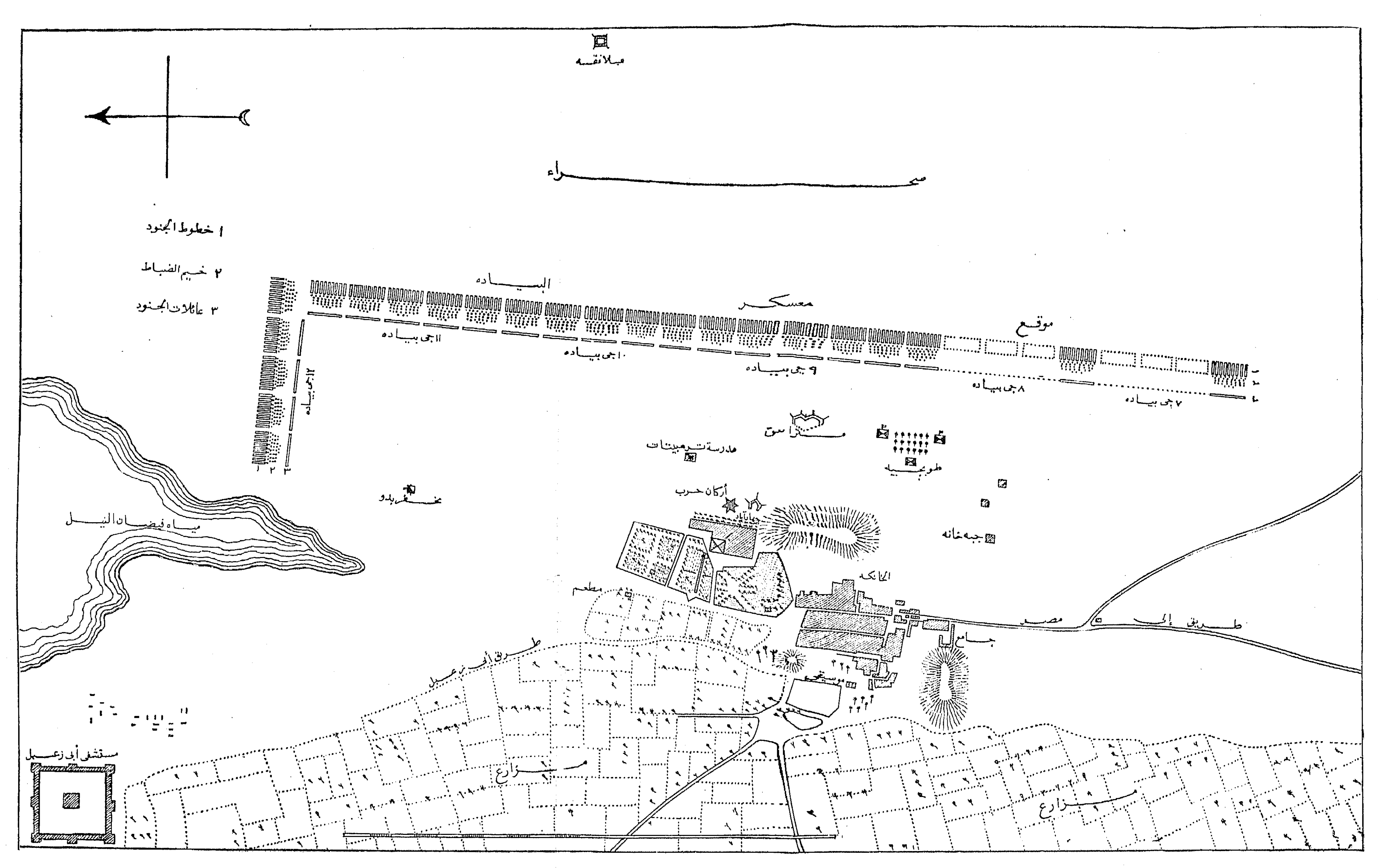
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ثم ألغى بعد هذه الثورة فى السنة الآتية مع بقية وحدات الجيش .

١ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سـنة ١٨٥٣ وألغى سنة ١٨٥٦ . ولم يجدّد إنشاؤه .

٢ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ بعـد عودة الجيش من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يجدّد إنشاؤه بعد .



رسم معسكر جهاد آباد وناحية الخانكه عمل يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٦ م بمعرفة حسين افندى وسليمان افندى مميش اليوز باشيين بأركان حرب الجيش المصرى

مدفعيـة السـواحل

الآلاى الأوّل سواحل (١ آلاى سواحل)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٤٦م وألغى فى سنة ١٨٨٢م بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

الآلاى الثـانى سواحل (٢ جى آلاى سواحل)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٥١ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

الآلاى الثالث سواحل (٣ آلاى سواحل)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٧٤م وألغى فى سنة ١٨٨٢م بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

المهنـدسون العسـكريون

البلطجية والكبروجية

ذكر القومندان « بلانا » أن عدد المهندسـين العسكريين فى الجيش بلغ فى عام ١٨٢٨ القوّات الآتية :

عـدد

١٢ بلوك بلطجية عددها ١٢٠٠ جنـدى بمعدّل بلوك مهندسين لكل آلاى مشاة يلحق به وقت الحرب .

١ بلوك كبروجية عدّته مائة جندى .

وقد استهل فى ذياك الوقت فى تنظيم بلوك للألغام .

وأورد البارون بو الكونت إحصائية للجيش المصرى عام ١٨٣٣ جاء فيهـا أن عدد المهندسين العسكريين كان ٢٩٤٢

وفى إحصائية الجيش لعام ١٨٣٩ التى تأتت فى كتاب كلوت بك (ج ٢ ص ٣٥١) ورد ذكر المهندسين العسكريين على الوجه التالى :

الآلاى الأوّل من البلطجية فى عكا	٨١٢
آلاى المهندسين فى أدليب	٧٥٨
آلاى البلطجية فى الإسكندرية	٨٠٨
وحدات اللغامين فى القاهرة	٩٤
المجمـــوع	٢٤٧٢

وحدات الحرس المشاة

آلاى الحرس الأوّل (١ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أنشئ من جديد فى ســنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرّة الثالثة فى ســنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثانى (٢ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئ من جديد فى ســنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرّة الثالثة فى ســنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثالث (٣ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى ســنة ١٨٥٥ ، وأعيد انشاؤه مرة ثالثــة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الرابع (٤ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

وحدات الحرس الخياله

آلاى حرس الخيالة الأول (١ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٢ وألغى فى سـنة ١٨٥٤، ثم أنشئ مرة ثالثـة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

آلاى حرس الخيالة الثانى (٢ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٤ م ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

وحدات الحرس المدفعية

آلاى حرس المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا ، ثم أنشئ مرة ثانية فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى حرس المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعـد عودة الجيش من المعارك السورية فى عهد محمد على باشا .

من الوثائق التاريخية

والحديث عن إنشاء الوحدات العسكرية السابقة قد لاتستوعبه المجـلدات ، وتقصر ولا ريب دونه الصفحات ، الشيء الذى حدا بنـا — فى هذا السياق الى أن نأتى — على سبيل المثـال — فيما يلى ببعض الوثائق الخاصة بالالايات السابع والثامن والتاسع المشاة .

ففى الثانى من ذى القعدة عام ١٢٤٠ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٥) كتب محمد على الى ابنه الخطاب الآتى :

من الجناب العالى إلى الباشا السرعسكر[1] .

"نحمد الله تعالى حمدا مضاعفا على أن جعلنا مظهرا لآثار فيض نعمه بما عزمنا عليه من تشكيل الآلايات ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة فقد بدأنا مستعينين بالله تعالى بإعدادهم وتهيئة ما يلزم لهم من الضباط حتى القائمقامات من الآلايات ٧ جى و ٨ جى و ٩ جى بيادة وأورطة الأوجان وأخذنا بتنظيم الجنود اللازمة لها وبفضل الله تعالى فى أقرب وقت سيكون ذلك رهين محاسن الكمال بأكمله ولم ينقصها (أى تلك الآلايات) إلا الرؤساء وقد رأينا من المناسب تعيين أحمد أفندى المنكلى وسليم أغا قائمقام الآلاى ٢ جى بيادة المأمور للحجاز وصالح أغا قائمقام الآلاى ٤ جى بيادة المأمور للمورة وبما أن أحمد أفندى هنا قد أعلمناه بذلك وأرسلنا الخبر للحجاز وأحلنا إرسال صالح أفندى لعهدة سعادتكم وأن أحمد أفندى وإن كان لازما ثمة فقد اضطررنا لحسن مأموريته إلى ترقيته لرتبة الميرالاى حسب الإيجاب .

وقد كتبنا لكم ذلك ليكون معلوما لكم إن شاء الله تعالى " .

تشكيل الالايات ١٠ و ١١ و ١٢

وإذا خلّفنا ذلك نجد أنه فى السابع عشر من شوّال عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) قد صدر أمر الوالى إلى ابراهيم باشا بأنه تيسر تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢ وتعيين القوّاد والضباط اللازمين لها . وبتعيين أحمد المنكلى المبعوث المعين بين الطرفين سابقا أميرالايا لأحد تلك الآلايات وأنه لاتساع نطاق النظام العسكرى قد جدّد ترتيب علاوة على النسق القديم وتعيين لواء يكون تحت قيادته الآلايين

---

(١) وثيقة رقم ٤٣ — دفتر ٢٠ معية تركى ورقة ١١ بتاريخ ٢ ذى القعدة ١٢٤٠ هـ

إنشاء أورطة الرجال العسكرية

" من الجناب العالى إلى الصاغقول والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمين الأولين والثانين وسائر الضباط بأورطة العساكر الجهادية :

" كنت آمل أن تلاميذ السنة الدراسية الثالثة قد اتقنوا بفضل الجهود المبذولة التعاليم الخاصة بالبيادة والطوبجية وتعلموا الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة مما أقدرهم على تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضى و رسم الخرائط أو الاستحكامات الخفيفة والقوية وأنهم برعوا فى هذه المواد نظريا وعمليا حتى تكوّنت لديهم القدرة على إجراء كل علم منها وسهل عليهم المثلثات الفلكية و إنشاء الخرائط بالهندسة كما أنهم قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا و يوافق أصولنا (وكنت أقول أنهم لم يقفوا عند هذا الحد) بل شرعوا فى دراسة فن الحرب وكذلك تلامذة السنة الدراسية الثانية هم أيضا يستفرغون جهدهم ليلحقوا بتلامذة السنة الثالثة و يبلغوا مستواهم كما هى الحالة فى تلامذة السنة الأولى فانهم لا يضنون بجهد فى بلوغ مرتبة تلاميذ السنة الثانية (أجل كنت أمنى النفس بهذا) إلا أنه قد ظهر من نتيجة الامتحان التى عرضت علىّ أخيرا أن الصول قول أغاسية : حسين أفندى وعلى أفندى من القول أغاسية ، وسليمان افندى ممش زاده وأحمد أفندى الخربوطلى من اليوزباشية والملازم الثانى عبد الله أفندى من تلامذة السنة الدراسية الثانية هم وحدهم من بين سائر التلاميذ قد اجتهدوا طبق أمرى ووفق مرضاتى و بذلوا المساعى لتحصيل العلوم وكسب المعارف وقد ظهر أيضا من النتيجة الآنفة الذكر أن تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغا أقعدهم عن الحضور وتلقى الدروس بالمدرسة فضلا عن الجدّ والسعى فلما علمت هذا قد أمرت بترقية الصول قول أغاسيين المذكورين إلى رتبة الصاغقول أغاسى و ترقية اليوزباشيين إلى الصول قول ، والملازم الثانى إلى الملازم الأوّل ، ثم إنى بقدر ما سررت من مساعى هؤلاء قد

شعرت بخيبة الأمل فى حزن مضاعف وتأثر كبير من فتور التلاميذ القدماء ولا سيما من توانى القول أغاسية وكسل التلاميذ المستجدّين وقد انبعث هنا عثمان بك رئيس رجال الجهادية لأنه لم يعر هـذه المسألة ما يستحقه من العناية والاهتمام ولم يأخذ التلاميذ الكسالى بالشدّة ليحملهم على الجدّ والسعى وتساهل فى معاقبة من لم يرجع منهم إلى الرشد والإنصاف بما يستأهله لكى يكونوا عبرة لغيرهم ولما كان اليوز باشى خورشيد أفنـدى أخلد إلى الكسل ولم يحصّـل شيئا يذكر بالرغم من هـذه المدّة الطويلة ولم يقدر قدر الرتبة التى يحوزها فقد خفضت رتبته درجة ، ثم إنى كما أعطف على المجتهدين لكسب العلوم والمعارف وأبذل لهم مكافأة على مساعيهم لا أتأخر عن إنزال العقاب على المتكاسلين وعلى الذين يقصرون جهـدهم على تحصـيل نظريات أى فن من الفنون ويحول كسلهم دون إجادة تطبيقه العملى ، هذا وقـد تقرر أن أصحاب الرتب الذين لم ينالوا رتبهـم عن جدارة ولا يسعون أيضا ليكونوا جديرين بها لا يتركون منعمون بهذه الرتبـة بل تنزل رتبهم إلى درجة تليق بأحوالهم ولذلك ينبغى أن تنظم جداول فى أواخر كل شهر يبين فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد منكم بمـا يليق بحاله كما يجب عقد امتحان لكم جميعا فى كل ثلاثة أشهر مرة فى حدود الأصول الجهادية وتعرض نتيجته علينا للاطلاع .

" وقـد أصدرنا أمرنا هـذا من الإسكندرية حيث نقيم فيها الآن وأرسلناه إليكم فمتى وصل بمنه تعالى وعلمتموه فالواجب عليكم أن تبـذلوا ما فى وسعكم من الجهـود على أداء مهمتكم وفق إرادتى وطبـق مرضاتى على وجه يتفق والقواعد الإنسانية لكى تنالوا عطفى فتسعدوا فى ظلى وتمتازوا بين أقرانكم وتكونوا نافعين لى ولأنفسكم ولديننا وشعبنا جميعا[١] .

(١) وثيقة رقم ٢١٣ — دفتر ٢٦ معية تركى ص ٥٩ — بتاريخ ٢١ ربيع سنة ١٢٤٤ ﻫ (١١ نوفمبر سنة ١٨٢٧ م) .

إحصائيات الجيش

ونورد فيما يلى إحصائيات ، تنبئ عن مدى قوات الجيش المصرى ، فى أبرز سنواته . استقيت من عشرات المراجع والموارد ، التى تضمنت الحديث عن أعداده ورجاله ووحداته .

ومثل هذه الإحصائيات التى تخيرناها ، تغنى — ولا مراء — عن استظهار أعداده ، خلال سنينه الطويلة ، التى كان يتجاذبها المدّ والجزر ، وتتدافعها الاستزادة والبتر ...

الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القواد	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القوة الحالية
الآلاى الأول المشاه	رستم بك	٣ أورط فى سنار وأورطتان فى كردفان	٤٠٠٠	٢٥٠٠
« الثانى «	محمد بك	القاهرة ومكثت فى حرب الحجاز ثلاث سنوات قبل رجوعه الى القاهرة	٤٠٠٠	٣٢٠٠
« الثالث «	—	—	—	—
« الرابع «	—	—	—	—
« الخامس «	—	مورة تحت قيادة إبراهيم باشا وخسر هذا الجيش نحو نصفه فى هذه الحرب ماعدا الآلاى العاشر	٢٨٠٠٠	١٦٠٠٠
« السادس «	سليمان بك			
« السابع «	حسن بك			
« الثامن «	حسين بك	—	—	—
« العاشر «	أحمد بك	—	—	—
« التاسع «	محمود بك	الحجاز تحت قيادة أحمد باشا يكن	٨٠٠٠	٧٠٠٠
« الثانى عشر «	عابدين بك			

(تابع) الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القــوّاد	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القــوة الحالية
الحادى عشر	سليم بك	جهاد أباد	٤٠٠٠	٤٠٠٠
أورطتان غير مرقومتين	—	اسكندرية	١٦٠٠	١٤٠٠
ثلاث أورط مدفعية	أدهم بك	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٢٤٠٠	١٨٠٠
أربعة وعشرون بلوكا للهمات	—	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٧٤٤	٣٠٠
بلوكان للجندرمة	مصطفى بك	جهاد أباد	٢٠٠	١٥٠
مدفعيون أتراك	—	موزعون فى حصون مصر	—	٨٠٠
اثنا عشر بلوكا بلطجية	—	بلوك مع كل آلاى مشاه	١٢٠٠	٧٠٠
بلوك للمواد الملتهبة	—	اسكندرية	١٠	٨٠
بلوك للكبارى والجسور	—	اسكندرية	١٠٠	٨٠
أساس الضباط	—	جهاد أباد	٨٠٠	٥٠٠
مدارس حربية	—	—	—	١٠٠٠
مشاه ألبانيون	—	٢٠٠٠ بمورة والباقى بمصر وجزيرة كريد	—	٦٠٠٠
فرسان أتراك	—	موزعون فى مصر ومورة وشبه جزيرة العرب	—	٦٠٠٠
باشبوزق غير نظاميين	—	—	—	—
			٥٥١٤٤	٥١٥١٠

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٣

أسماء البلاد والأماكن التى بها قوات الجيش	الفرسان النظاميون	المشاة النظاميون	المدفعيون	فرق الهندسة	فرسان باشبوزق	عرب	مغاربة	فرنسيون	مدارس حربية	أجناس مختلفة	أركان حرب البحرية وجنودها	عساكر بحرية فى الترسانة
مصر .	٢٧٦٠	١٧٤٣٧	٤١٠٢	٢٩٨٩	٧٠٠	—	—	١٥	—	—	—	—
مكة والحجاز .	—	٦٨٧٠	—	١٠١	٧٠٠	٦٦٨	١٧٧	—	—	—	—	—
السودان .	—	٥١٥٧	—	—	٤٨٤	٦٠٤	—	—	—	—	—	—
المعسكر .	٥٢٩٢	٣٥٥٤٣	٢٢٥٥	٨٥٢	١٥٥١	٤٠٩٨	٣٤	—	—	—	—	—
كندية .	—	٥٠٠٤	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
الأساطيل بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١٦٧٨٥	—
الترسانة بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٨٣٥٨
مدرسة أركان الحرب بقصر العينى .	—	—	—	—	—	—	—	—	١٥٢٦	—	—	—
المدرسة الحربية البحرية بالإسكندرية	—	—	—	—	—	—	—	—	١٢٥٠	—	—	—
حاسبون فى مصالح الجيش .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣٠٠	—	—
كتبة ومترجمون بالترسانة .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٤١٢	—	—
الجملة	٧٩٦٢	٧٠٠١١	٦٣٥٧	٣٩٤٢	٣٤٣٥	٥٣٧٠	٢١٢	١٥	٢٧٧٦	٧١٢	١٦٧٨٥	٨٣٥٨

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

المشـــاة

رقم الآلاى	المركز	القطـر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	عينتاب	ســورية	٣٠٤٨
٢ «	مرعش	«	٢٦٤٥
٣ «	حلب	«	٢٤٣٥
١	سنار	السودان	٤٥٤٧
٢	عينتاب	ســورية	٢٢٥١
٣	اليمين	جزيرة العرب	١٥٢٦
٤	مرعش	ســورية	٢٥٩٣
٥	أذنــة	«	٢٦٢٩
٦	كلس	«	٢٣٦٢
٧	الحجــاز	جزيرة العرب	٢١٩٢
٨	سنار	السودان	٣٣٩٦
٩	حلب	ســورية	٢٣٠٤
١٠	«	«	٢٠٥٤
١١	أورفــة	«	٢٣٣٨
١٢	عينتاب	«	٢٣٢٦
١٣	الحجــاز	جزيرة العرب	١٢٢٥
١٤	حلب	ســورية	١٩٨٨
١٥	الدرعيــة	جزيرة العرب	٢٥٥٥
١٦	كندية	جزيرة كريد	٣١٤٩
١٧	أورفــة	ســورية	٢٣٦٩

(تابع) المشـــاة

رقم الآلاى	المركز	القطـــر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١٨	عكا	ســـورية	٢٠٤٩
١٩	الحجـــاز	جزيرة العــرب	٢٣٤٩
٢٠	اليمين	»	٢٦٧٧
٢١	الحجـــاز	»	٢٣٦٣
٢٢	أورفـــة	ســـورية	٢٢١٢
٢٣	ينبـــع	جزيرة العــرب	٢٣٤٢
٢٤	أنطاكية	ســـورية	٣١٣١
٢٥	القـــدس	»	١٧٥٥
٢٦	القـــاهرة	مصـــر	٣٣١٨
٢٧	الجـــديدة	»	٢١٢٩
٢٨	»	»	٢٤٤٦
٢٩	أذنـــة	ســـورية	٣١٧٢
٣٠	حمـــاة	»	٢٩٢٥
٣١	حلب	»	٢٤٠١
٣٢	القـــاهرة	مصـــر	٣٣١٨
٣٣	اسكندرية	»	٢٦٠٤
٣٤	كلس	ســـورية	٢٥٦٤
٣٥	القـــاهرة	مصـــر	٣٣١٢
		الجمـــلة	٩٦٩٩٩

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

الفرسان

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	أنطاكية	سورية	٧٩٦
٢ »	بيسان	»	٨٤٤
١	أورفة	»	٨٢٥
٢	زنبة	»	٨٣٠
٣	القاهرة	مصر	٨٣٢
٤	أدنة	سورية	٦٧٨
٥	القاهرة	مصر	٨٣٢
٦	دمشق	سورية	٧٧٠
٧	طرسوس	»	٧٤٢
٨	دمشق	»	٧١٢
٩	اسكندرية	مصر	٨١٦
١٠	عكا	سورية	٧٦٨
١١	كلس	»	٧٥٦
١٢	طرسوس	»	٦٦٢
١٣	أورفة	»	٨٠٦
		الجملة	١١٦٨٤

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

المدفعيـــة

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	حمـاة	سورية	١٣٧٢
٢ حرس	اسكندرية	مصر	٢٣٤٩
٣ حرس	حلب	سورية	١٩٤٩
١	حمص	»	٩٨٢
٢	دمشق	»	١٠٠٧
٣	القاهرة	مصر	٣٢٢٥
أورطة	الحجـاز	جزيرة العرب	٣٧٩
٤ بلوكات	عكـا	سورية	٣٣٧
		الجمـلة	١١٦٠٠

المهندسون

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١	عكـا	سورية	٨١٢
أورطة	أدب	»	٧٥٨
»	اسكندرية	مصر	٨٠٨
»	القاهرة	»	٥٦٤
		الجمـلة	٢٩٤٢

مجموع قوة الجيش النظامى المصرى عام ١٨٣٧

عـدد	
٩٦٩٩٩	المشاه
١١٦٨٤	الفرسان
١١٦٠٠	المدفعيـــة
٢٩٤٢	المهندسون
١٢٣٢٢٥	

وهذا بيان توزيع الجيش المصرى على الأقطار

عـدد	
٢٦٥٦٨	مصـــر
٦٧٩٥٧	ســورية
١٧٦٠٨	جزيرة العرب
٧٩٤٣	السودان
٣١٣٩	جزيرة كريد
١٢٣٢٢٥	

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ م

الجيـــوش النظاميـــة

وحـــداتهـــا	نـــوعهـــا	مراكزها	عددها
الآلاى الأول	من مدفعية الحرس	حمـاة	١٣٧٢
« الثـانى	من المدفعية المشاة	الاسـكندرية	٢٣٤٩
« الثـالث	« «	حلب	١٩٤٩
« الأول	« الراكبة	حمص	٩٨٢
« الثـانى	« «	دمشـــق	١٠٠٧
أربع كتائب	من المدفعية	عكاء	٣٣٧
الأورطة الأولى	« «	الحجـاز	٣٧٩
الآلاى الأول	من مشاة الحرس	عينتـاب	٣٠٤٨
« الثـانى	« «	مرعش	٢٦٤٥
« الثـالث	« «	حلب	٢٤٣٥
« الأول	المشاة(الأورطةالخامسة)	السودان	٤٥٤٧
« الثـانى	من المشـاة	عينتـاب	٢٢٥١
« الثـالث	« «	اليمين	١٥٢٦
« الرابـع	« «	مرعش	٢٥٩٣
« الخـامس	« «	أدنـــة	٢٦٢٩
« السـادس	« «	كلس	٢٣٦٢
« السـابع	« «	الحجاز	٢١٩٢
« الثامن	« «	السودان	٣٣٩٦
« التاسـع	« «	حلب	٢٣٠٤

(تابع) الجيـــوش النظاميـــة

وحـــدتهـا	نـــوعهـا		مراكزها	عددها
الآلاى العاشـــر	من المشـاة		حلب	٢٠٥٤
« الحادى عشر	«	«	أورفـــة	٢٣٣٨
« الثانى عشر	«	«	عينتـاب	٢٣٢٦
« الثالث عشر	«	«	الحجـاز	١٢٢٥
« الرابع عشر	«	«	حلب	١٩٨٨
« الخامس عشر	«	«	الدرعيـــة	٢٥٥٥
« السادس عشر	«	«	كندية	٣١٤٩
« السابع عشر	«	«	أورفـــة	٢٣٦٩
« الثامن عشر	«	«	عكاء	٢٠٤٩
« التاسع عشر	«	«	الحجـاز	٢٣٤٩
« العشرون	«	«	اليمين	٢٦٧٧
« الحادى والعشرون	«	«	الحجـاز	٢٣٦٣
« الثـانى والعشرون	«	«	أورفـــة	٢٢١٢
« الثالث والعشرون	«	«	ينبـــع	٢٣٤٢
« الرابـع والعشرون	«	«	أنطاكيـــة	٣١٣١
« الخامس والعشرون	«	«	القـــدس	١٧٥٥
« السادس والعشرون	«	«	القـاهرة	٣٣١٨
« السابـع والعشرون	«	«	الحـــديدة	٢١٢٩
« الثـامن والعشرون	«	«	«	٢٤٤٦
« التاسـع والعشرون	«	«	أدنـــة	٣١٧٢

(تابع) الجيـــوش النظاميـــة

وحـــداتهـا	نـــوعهـا	مراكـزها	عددها
الآلاى الثلاثون	من المشاة	حماة	٢٩٢٥
« الحادى والثلاثون	« «	حلب	٢٤٠١
« الثانى والثلاثون	« «	القاهرة	٣٣١٨
« الثالث والثلاثون	« «	الاسكندرية	٢٦٠٤
« الرابع والثلاثون	« «	كلس	٢٥٦٤
« الخامس والثلاثون	« «	القاهرة	٣٣١٨
« الأوّل	من فرسان الحرس	اللاذقية	٧٩٦
« الثانى	فرسان الحرس المدرّعون	بيسان	٨٤٤
« الأوّل	من الفرسان	أورفة	٨٢٥
« الثانى	« «	زمية	٨٣٠
« الثالث	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
« الرابع	من الفرسان	أدنة	٦٧٨
« الخامس	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
« السادس	من الفرسان	دمشق	٧٧٠
« السابع	« «	طرسوس	٧٤٢
« الثامن	« «	دمشق	٧١٢
« التاسع	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨١٦
« العاشر	من الفرسان	عكاء	٧٦٨
« الحادى عشر	« «	كلس	٧٥٦
« الثانى عشر	« «	طرسوس	٦٦٢

(تابع) الجيـــوش النظـاميـــة

وحـــداتهـا	نـــوعهـا	مراكـزها	عددها
الالاى الثالث عشر	من الفرسان	أورفـــة	٨٠٦
أورطـــة	الجنود الأقدمين	القـاهـرة	٣٩٨٠
الآلاى الأوّل	من حمـلة البلط	عكاء	٨١٢
الأورطة الأولى	من الجنود الأقدمين	الاسـكندرية	٧٩١
أورطتـان	« «	طرابلس	١٦٤١
أورطـــة	« «	دنقـــلة	٨٥٥
«	من المهنـدسين	أولب	٧٥٨
«	من حمـلة البلط	الاسـكندرية	٨٠٨
كتيبة	للألغـام نسافون	القـاهـرة	٩٤
أساس الضباط		«	٢٨٥
١٦ بلوكا	من الجنود الأقدمين	موزعين فى أنحاء مصر	١٦٧١
صانعو المفرقعات		مصر القـــديمة	١٨٥
آلاى قـــرابه	ذوو القرابينـــه	فى معية رئيس القوّات	١١٥٢
كتيبة قـــرابه	« «	الحجـاز	١٠٦
بلوكان	من الجنود الأقدمين	«	٢٠٠
		المجمـــوع	١٣٠٣٠٠

مشتملات الموضوع

حرب كريت والمورة

(١٨٢١ — ١٨٢٨)

للبكباشى (ا٠ح)

أحمد فهيم بيومى

مدرّس بكلية أركان الحرب الملكية

محتويات البحث

المواصـــلات .

حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة .

خطة إبراهيم باشا للغزو .

الاستكشاف والوقاية .

إنقاذ كورون .

حصار نفارين .

استسلام نفارين .

التحليل الفنى لهذه المعركة .

مبدأ المحافظة على الهدف .

مبدأ ادّخار القوى .

مبدأ خفة الحركة .

مبدأ التعرّض أو القتال الهجومى .

مبدأ المفاجأة .

مبدأ التعاون .

مبدأ الوقاية .

مبدأ حشد القوى .

الدروس المستفادة من هذه المعركة :

(أ) أهمية القائد فى المعركة .

(ب) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود .

(ح) أهمية التعاون بين القوات المحاربة .

(د) أهمية الخيالة فى الأراضى الوعرة لقطع مواصلات العدو .

(هـ) أهمية المطاردة .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة :

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر .

الموقف العام بعد هذه المعركة .

٥ — الفصل الخامس : تابع المرحلة الثانية :

(٢) احتلال المورة .

تطهير بيليا .

حشد قواته فى نيسى .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف .

فتح كالاماتا .

الاستيلاء على تريبوليتسا .

توفير المؤن وتنظيم الشئون الإدارية .

احتلال بتراس .

الموقف فى نهاية عام ١٨٢٥

التحليل الفنى لهذه المعارك :

(ا) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) « القتال التعرضى .

(حـ) « خفة الحركة .

(د) « الوقاية .

(هـ) « حشد القوى .

(و) « المفاجأة .

(ز) « التعاون .

الدروس المستفادة من هذه المعارك :

(ا) أهمية تأمين قاعدة للعمليات .

(ب) « اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم .

(حـ) « خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية .

(د) أثر الروح المعنوية فى القتال .

(هـ) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات .

(و) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات .

٦ — الفصل السادس : تابع المرحلة الثانية :

(٣) فتح ميسولونجى وأثينا .

حالة الأتراك أمام ميسولونجى .

مسارعة إبراهيم باشا لنجدة رشيد باشا .

خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسولونجى .

سقوط ميسولونجى .

حصار أثينا .

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجى :

(ا) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) مبدأ حشد القوى .

(ج) مبدأ القتال التعرضى .

(د) مبدأ المفاجأة .

(هـ) مبدأ التعاون .

الدروس المستفادة من معركة ميسولونجى .

(ا) أهمية الخطة والدقة فى تنفيذها .

(ب) أهمية إحباط نوايا العدو للفاجأة .

الموقف العام بعد سقوط ميسولونجى وأثينا .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة .

٧ — الفصل السابع : المرحلة الثالثة :

معاهدة لوندرة .

مقدمات معركة نفارين البحرية .

معركة نفارين البحرية .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة .

عودة إبراهيم باشا ورجاله .

انتهاء المرحلة الثالثة .

٨ — الخاتمة : نتائج حرب المورة وكريت :

خسائر مصر فى هذه الحملة .

ما كسبته مصر من هذه الحملة .

(ا) الكسب المادى .

(ب) الكسب المعنوى .

استقلال مصر .

مقـــــدّمة

تعـدّ حرب المورة وكريت إحدى الأعمدة الرئيسـية[1] التى شاد عليها عاهل مصر العظيم محمـد على باشا الكبير بنيان امبراطوريته الرائعـة ... والحق إن هـذه الحملة، رغم قصر عمرها وقلة مواقعها الرئيسـية وكثرة انتشار سحابات المآسى المحزنة فى سماء أحداثها، تضم بين جوانحها أروع المثـل القيمة وأسـوأ النتائج المؤلمة ! .

فهى تظهر لنـا جليا ما أصـاب « الرجل المـريض[2] » من سوء مآل عندما أحست أجزاء امبراطوريته بالضعف وقـد بدأ يدب فى جسده السقيم ... وتوضح لنـا ضرامة أتون الثورات الاستقلالية وسريان انتشارها فى البـلاد كسرى النار فى الهشيم ... ثم تطلعنا على ثعلبـة رجال السياسة ومكرهم الذى لا يغيض ... وخلال ذلك كله تبهر أنظارنا بقوّة " محمد على باشا الكبير " وروعة شبله " إبراهيم باشا " الذى أذاق الثوار العصاة حدّة حسام المصريين وضراوة بأسهـم وقوة شكيمتهم ، والذى أخاف دول أوربا من سطوع شمس العسكرية المصرية فعملوا فى خبث ودهاء وتحت أستار ظلام الخديعة على تحطيم قوّة مصر البحرية الناشئة التى — رغم استقرار معظمها قبل نهاية هذه الحرب فى قاع اليم — لم تخمد تلك الشعلة بل كانت تتقد وتتزايد لتذهلهم بعد ذلك فى حروب أخرى لامعة .

والحديث عن هـذه الحملة جدّ شيق وطويل يودّ الباحث فى أبحاثه المتشعبة لو يقف به الزمن فيتيـح له الاطلاع الوافى على جميـع المراجع العـديدة والمختلفة ولو تطلق يده من عقالها لتسطر المجلدات الضخمة الحاوية لشتى العوامل والأحداث والمعارك محللة تحليلا عسكريا دقيقا ومذيلة بالدروس المستفادة من كل منها .

... أما وأن ذلك غير متاح لنـا فى مجالنا الآن فسأوجز رسالتى هـذه فى ذلك الحـيز المضروب جاعلا جل اهتمامى للناحية العسكرية غير مهمل جميـع الأحداث التاريخية أو المقدمات الباعثة لهذه الحرب .

---

(١) كتاب « مؤسس مصر الحديثة » لدودويل ص ٦٨ (٢) الاسم الذى أطلق على تركيا إبان ضعفها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٦ مجلد ٢ ص ٢١٤

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة التى وقعت إبان هذه الحرب

رقم مسلسل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١	عام ١٨١٥	بدء تكوين جمعية الأصدقاء فى موسكو وبخارست وتريستا	
٢	٦ مارس ١٨١٥	مذبحتى جالاتز وياسى	سببت تخلى روسيا عن هبسلنت
٣	أول أبريل ١٨٢١	اشتعال الثورة اليونانية والاستيلاء على كالاماتا	
٤	يونيو ١٨٢١ — فبراير ١٨٢٥	المرحلة الأولى	
٥	يونيو ١٨٢١	سقوط نفارين فى أيدى الثوّار	
٦	٥ أكتوبر ١٨٢١	سقوط تريبوليتسا فى أيدى الثوّار	
٧	٢١ يونيو ١٨٢٢	تقدّم الدراملى لغزو الموره	
٨	عام ١٨٢٣	هزيمة الدراملى وسقوط نوبلى فى أيدى الثوار	
٩	٢١ أغسطس ١٨٢٣	وصول أوّل قرض بريطانى للثوّار مع لورد بيرون	
١٠	يونيو ١٨٢٤	إخماد ثورة كريت وقبرص	
١١	١٦ يناير ١٨٢٤	إصدار فرمان بدعوة محمد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوار فى الموره	
١٢	يوليو ١٨٢٤	إبحار الحملة من الاسكندرية	
١٣	ديسمبر ١٨٢٤	عودة إبراهيم باشا إلى كريت وانتهاء المرحلة الأولى فبراير سنة ١٨٢٥	

(تابع) الجدول الزمنى

رقم مسلسل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١٤	(فبراير ١٨٢٥ — يونيو ١٨٢٧)	المرحلة الثانية	
١٥	٢٦ فبراير ١٨٢٥	نزول إبراهيم باشا وجنوده فى أرض المورة	
١٦	٥ مارس ١٨٢٥	إنقاذ كورون	
١٧	١٨ مايو ١٨٢٥	الاستيلاء على نفارين	
١٨	١٢ يونيو ١٨٢٥	« « كالاماتا	
١٩	٢٣ يونيو ١٨٢٥	« « تريبوليتسا	
٢٠	٢٧ يوليو ١٨٢٥	« « بتراس	
٢١	٢٢ ابريل ١٨٢٦	« « ميسولونجى	
٢٢	يونيو ١٨٢٧	« « أثينا وانتهاء المرحلة الثانية	
٢٣	(يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨)	المرحلة الثالثة	
٢٤	٦ يوليو ١٨٢٧	معاهدة لوندرة	بين انجلترا وفرنسا وروسيا
٢٥	٢٠ أكتوبر ١٨١٧	معركة نفارين البحرية	
٢٦	أغسطس ١٨٢٨	الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء المورة	
٢٧	أكتوبر ١٨٢٨	إبحار الجيش المصرى من المورة إلى مصر	
		انتهاء المرحلة الثالثة	

الفصـــل الاوّل

ثورة الاغريق

الجمـر تحت الرماد :

أهلّ القرن التاسع عشر على اليونان وهى ترسف فى أغلال الاحتلال يحكمها الولاة الأتراك الذين ترسلهم حكومة الأسـتانة ليذلوا رقاب أبنائها وليخنقوا حرية أفرادها ، ولكن أهلها رغم تظاهرهم بالولاء والاستكانة كانوا يتطلعون إلى الاستقلال شأن كل شعب حر كريم لا يقبل المذلة أو يرضى بالضيم . ولذلك نشط شـبابهم وأعيانهم فى تأليف الجمعيات السرية لتنظيم الثورة والخروج على ذلك الحال البغيض ببث تعاليمهم فى أنحاء البلاد واستمالة الرأى العام فى الدول الأوربية المختلفة[١] فكوّنوا فى عام ١٨١٥ أوّل هيئة سرية لهم جعلوا مقرّها فى موسكو وبخارست وتريست[٢] لتكون على اتصال بالحكومات الأوربيـة التى تعطف على مبادئهـم وبمنجاة من اضطهاد الحكام الأتراك وأطلقوا عليها اسم "جمعية الأصدقاء" (فيليكيه هيتاريا[٣]) وكانت أهدافها :

(أوّلا) إنقاذ الشعوب الهيلينية من ذل الاستعمار .

(ثانيـا) طرد الأتراك من بلادهم .

(ثالثـا) التخلص من حكم ولاة الأستانة .

(رابعـا) إحياء الامبراطورية الأرثوذكسية فى الشرق[٤] .

ولقد نجحت هذه الجمعية بعض النجاح فى غرس بذور العصيان خلال الأعوام الثـلاث الأولى من بدء تكوينها ثم ما لبث أن قوى نفوذها بانضمام كل ذى مكانة

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٦

(٢) ابراهيم مصر لكربيتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٤) كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوربى لهيرنشو ص ١٦٢

فى اليونان من الشبان والأعيان ورجال الدين إليها وتولى زعامتها الميجر جنرال "هبسلنت" — وهو ضابط يونانى كان يعمل ياورا لدى قيصر روسيا "اسكندر الأول" — فى ٢٧ يونيو عام ١٨٢٠ بجعل هدفه الأول طرد الأتراك من أوربا وبدأ بقيادة الثورة فى (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان (ملدافيا) والأفلاق (رومانيا) فهاجم (ولاشيا وملدافيا) حيث دخل عاصمة الأخيرة فى ٦ مارس عام ١٨٢١ دون مقاومة تذكر وهناك جرّد الأتراك من سلاحهم وأعدمهم عن بكرة أبيهم فى مذبحتى (جالاتز وياسى) مما أثار حفيظة قيصر روسيا عليه فأسقط اسمه من كشف الجيش الروسى وتخلى عن مؤازرته رغم أن هبسلنت هذا قد اختار هذه البقاع خصيصا لحركاته الأولى كى يكون بمقربة من روسيا فتمدّه بالجيوش والعتاد !! على أن هذا كله لم يمنع اليونانيين من تحديد شعار ثورتهم وهو " اليونان لليونانيين كما وأن رومانيا للرومانيين "(١) فأحست تركيا بوجود الجمر المتقد الحار تحت الرماد وشرعت تعمل جاهدة على استعادة " ملدافيا " .

اشتعال نيران الثورة :

وكانت ثورة على باشا تبلان حاكم "يانينا" على السلطان عام ١٨٢٠(٢) هى الريح الصرصر التى أذهبت بالرماد المتراكم والتى ألهبت الجمر فأذكته نيرانا متقدة ... فقد رأى اليونانيون فى ثورته هذه وفى انشغال تركيا فى إخمادها هى والثورات فى شرق الدانوب ، الوقت المناسب لإعلان ثورتهم سافرة غير مقنعة .

فبعد شهر من عبور " هبسلنت " لنهر بروث اندلعت نيران الثورة فى المورة وتكونت فى " البلوبونيز" جمعية الأصدقاء السبع (إيفورز)(٣) وكان " الكسندر

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٢) كتاب إبراهيم مصر لكريبتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١

ماڤركمورد اتوس" قد وصل من روسيا فى مارس عام ١٨٢١ إلى البغدان (ملداف
على رأس قوته الصغيرة فرفع "جيرمانوس "كبير أساقفه " بتراس " راية العصي
فى " كلفريتا " فى بلاد المورة[1] و بدأت الثورة بهجمات متقطعة ومنفصلة
بعضها على الأتراك ظلت تشتد وتتركز متخذة الطابع الدينى الخطير حتى أصبح
عامة فى أوائل أبريل حيث حاصر اليونانيون الأتراك فى "كلفريتا " واستو
على معسكراتهم فى "كالاماتا" وبسقوط هذه الأخيرة اشتدت الثورة فى" بتراس
واشتط اليونانيون فى شعارهم فجعلوه تلك الأغنية المشهورة لديهم «لن يبقى أى تر
على أرض المورة » وكأنما تلك الكلمات قد ألهبت حماستهم فترجموها من الغ
إلى الأعمال فذبحوا الآلاف من الأتراك فى شبه الجزيرة واستولوا على " ڤالتتسى
قرب " تريبوليتسا " وامتدت ثورتهم عبر" خليج كورنث " حيث استولوا ع
" سالونا " واحتل أبناء بارنز" أثينا "وإن لم يستولوا على الأكروبول إذ حص
الأتراك وقاوموا فيه حتى منتصف صيف ذلك العام .

وفى الغرب انضمت " ميسولونجى وفاراكورى " إلى الثوار وبذلك أصب
الإقليم بأسره جنوب "مالياك وأمبراكيان " عدا القلعة فى أيدى الثوار ولما تمض
ثلاثة أشهر على بدء ثورتهم[2] .

وفى كريت قام " السفاكيوتس " وتعدادهم يزيد على ١٦٠,٠٠٠ نسمة بثور
سافرة استولوا فيها على "خانية" بعد أن حاصروها .

وقصارى القول لقد حلق " مارس " بجناحيه فى ربيع عام ١٨٢١ ليظلل
أرض اليونان وليجعلها مسرحا لحرب ضروس .

---

(١) كتاب إبراهيم مصر لكريبتس ص ٤٦

(٢) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلرص ٧١

الفصـــل الثـانى

مراحـــل الحـــرب فى اليونان

مراحل الحرب الثلاث :

والباحث المنقب فى ثنايا تاريخ هذه الحرب يجد أنها تنقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية متباينة يتميز كل منها عن الآخر فى النتائج والعمليات[1] وهذه المراحل هى :

(أولا) المرحلة الأولى :

وتبدأ عام ١٨٢١ حين أتخذت الثورة اليونانية طابعها الجدّى الخطير وتنتهى فى أوائل عام ١٨٢٥ ، وفى هذه المرحلة أحرز الثـوار انتصارات خاطفة سريعـة حاسمة على الأتراك فقوى ذلك ساعدهم وجعل النجاح يحالفهم رغم بعض الانتصارات القليلة الأولية التى حصل عليها الأتراك . هذا إلى أن هـذه المرحلة تشمل الحمـلة المصرية إلى كريت واستعدادات الحملة المصرية إلى المورة .

(ثانيا) المرحلة الثانية :

وتبدأ فى أوائل عام ١٨٢٥ عندما وطئت أقـدام إبراهيم باشا وجنوده أراض المورة وتنتهى فى منتصف عام ١٨٢٧ ، وفى هـذه المرحلة أشاح الحظ بوجهه عن الثوار فأنزل بهـم الهزائم المتتاليـة بفضل بسالة الجنود المصريين وعبقـرية قائدهم " إبراهيم باشا " وفيها أيضا أحرز الأتراك تحت قيادة " رشيد باشا " انتصارات رائعة عاونهم فيها المصريون فى بلاد اليونان .

(ثالثا) المرحلة الثالثة :

وتبدأ فى منتصف عام ١٨٢٧ ببدء تدخل ثلاث من دول أوربا وهى فرنسا وبريطانيا وروسـيا وتنتهى فى أكتوبر عام ١٨٢٨ بانتهـاء هـذه الحرب وعودة المصريين إلى بلادهم .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧٥

الفصـــــل الثـالث

المرحلة الأولى (يونيو ١٨٢١ — فبراير ١٨٢٥)

اعمـال الثـوّار :

لم تكن ثورة اليونان هـذه وليدة أيام أو شهور بل كانت ربيبة سـنين طوال كما رأينا فلا عجب إن آتت أكلها ناضجـة شهية فى بدء اندلاعها وهـذا ما نلمسه واضحا جليا فى المرحلة الأولى من مراحل هـذه الحرب فقد أحرز الثوار اليونانيون انتصارات خاطفة سريعة زادت فى قوة ثورتهم رغم أن هذا النجاح قـد حصل عليه قادة مستقلون عن أى سلطات مركزية .

ففى يونيو عام ١٨٢١ استولى الثوار على "مونمفاسيا ونافارين" وذبحوا حاميتى الأتراك فى هاتين الميناءين فأحالوا مياه البحر الزرقاء فى تلك البقاع إلى اللون الأحمر القانى لكثرة ما تدفق فيها من دماء الأتراك[١] .

وفى أكتوبر تمكن الثوار من الاستيلاء على "تريبوليتسا" عاصمة الأتراك فى المورة وأعقب ذلك مذبحة سالت فيها دماء ثمانية آلاف ما بين مسلم ويهودى .

وكان من المتوقع بعـد سقوط العاصمـة أن تهدأ الأمور قليلا ولكن هـذا لم يحـدث بل اندفع الثوار فى غلوائهم تحمسهم انتصـاراتهم السريعة والروح الوطنية المسـتعرة بين جوانحهم وأعلنوا تكوين الحكومة اليونانية ورفعوا العـلم اليونانى " الأزرق والأبيض " على " أكركورنث "[٢] .

---

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٧٥



أمير البحر اسماعيل جبل طارق

اعمال الأتراك :

ولم تقف الأتراك مكتوفة الأيدى أمام هـذه الانتصارات والمذابح المزعجـة التى لم تقض مضجعهم فحسب بل زادت أيضا فى صعوبة أعمال خورشـيد باشا ضد على باشا تبلان حاكم "يانينا" فى "تساليا ويانينا" ... ولكن إثر انتصار خورشيدباشا على على باشـا فى ٥ فبراير عام ١٨٢٢ أمر السـلطان بالهجوم المزدوج على الثوار من الشرق والغرب وأسـند قيادة الجيش الغـربى إلى "الدراملى" الذى تقـدم فى ٢١ يونيـو عام ١٨٢٢ فألقى الذعر فى نفوس الأثينيين بغزوه السريع للـورة وأكركورنث ووصوله إلى أرجوس رغم تسليم الأكروبول لأوديسيوس قبل بدء تقدمه هذا[1] ولكن هذه العمليات السريعة الناجحة استنفذت الكثير من جهد رجاله فتفشت فيهم الأمراض ونقصت التعيينات والذخائر والعـلائق فاضطر ثانيـة إلى الانسحاب والتراجع إلى شبه الجزيرة .

وفى نفس الوقت تقدم "عمرفريونس" الذى خلف على باشا فى "يانينا" جنوبا وحاصر "ميسولونجى" .

وسرعان ما انبرى القائد اليونانى "تيودوركولوكوترونز" الملقب "بآكل الأتراك" إلى الدراملى فهـزمه وأوقف غزو الأتراك للـورة عام ١٨٢٢[2] واستولى الثوار على "نوبلى" التى اتخذتها الحكومة الثورية مقرا لهـا عام ١٨٢٣[3] .

وعندما انتهى السـلطان من حروبه مع إيران التى اضـطرته للحرب فى آسيا وأوربا فى وقت واحد سير بعض جيوشه لليونان فاقتحموا "تسالى" ونهبوا كنوز دلفى وتقدمت قواته من "سكوتارى" فى ألبانيا ونزلوا فى غرب اليونان .

---

(١) نفس المصدر ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ص ٧٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

ولكن سرعان ما فاز الثوار بانتصارين سريعين إذ استعادوا قلعة "كورنث" في الغرب وفكوا حصار "أنا توكيلين"[1] .

عصب الثورة :

ولا شك في أن سر نجاح هؤلاء الثوار يتلخص في عظم استعدادهم وحسن تنظيمهم لأعمالهم فلقد وفروا لثورتهم ذلك الثالوث الضروري لنجاح الثورات ألا وهو :

المال والدعاية والروح الوطنية العالية .

فبفضل الأموال تتدفق سيول الأسلحة والعتاد بل والأفراد اللازمة لاستمرار استعار نيران القتال . وبالدعاية يحصل على الرأي العام فتعطف الدول الكبرى على الثوار وتحتضن صراعهم وتغذيه بالمال والرجال وهذا ما حدث في تلك الثورة التي نحن بصددها الآن إذ كسب الثوار عطف دول أوربا فلم تضن عليهم بالقروض الكثيرة المختلفة ولم يتوان رجالها الأفذاذ عن الإسراع للانضمام إلى الثوار كلورد "بيرون" الذي حمل وإياه للثوار في ٢١ أغسطس عام ١٨٢٣ أول قرض بريطاني بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وأنشأ لهم أول جريدة لإشعال الروح الوطنية "ذي جريت كرونيكل" في ١٢ يناير ١٨٢٤[2] ؛ وأما الروح الوطنية فهي التي توفر القوى الآدمية وتبعث الروح المعنوية ذات الأثر الحاسم في نجاح الحروب .

فبهذا الثالوث الذي قد توفر للثوار قويت أعصاب ثورة اليونانيين واستفحل أمرها فكتبت لها الحياة مرارا بعد أن كانت شمسها تؤذن بالمغيب .

---

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

(٢) نفس المصدر السابق .

الانحراف عن مبادئ الثورة :

وكأنما بريق ذلك الفوز السريع قد أعمى بصيرة اليونانيين فأبعدهم عن الهدف الأساسى لثورتهم وأصم آذانهم عن شعارهم الخاص الذى اتخذوه لأعمالهم فازداد الثوار عتوا بما نالوه من نصر فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا الكثير من السفن التركية وعاثوا فى البحر فسادا وأحيوا عهدا من القرصنة[١] لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاعة[٢] اكتوت بنيرانها أساطيل أمم أوربا التجارية مما جعلها تشكو لتركيا وتطلق يدها فى إخماد تلك الثورة[٣] .

هذا إلى أن وهج الذهب الذى وصل إلى الثوار مع " لورد بيرون " نمى بذور الغيرة والمنافسة التى بذرتها نتائج الانتصارات المنفصلة الأولى بين حزبى " الهبسلنت " (جمعية الأصدقاء) و " البلوبوتيز " (ايفورز) ندب الشقاق بين الثوار وبدت سحب الحرب الأهلية تجتمع فى سماء الأحداث فى تلك البقاع لتصادق على قول بلوتارك المأثور : " إن التاريخ يعيد نفسه " فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ولم تذق للسلم الداخلى طعما حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها[٤] ولعل هذا ما نشاهده فى أيامنا هذه الآن .

استعانة تركيا بالأسطول المصرى :

ولما استفحل أمر قرصنة هؤلاء اليونانيين فى البحر أرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا يعهد إليه أن يجرّد أسطوله لتطهير البحر من هذه السفن وكان ذلك عام ١٨٢١ أى قبل الحملة المصرية على كريت[٥] بعام فأعدّ محمد على باشا أسطولا

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

(٢) كتاب نفارين لدوين ص ٣

(٣) كتاب ابراهيم باشا لبدران ص ٦٦

(٤) نفس المصدر ص ٧٥

(٥) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

مؤلفا من ستة عشرة سفينة تامة التسليح والعتاد بها ثمانمائة مقاتل بقيادة " طبوزاوغلى " وأقلع هذا الأسطول من الاسكندرية فى ١٠ يوليو عام ١٨٢١ متجها إلى مياه " رودس " لمطاردة سفن القرصنة اليونانية والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الاسكندرية فى ٨ مارس عام ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة المصرية الى " كريت "(١) مع بعض القطع البحرية الخاصة بالجزائر وتونس وطرابلس وتركيا(٢) .

الحملة المصرية على كريت :

ولم تقتصر استعانة السلطان محمود بمحمد على باشا على القرصنة اليونانية فقط بل لقد عرض عليه عام ١٨٢٢ ولاية جزيرتى كريت وقبرص إذا تمكن من إخماد الثورة التى قد أشعل نيرانها " السفاكيوتس " كما أسلفنا فى نفس الوقت الذى شبت فيه ثورة بلاد المورة وجزر الأرخبيل(٣) وانتصر فيها الثوار على الحاميات التركية التى اضطرت إلى التحصن فى بعض القلاع بالجزيرة فأعد محمد على باشا حملة بلغ تعداد رجالها خمسة آلاف مقاتل وخمسمائة فارس بقيادة حسن باشا مصطفى وأقلع بهم الأسطول المصرى من الاسكندرية قاصدا جزيرة كريت فنزل الجنود إلى البر فى يونيو عام ١٨٢٢(٤) .

ولقد كان الثوار فى الجزيرة كثيرو العدد وشجعان(٥) فقاتلهم المصريون قتالا شديدا مدى عامين أنقذوا فى خلالها القوات التركية المحاصرة فى القلاع وقد مات حسن باشا خلال الفتح فخلفه حسين بك فى قيادة القوات المحاربة واستمر القتال

---

(١) كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على لمانجان ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبناءه لفيجان ج ١ ص ٢٣٣

(٣) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

(٤) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٥) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٠

الى أن ظفـر المصريون بالثـوار وضيقوا عليهـم الخناق وحصروهم على الساحل فى "سفا كيا" التى أضحت آخر معقل لهم[١] ثم سرعان ما شتتوا شملهم ففر الكثيرون منهم الى الجزر اليونانية الأخرى واستتبت السكينة فى الجزيرة[٢] .

وكذلك أخمد ألفان من الجنود المصريين تحت قيادة صلاح بك الثـورة فى جزيرة قبرص[٣] .

الحملة المصرية على المورة :

ولا شك فى أن النجاح الذى أحرزته قوات محمـد على باشا فى كريت جعلها محط أنظار السلطان، فطلب منه عونا آخر بأن أصدر فى ١٦ يناير عام ١٨٢٤[٤] فرمانا يدعو فيه محمـد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوار اليونانيين ويخـوله حق ولاية المـــورة .

وهنا يختلف المؤرخون فى سر هـذا المطالب فيرجعه بعضهم إلى عجز القوات التركية عن إخماد الثورة بعـد أن تكبدوا خسائر فادحة كما أسلفنا فتلفت السلطان حوله يبحث عن العون وحينئذ أشار عليه سـفير النمسا بذلك السيف الذى ما زالت تقطر منه دماء النصر والفتوح وهو محمـد على باشا قاهر الوهابيين وفاتح السودان[٥] ويعتقد البعض الآخر بأن التجاء الباب العالى إلى محمد على باشا إنما كان ينطوى على الرغبـة فى إضعافه بإشراكه فى تلك الحـرب وحرمانه من المضى فى تنظيم جيشـه ومضاعفـة قواته إذ كان يخشى لو استمر ماضيا فى سبيله هـذا أن يقوى على تركيا

---

(١) نفس المصدر .

(٢) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٣٣ ج ١

(٤) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

(٥) كتاب حروب محمد على لسيد فرج ص ٨٤

ويحقق فكرة الانفصال عنها وإعلان استقلاله بمصر . وتجمع فئة ثالثة بين السببين فتقول إنما السلطان قد قصد بذلك تحقيق غرضين : أولها الاستعانة بالجيش المصرى على إخماد الثورة بعد عجز الأتراك والثانى صرف محمد على باشا عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قوته (١) .

وأى من هذه الأغراض كان السبب فى ذلك العرض ليس مجال بحثنا الآن إذ أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن محمد على باشا قد قبل هذا العرض الذى يرفع من شأنه ويزيد فى مكانته باستنجاد تركيا به وذلك بعد أن استشار كبار رجال حكومته فأقروا جميعا إجابة دعوة الباب العالى (٢) .

المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة :

وقبل أن نبدأ بالتحدث عن هذه الحملة وأعمالها فى المورة يجب أن نكون على بينة تامة من أمر هام سيكون هو العامل الأساسى فى الحكم على هذه الأعمال ألا وهو غرض محمد على باشا الأساسى من قبول هذه الحملة وما كان يرمى اليه عند إرسالها . .

لقد زعم بعض الكتاب الإفرنج بأن غرضه الأساسى كان محو اليونانيين أو بالأحرى المسيحيين وإبادة شعب المورة ليبنى على أنقاضه دولة إسلامية (٣) وهذا ولا شك زعم خاطئ فمنذ نشوب الحرب فى المورة بين تركيا واليونان أخذ محمد على باشا فى تتبع أخبارها وتحولها أملا منه بأن يدعوه الباب العالى الى مساعدته على إخضاع العصاة ... لأنه وهو صديق لليونانيين والمسيحيين لم ير فى هذه الحرب سوى فرصة سانحة ليظهر فيها للعالم مدى قوته الفتية وتفوقه على الباب العالى

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٢

(٣) كتاب محمد على لكريم ثابت بك ص ١٧٧

وليحاول فى مقابل الخدمات التى يسديها إليه التخلص من سلطته وليفوز فى الوقت عينه بتنظيم المورة وليستفيد من نشاط اليونانيين فى خدمة مصر وليبسط حكمه على جنوب أوربا فيحوّل شرق البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة مصرية [١] .

تلك كانت أغراض محمد على باشا الحقيقية وهى أغراض سياسية محضة تحقق أمنيته التى وقف عليها كل قواه وهى تعزيز قوى مصر فى الداخل وبسط نفوذها فى الخارج [٢] ويدلنا على صدق ذلك ما أكده لوقرنى نقلا عن سليمان باشا بأنه كان واثقا من أن محمد على باشا سيمنح البحارة اليونانيين عفوا عاما بشرط أن يجيئوا إلى مصر بعائلاتهم [٣] . هذا إلى أنه وابنه إبراهيم باشا كانا كراما إلى أقصى حدود الكرم فى معاملة الجالية اليونانية الكبيرة فى مصر وليس أدل على هذا من أن "الفليكى هيتارى" كانت تبث دعوتها بنشاط فى مصر [٤] وكان "ثيود ورتسزا" أكثر أعضائها نشاطا وجلدا . ولم يكتف الباشا بعدم مقاومة الثورة الإغريقية فى مبدئها بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها [٥] .

فلتكن هذه الأغراض بمثابة المنظار الذى نرى من خلاله أعمال الحملة المصرية فى المورة حتى يمكننا الحكم الصائب عليها .

الاستعداد للحملة :

ولقد بذل محمد على باشا همة كبرى وجهودا مضنية جبارة مدى الستة أشهر التى تلت صدور هذا الفرمان [٦] فى تجهيز معدّات الحملة على المورة فأعدّ قوات برية

(١) كتاب الامبراطورية المصرية للدكتور صبرى .

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب محمد على لكريم ثابت بك ص ١١٧

(٤) الهيلينية ومصر الحديثة لاثنازى ج ١ ص ١٨٩

(٥) نفس المصدر .

(٦) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

من جيشه النظامى الجديد أسلم قيادتها إلى نجله الأكبر إبراهيم باشا بطل الحجاز وقاهر الوهابيين وبلغت هذه القوات فى بدء الحملة ثمانية عشر ألف مقاتل من المشاة[١] مؤلفين من الآلايات الآتية :

الآلاى الثالث بقيادة الأميرالاى خورشيد بك .
« الرابع « « حسين بك .
« الخامس « « سليم بك .
« السادس « « سليمان بك (الفرنساوى)[٢] .

ومعها قواتها المعاونة وهى أربع بلوكات من مهندسى الطرق[٣] وثمانمائة فارس بقيادة حسن بك ومقدار كبير من مدفعية الميدان والحصار[٣] وجهزهم بأحدث ما لديه من أسلحة وعتاد وذخيرة وأعدّ السفن البحرية اللازمة لنقل هذه الحملة بعتادها على أن يتولى حمايتها الأسطول المصرى المرافق لها بقيادة الأميرال " إسماعيل أغا الجبل الأخضر[٤] " فبلغت هذه العمارة فى مجموعها إحدى وخمسين سفينة حربية ومائة وستة وأربعين سفينة نقل[٥] تجمعت كلها فى ميناء الإسكندرية فكان منظرها يأخذ بالألباب ... إذ لم ير الشرق حملة بحرية تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت وكأن الشرق بذلك قد أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ[٦] .

---

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٥
(٢) كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على لعبد الرحمن زكى ص ٣٧
(٣) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٦
(٤) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لأدوارجون ص ٦٦٣
(٥) وثيقة رقم ١٤ من وثائق المورة وهى رسائل المسيو روفنى قنصل فرنسا الى وزير الخارجية الفرنسية .
(٦) كتاب تاريخ اليونان السياسى لدريو ج ١ ص ٢٥٧

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول :

وعندما أبحرت القوات المصرية من ثغر الإسكندرية فى شهر يوليو عام ١٨٢٤ لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة[١] ولم تقصد هذه القوات شبه جزيرة المورة رأسا بل اتجهت إلى مياه "رودس" ومنها إلى خليج "ماكرى" على شاطئ الأناضول لتلتقى بالأسطول التركى الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الأرخبيل وتطهير البحر من قرصنتها وإخماد الثورة فى الجزر والاستيلاء على "بسارا" الذى تم فى ٣ يوليو[٢] .

ولما وصلت العمارة المصرية إلى خليج "ماكرى" أنزل إبراهيم باشا جنوده إلى البر تهيأ للإقلاع بأسطوله فقط شمالا ليتصل بالأسطول التركى الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا فالتقى به فى ميناء "بودروم" على شاطئ الأناضول فى أواخر أغسطس وهنالك ظهر الفرق جليا بين نظام الأسطول المصرى وفوضى الأسطول التركى الذى قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونانيين حينما اعترضت طريقه فى مياه جزيرة "ساموس" فأحرقت بارجة الأميرال وسفينتين أخريين فتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى التقت بالأسطول المصرى .

وهاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان أما إبراهيم باشا فقد صمد بأسطوله للسفن اليونانية إلى أن اضطرها للتقهقر فى سبتمبر عام ١٨٢٤

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانية ومخرتا عباب اليم سويا إلى جزيرة "مدللى" ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل بينما عاد الأسطول المصرى جنوبا فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة "سافز" واشتبكت معه فى معركة

---

(١) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٥١

(٢) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧٢

شـديدة أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) فقط وعاد إبراهيم باشا بأسطوله إلى ميناء «بودروم» .

ولقد أدرك إبراهيم باشا من هـذه الوقائع البحرية أن هزيمة اليونان لن تكون فوق سطح البحر حيث لهم السفن المسلحة المنبثة فى نواحيه وإنما ستكون بالقضاء على قواتهم فى البر أى فى شـبه جزيرة المورة فرجع أدراجه إلى ميناء "مرمريس" جنوبا ثم أقلع إلى جزيرة كريت فى ديسمبر عام ١٨٢٤ ورسى بعمارته فى خليج السودة حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للإقلاع إلى ساحل المورة . ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هـذه المرحلة الابتدائية على شجاعته التى امتاز بها فى حروب البر فإنه قد صمد عدّة أشهر لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظم قدرتها على خوض غمار البحار ومهارتها فى مهاجمـة السفن الحربيـة ولولا عزيمته ورباطة جأشـه فى مواجهة المخاطر لتشتت شمل العمارة المصرية ولتبدّدت أمام هجمات السفن اليونانية[١] .

توحيـد القيـادة :

ولا شـك فى أن مسلك خسرو باشا العجيب أمام شاطئ " رودس " لم يزد محمد على باشا وابنه إلا بغضا لفكرة القيادة[٢] المزدوجة إذ كانا من بادئ الأمر غير موافقين على فكرة تقسيم القيادة ولذلك كتب محمد على باشا إلى الباب العالى فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٢٤ كتابا جمع فيه بين الأسف وشىء من الغبطة الشخصية فقال :

" يؤسفنى كل الأسف أن ما طلبته من توحيـد قيادة الأسطول كله لم يجب وأن هـذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد ذلك بأن اختـلاف الرأى لا بدّ وأن يؤدّى إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة[٣] " .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٣ (٢) كتاب إبراهيم باشا لبدران ص ٧٤
(٣) مجموعة رسائل محمد على وثيقة رقم ١٥٨

فمن هذا نرى أن مطلب محمد على باشا و إبراهيم باشا فى توحيد القيادة لم يكن وليد الرغبة فى حظوة إبراهيم باشا بها بل هى عقيدة يقـدر قيمتها هذان العسكريان وهما فى ذلك لم يتجنيا أو يطالبا بما هو مخالف للأسس العسكرية السليمة فقد قال نابليون : " لاشىء أهم من توحيد القيادة"[1] ولقد ردّد هذا النداء "جيوليود وهيت" فى تعاليمه الأساسية للحروب الجوية وصمم "إيزنهاور" على تحقيقه عند تفكير الحلفاء فى غزو أوربا وتدمير حائط الأطلنطيق فقـد اشترط ضرورة توحيـد الأعمـال البرية والجـوية تحت قيادته وقد سلمت رئاسة هيئـة أركان حرب جيوش الحلفاء بوجهة نظره[2] .

ولقد أثمر خطاب محمد على باشا هذا ثمره المرجوّ فولى إبراهيم باشا قيادة الحملة التركيـة المصرية وكانت هـذه التولية هى الحجر الأساسى الذى بنيت عليـه جميع انتصارات هذه الحملة .

ولقد صحت عزيمة إبراهيم باشا بعد ذلك على أن يقضى الشتاء فى جزيرة كريت[3] .

القائد المصرى إبراهيم باشا :

لا شك وأن أهم جانب فى دراسة التاريخ العسكرى هو دراسة شخصيات القادة إذ أن أعقـد ما يواجه الدول عند نشوب الحروب هو انتخاب القائد العام فبتقرير ذلك قـد يحلق جيش يحلق فى سماء النصر وقـد يذهب بجهود الأمة بأسرها لأن جميع الجنود تحارب جيدا إذا قيدت جيدا .

وليس أدل على أهمية القادة فى المعارك من قول فوش : " تتوقف النتـائج فى الحروب على القادة لدرجة كبيرة والتاريخ محق فى جعلهم أصحاب النصر فيمجدهم

---

(١) تاريخ العالم العسكرى لميتشل ص ٦

(٢) تقرير بعثة ضباط الجيش عام ٩٤٧ لانجلترا وفرنسا ص ٤٧٢

(٣) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٧٥

أو المسئولين عن الهزيمة وحينئذ ينقدهم ... وبدون القادة لا تحقق الانتصارات[1] ".

ولم ينس نابليون أن يشير إلى ذلك أيضا فقال : "لم يغزو ال بل هزمها قيصر ... ولم ترتجف روما فرقا أمام القرطاجنيين وإنما تفتح الهند بالفلانكس المقدونية وإنما غزاها الإسكندر[2] ".

فلا عجب إن أضحى لزاما علينا أن نلم بصفات إبراهيم باشا قاد الحملة المصرية على المورة كى نلمس بوضوح مدى قوة شخصه الذى قاد النصر طائعا مختارا للقوات التى تحت إمرته .

ولعل أصدق ما يجب أو يورد فى هذا المجال هو ما قد عرف صفاته كلها دون واسطة فوصفه وصفا مفصلا قال فيه :

" هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ... أمره مطاع شجاع رحيم لين العريكة لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى رجل فى جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس و سواه لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده . العالية لا تتعارض فى نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثير على أسرارهم الخاصة ... وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائم ال الرقابة . يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ... وهو حدب عليهم ويحادثهم ويصغى إلى قصصهم ويبث فى قلوبهم الشجاعة و يشد واجتماعهم ويجلس معهم فى مضاربهم كأنه واحد منهم ولكن لا

---

(١) كتاب الاستراتيجية الألمانية لنيام ص ١

(٢) نفس المصدر ص ٢

ولم يعـرف عنه أنه ضحى يوما بشرفه فسفك دماء أحد فى ساعة من ساعات غيظه[(١)] وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبـائل من حوله ، يثبت فى جنوده روح الشجاعة والإقـدام و يضرب لهم بنفسه خير مثل فى البسالة وخوض الغمرات وكثيرا ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصائد و ينصب له من المكائد ... ولولا جهود إبراهيم لمـا استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز وأعلم الناس بذلك هو محمـد على نفسـه[(٢)] " .

تلك هى صفات إبراهيم باشا وكلها تنبئ بأن صاحبها لا شك واصل إلى نصر سريع حاسم بفضـل شخصيته القوية وصفات خلقه المتينة على أن أهم ما يجب أن نذكره هو أن إبراهيم باشا كان قائدا عسكريا فـذا دالت له أصـول الاستراتيجية فعـرف كيف يستخدمها الاستخدام الرائع الذى لا يزال يأخذ بألبـابنا كلما تعمقنا فى دراسـة خططه وأساليبه فى القتال وهذا ما سيتضح لنـا جليا فى إبان بحثنا فى هذه الحملة .

تأمين خطوط مواصلاته :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى خلال فـترة انتظاره فى خليج السودة متحينا الفرص كى يقلع إلى شاطئ المورة و إنما عمل على الاستيلاء على "كاسوس" لتكون كقاعدة لصيانة كريت من الغزوات المفاجئة كما أنه أنزل ضربات سريعة مفاجئة بسـفن الثوار جعلتهم يلوذون بأذيال الفرار و بذلك أمن خطوط مواصـلاته مع كريت التى كانت فى أيدى القوات المصرية فى ذلك الحين[(٣)] .

---

(١) تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر (١٨٤٢) ليانس الجزء الثانى ص ١٧٤

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٨٩

انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب :

وبانتهاء عام ١٨٢٤ انتهت المرحلة الأولى من مراحل الحملة على كريت والمورة وفيها كما قد رأينا أحرز الثوار انتصارات سريعة على الأتراك وهزموا جيوشهم شر هزيمة ولكن سرعان ما دب بينهم الشقاق كما أسلفنا من قبل فألهاهم ذلك عن الخطر الأكبر الذى كان يتهددهم وأغمض أعينهم عما حل بكريت فلم يفكروا فى أنهم سيلقون نفس المصير من ذلك العاهل العظيم الذى كان يتربص الفرص المواتية ليقلع إلى شواطئهم . وقد واتته هذه الفرصة طيعة مختارة عندما وقع الاضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومات الثورية فأبى البحارة الاستمرار فى القتال، وما كاد إبراهيم باشا يعلم بذلك إلا وأقلع بعمارته من "خانية" إلى "مودون" جنوبى المورة فأنزل جنوده إلى البر فى ٢٦ فبراير عام ١٨٢٥ [١] وبذلك بدأت المرحلة الثانية من مراحل هذه الحرب وهى المرحلة التى تخلى فيها الحظ عن الثوار ولمع فيها نجم القوات المصرية بفضل عبقرية قائدهم الفذ الذى ظل طوال وقته يقظا متحفزا للوثوب إلى هدفه .

الفصل الرابع

المرحلة الثانية (٢٦ فبراير ١٨٢٥ — يونيو ١٨٢٧)

١ — تخليص كورون والاستيلاء على نفارين

مسرح العمليات [٢] :

لاشك وأن طبيعة أراضى مسرح الحرب وطبوغرافيتها ومناخها وموارد المياه بها من أهم العوامل المؤثرة على سير العمليات التى تجرى عليها فلا غرو إن أضحى وصف مسرح العمليات فى حرب المورة أوّل مايجب أن نلم به قبل البدء فى سرد

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٣٦

(٢) معظم المعلومات عن مسرح العمليات مستقاة من كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان جزء ١ ص ٢٣٩

المعارك المختلفة ودراستها الدراسة العسكرية الحقة حتى نكون على بينة واضحة من جميع المؤثرات فى تلك العمليات وحتى يمكننا أن نحكم على قدرة القوات التى خاضت غمار هذه المعارك .

طبيعة أرض المورة [1] :

تكاد المياه تحيط بشبه جزيرة المورة من جميع الجهات عدا تلك الأرض الضيقة الصغيرة التى تمر بكورنث وتصلها بشبه جزيرة تساليا أو بالأحرى بأوربا ... وتمتاز شبه المورة بتشعب امتداد أراضيها فى داخل البحر وهذا مما يوفر لها الموانئ الصالحة لرسو السفن والمضايق الكثيرة الصالحة لأن تكون أوكارا للسفن التى تعمل فى البحر ... وطبيعة أراضيها جبلية عالية إذ تمتد فيها سلاسل من الجبال المرتفعة أهمها تلك السلسلة الساحلية التى يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ متر والتى تسير محاذية لخليج "كورنث" وتمتد إلى خليجى "أجين و بتراس" وأعلى قممها "تريكالا وايريمانث" ثم تنحدر متجهة صوب الجنوب إلى البحر الأبيض المتوسط على ضفتى خليج "ماراتون" وتسمى "أركاديا" (فى الوسط) و"بلاكونى وتايجيت" (فى الجنوب) وتقع سلسلة جبال "مسينى" فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة غرب نهر "برماتزا" وتكاد تكون شبه منطقة مستقلة وهذه المناطق الجبلية بأسرها وعرة وقاحلة وشديدة البرودة عدا فى بعض المناطق حيث توجد بعض الأدغال كما فى "أركاديا ومسينا".

أما فى وسط شبه الجزيرة فمميز بانخفاض عميق توجد فيه "تريبوليتسا" العاصمة التركية القديمة كما توجد بها مساحات صحراوية شاسعة بها بعض المناطق الصالحة للزراعة وهذه تتوافر بجوار السواحل وعلى شواطئ الأنهار القليلة التى تخترق تلك السلاسل من الجبال .

---

(١) انظر خريطة رقم (١) — المورة .

موارد الميـاه :

وشبه جزيرة المورة فقيرة جدا فى موارد المياه وذلك لأن أغلب أراضيها كما رأينا جبلية قاحلة أو صحراوية جافة على أن أهم الموارد بها هى نهر "ايروتاس" الذى يصب فى خليج "ماراتون" ونهر "برماتزا" الذى يصب فى خليج "مسينى" ونهر "ألفى" الذى يصب فى خليج "أركاديا" وهذه كلها أنهار صغيرة تعترضها العوائق الرمليـة الكثيرة بالقرب من منابعها .

المنـــاخ :

ومناخ شبه جزيرة المورة حار بالقرب من السواحل وغير صحى لوجود مستنقعات كثيرة بهـا أما وسط شبه الجزيرة فجوة مرهق للقوات المحـاربة إذ أنه حار جدا فى الصيف وبارد جدا فى الشتاء وفى منطقة "تريبوليتسا" تهب رياح شمالية دائمة .

المواصلات :

ولقد كانت المواصلات لهذه الأراضى قليـلة جدا بل لقد أصبحت متعذرة بسبب تلك الثورة التى دامت خمس سنوات دمر فيها الثوار الطرق وقطعوا وسائل الاتصـــال (١) .

ومن هـذا كله يتضح لنا جليا أن طبيعـة مسرح العمليات فى المورة فى صالح المدافعين لأنه يلقى عبئا كبيرا على عاتق المهاجمين إذ يحدد طرق تقدمهم ويجعلهم تحت رحمـة المدافعين لو حصنوا مواقعهم الحـاكمة على طرق التقـدم فى الجبال والممـــرات .

حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة :

ولقد ألفى ابراهيم باشا، عند نزوله وقواته فى ميناء "مودون" فى فبراير عام ١٨٢٥ ، القوات التركية فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحرا و برا لاسيما وقد سقطت "نفارين"

(١) نفس المصدر ص ٢٤٠



أمير البحر حسن الاسكندرانى باشا

عنـد نزول القوات المصرية ولم يبق فى شـبه الجزيرة تحت أيدى الأتراك سوى "مودون" وميناء "كورون" التى كان يحاصرها الثوار[١] .

خطة إبراهيم باشا للغزو :

ولو أن المراجع التاريخية لم تحدثنا بوضوح عن خطة إبراهيم باشـا التى اعتزم اتباعها ونفذها فى غزو شبه جزيرة المورة إلا أنها بسردها لأعماله المختلفة قد رسمت لنا الأسس التى قد بنى عليها ذلك القائد الفذ خطته التى تتمشى مع أحدث أساليب الحرب الآن والتى تثبت أنه كان استراتيجيا من الطراز الأول فبوصوله إلى " مودون" أيقن بأن شـبه جزيرة " بيليـا " هى أصلح مكان لتكون قاعدة لعملياته وأدرك لأول وهلة بأن "مودون" هذه لا تكفى لأن تكون رأس الكوبرى الذى يقيم عليه حملته وذلك لمعرفته التامة بقوة عدوه البحرية التى قـد تضرب مع قواته البرية الحصـار التام عليه فتضطره إلى التسليم فى البر أو الاندحار فى البحر ولذلك رأى أن يوسـع رأس الكوبرى هـذه باستيلائه على سلسـلة الموانع المجـاورة له فى " بيليـا " كى يوفر لقواته قاعدة تثبت فيها أقدامها ويمكنها أن تعمل منها بحرية تامة لا تعوق حركاتها ضيق المواجهة ولا يجعلها ذلك الضيق عرضـة لإلقائها فى البحر إذا هاجمها العدو. ولا شك فى أن الدهشة ستأخذ بتلابيبنا إذا عرفنا أن نفس هذه الفكرة هى التى خطرت للمارشال "مونتجمرى" عند وضع خطط غزو أوربا فقـد عدل خطة "كوساك" التى قد وضعتها هيئة أركان حرب "إيزنهاور"[٢] من قبل فزاد فى مواجهة رأس الكوبرى المقترح وهذا يحقق لنا صدق قول "البارون دى جومينى" : "إن الاستراتيجية أيام قيصر هى بعينها أيام نابليون وإن لم تدون فى أى كتاب"[٣] .

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٦

(٢) كتاب عمليات النصر جيتجاند ص ٣٤١ ، ٣٤٤

(٣) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب العالمية الثانية للكولونيل ا ه بورن .

الاستكشاف والوقاية :

وفى اليوم التالى لوصول إبراهيم باشا عهد إلى قوّاده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات وتنظيم شئون الوحدات الادارية ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الأماكن القريبة من "نفارين" وبعد أن تم له الوقوف على ما أراد من معلومات عاد بعد الظهر إلى المعسكر بجملة قطعان من الأغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع[1] وأصدر أوامره لبعض الوحدات كى تقوم بحماية الطرق الرئيسية المتفرعة من "مودون" حتى لا يدمرها الثوار وحتى يوفر الوقاية التامة لقوّاته فى أماكنهم بمودون .

إنقاذ كورون :

وفى ٣ مارس تقدم إبراهيم باشا بقوات كبيرة لتخليص "كورون" فأزال كل مقاومة أراد بها الثوار صدّه عن مواصلة التقدّم وتمكن فى ٥ مارس من اختراق خطوط الحصار واتصل بالقلعة وأبعد المحاصرين عنها وعسكرت جنوده تحت أسوارها أسبوعا صدّوا فى خلاله كل الهجمات المضادة التى وجهها إليهم أشياع اليونان وبعد أن عزز حامية هذا الموقع وزوّده بما فوق حاجته من المؤن والماشية التى غنمها فى غزواته عاد إلى مركز قيادته العام[2] .

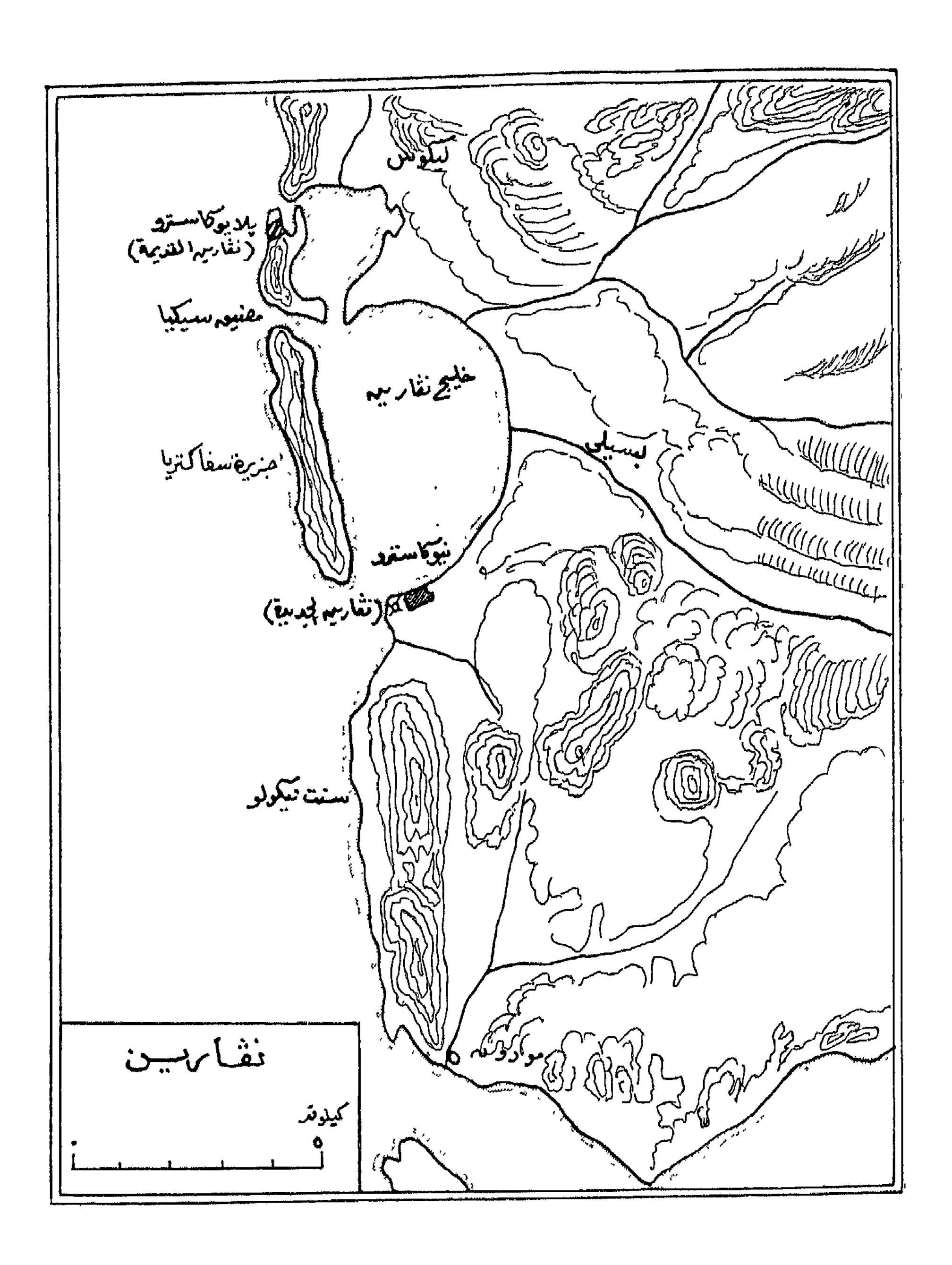
ولقد أظهرت تلك العملية الأولى مدى قوّة الجنود المصريين المشاة وأهمية الفرسان المعاونة لهم التى أزعجت الثوار فى الجبال وفى السهول والتى كانت دائما وأبدا تغير على مواصلات العدوّ فتأتى بأعمال حاسمة مفيدة وتؤثر على الروح المعنوية فى قوّاته كما أبرزت دقة المدفعية المصرية التى كانت منظمة على أحدث النظم الأوربية وقتئذ[3] .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٦٦٧

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٤١


ليكولس
پلايوكاسترو
(نڤارينه القديمة)
مضيق سيكيا
خليج نڤارينه
جزيرة سفاكتريا
لبسيلي
نيوكاسترو
(نڤارينه الجديدة)
سنت نيكولو
مواد ونه
نڤارين
كيلومتر
٥

ولم يمض إبراهيم باشا سوى ست ساعات فقط فى مركز قيادته عاد بعدها إلى استئناف الإيغال فى داخل المورة لجس نبض الأعداء فى جملة من مواقعها المختلفة واستولى على بعض المواقع الدفاعية الهامة على جبل "هاجيو ديمترى" كى يقى خطوط المواصلات إلى "كورون" ثم عاد إلى "مودون" فى ١٥ مارس واستراح ليوم واحد فقط سافر بعده فى اتجاه الشمال الشرقى لاستكشاف مدخل " مسينى " وهو الباب الغربى للمورة ولم تصادفه أى مقاومات للعدو حتى عاد يوم ٢٢ مارس إلى قاعدته .

من هذه العمليات البدائية ندرك لأول وهلة مدى استيعاب إبراهيم باشا لمبادئ الحروب فأول ما عمل عليه هذا القائد هو وقاية قواته التى أنزلت فى أرض العدو فبدأ بالاستطلاع وملك ناصية المبادأة بالأعمال الهجومية فأثار الرعب فى نفوس الثوار وأمن طرق مواصلاته مع قاعدة عملياته ومع "كورون" التى استولى عليها وفى كل ذلك لم يتغاض عن توفير الشئون الادارية لقواته باستغلاله للموارد المحلية فى التو واللحظة. وكل هذه الخطوات لا شك وأنها تنبئنا بمدى ما سيروعنا به إبراهيم باشا من عمليات حربية رائعة إبان هذه الحملة .

حصار نفارين :

بعد أن استولى إبراهيم باشا على "كورون " التى تحمى قاعدته من الجنوب تلفت شمالا ليقرر احتلال " نفارين " التى تعتبر أهم الموانئ فى شبه جزيرة المورة لكبرها ولاعتصام الثوار بها .

وتحمى "نفارين" هذه قلعتان حصينتان على جانبى خليج نفارين الذى يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ٥٥٠٠ متر وطوله من الشرق إلى الغروب ٣٥٠٠ متر وعمقه يسمح بإيواء أكبر قطع الأسطول كما أنه يحميها ضد عواصف البحر الأيونى لوجود جزيرة " سفاخترياً " عند مدخله وتوصل بعض الطرق الرملية إلى هاتين القلعتين [1] .

---

(١) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج — ١ ص ٢٤٢

أرسـل إبراهيم باشا يوم ٢٣ مارس الآلايين الثالث والرابع بقيادة خورشد بك وحسين بك ومعهما المعدات اللازمة لحصار نفارين فأسرع الثوار لنجدة هذا الموقع ولكن أورطتي عثمان أغا ويوسف أغا بادرتا بمهاجمتهم فألحقتا بهم الهزيمة عند أول اشتباك ولم يتمكن القواد اليونانيون من النجاة بأنفسهم مع بعض رجالهم إلا بشـق الأنفس أما الباقون فقد قتـل فريق منهـم وأسر الفريق الآخر وحاولت الحامية تعزيز حركتهـم فخرجت لمهاجمـة القوات المصرية لكنها عنـدما شهدت ما حل بقوات نجدتها أسرعت بالعودة إلى المدينة بعـد أن تكبدت خسائر فادحة واغتنم المصريون هذه الفرصة فطاردوهم حتى وصلوا بهم إلى القنطرة الممدودة على خنادقهم والموصلة لمدينتهم[1] .

وفى ٢٥ مارس سار إبراهيم باشا ببقية قواته من مودون فعسكر أمام الأسـوار التى نيط الدفاع عنها بالقائد اليونانى (نيكولاؤس) وكانت الأوامر قـد صدرت إلى الثوار فى المورة بالتحرك لإمداد "نفارين" فأخذ إبراهيم باشا يصد هذه القوات كلما هاجمته مستعينا على ذلك بالأورط الثلاث التى كانت تحت قيادة مصطفى أغا وعثمان أغا وسليمان أغا[2] .

ولقد كانت خطة إبراهيم باشا للاسـتيلاء على " نفارين " تتلخص فى الهجوم المزدوج على القلعتين فى آن واحد. فأرسل حسين بك ومعه أورطة من كل من الآلايين الثالث والرابع وبعض الخيالة لمحاصرة القلعة القديمة ومهاجمتها بينما يقوم هو بجيشه بأكمله بالهجوم على القلعة الجديدة بعد حصارها[3] ولكن اليونانيون تمكنوا من إمداد القلعة القديمة فقاومت هجوم حسين بك مقاومة شديدة .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٧٦٨

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

و بينما كان إبراهيم باشا منهمكا فى حصار القلعة الجديدة فطن اليونانيون للخطر الذى سيحدق بهم لو تمكن القائد المصرى من إحكام حصاره فتقدّمت قوات منهم بلغت ٣٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الكابتن "يانى" لمهاجمته وسرعان ما أرسل إليهم إبراهيم باشا ثلاث أورط بقيادة عثمان أغا ومصطفى أغا وآكل سولاى أغا فشتت شمل قوّات "يانى" وأسرته مع الكثيرين من جنوده ... ولقد حاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة "نيكولاؤس" الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع لكن هذه المحاولات لم تجدهم نفعا وتمكن المصريون من أسر "نيكولاؤس" نفسه فى إحداها[1].

وفى ١٩ إبريل تناهت إلى إبراهيم باشا الأخبار باحتشاد ١٠,٠٠٠ من الثوّار فى قرى "كرميدى" على بعد ٩ ميل جنوب "نفارين" وأنهم قد تحصنوا فى ثلاث من القرى وجبلين واقعة كلها على مسيرة ١٢ كيلومترا من المعسكر فلم يتردّد إبراهيم باشا فى المسارعة إليهم فى ٣,٥٠٠ مقاتل من وحدات الآلاى الثالث والرابع و ٤٠٠ فارس وتولى هو بنفسه قيادة الفرسان فعهد إلى عمر أغا وكوجك عثمان بمهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين لأنهما مفتاح الموقع وأمر باقى الجنود بمهاجمة القرى الثلاث فلما فوجئت الجيوش اليونانية بالهجوم من كل ناحية وفى وقت واحد فشلت مقاومتها فقتل منها الكثير واستسلم الباقون وضرب إبراهيم باشا بعد ذلك كل الحصون والاستحكامات فدمرها ثم عاد الى معسكره فى ٩ مايو[2].

وشدّد إبراهيم باشا الحصار على "نفارين" ولكن قلعتيها لم تستسلما لتوالى ورود الإمدادات لها من البحر وعند ذلك أيقن إبراهيم باشا بأن مفتاح الموقف فى الاستيلاء على جزيرة "سفاختريا" فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٩

(٢) كتاب مصر الحديثة لفولابل جزء ١٢ ص ٣٢١

سليمان (باشا) الفرنساوى[1] فأرسل معه بلوكين من الأورطة السادسة المشاة إلى (مودو
حيث أبحر بهما فى ١٥ سفينة مسلحة[2] فلما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلا
الجزيرة عززوا حاميتها بقوات مختارة من المحاربين والبحارة ولما سارت السف
المصرية فى مرمى نيران مدفعية السواحل للعدو أطلقت قلاعه النيران عليها ولك
أجابتها بالمثل بينما راحت تنزل الجنود فى الزوارق فقصدوا الجزيرة تحت وابل
النيران وتمكنوا من الوصول إلى البر واحتلوا الجزيرة ورفعوا العلم المصرى
استحكاماتها[3] وقد قتل فى هذه العملية بطل اليونان "تسامادوس" وجرح سليمان با
وفر « مافركورد اتوس » وهربت بقية السفن اليونانية و بذلك تم تطهير خلي
" نفارين " من الأسطول الهيلينى .

استسلام نفارين :

وفى ليلة ١٢ — ١٣ مايو هاجم ٣,٠٠٠ من الثوار مؤخرة حسين بك ولك
جنوده كانت متأهبة للقائهم بل والهجوم عليهم فشتت شملهم وفى الوقت نفس
حاول المحصورون فى القلعة القديمة الزحف عليهم تحت جنح الظلام ولكن القوا
المصرية قابلتهم بنيران حامية أوقفت تقدمهم وجعلتهم يلوذون بالقلعة ثاني
فطاردتهم الخيالة المصرية وفتكت بهم وأسرت الباقين فاستسلمت القلعة القدي
فى ١٣ مايو[4] .

وفى هذا اليوم أراد الأميرال (ميلوليس) اليونانى الثأر لمقتل (تسامادوس
أغار بأسطوله على "مودون" وأشعل النيران فى بعض قطع الأسطول المصرى وزادت
فالرياح العاصفة فى اشتعال النيران حتى امتدت إلى المدينة فدمرت بعض مخاز

(١) كتاب مصر الحديثة لفولابل جزء ٢ ص ٣٢١
(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣
(٣) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٨
(٤) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ج ١ ص ٢٤٥

البارود ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد إبراهيم باشا ولم يجعله يتحوّل عن هدفه الأساسى بل شدّد الحصار على القلعة حتى استولى اليأس على المحصورين فأرسلوا فى ١٦ مايو وفدا من وجوههم يلتمسون الأمان فأمنهم إبراهيم باشا على حياتهم بشرط أن يسلم إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة فاستجابوا لهذه الشروط وفى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ دخل إبراهيم باشا وجنوده المدينة فكان ذلك أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى وكان لسقوط "نفارين" أثر بالغ فى الموقف الحربى إذ جعل اليأس يدب فى صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصرى باستكمال قاعدته اللازمة للعمليات فى داخل المورة (١) .

التحليل الفنى لهذه المعركة :

لا شك وأن هذه المعركة تحتل المكان الأوّل من الأهمية فى حملتنا هذه لأنها حجر الزاوية التى بنى عليها النجاح المستقبل ولذلك يجب علينا أن نحللها التحليل الفنى المسهب لندرك ما فيها من روعة أعمال الجيش المصرى وعبقرية قائده الفذ إبراهيم باشا الذى تمكن من تطبيق مبادئ الحرب تطبيقا قلما يوفق إليه أى قائد قديم أو حديث ولننظر الآن كيف طبق إبراهيم باشا جل مبادئ الحرب فى هذه المعركة حتى أوصلته إلى ذلك النصر الحاسم السريع .

مبدأ المحافظة على الهدف :

إن أوّل مبدأ من مبادئ الحرب عمل إبراهيم باشا على تحقيقه هو مبدأ المحافظة على الهدف فلقد كان هدفه الأساسى الاستيلاء على نفارين ولم يصرفه عن هذا الهدف كل ما قام به الثوّار من مختلف الأعمال والهجات كما رأينا ففى كل موقف من المواقف التى هاجمته فيها قوّات الثوّار أو شرعت فى الاحتشاد لمهاجمته لم يترك "نفارين" ويتوجه إليهم بل كان يسارع لتشتيت شملهم فى الوقت الذى لا زالت

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠٨

قوّاته المحاصرة تشدّد قبضتها على القوات المحصورة . فالأهداف المفاجئة لم تجعله يهمل هدفه الأساسى ، هذا إلى أن كارثة حرق بعض قطع أسطوله فى " مودون " ونسف ذخيرته لم يفت فى عضده ولم يصرفه عن تحقيق هدفه الأساسى فلا عجب إذا أمكنه تحقيق ما قد رمى إليه وحصوله على النصر الحاسم فى النهاية .

مبدأ ادّخار القوى :

ولم تدفع رغبة تحقيق الهدف الأساسى إبراهيم باشا إلى تجاهل مبدأ ادّخار القوى فتجعله يجازف بكل قوّاته فى حصار نفارين بل لقد عمل على تحقيق مبدأ ادّخار القوى بإرساله بعض قوّاته فقط لحصارها واحتفاظه بقوّة احتياطية كبيرة (ثلاث أورط وبعض الخيالة كما أسلفنا) لمواجهة جميع المفاجآت التى حاول الثوار تحقيقها بهجماتهم المختلفة التى تصدّى لهم فيها إبراهيم باشا ودحرهم المرّة تلو الأخرى حتى أصبح هدفه الأساسى أقرب ما يكون إلى المنال بواسطة هذه العمليات منه بالحصار الدائم .

مبدأ خفة الحركة :

ويدهشنا إبراهيم باشا فى هذه العمليات بتطبيقه الرائع لمبدأ خفة الحركة ففى جميع الأحوال التى كانت الأنباء تصله باحتشاد قوّات للعدو للقيام بهجمات مفاجئة كانت قوّاته المجهزة والمستعدة تهرع فى خفة وإسراع إلى الذهاب بجهود العدو ودحر قوّاته ولقد عرف إبراهيم باشا كيف يستفيد من خفة حركة فرسانه بعمليات التطويق التى قام بها عند هجومه على جموع العدوّ فى قرى " كرميدى " وأيضا فى مطارداته الدائمة للقوات المنسحبة التى أمامه وكأنه فى ذلك كان يحقق قول نابليون : " أن سر الحرب هو أن تمشى إثنا عشر فرسخا وتخوض غمار المعركة ثم تمشى إثنا عشر فرسخا أخرى للطاردة[1] " .

---

(١) كتاب الحرب لمحمد عثمان ص ٩٦

مبدأ المفاجأة :

ولا شك فى أن أهم مبدأ استخدمه إبراهيم باشا وأتى بثمـاره ناضجة شهية هو مبدأ المفاجأة فأنّى علم باقتراب جيوش التخليص لم يتخبط فى العمـل الذى يجب أن يقوم به بل أسرع بقواته المهيأة لذلك والمتوفرة لديه كاحتياط مجهز وفاجأ تلك الجيوش التى لم تكن تتوقع هجومه مطلقا ، كما وأن يقظة قوّاته وقوّاده أخفقت الكثير من محاولة العدوّ مفاجأة هذه القوّات تحت جنح الظلام أو فى حصرها بين هجومين من داخل القلاع وخارجها .

مبدأ التعاون :

وأروع دليل على مدى استخدام إبراهيم باشا لمبدأ التعاون وتفهمه لأهمية هذا المبدأ جيدا هو ذلك الحصار البرى والبحرى الذى ضرب به حول " نفارين "، وأيضا تعاون مدفعيته ومشاته فى الحصار أثنـاء إسراعه هو وفرسانه و بعض المشاة لملاقاة جيوش التخليص المتتالية ثم يتضح لنا ذلك جليا فى تعاون مشاته المحملة فى المراكب مع بحريته إبان الهجوم على جزيرة " سفاخترِيا " واحتلالها ، والحق إننا لنلمس فى كل أعماله هـذه روح التعاون الوثيقة المطلوبة وهى التى نادى بها " جيوليود وهيت " والتى أصبحت أساسـا لتنظيمات وحدات العمليـات المشتركة ، ونواة لوحدات الأسطول البرية والجوّية التى آستخدمت فى الحرب الأخيرة .

مبدأ الوقاية :

وفى جميع عمليـات إبراهيم باشا منـذ وصوله إلى أرض المـورة حتى سـقوط "نفارين" أبرز لنا بوضوح أهمية الوقاية فعملياته الاستكشافية الدائمة وتأمينه لخطوط المواصلات الموصلة للأماكن التى احتلها ولقاعدة عملياته كانت خير دليل على عظم قيمة هـذا المبـدأ فهو دائما وأبدا كان يقى قوّاته شر مفاجأة العدو لها أو محاصرتها و إن وقوفه فى كل آن على نيـات العدوّ وتحركات قواته وفر لجيوشه الأمن اللازم وجعلهم يواجهون العدوّ أنّى فكر فى الإغارة عليهم .

مبدأ حشد القوى :

أما مبـدأ حشد القوى فهو كفيل بذاته لإثبات وجوده دائما فى هذه المعارك وإنه ليتضح جليا فى ما أقدم عليه إبراهيم باشا من حشد قواته لمحاصرة " نفارين " وفى ذهابه لملاقاة جيوش التخليص وفى مهاجمته لقرى " كرميدى " ومرتفعاتها بل وفى محاصرته النهـائية " لنفارين " نفسها ، حيث جمع كل قواته البرية والبحريه المتوفرة لبلوغ هدفه الرئيسى فى النهاية .

تلك هى مبادئ الحـرب التى نصت عليها أغلب تعليمات الكتب العسكرية الاستراتيجيـة وقد حققها إبراهـيم باشا جميعها فى هـذه المعارك إلا أن الكتب العسكرية الأميركية الحديثة تضيف مبدأ آخر ألا وهو مبدأ البساطة[1] وهـذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ حقا فالخطط العسكرية المبسطة دائمـا وأبدا تأتى بنتائج طيبة ولا شـك فى أن إبراهيم باشا قد حقق هـذا المبدأ إلى حد كبير جدا فخططه بأسرها كانت مبسطة ورائعة وتهدف دائما إلى دحر العـدو دون ما تعقيد فى تنفيذ ذلك فهو عنـد نزوله فى المورة لم يفكر فى القيام بحـركة تطويق كبيرة بإنزال قواته فى جانبى شبه الجزيرة ولم تستهوه أهمية سقوط " نو بلى " عاصمة الثوار بل لجأ إلى أخذ الأمور من أبسط نواحيها وهى النزول فى المنطقـة التى فى يد الأتراك والتى تصلح لأن تكون قاعدة لعملياته ، هذا إلى أنه وضع نصب عينيه أن يعمل دائما بقول نابليون : " فيما يختص بى فإنى دائما أعمل على خطوط داخلية[2] " فلم يفكر فى العمل على الخطوط الخارجية وكأنما فى كل ذلك كان يحقق تعليمات " البارون جوميني " حيث قال : إن أربعة شروط ضرورية لنجاح العمليات على الخطوط الداخلية وهى :

(١) ضرورة توفير قاعدة مناسـبة للعمليات تعمل منهـا القوات بحـرية ولا تحاصر فيها .

---

(١) كتاب تاريخ العالم العسكرى لمينشل ص « ٦ » .

(٢) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب العالمية الثانية لبورن .

(٢) عدم التوسع الغير ضروري في هذه القاعدة حتى لا تكتسح أجنابها بسهولة.

(٣) مهاجمة أجناب العدو دون قلبه .

(٤) هزم قوات العدو المشتبك معها نهائيا قبل البدء في عمل أي هجوم آخر جـــديد .

وإن نظرة فاحصة لما قام به إبراهيم باشا خلال هذه العمليات ترينا بوضوح أنه قد قام بتنفيذ هـذه التعليمات بدقة تامة فعمل على تهيئـة قاعدته على مساحة مناسبة كما أسلفنا وهاجم "كورون" أولا حتى هزم قوات العدو وأمنها ثم اتجه إلى "نفارين" وطوق أجناب العدو في حصاره "لنفارين" وفي هجومه على قرى "كميدي". فلله دره من قائد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة من فنون الاستراتيجية التي لم تكن قد دونت أو نشرت تعاليمها .

الدروس المستفادة من هذه المعركة

ويستخلص من هذه المعارك بعض الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية القائد في المعركة :

إن هذه المعركة قد أظهرت لنا بوضوح أهمية القائد وقدرته في المعركة فالتعاليم الاستراتيجية تعتبره العقل المحرك لكل آلة الحرب وعلى قرارات هذا العقل وتصرفاته تتوقف النتائج النهائية لها ... ولا شك في أن من حسن طالع القوات المصرية أن كان قائدها إبراهـيم باشا الذي عرف كيف يتصرف في كل المواقف المختلفة التي طرأت إبان هـذه المعارك من هجمات جيوش التخليص والذي كان دائما وأبدا بعيد النظر وعلى جانب كبير من الصواب في جميع قراراته .

(٢) أهمية الضبط والربط في النيران والتدريب الجيد للجنود :

ولقد رأينا الثوار يهاجمون القوات المصرية تدفعهم في ذلك روحهم الوطنية العاليـة وحماستهم المتأججة ولكن ثبات القوات المصرية وهـدوئها وعدم إطلاقها

النيران حتى الوقت والمرمى المناسب أذهب بكل جهود المهاجمين وأذاقهـم علقم الهزيمـة ولا شك فى أن هـذا العمل لن يتأتى إلا من قوات مدربة بلغت الذروة القصوى فى ضبط و ربط واستخدام النيران وهذا من أهم عوامل النجاح فى هذه المعارك .

(٣) أهمية التعاون بين القوات المحاربة :

وتبدو لنا أهمية التعاون التام فى تلك المعركة فى ذلك الحصار البرى والبحرى على " نفارين " الذى لولاه لذهبت جهود الجنود المحاصرة هباء منثورا ولطال أمد الحصار دون جدوى طالمـا تصل إليها الإمدادات من البحر .

(٤) أهمية الخيالة فى الأراضى الوعرة وقطع مواصلات العدو :

وتبرز لنا الخيالة فى هذه المعارك لترينا أهميتها فى الأراضى الوعرة وخفة حركتها فى تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته وذلك مالم يغفله إبراهيم باشا بل لقد رأيناه يقودها بنفسه فى مهاجمة قوات العدو بقرى كرميدى والمرتفعات العالية بها .

(٥) أهمية المطـاردة :

ولا شك فى أن أعظم درس مستفاد من هذه المعارك هى أهمية المطاردة فقد قال نابليون : " الانتصار لا يعد شيئا إذ يجب إتمـام وتعزيز هذا النصر بالمطاردة "[1] وهـذا ما اتبعته قوات إبراهيم باشا دواما إذ كان ديدنها دائمـا وأبدا مطاردة العدو المنسحب وقد رأينا ذلك فى كل عملية كبيرة أو صغيرة خلال هذه المعارك .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة

ولقـد يتساءل بعض الباحثين عن السر فى عدم إصـدار ابراهيم باشا أوامره المباشرة منذ بدء الحصار بالاستيلاء على جزيرة "سفاختريا " وقد يعزون ذلك إلى أنه قد غاب عنه أن هذه الجزيرة هى مفتاح الموقف مدى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيت فى الحصار . ولكن لا شك فى أن هذا لم يغب عن ذهن إبراهيم باشا مطلقا

(١) كتاب الحرب لمحمد عثمان ص ٩٦

و إنما هو قد آثر ألا يلجأ إلى العنف والبطش والشــدة والضربات الحاسمة القاصمة في أوّل معركة له بسبب أوامر والده له التي قد أوردنا بعضها فيما سبق . هذا إلى أنه كان يتوقع استسلام الثوّار من الروح التي قد قوبل بهـا في "مودون" ومما تناهى لأسماعه من الآثار السيئة التي فعلها المـال الذي أحضره و إياه اللورد "بيرون" وليس أدل على ذلك مما ذكره لوفرنى في كتاب " ذكريات عن اليونان " عن هذه الآثار الذي استنتج منها أن إبراهيم باشا لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نفارين بشرائه ضمائر اليونانيــين إلى أن قال : "ولو تم له ذلك لنادى به السكان واليـا على المورة ولأعلن هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذين استسلموا له ويؤيد رأيي هذا ما شهدته بنفسي في سهول مودون فقــد رأيت الفــلاحين اليونانيين يقبــلون يد إبراهيم وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : "أبلغوا الناس جميعا أني أبوكم وأنني لن أقسو إلا على العصاة الثائرين"[1] فهذه هي الروح التي خاض بها إبراهيم باشا هذه المعركة و إنا لنرى أن الحامية كادت تستسلم له في أوّل الأمر لولا هروع جيوش التخليص لها فهذه الفكرة الهامة لم تفت ولا شك تفكير ذلك القائد الفذ وها نحن رأيناه عندما اشتدت مقاومة الثــوّار صمم على تنفيذها وحصــل عليها في التو واللحظــة وقسى على العصاة الثائرين كما أعلن من قبل .

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر :

وتطالعنا هذه الحمــلة ببعض أعمال تثــير في النفوس الدهشة لوقوعها في ذلك العهد لأنها تشبه إلى حد كبير أعمال إغارات "الكومندوز" في الحرب الأخيرة فلقد استهدفت السواحل المصرية في خلال تلك الحملة لقرصنة السفن اليونانية التي أحفظها اشتراك مصر في الحرب فأقبلت في شهر يونيو ثلاث من حراقات اليونان إلى بوغاز الاسكندرية ودخلت واحدة منها إلى الميناء أمام طابيــة " صالح " وأشعلت النار في نفسها تريد بذلك حرق الأسطول المصري الذي كان راسيا أمامها وهذه طريقة

(١) ص ٦٧ من كتابه هذا .

قد اشتهرت بها الحراقات اليونانيـة ودمرت بها الكثير من السفن العثمانية ولكن حراس القلعة بادروا بإطلاق المدافع على السفينة اليونانية وبادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسـال زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها وأخمـدت نارها وبرهنت فى تلك الحركة على مهارتهـا ويقظتها فلما رأت السفينتان الأخريان ما حل بالأولى لاذتا بالفرار ولمـا علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين وخرج محمد على باشا بصحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ولكن الحمـلة لم تسطع اللحاق بالحراقتين وقد تابع محرم بك تجواله بالأسطول حتى بلغ مياه " رودس " حيث كانت السفن اليونانية راسية هنالك فلما أبصرت الأسطول المصرى لاذت بالفرار وأقلعت إلى مياه الأرخبيل [١] .

ومن تلك الحادثة العابرة ندرك مدى ما كان عليه هؤلاء الثوار من قوة وقدرة على التفكير ونحكم على مدى عبقرية إبراهيم باشا لتمكنه من الانتصار السريع عليهم وعلى يقظه القوات المصرية فى كل آن .

الموقف العام بعد هذه المعركة :

ولقد أحس الثوّار بعـد هذه الموقعة بحرج موقفهم فإنهم بالرغم من تمكنهم من تهريب بعض رجالهم ومدفعيتهم وذخيرتهم بواسطة المراكب البريطانية والنمسوية إلى " كالاماتا ومسينى " فان " بيوتى " كانت مهدّدة بالأتراك وفى " ميسولونجى " مات " بيرون " . فهرع الكثير من اليونانيين الذين فى الخارج إلى بلادهم ليدافعوا عنها وأفرجوا عن القائد " كولوكوترونيس " الذى كان فى السجن فى " هيدرا " لاتهامه بتبديد بعض الأموال لكن وصوله للورة جاء متأخرا إذ أصبحت الأرض التى شهدت نصر " الأرجوس " و " الإسبارطيين " و " كورنث " تحت رحمـة قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا [٢] .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٧

الفصل الخامس

تابع المرحلة الثانية

٢ — احتلال المورة

تطهير بيليا : (أنظر خريطة رقم ١)

بعد أن حصل إبراهيم باشا على موقع إستراتيجى محصن بثلاث قلاع (مودون — نفارين — كورون) فى "بيليا" صمم على اختراق البلاد واحتلال أراضيها ثم السير إلى "تريبوليتسا" العاصمة القديمة للسنجق التى سقطت فى أيدى الثوار فى ٥ أكتوبر عام ١٨٢١ ولكن قبل تقدمه رأى أن يطهر "بيليا" تماما من الثوار فاتبع تكتيكات رائعة فى تقدمه وهى أنه كان يدفع بقولات الخيالة أمام مشاته لتسبقها باحثة عن العصابات فإذا عثرت على بعضها عملت على قطع مواصلاتها من الخلف وعزلها حتى إذا حاولت الانسحاب ضيقت عليها الخيالة الخناق أما إذا ثبتت فى مواقعها هاجمتها المشاة من الأمام بينما تطوقها الخيالة من الأجناب وتحاصرها من الخلف فيقضى عليها . ولقد نجحت هذه التكتيكات نجاحا باهرا فأزالت الكثير من مقاومة العصابات اليونانية وطهرت " بيليا " من الثوار فبدأ إبراهيم باشا فى تحقيق تقدمه إلى " تريبوليتسا "[1] .

حشد قواته فى نيسى :

ولقد جعل إبراهيم باشا بلدة "نيسى" الواقعة شمال شرقى "كورون" على الشاطئ الأيمن لنهر " بيرماتزا " مركزا لحشد قواته من مختلف الميادين حتى يتمكن من التقدم بها إلى داخل البلاد .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى خلال إتمام ذلك الحشد بل تقدم ومعه

(١) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٩ .

١٥٠٠ مقاتل قاصـدا ممر "ليونداري" وهو أحد منافذ هضبة "أركاديا" الذى يجرى فيه نهر "ألفى" وكان يحتله (البابا فلشياس) من الهتيرى ومعه بعض رجاله الأقوياء ليمنع تقدّم المصريين لاحتلال قلب "أركاديا" وليهدّد خطوط مواصلاتهم إذا تقدّموا جنوبا فى "تايجيت" فصمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على ذلك الموقع الاستراتيجى الهـام فهاجم عصابات "فلشياس" فى ١٠ يونيو بتكتيكاته المعتادة الرائعة فهزمهم بعد مقاومة عنيفة دامت لست ساعات . و بعد أن فتح إبراهيم باشا ذلك الباب الموصل "لأركاديا" حصنه وأسند حراسـته لبعض قوّاته ثم عاد إلى "نيسى" حيث تم حشد قوّاته فأمر بالتحرّك بعد ثلاث ساعات إلى "كالاماتا"[١] .

فتح كالاماتا :

تقع "كالاماتا" على الشاطئ الأيمن لنهر "برماتزا" وكان "بترو" القائد العام للثـوّار فى تلك البقاع قـد حشد فيها ٤٠٠٠ مقاتل وحصن مواقعه وحفر الخنادق حولهـا فهاجمه إبراهيم باشا فى الحـال بثلاث آلايات وفرقة من الفرسان ولم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الأدبار لمـا تناهى إلى أسماعهم من أنباء عن هزيمة "فلشياس" وقوّاته فأرسل إبراهيم باشا فرسانه خلفهم فطاردتهم وقتلت نحو ٥٠٠ منهم وأحرقت بعض القرى منها "كتيريا" بلدة "بيترو" واستولى على الميناء .

وفى اليوم التالى حاصر ٢٠٠٠ من الثوّار فى دير بلدة "فلاميديا" القائم على أكمة عالية فاستولى عليه وأسرهم .

الاستيلاء على تريبوليتسا :

وفى ١٨ يونيو تقـدّم إبراهيم باشا فعبر سلسلة جبال "تايجيت" وسار إلى "تريبوليتسا" عاصمة جزيرة المورة فمرّ بعض الجيش بإقليم "أركاديا" والبعض الآخر بإقليم "ليونداري" فخرب القولان فى طريقهما قريتى "كالافيا وبولا كى" وكان

(١) نفس المصدر ص ٢٥٠

سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يحمون إبراهيم باشا فى زحفه وصعوده فى الجبال وقد صعدوا فيها معه للاستطلاع وكان "كولوكوترونيس" و"بتراكو" قد تحصنا بقمة جبل (تركى خورا) لمقاومة الجيش المصرى . ووقف إبراهيم باشا على نياتهما فانقض عليهما ودحرهما ودمر استحكاماتهما وقتل خمسمائة من رجالهم ومنهم الجنرال "بتراكو" وما أقبل المساء حتى انضم إبراهيم باشا إلى جيشه الأساسى .

وفى ١٩ يونيو تأهب للنزول فى سهل "ليونداری" وعلم أن الأعداء ينصبون له كمينا فأنفذ إليهم فصيلة دحرتهم وكان "كولوكوترونيس" قد اتخذ له فى النقط الخلفية موقعا منيعا لكن جنوده لم تجرؤ على البقاء فيه خيفة أن يدهمهم إبراهيم باشا فينكل بهم ولذا فروا على وجوههم فى الجبال لا يلوون على شىء و بذلك بات الطريق مفتوحا للجيش المصرى فدخل فى ٢٣ يونيو وفى طليعته إبراهيم باشا مدينة "تريبوليتسا" بعد أن هجرها سكانها وأشعلوا فيها النار (١) .

ولم يستنم إبراهيم باشا إلى هذه الانتصارات السريعة فقرر على الرغم من المشاق التى كابدها جيشه فى المواقع الأخيرة أخذ (نو بلى دى رومانيا) التى اتخذها الثوار عاصمة لهم فترك لهذا الغرض فى عاصمة المورة جيشا احتياطيا قويا وتحرك فى ٢٥ يونيو فى قوة مؤلفة من ٥٠٠ فارس وأورطة مشاة و بعض المدفعية والهاون فوصل فى اليوم الثالث من زحفه إلى سهل "أرجوس" حيث أحرق كل ما فيه من أشجار الزيتون ثم انقض على طواحين "نو بلى" التى كانت فى حراسة "إبسلانتى" و ٣٠٠ من جنوده المشهورين باسم (البااليكار) (٢) فترامت القوات بالنيران وتصنع إبراهيم باشا حركة رجعية قصد بها إلى استدراج العدو فى طريق "تريبوليتسا" فكللت هذه الخدعة بالنجاح واستولى على جميع مواقع الأعداء ثم استأنف السير حتى عاد إلى معسكره فى ٣٠ يونيو

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جون ص ٦٧٩ .

(٢) نفس المصدر .

توفير المؤن وتنظيم الشؤون الإدارية :

وأول ما اهتم به إبراهيم باشا عند عودته إلى عاصمة المورة هو تدبير الوسائل اللازمة لإقامة جنوده بها فى فصل الشتاء فحصد ودرس مالم يتيسر للأهالى أن يحصدوه أو يدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التى غنمها منهم إلى المخازن والمستودعات ولكى يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الأعمال الأمن على حياتهم بث الداوريات حولهم للاستطلاع وكان يختلف دائما إلى النقط الأمامية منها ليشرف بنفسه على أحوالها وقاد بعض الدوريات المحاربة بنفسه ومعه فرسان حسين بك لأخذ الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة فقاتل الثوار واستولى على ما أراد [(١)] .

احتلال بتراس :

وفى ٢٧ يوليو عرج إبراهيم باشا على وادى "لكونيا" حيث كان الثوار يرابطون فى معاقلهم فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ثم احتل "بتراس" وبذلك صار شبه جزيرة المورة فى قبضة الجيش المصرى عدا مدينة "نوبلى" عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها [(٢)] .

الموقف فى نهاية عام ١٨٢٥ :

لقد أصبحت شبه جزيرة المورة بأسرها فى يد إبراهيم باشا عدا "نوبلى" ولكن كان الثوار يزعجون معسكراته بمناوشاتهم وهجماتهم الجزئية فأرسل إبراهيم باشا إلى محمد على باشا فى طلب إمدادات له فجهزله عاهل مصر الآلايين السابع والثامن بقيادة حسن بك وحسين بك للإبحار إلى "نفارين" وبرفقتهما بلوكين من المهندسين وقوة كبيرة من الفرسان ومدفعية حصار وجبلية فبلغت القوة فى تعدادها جميعا ١٠,٠٠٠ وصلته فى ١٠ يناير عام ١٨٢٦ [(٣)] .

(١) نفس المصدر ص ٦٨١

(٢) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١١

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٥٤

التحليل الفنى لهذه المعارك

لا شـك وأن هـذه المعارك الخاطفة التى قامت بها القـوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا تثير دهشتنا . ففى أقل من شهرين من بدء زحفها إلى داخل المـورة احتلت كل أراضيها وبلادها عدا "نو بلى" ومثل هذه النتائج لا تتأتى إلا من خطط رائعة قد أحكم تدبيرها ونسق تنفيذها فأتت بأكلها سريعة شهية . والحق إنه بتقرير إبراهيم باشا جعـل جميع عملياته على الخطوط الداخلية كنابليـون ضمن وقاية قواته وخطوط مواصلاته وتمكن من التقـدم يمنة و يسرة بالتوالى حتى لا يعرض أجنابه للعـدو مطلقا فباحتلاله "كالاماتا" ثم "أركاديا" و"تريبوليتسا و"أرجوس" ثم "بتراس" تمكن من الحصول على نصر سريع بفضل تجميع قواته واستخدامه لأصول الحرب فى كل معاركه ولننظر كيف طبق إبراهيم باشا مبادئ الحرب فى هذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

قال نابليون : "إنى لأرى دائما شيئا واحدا وهو جيش العدو الرئيسى" والحق إن الهدف الأساسى لأى جيش مهاجم هو قوات العدو وليست الأهداف الجغرافية كعاصمة مملكته لأنه إذا هزمت تلك الجيوش إنهارت مقاومة العواصم[1] ولقد كان هدف إبراهيم باشا خلال هـذه المعارك قوات العـدو المختلفة فأنى وجدت هـذه القوات هاجمها ودحرها ولم يلق بالا لعاصمته "نو بلى" إذ أنه كان موقنا من الاستيلاء عليها بعد تهيئته للفرص المناسبة، هذا إلى أن انتصاره على قوات العدو أنى صادفها فى المورة أوصلته إلى احتلال المورة بأسرها عدا "نو بلى" كما رأينا .

(٢) مبدأ القتال التعرضى :

ولقد حرص إبراهيم باشا طوال حروبه فى المورة على الاحتفاظ بالمبادأة وهذه لا تتأتى إلا بالقتال التعرضى دواما ففى جميع عملياته هذه كان رائده الهجوم المستمر

(١) كتاب فن الحرب على الأرض لبورن ص ١٢

على قوات العـدو لإجلائها عن مواقعها التى لو تحصنت فيها ودافعت عنهـا دفاع المستميت لعرقلت تقدّم قوّاته وهـذا الهجوم قد ثبط روح العـدو المعنوية بجعله يفرّ من أمام قوّاته إذا سمع باقترابها وبذلك حقق له النصر السريع .

(٣) مبدأ خفة الحركة :

ولا شك فى أن هذا القتال التعرضى المستمر لم يكن ليصبح طوع بنان إبراهيم باشا لولا توفيره التام لمبدأ خفة الحركة لقوّاته فباتباعه لتلك التكتيكات الرائعة ، التى سبق أن أشرنا إليها ، أعطى وحداته قوة دافعة جعلتها تسير من نصر خاطف إلى آخر سريع إذ استخدم كل سلاح فيما هو أهل له فعرف كيف يستفيد بخصائص كل سلاح وأمكنه الاستعانة التامة بخفة حركة الخيالة التى لم تقتصر أعمالها على تطويق أجناب العـدو وقطع خطوط مواصلاته فقط بل لقـد دأبت دواما على مطاردة فلوله الهاربة لتوقع الخسائر الفادحة فى صفوفها .

(٤) مبدأ الوقاية :

وإنا لا نجد مبدأ حظى بعناية إبراهيم باشا كمبدأ الوقاية فهو فى كل أعماله هذه كان يطبقـه التطبيق الرائع المنتج فباستكشافاته السريعة الدائمة كان يوفـر الوقاية لقوّاته المتقدّمة وبتأمينه لخطوط المواصلات قبل التحرك كان يثبت صمام الأمن الذى يعطى لقوّاته الحرية فى العمل باطمئنان وبدفعه للداوريات المحاربة باستمرار كان يقى قوّاته من أى عمل مفاجئ يخفيه له العدو .

(٥) مبدأ حشد القوى :

ولقد حرص إبراهيم باشا فى جميع أعماله فى المورة على تطبيق مبدأ حشد القوى فقبل بدء تقدمه حشد قوّاته كما أسلفنا فى "نيسى" وفى كل معركة من المعارك التى خاضها كان يوفر القـوّات اللازمـة لإحراز النصر فيها وإننـا لنلمس ذلك فى أنه لم يضطر لإمـداد أى قوات قد دفعت لأى معـركة إذ كانت القـوات المحشودة دائمـا وأبدا كافية لدحر العدو ومطاردته .

(٦) مبدأ المفاجأة :

ولقد حققت خفة حركة قوات إبراهيم باشا واستخدامه لها الاستخدام المنتج مبدأ المفاجأة دواما فى هذه المعارك . فدائما وأبدا كانت قواته الخفيفة تقطع خطوط مواصلات العدو فتفاجئه بظهورها خلف قواته ولقد بلبل إبراهيم باشا أفكار الثوار باتخاذه تلك الخطة السريعة فى الهجوم التى كانت فى أهدافها تتجه يمنة ثم يسرة دون أن يقف العدو على نواياه فكانت هذه سلسلة من المفاجآت لقوات العدو جعلتها تستسلم لقوات إبراهم باشا أنى ظهرت أمامها .

(٧) مبدأ التعاون :

كما وأن قوات إبراهيم باشا قد حرصت على تطبيق مبدأ التعاون بين أسلحتها المختلفة حرصا كبيرا فالفرسان والمشاة باتباعهم لتكتيكات إبراهيم باشا ، التى لا تختلف عن تكتيكات الجيوش الحديثة الآن فى شيء كانوا يظهرون مدى أهمية التعاون بين الأسلحة المختلفة فى إحراز النصر السريع .

الدروس المستفادة من هذه المعارك

ومن هذه المعارك نستخلص الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات :

لقد أوضحت لنا هذه المعارك أهمية وجود قاعدة مؤمنة للعمل منها فإبراهيم باشا باتخاذه "بيليا" قاعدة له أمن خطوط مواصلاته وسهل تحركاته لعملياته وبذلك تم له اكتساح قوات الثوار فى شبه جزيرة المورة فى هذه الفترة القصيرة . والحق إن أهم ما يرمى إليه أى قائد يبغى القيام بعمليات سريعة هجومية هو أن يؤمن قاعدة لقواته حتى يمكنه العمل بحرية وفى طمأنينة تامة .

(٢) أهمية اتخاذ قوّات العدوّ دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم :

ولقد أبانت لنا هذه المعارك أهمية اتخاذ قوّات العدوّ هدفا للهجوم دون التفكير في الاستيلاء على المواقع فإبراهيم باشا فى احتلاله للمورة كان هـدفه الأساسى قوّات الثوّار كما أسلفنا فأنّى وجدها دحرها وأوصله ذلك للاستيلاء على البلاد الهامة بل إن الثوّار بمجرّد علمهم بأنه قد اقترب من "تريبوليتسا" هربوا منها وذلك لأنهم عرفوا مدى قوّته فى مهاجمة قوّاتهم المختلفة التى صادفته .

(٣) أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية :

وأبرزت لنا هذه المعارك أهمية خفة الحركة فى الهجوم والمطاردة فى الأراضى الجبلية والوعرة فإبراهيم باشا بتوفيره خفة الحركة لقوّاته بفضل تنظيماته لهـا وتأمينه لخطوط مواصلاته واستخدامه للتكتيكات الرائعة أمكنه القيام بذلك العمل الهجومى الدائم ومطاردة فلول الثـوّار أنى هربوا فنجح فى احتلال كل شـبه الجزيرة الجبلية تقريبا فى ذلك الوقت القليل .

(٤) أثر الروح المعنوية فى القتال :

وتوضح لنا هذه العمليات مدى أثر الروح المعنوية فى القتال فالثوّار فى كل هذه المعارك لم يصمدوا للقوّات المصرية المهاجمة لانهيار الروح المعنوية فيهم ... لقـد كانت طبيعة الأرض وتعذر طرق المواصلات فى الجبال خير معين لهم على عرقلة تقدّم القوّات المصرية ... بل إن المنـافذ المختلفة للهضاب والطرق كانت أفضـل أعناق للزجاجات التى تمكنهم من إيقاف تحرّك القوّات المصرية ولكنهم لم يصمدوا أمام أى هجوم سريع أقدم عليـه إبراهيم باشا وذلك لضعف الروح المعنـوية فيهم بل ها نحن نراهم أمام "تريبوليتسا" يهربون منها ويشعلون فيها النيران .

(٥) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات :

ويطالعنا إبراهيم باشا فى هذه العمليات بدرس رائع هو أهمية استكشاف القائد بنفسه لمسرح عملياته وتأمينه لخطوط مواصلاته فبمراعاته لهذا العمل الحربى الضرورى طوال حملته أمكنه أن يؤمن قواته من شرور مفاجأة العدو لها وأمكنه الحصول على الكثير من المعلومات التى أفادته فى هجماته المفاجئة على قوات العدو .

(٦) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات :

وأخيرا يضرب لنا إبراهيم باشا أروع المثل على ما يجب أن يعمل عليه كل قائد لتوفير مطالب وحداته وتنظيم شئونها الإدارية فى كل آن حتى ولو كان ذلك محليا ... لقد كان دائما وأبدا يعمل على سد مطالب وحداته بل ها نحن قد رأيناه يعمل على توفير المؤن لهم ويحمى العمال أثناء الحصاد بل ويقاتل من أجل الطواحين وذلك ليقينه بصدق قول « نابليون » : " إن الجيوش تسير على بطونها " فبتوفيره كل الشئون الإدارية لوحداته تمكن من حفظ روحهم المعنوية وجعلهم دائما وأبدا صالحين لكل الأعمال الحربية المطلوبة منهم .

الفصل السادس

تابع المرحلة الثانية

٣ — فتح ميسو لونجى وأثينا

حالة الأتراك أمام ميسو لونجى :

فى الوقت الذى كانت فيه قوات إبراهيم باشا تنتقل من نصر إلى فوز فى أنحاء المورة كان محمد رشيد باشا المعروف بكوتاهية نسبة إلى وطنه كوتاهية بالأناضول قد فت فى عضده اليأس من استيلائه على "ميسو لونجى" إذ سبق له أن رفع عنها

الحصار هو والأميرال عمر يونس فى ١٣ يناير سنة ١٨٢٤ بكيفية ألصقت به العار، إذ تحدته القوات اليونانية واضطرته إلى فك الحصار ولما أيقن السلطان بتردده فى الاستيلاء عليها أنفذ له أوامره فى كلمتين "إما ميسو لونجى و إما رأسك" فعاود مهاجمتها عام ١٨٢٥ ولكن باءت كل هجماته بالفشل وهنا لم يجد أمامه سوى الاستنجاد بإبراهيم باشا[1] .

مسارعة إبراهيم باشا لنجدته :

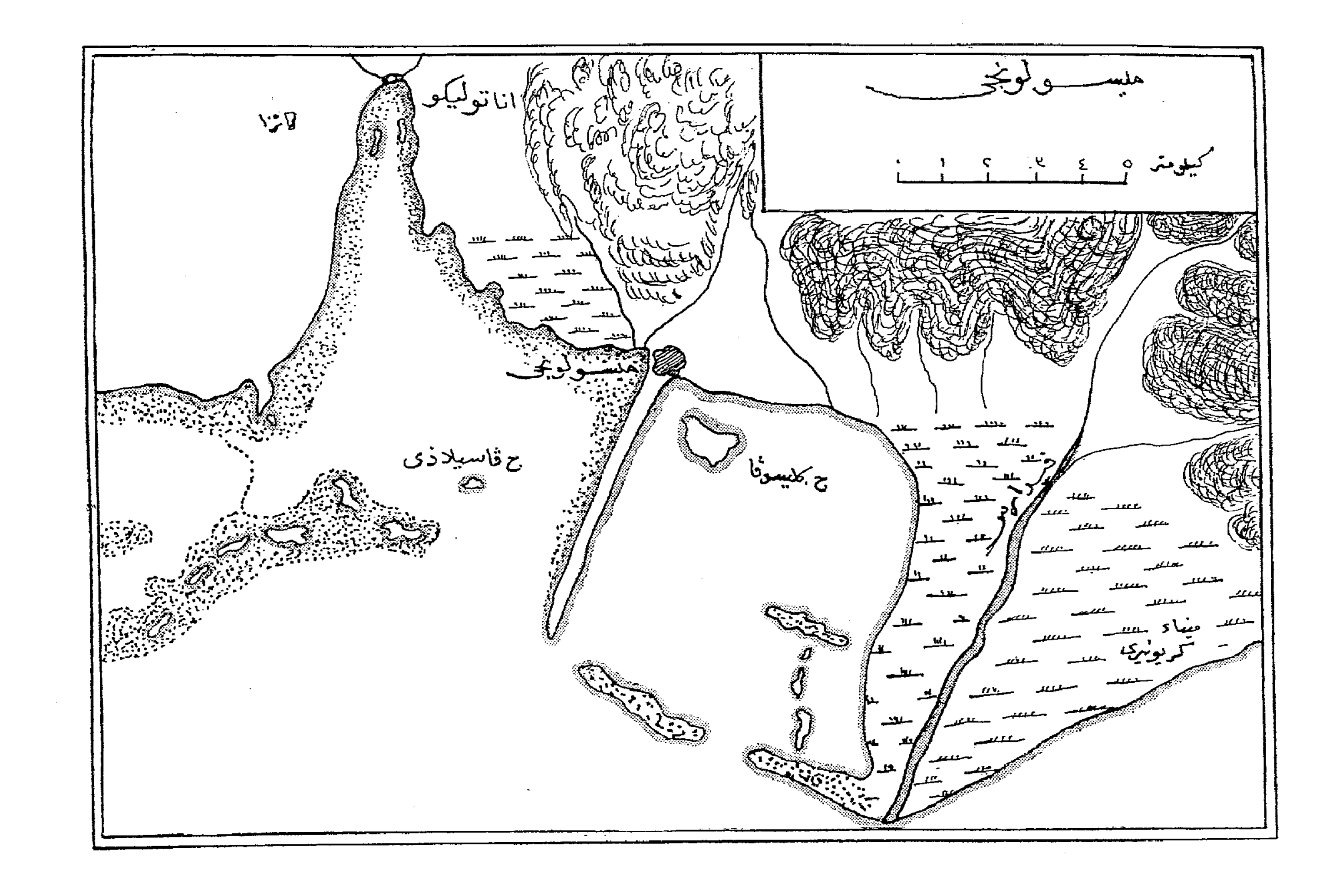
ولقد وصل استنجاد رشيد باشا هذا إلى إبراهيم باشا فى الوقت الذى وصلته الإمدادات من محمد على باشا فعدل مؤقتا عن مهاجمة "نو بلى" وسارع لنجدة رشيد باشا لأهمية "ميسو لونجى" إذ أن مصيرها باعتبار أنها عاصمة اليونان الغربية يؤثر ولا شك تأثيرا قاطعا فى مصير شبه الجزيرة كلها ، هذا إلى أن هذا الثغر على مقربة من الفتحة الشمالية لخليج "ليبانت" وكانت تصل منه إلى أهل "سولى" مهمات القتال الضرورية كما أنها كانت تيسر سبل الاتصال باللجان المشايعة لليونان فى أوربا[2] .

سار إبراهيم باشا ومعه ١٨ أورطة نظمها من آلاياته الست بلغت قوتها ١٠,٠٠٠ مقاتل و ٥٠٠ فارس إلى "باتراس" وعبر الخليج مبحرا إلى "ميسو لونجى" فى فبراير عام ١٨٢٦ بعد أن ترك فى المورة باقى قواته فى حامياتها المختلفة وأسلم القيادة فيها للكولونيل سيف (سليمان باشا) الذى اتخذ " تريبوليتسا " مقرا له واشترك إبراهيم باشا مع رشيد باشا فى حصار "ميسو لونجى" ولكن ذلك لم يفت فى عضد الثوار بل هاجموا المحاصرين لهم واصطنعوا الانسحاب أمامهم فسارعت القوات المصرية كدأبها لمطاردتهم ولكنهم أوقعوهم فى منطقة قد بثوا فيها الألغام الأرضية فكبدتهم خسائر فادحة . ووقعت بعد ذلك معركة أخرى مماثلة لها خسر فيها المصريون ثلثمائة مقاتل[3] .

---

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٦٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٨٦ . (٣) نفس المصدر ص ٦٩١ .


میسولونجی
کیلومتر
٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥
اناتولیکو
میسولونجی
ح قاسیلادی

خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسو لونجى :

عند ذلك بدأ إبراهيم باشا يستكشف الموقع بنفسه وبمعاونة السنيور "رومينى" الإيطالى ثم قرر أن خير وسيلة لإلزام "ميسو لونجى" على التسليم هى المجاعة فقرر سد المسالك الموصلة إليها من ناحيتى البر والبحر وهذه المواقع هى : إيتوليكا، فاسيلادس، كليسوفا (أنظر الخريطة رقم ٣) وقد كان القواد الأتراك قد أهملوا احتلال هذه المنافذ فتمكنت قوات إبراهيم باشا من احتلالها بعد مقاومة شديدة و بذلك شدد الحصار على الميناء .

سقوط ميسو لونجى :

ولقد أراد إبراهيم باشا كدأبه دواما فى هذه الحملة أن يتفادى أهوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم ولكن أهلها أبوا وأجمعوا أمرهم على المقاومة حتى النهاية مهما كلفهم ذلك من تضحية وأرسلوا إلى القائد اليونانى "كرايسكاكى" وكان على مقربة من المدينة بأنهم قد عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ٢٢ ابريل عام ١٨٢٦ [(١)] وطلبوا إليه أن يهاجم الجيش المصرى من الخلف فى تلك الليلة كى يشغله بهجومه فلا يفطن لخروجهم فلما أقبل "كرايسكاكى" فى ذلك الموعد كان إبراهيم باشا له بالمرصاد إذ وضع على قمم الجبال فرقة من جيشه لتحول دون تقدم المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هذه الحامية إذا خرجت من "ميسو لونجى" فلما خرجت هذه الحامية فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنيران حامية حصدت صفوفهم فارتدوا إلى المدينة فى غير نظام فطاردتهم القوات المصرية حتى دخلت فى أعقابهم ودحرتهم .

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء وقد اتفقت كلمتهم على إيثار

(١) كتاب مصر الحديثة لفولابل ج ٢ ص ٣٥١

الموت على التسليم فوضعوا البارود وأشعل رئيسهم النار فانفجر وخر المكان على من فيه وقتلوا جميعا . ولقد تكبد المصريون فى فتح المدينـة خسائر جسيمة إذ بلغ عدد قتلاهم فى الهجمة الأخيرة فقط نحو ألفى قتيل [١] .

حصار أثينا :

وبعد فتح "ميسولونجى" انفصل الجيش المصرى عن التركى فعاد إبراهيم باشا إلى المورة وقصد الجيش التركى مدينة أثينا لفتحها ولم يكن بها من القوة ما يكفى لصد هجماته فبادر القائد اليونانى "كرايسكاكى" والكولونيل "فافييه" الفرنسى إلى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا أحكم حصارها وما زال يشدد الحصار حتى سلمت فى يونيو عام ١٨٢٧ [٢]

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجى

إن أهم ما يسترعى الانتباه فى الاستيلاء على "ميسولونجى" هو صمودها لأكثر من عامين أمام القوات التركية ثم انهيارها أمام قوات إبراهيم باشا فى أقل من ثلاثة أشهر ... وليس مرد ذلك إلى ضعف القوات التركية بل هو يرجع فى الحقيقة إلى قوة وصلابة مراس المدافعين عن "ميسولونجى" فلقد رأينا العجب العجاب من إصرارهم على المقاومة بل والانتحار عند التسليم وليس أدل على ذلك مما جاء فى خطاب رشيد باشا إلى إبراهيم باشا عندما استنجد به [٣] فقد نعتهم بأنهم سحرة لايهزمون . وهنا يخطر لنا ذلك السؤال المحير كيف تمكن إبراهيم باشا من إخضاعهم فى تلك الفترة القصيرة؟ والإجابة عليه لا شك وأنها واضحة وسهلة وميسورة إنها تتلخص فى عبقرية القائد ونظرته الفاحصة وتقديره الذى لا يخيب .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) يراجع ذلك الخطاب فى كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ١٨٥

لقد خبر إبراهيم باشا بنفسه الموقف أمام "ميسولونجى"، وحاول الاستيلاء عليها بحصارها حسب خطة رشيد باشا، ولكنه سرعان ماأدرك بأن هذه الخطة لن توصله إلى النصر السريع المطلوب، فالحصار الذى كان مضروبا عليها لم يكن بالحصار الحق الذى يجعل هؤلاء المستميتين فى الدفاع أن يستسلموا إذ كانت المؤن والعتاد والذخائر تصلهم، وكانت الألغام مبثوثة حول معاقلهم، بل إنهم حذقوا دروب الخديعة أيضا، فكانوا يهاجمون الوحدات المحاصرة ويتظاهرون أمامها بالانسحاب والانهزام، فتندفع وراءهم القوات المصرية التى ديدنها المطاردة السريعة لتظفر بهم، ولكنها سرعان ما تجد نفسها وسط حقول الألغام التى تميد بالأرض من تحت أقدامهم، وهنا أيقن إبراهيم باشا بأن حل هذا الموقف الشائك فى يده هو، فقام بالاستطلاع الدقيق بنفسه، وسرعان ما لمعت الفكرة الصحيحة فى ذهنه المتوقد بالذكاء، لقد عرف أن مفتاح الموقف فى احتلال "ايتوليكا وفاسيلادس وكليسوفا"، وهى المسالك البرية والبحرية التى تذهب بالحصار المضروب من البر ومثلها فى ذلك مثل جزيرة "سفاختريا" فى معركة "نفارين"، فصمم على احتلال هذه المسالك، وبذلك أصبح للحصار المضروب قوة منتجة جعلت القوات المحاصرة فى الداخل تسعى إلى الخروج من معاقلها للقتال حيث دارت عليهم الدائرة. ولاشك فى أن نجاح خطة إبراهيم باشا هذا النجاح السريع يرجع الى تطبيقه الرائع لجل مبادئ الحرب فى هذه المعركة، ولننظر كيف طبق هذه المبادئ.

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

لقد صمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على "ميسولونجى"، عندما استنجد به رشيد باشا فعزف عن التقدم إلى "نوبلى" كى يجعل له هدفا واحدا فلا يجزئ قواته بين هدفين فى آن واحد ولا يعمل فى جهتين فى نفس الوقت وظل إبراهيم باشا محافظا على هدفه هذا لا تصرفه عنه صلابة المدافعين أو خدعهم الكثيرة أو قوات التخليص بقيادة "كرايسكاكى" حتى ظفر بهدفه فى النهاية .

(٢) مبدأ حشد القوى :

لقد حشد إبراهيم باشا "لميسو لونجى" جميع القوّات اللازمة والمتوفرة لديه فى ذلك الوقت وقد بلغت نيف وعشرة آلاف مقاتل وذلك كى يظفر بهدفه فى أقرب الأوقات دون أن تلحقه أدنى هزيمة ولقد مكنه هذا الحشد من الصراع الشديد والاستمرار فى محاصرة "ميسولونجى" رغم تكبده خسائر كثيرة فى ذلك الحصار كما أنه تمكن بفضل هذا الحشد من مواجهة قوّات "كرايسكاكى" التى قد أزمعت فك الحصار بمعاونة الثوّار المحصورين .

(٣) مبدأ القتال التعرّضى :

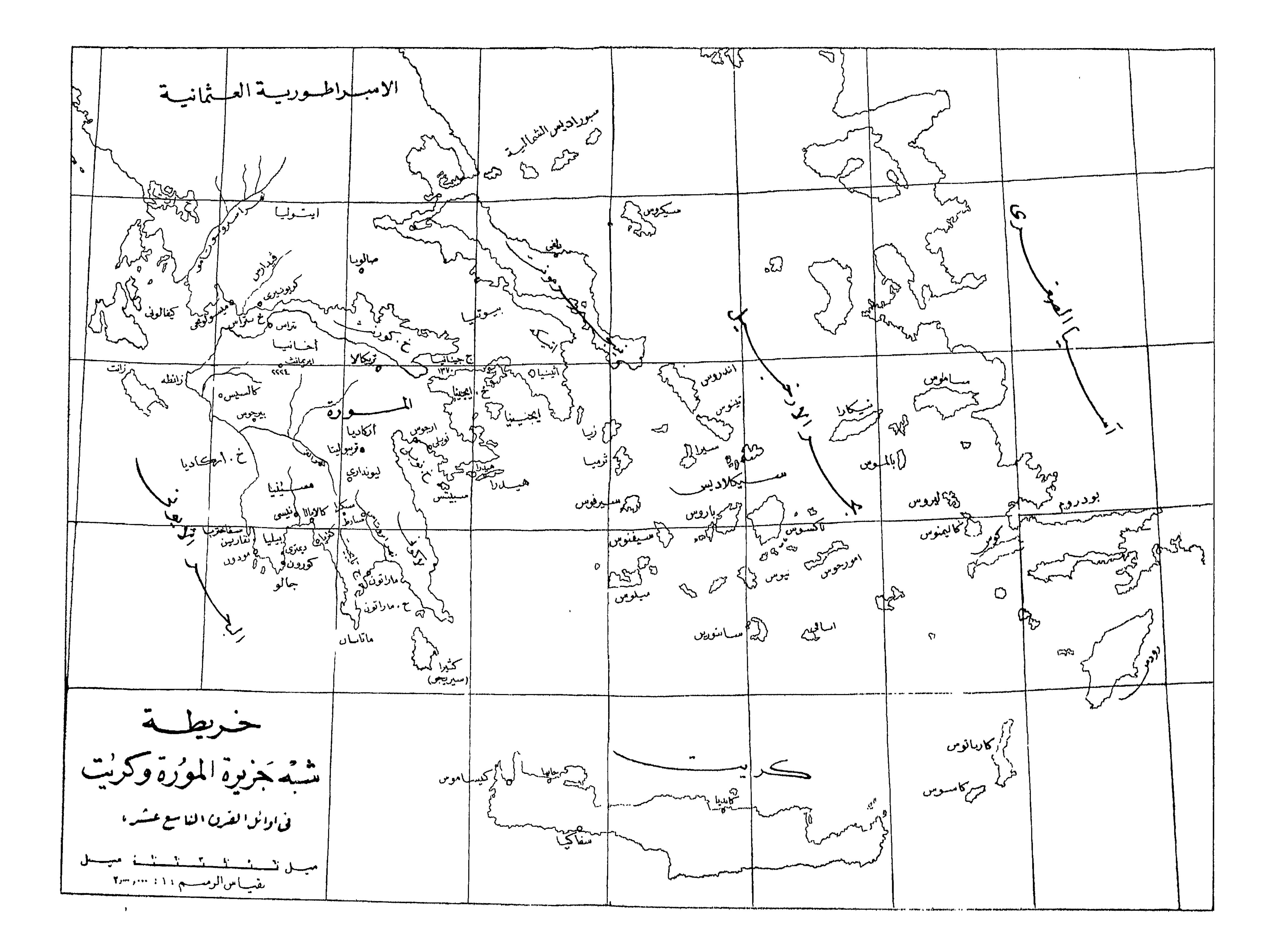
ولم يركن إبراهيم باشا خلال ذلك الحصار المضروب إلى التزام أى خطة سلبية بل كان يعمل دواما على تحقيق مبدأ القتال التعرّضى بمهاجمة قوّات الثوار ومطاردتهم رغم تكبده الكثير من الخسائر، هذا إلى أنه فى مهاجمته للقوّات المتحصنة فى "إيتوليكا وفاسيلادس وكليسوڤا" واستيلائه عليها أظهر أهمية القتال التعرّضى حتى فى معارك الحصار الثابتة البطيئة .

(٤) مبـــدأ المفاجأة :

ولقد فاجأ إبراهيم باشا القوّات المحاصرة باستيلائه على المسالك البرية والبحرية فجعلها توقن بقرب هلاكها وأعاد إحكام المفاجأة لها عندما هرعت فى الخروج ليلا للتعاون مع قوّات "كرايسكاكى" فأذهب بما كانوا يضمرونه من مفاجأة لقوّاته وطاردهم حتى ألحق بهم الهزيمة النهائية .

(٥) مبدأ التعاون :

وإن أهم مبدأ حققه إبراهيم باشا فى هذه المعركة هو التعاون فبتعاونه التام مع رشيد باشا أمكنه تشديد الحصار على العدو ، وبتعاون بحريته مع قوّاته الأرضية أمكنه ضرب الحصار برا وبحرا على الثوّار فى ميسولونجى مما اضطرّهم إلى الخروج للقتال ثم الاندحار والتسليم .



الامبراطورية العثمانية
سبوراديس الشمالية
اسكيروس
ايتوليا
فيدارس
كيفالونيا
أخانيا
تريكالا
بيوتيا
أثينيا
زانطه
كالسيس
بيرجوس
المورة
أركاديا
تريبوليتا
ليونداري
مسينيا
هيدرا
سبيتيس
كورون
مودون
ماراتون
ماتاسان
كثيرا
اندروس
تينوس
سيرا
سيكلاديس
زيا
ثرميا
سيرفوس
سيفنوس
ميلوس
باروس
ناكسوس
نيوس
امورجوس
سانتورين
ساموس
نيكاريا
باتموس
ليروس
كاليمنوس
كوس
بودروم
رودس
كريت
كيساموس
خانيا
كانديا
سفاكيا
كارباثوس
كاسوس
خريطة
شبه جزيرة المورة وكريت
في أوائل القرن التاسع عشر
ميل
مقياس الرسم ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠

الدروس المستفادة من معركة ميسولونجى

وأهم الدروس المستفادة التى تطالعنا بها معركة "ميسولونجى" هى :

(١) أهمية الخطة والدقة فى تنفيذها :

لقد وقف الأتراك أمام "ميسولونجى" ذلك الوقت الطويل لعقم الخطة التى وضعها رشيد باشا إذ لم تكن خطته محكمة حيث أغفل الاستيلاء على مفتاح الموقف وعندما رسم إبراهيم باشا خطته الحصيفة للحصار التام تمكن بدقة تنفيذها من جعل الثوار يستسلمون فى شهور قلائل وهـذا يعدّ أروع مثـل لأهمية القائد فى المعركة إذ هو العقل المدبر الذى يرسم الخطط التى توصل للنجاح .

(٢) أهمية إحباط نوايا العدوّ للمفاجأة :

وتطالعنا هذه المعركة بدرس آخر له قيمته العظمى وهو أهمية توافر المعلومات المستديمة عن العـدو والوقوف على نواياه حتى لا تفاجأ قوّاتنا به وهذا يتضح لنـا جليا من يقظة إبراهيم باشا وإحباطه لخطة الثوار عند استنجادهم "بكرايسكاكى" لقد رغبوا فى مفاجأة القوّات المصرية ولكن إبراهيم باشا فاجأهم بيقظة هذه القوّات واستعدادها فأحبط خطتهم وجعلهم يستسلمون .

الموقف العام بعد سقوط ميسولونجى وأثينا

لقد كانت حالة الثورة اليونانية بعد سقوط "ميسولونجى" و"أثينا" فى منتصف عام ١٨٢٧ تدعو إلى اليأس ، فلم يكن فى أيدى الثوار سوى "نوبلى" فى بلاد المورة ، وتركزت قوة الثورة فى جزيرة "هيدرا واسبتزيا" من جزر بحر الأرخبيل ، وقد عاث الثوار فى البحر فسادا وازدادت قرصنتهم .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة

وبسقوط "ميسولونجى" و "أثينا" انتهت المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة ، وهى كما رأينا كانت المرحلة الهامة فى تاريخ هذه الحملة حيث وقعت فيها تلك

المعارك الحاسمة التي كادت تقضى على الثورة قضاءا مبرما ، لولا ما قد بدأ يتلبد في سماء أحداث العواصم الأوربية من سحب منذرة بهبوب رياح عامل جديد ، ألا وهو تحرك الرأى العام الأوربي لمناصرة اليونان ، وهـذا هو بدء المرحلة الثالثة من أحداث هذه الحرب .

الفصـــل السـابع

المرحلة الثالثة (يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨)

معاهدة لوندرة (٦ يوليو ١٨٢٧) :

في غضون المرحلة الثانيـة من هـذه الحرب كانت الدول الأوربية لا تفتأ تتفاوض لإنقاذ الثورة في اليونان وذلك بفضـل أعمال الجمعيات اليونانية المنبثـة في بعض العواصم الأوروبيـة والتي كانت كما أسلفنا تحرك الرأى العام الأوروبي وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان[1] وكان لسقوط "ميسولونجى" والبسالة التي أظهرها أهلها في الدفاع تأثير كبير في ازدياد عطف الأوروبيين على الثوار فنشطت المفاوضات بين الدول حتى أسفرت عن إبرام معاهدة (لوندرة) التي اتفقت فيها كل من انجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية .

ولقد كانت هـذه المعاهدة إنقاذا للثورة اليونانية لأنها أبرمت في الوقت الذي أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الأخير وقد تخاذل زعماؤها وسرى اليأس إلى نفوس أنصارها فلما أبرمت هـذه المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجا عظيما عاودهم الأمل في تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الأوروبية .

وكان الحلفاء في هذه المعاهدة يعلمون أن تركيا ستصر على رفض طلباتهم الخاصة بوقف القتال تمهيدا للوساطة فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان

---

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٤

لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شاطئ اليونان وإرسال المدد إلى الجيش المصرى والتركى بها وأسندوا القيادة العامة لأساطيلهم الثلاثة إلى الأميرال الانجليزى "كودرنجتون"(١) .

مقدمات معركة نفارين البحرية :

ووصل إلى ابراهيم باشا المدد الذى كان يعدّه له محمد على باشا بناء على طلبه وكان مكونا من الآلاى العاشر بقيادة أحمد بك وأسلحته المعاونة وبلغت هذه القوة فى تعدادها ٤,٦٠٠ مقاتل محملة فى أربعين مركب نقل وبرفقتها أسطول مصرى بقيادة محرّم بك مكوّنا من ١٨ سفينة حربية مصرية و١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و٦ حراقات ، فرست هذه العمارة بميناء "نفارين" فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وانضمت إلى أسطول تركى آخر جاء من الآستانة بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة وتولى إبراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة "هيدرا" وحملة برية ينفذها الى شمالى المورة(٢) .

وساء الحلفاء وصول العمارة المصرية والتركية إلى "نفارين" وإيوائها إلى مكان حصين فتحركت سفنهم وقصدت إلى تلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا .

ولقد قبل إبراهيم باشا مبدئيا قرار الهدنة فأوقف حملاته رغم أنه لم يفته سوء نية الحلفاء فى إطلاق يد الثوار وغل أيدى القوات المصرية وعندما تحقق له انتهاز الثوار لهذه الهدنة وقيامهم بحركات عدائية فى خليج "كورنث" واعتزامهم مهاجمة "باتراس" التى يحتلها الجيش المصرى لفت نظر الأميرال "كودرنجتون" كى يوقف هذه الأعمال المنافية للهدنة ولما لم يلق جوابا مقنعا أبحر إلى "باتراس" فى عمارة من بعض السفن الحربية وهنا ثارت ثائرة الحلفاء وعدّوا هذا العمل مناقضا للهدنة فلحق الأميرال "كودرنجتون" وأسطوله بعمارة إبراهيم باشا تجاه رأس (ياباس) واضطرها إلى الرجوع إلى "نفارين" حيث التزم إبراهيم باشا خطة الدفاع بناء عن أوامر والده التى أرسلها إليه .

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٥ (٢) نفس المصدر ص ٢١٦

معركة نفارين البحرية (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)[1] :

واضطر إبراهيم باشا إزاء ازدياد حركة الثوار فى المورة إلى الزحف بجزء من جيشه داخل المورة لنجدة الحاميات المصرية وأوصى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصرى والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركى بألا يتحرشا بالأساطيل الدولية المتحالفة لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن قد قطعت ولا أعلنت الحرب بين الفريقين .

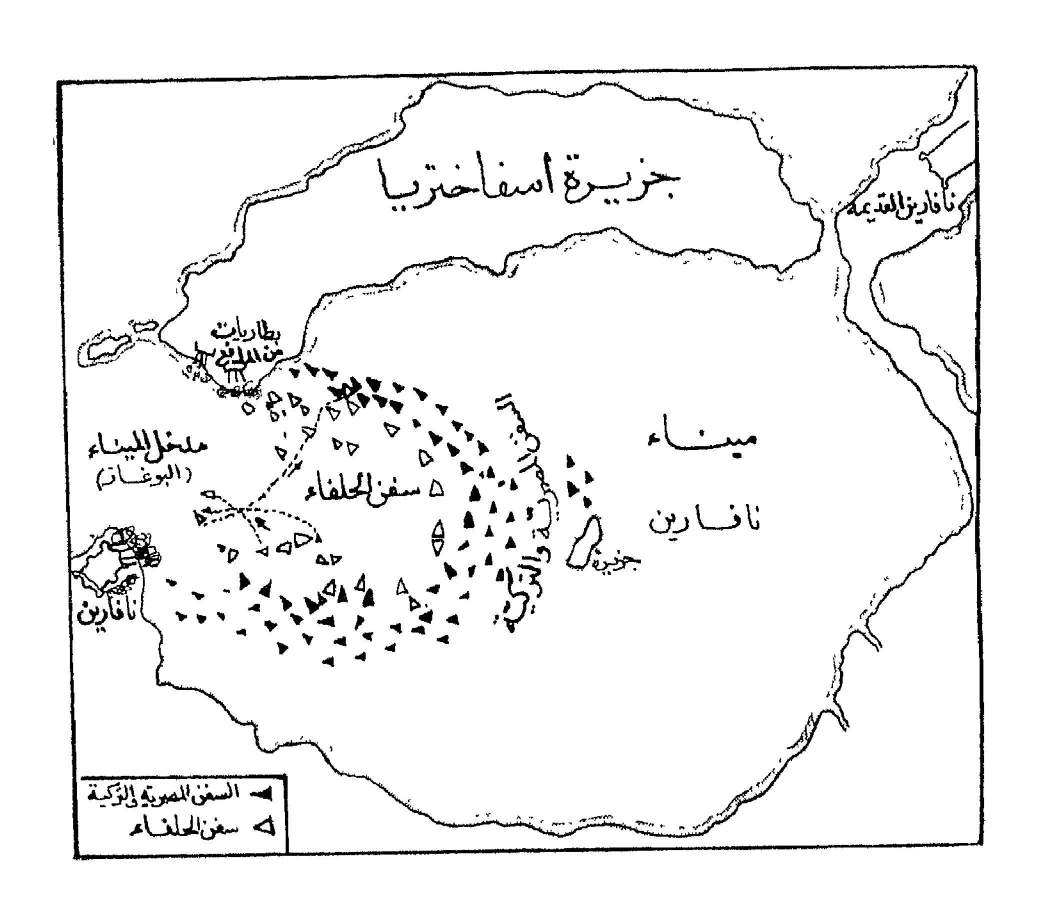
وبعد أن بارح " نفارين " أرسل إليه قواد اساطيل الحلفاء إنذارا يبلغونه فيه أنه قد نقض الهدنة علما بأنه لم يفعل ذلك فهو إنما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة " هيدرا " ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية فى المورة كما وأنه كان مفروضا أن يحترم الثوار الهدنة ولكنهم نقضوها ولم يجده رسولهم . فى " نفارين " عندما وصلها فعاد بالرسالة الى الأميرال "كودرنجتون" ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لإنفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء وهى القضاء على أسطول إبراهيم باشا[2] .

فتشاور قواد الحلفاء وقرروا فيما بينهم الدخول إلى ميناء نفارين وتدمير الأسطول المصرى والتركى كى يضطر إبراهيم باشا للعودة ثانية وفى صبيحة يوم ١٩ أكتوبر جمع الأميرال "كودرنجتون" قباطين الحلفاء على ظهر بارجته آسيا وأصدر إليهم تعلياته فيما يجب عليه عمله عند بدء القتال وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا مطمئنين إلى الموقف وموقنين أن ليس ثمة حرب أو قتال .

وفى الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ أكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر "كودرنجتون" أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز فأرسل الأميرال محرم بك رسولا إلى "كودرنجتون" ينبئه بأن يمنع

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٢٠

(٢) سأورد هذه المعركة فى إيجاز تام حيث أنه غير مطلوب شرح المعارك البحرية بالتطويل .


جزيرة اسفاختريا
نافارين القديمة
بطاريات من المدافع
مدخل الميناء
(البوغاز)
سفن الحلفاء
ميناء
نافارين
السفن المصرية والتركية
جزيرة
نافارين
السفن المصرية والتركية
سفن الحلفاء

أساطيل الحلفاء من الرسو فى "نفارين" ولكن الأميرال الإنجليزى أجاب فى لهجة جافة بأنه لم يجئ ليتلقى الأوامر بل جاء ليلقى أوامره وسرعان ما اصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريبا مواجهة للسفن المصرية والتركية (انظر خريطة رقم ٤) وقد اقتربت منها حتى أصبح واضحا أنها قد جاءت لتتحداها للقتال .

وابتدأت المعركة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة وانتهت بالقضاء على البحرية المصرية والتركية فقد هلك معظمها نسفا وغرقا وجنحت البقية الباقيــة على السواحل فأحرق بحارتها أغلبها حتى لا تقــع فى أيدى الأعداء وبلغ عدد القتلى المصريين والأتراك ٣٠٠٠ .

وتعد معركة " نفارين" من المعارك القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة وأخذ الحلفاء السفن المصرية والتركية غيلة من غير أن تنذرها أو تسـتعد للقتال وكل ذلك مناف لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدينة .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين :

لم يشهد إبراهيم باشا معركة نفارين لأنه كما أسلفنا كان قد تقــدم إلى داخل بلاد المورة لنجدة الحاميات المصرية بها فلما بلغه نبأ تدمير الأسطول المصرى عاد إلى "نفارين" وشاهد آثار المعركة فأمر بإعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض التى غرقت وأنفذها إلى الإسكندرية ثم رأى أن يلزم خطة للدفاع فأخلى معظم مدن المورة وامتنع بمعظم جنوده فى مينائى " كورون ومودون " حتى تصله أوامر والده .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين :

ولقد اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة "نفارين" هــذه فيما يختص بحــرب المورة فأما تركيا فقــد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بإزاء الحلفاء

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت "أدرنة" وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨,٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال "ميزون" لإجلاء المصريين والأتراك عنها ولقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول فى معاهدة لوندرة فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا وألا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية .

وأما مصر فقد رأى محمد على باشا بثاقب فكره أنها لن تجنى شيئا من مواصلة القتال بعد فقدها لأسطولها فى معركة "نفارين" وانقطاع المواصلات البحرية مع جيوشها فى المورة واعتقد أنه من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وأن يتفق مع الحلفاء .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة :

ولقد عقد الاتفاق فى أغسطس عام ١٨٢٨ على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن بلاد المورة بالشروط الآتية :

(١) يتعهد محمد على باشا بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر .

(٢) يتعهد الأميرال الانجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت أثناء القتال .

(٣) أن تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد على على سفنه .

(٤ ، ٥) تقوم بحراستها ذهابا وإيابا سفن حربية انجليزية وفرنسية .

(٦) ألا يكره اليونانيين المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها وكذلك يسمح لمن يشاء منهم أن يصحبوا الجيش المصرى فى عودته .

(٧) يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى المورة عددا من الجند لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على "مودون" و "كورون" و "نفارين" و "باتراس" و "كستل توريزة" أما المواقع الأخرى فتخلى فورا .[1]

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٧١٥

عودة ابراهيم باشا ورجاله :

وعندما أبلغ ابراهيم باشا وهو فى اليونان هذه الشروط سخط كثيرا لرؤيته جهود جيوشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التى تكبدها وخاصة إغراق الأسطول المصرى ولكنه اضطر للإذعان فأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والسير إلى الموانئ حيث أقلعت بهم السفن إلى مصر فى أكتوبر عام ١٨٢٨

انتهاء المرحلة الثالثة :

وبذلك انتهت المرحلة الثالثة من حرب المورة وكريت وقد امتازت هذه المرحلة بالتواء الأهداف السياسية فيها وبعدم قيام حملات برية كثيرة إذ طغت معركة "نفارين" البحرية على كل ماعداها من أحداث. والحق إن هذه المعركة وإن قادها الأسطول البريطانى والفرنسى فإنها كانت فوزا لا أساس له من السياسة القوية والنظر الصادق الحكيم لأنه أفضى بالدولة العثمانية إلى الوقوع بين براثن روسيا بعد أن جردت من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها فى البحر الأسود وبحر الأرخبيل وبحر سوريا ولشد ماأسف الانجليز لوقوع هذه النكبة التى وصفها بعض رجالهم بالطامة الكبرى وقد وصف أحد كبار رجال الحكومة الفرنسية هذا الانتقام الذى أنزلته الأساطيل الأوربية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه تهوس وطنى انقادت لعوامله اعتباطا ومن غير روية كل من الدولتين الفرنسية والانجليزية لخدمة المصالح الروسية فقط ولقد أعرب إبراهيم باشا إلى قادة هذه الأساطيل عن سخطه على هذا التصرف فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وأن حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وأن الأوربيين ما برحوا أصدقاء أمناء للعثمانيين والمصريين .(١)

---

(١) نفس المصدر ص ٧١٢

الخاتمـــــة

نتـائج الحـــرب اليونانيـــة

خسائر مصر فى هذه الحملة :

لقــد عاد الجيش المصرى من بلاد المورة فى أكتوبر عام ١٨٢٨ وقد أنهكته الحروب والأمراض وتكبدت مصر فى هــذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة وحسبنا أن نعــرف أن الجيش الذى جردته فى حرب اليــونان بلغ اثنين وأربعون ألفا خسرت منــه ثلاثين ألفا وبلغت نفقات الحمــلة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها الحربى فى واقعــة "نفارين" لندرك أن خسائرها فى هذه الحملة كانت فادحة وتضحياتها بالغة[1] .

ما كسبته مصر من هذه الحملة :

(أ) الكسب المــادى :

لم تنل مصر من الحرب اليونانية من الوجهة المــادية أى من وجهة التوسع والفتح شيئا سوى ضم جزيرة "كريت" إليها إذ قد عهد السلطان محمود إلى محمد على باشا ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته فى حرب المورة .

(ب) الكسب المعنوى :

أما من الوجهة المعنوية فقد كسبت منزلة كبيرة تتلخص فيما يلى :

(١) ارتفع شأن مصر فى نظر الدول الأوربية لأن جيشها قد برهن على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوربية فى أول حرب أوروبية خاض غمــارها .

---

(١) كتاب عصر محمد على الرافعى بك ص ٢٢٧

(٢) اكتسب الجيش المصرى فى تلك المواقع مرانا على الكفاح وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة .

(٣) كانت هذه الحرب خير إعلان عن قوة جيش مصر وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده .

(٤) ظهر أن الجيش المصرى أرفع شأنا وأشد بأسا من الجيش التركى فكان لهذه الخبرة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا .

(٥) اكتسبت مصر مركزا دوليا ممتازا لأن دول أوربا فاوضت محمد على باشا رأسا دون وساطة تركيا وأرسلت إليه الحكومة الإنجليزية تبدى شديد أسفها على ما لحق الأسطول المصرى فى واقعة " نفارين " وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها به علاقة ودية بل وفاوضته فى أن تبقى على الحياد إذا نشب القتال بين تركيا ومصر .

استقلال مصر :

ولا شك فى أن أكبر مغنم غنمته مصر من هـذه الحرب هو أنها صيرتها دولة مستقلة فعـلا عن تركيا وأهم مظهر لذلك هو عقـد دول الحلفاء الثـلاث اتفاق أغسطس ١٨٢٨ رأسا مع مصر وقد وقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية مصر وهذه أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمـد على [١] .

(١) نفس المصدر ص ٢٢٩

المراجع الهامة التي استخدمت في هذا البحث

١ — كتاب مؤسس مصر الحديثة ... ... دودويل

٢ — كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان

٣ — كتاب عصر محمد على ... ... عبد الرحمن الرافعى بك

٤ — كتاب مصر فى القرن التاسع عشر ... ... ادوار جوان

٥ — كتاب إبراهيم مصر ... ... كربيتس

٦ — كتاب إبراهيم باشا لكربيتس ... ... ترجمة محمد بدران

٧ — كتاب الامبراطورية العثمانية ... ... ميلر

٨ — كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوربى هيرنشو

٩ — كتاب نفارين ... ... دوين

١٠ — كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على ... ... مانجان

١١ — كتاب مصر الحديثة ... ... فولابل

١٢ — كتاب محمد على ... ... كريم ثابت بك

١٣ — كتاب الامبراطورية المصرية ... ... الدكتور محمد صبرى

١٤ — كتاب الهيلينية ومصر الحديثة ... ... اثنازى ج . بولتيس

١٥ — كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على... عبد الرحمن زكى

١٦ — كتاب تاريخ اليونان السياسى ... ... دريو

١٧ — كتاب حملة كريت والمورة ... ... دريو

١٨ — كتاب سوريا ومصر ج ٢ ... ... باركر

١٩ — البطل الفاتح ابراهيم باشا ... ... لداود بركات

٢٠ — أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء
القرن التاسع عشر ... ... عبد الرحمن زكى

٢١ — صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ... سمو الأمير عمر طوسون

٢٢ — كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى ... عمر الاسكندرى وسليم حسن

٢٣ — كتاب مصر من عهد المماليك الى نهاية
حكم اسماعيل ... ... جورج يانج

٢٤ — كتاب تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر
١٨٢٤ ... ... ياتس

٢٥ — كتاب حروب محمد على ... ... سيد فرج

٢٦ — مقالات الدكتور محمد بك رفعت ... ... بمجلة الكاتب المصرى

٢٧ — رسائل محمد على

٢٨ — كتاب الاستراتيجية الألمانية ... ... نيام

٢٩ — كتاب الاستراتيجية البريطانية ... ... ف . موريس

٣٠ — كتاب تاريخ العالم العسكرى ... ... ميتشل

٣١ — كتاب عمليات النصر ... ... جينجاند

٣٢ — كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى الحرب
العالمية الثانية ... ... بورن

٣٣ — كتاب ذكريات عن اليونان ... ... لوقرنى

٣٤ — كتاب فن الحرب على الأرض ... ... بورن

حمـــلة الشـــام الأولى والثـــانية

(١٨٣١ — ١٨٣٩)

للبكباشي عبد الرحمن زكي

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

مقـــدمة

لا يتسع المجـال لكتابة مقدمة فى فضل التـاريخ الحربى المصرى على التربيـة القومية ، فقد أهملت دراسته إهمالا شائنا ، ولم تنسج فصوله بعد باللغة العربية .

ولولا بضعة أسطر فى كتب التاريخ المصرى العـام عن فتوح محمد على فى بلاد المشرق الوسـيط ، لمـا نالت هـذه الصفحات النواصع من تاريخنا القـومى أية عناية — رغما عن أنهـا كانت موضوع بحث ودراسـة الكثيرين من المؤرخين الأوروبيين، آخرهم الجنرال فيجان الذى وضع كتابين عريضين فى فتوح محمـد على البرية والبحرية ، منذ اثنى عشر عاما .

وأخيرا واتت الفرصـة الذهبية — وهى الاحتفاء بمرور مائة عام على انقضاء البطل ابراهيم باشا — أب الجيش وصديق رجاله — فكانت أن اهتمت رئاسـة الجيش المصرى والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، بتوجيه ضـباط الجيش الى الكتابة فى موضوع حروب ابراهيم و بحثها بحثا فنيا عسكريا، على ضوء ما تعلموه فى معاهد الحرب .

ولقد حاولنا أن نتجنب الطريقة الجافة فى كتابة التاريخ الحربى بالاقتصار على وصف المعارك ، وسير الجنود ، وذكر أعداد القتلى والجرحى وما اليها ، أو المغالاة فى وصف الانتصارات بأسلوب أخاذ ، بعيدين عن روح النقد السليم ، لكننا تناولنا الموضوع فى آفاقه الواسعة ، معنيين بالأفق السياسى . أفليست الحرب متممة لأعمال السياسة والسياسيين كما قال كلاوسويتز وغيره ، وأوضحنا دوافع محمد على الحقيقية للحرب الشامية ، معتمدين على الوثائق التاريخية أو الخطابات المتبادلة أو التصريحات الرسمية ، وتناولنا المناحى الاقتصادية التى أحاطت بمصر والموارد المالية ، التى بفضلها حافظ محمد على على ملكه وكرامته ، وموارده البشرية من رجال هيأهم قادة الجيش للقتال ، فضلا عن قوة التنظيم والإدارة التى اتصف بها رجلان من طراز محمد على وابراهيم ، ثم عرجنا على وصف الجيشين المتقاتلين بعدما انتهينا من وصف الأحوال المحيطة بالدولتين ، ولم نهمل وصف طبيعة الأراضى التى قامت عليها المعارك ، فالأرض تسيطر على شكل العملية التى يتبعها القائد لاستحواذه على النصر .

وحاولنا — قدر استطاعتنا — أن نزوّد الموضوع بالخارطات الضرورية التى تبين ملامح المعارك ، كما أثبتنا فى نهايته ثبتا بالمراجع التى أفدنا منها .

ونسأل الله أن نكون موفقين فى بسط هذا الموضوع ، كيما نساهم بلبنة متواضعة فى تاريخ مصر الحربى ، وهى أمنية سوف تحقق بإذن الله بفضل جلالة المليك المعظم — الفاروق — القائد الأعلى حفظه الله .



ميادين معارك
الجيش المصرى
فى الشام والأناضول
١٨٣٢ - ١٨٣٩
سيواس
ملطيه
ديار بكر
كوتاهيه
مرعش
عنتاب
بيره جك
نزيب
مضيق أمانوس
قونيه
أدنه
طرسوس
باياس
اسكندرونه
حلب
بيلان
أنطاكيا
حماه
حمص
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
البحر الأبيض المتوسط
يافا
القدس
غزه
رفح
العريش
الاسكندرية
القاهرة
١٥٠ ١٠٠ ٥٠ صفر ٢٥ ٥٠ ميل

محتـــويات البحث

مقــدّمة عامـــة :

(١) سياسة محمد على العسكرية :

آلة الفتح — سياسته الاقتصادية — الهـدف — الشرق أم الغرب .

(٢) دوافع الحرب بين مصر وتركيا (١٨٣١ — ١٨٣٢) :

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى :

نيات الباب العـالى السيئة حيال مصر — استقلال مصر — مصر لا تفى بحاجيات الدول الناهضة — مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية .

(٣) حملة الشام الأولى (الجولة الأولى) :

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ — الخطة العامة — وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) — سير الحملة — الترتيبات الإدارية — معارك حصار عكاء — معركة الزراعة — أهمية موقع بعلبك — عود الى عكاء — أوضاع القوات فى الاقتحام .

(٤) معركة حمص (الجولة الثانية) :

ساحة الحركات — معركة حمص — أوضاع الجيش التركى والمصرى — حركات الجيش المصرى — نقد عمليات الجيشين .

(٥) معركة بيلان (الجولة الرابعة) :

مواقع الجيش التركى الدفاعية — خطة الجيش المصرى — المعركة — بعد معركة بيلان .

(٦) معركة قونية (الجولة الرابعة) :

الجيش العثمانى — الجيش المصرى — الى قونيـة — ١٧ نوفمبر — عودة الى الجيش التركى — المصادمات الأولى — معركة قونية — الجيش المصرى فى تشكيل القتال — سياسة التردّد — الى أين ؟ — القـوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣

(٧) هدنة مسلحة بين حربين (١٨٣٣ — ١٨٣٩) :

اتفاقية كوتاهية — الإدارة المصرية فى الولايات — ثورة فلسطين — ثورة الدروز فى حوران — الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

(٨) معركة نزيب (الجولة الخامسة) :

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ — الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية — الجيش المصرى فى معركة نزيب — الحوادث الممهدة لمعركة نزيب — معركة نزيب — أزمة دقيقة — تحليل معركة نزيب ونقدها .

(٩) خاتمة النصر (الجولة الأخيرة) :

خطة ابراهيم فى آسيا الصغرى — موقف الجيش المصرى فى آخر يوليو — أوربا ضد محمد على — اتفاقية لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ — الاعتداء على الشام وتهديد الاسكندرية — العودة الى الوطن .

ابراهيم القائد .

مراجع الموضوع .

سـياسة محمـد على العسكرية

لم تك القوة ، فى نهج محمـد على ، إلا وسـيلة لا غاية . لم تك إلا آلة العيش الكريم ، والحيـاة الحرة . فقـد كان بطبعه وطبيعته كارها لسـفك الدماء ، مؤثرا للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه .

وفى هذا المعنى يقول رفاعه الطهطاوى عن حروب محمد على إنها "لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدّى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود" .

كان قبالة محمـد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطلع بأفقه الوسيع إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمـالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولا بدّ أن يجرى فيها الدم الجديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فاترة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إخماد ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجد ، واليمن . ثم فتح السـودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضـدّ اليونانيين فى ثورتهم ، وانتصر ابنـه إبراهيم عليهم فى عدّة معارك ، وفقـد أسطوله فى سبيل مرضاة السـلطان . ولولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانيـة . وأخضع محمد على جزيرة كريت وما حولها من الجزائر الصغرى[1] .

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل نلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسى بوالكمت :

---

(١) محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير . من سلسلة أعلام الاسلام .

" لقد وضعت يدى على كل شىء ، ولكن لكى أجعل كل شىء مثمرا ، والمسألة مسألة إنتاج ، وإذا لم أقم به أنا ، فمن يقوم به غيرى ... أين الذى كان يقدم الأموال اللازمة ، ويشير بالخطط التى تنتهج ، والمزروعات التى تزرع . أين الذى كان يتهيأ له أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف ، التى ترتب عليها تفوق أوروبا . أتعتقد أن أحدا فى هذه المملكة خطر له أن يجلب القطن والحرير والتوت . لا أحد . كان لا مناص لى أن أقود هذه البلاد قيادة الأطفال . وأن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التى أخرجتها منها ... " .

أنشأ محمد على قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البلاد : من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولسنا ندعى بأنه وصل بقوات الدفاع ، فى عام ١٨٣٢ إلى درجة الكمال — كلا ، فقد كانت للجيش المحمدى العلوى مزاياه وعيوبه . تدرب أفراده فى خلال العشرين عاما ، على حروب المورة ، وكريت ، وبلاد العرب ، والسودان . فجاهدوا وناضلوا ، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قادته بين بين ، أى عاديين ، خبروا القيادات الصغرى . أما الجنود فلم يكونوا آلات كما كانوا فى حروبهم السابقة ، بل أصبحوا — بعد ممارستهم فن القتال فى ميادين العراك التى خاضوها — فخورين بما أحرزوه من نصر . ثقتهم بقائدهم أو قادتهم كبيرة لا حد لها ، ميالين إلى النظام ويخشون الخروج عليه ، خوفا من بطش أبيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلهم ورمز مجدهم ، فى يده مقاليد القيادة العليا ، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القادة الكبار ، تزينها الشجاعة والجرأة ، وكذلك البطش ، فضلا عن اتصال روحى بأولاده الجند الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبهم .

وكان سليمان بك ، رئيس أركان حرب إبراهيم ، نابغة فى أمور التكتيك والاستراتيك ، يتحلى ببديهة نشطة ، وروح وثابة ، ونشاط ديناميكى . متفاهم مائة فى المائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

أما خير وصف لإبراهيم خال من الغلو أو الإسراف هـو قول المـاريشال الفرنسى فيجان عنه :

"Vainqueur, L'histoire doit légitiment lui laisser les lauriers de la victoire".

آلـــة الفتح :

استعان محمد على بالقوة للوصول إلى مراميه . فمثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هـذه العقيدة التى ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة فى تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطماعهم . فمن يستطيع أن يمارى فى أن القوة أهم وسائل السلطان والســيادة .

إن الحـديث عن الجيش والأسطول ، فى عهد محمـد على ، يتطلب عشرات المجلدت ، وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح ابراهيم باشا فى الشام ، أن نغفـل هذه الناحية ، وهى بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن فى مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد على العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل ، وما قاوم به الترك والشراكسة مشروعاته لإنشاء جيش ، استطاع محمد على أن ينشئ جيشا حديثا وأسطولا قويا ، وأن يمدهما بكل ما يحتاجان اليه مما يصنع فى قلب البلاد ، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر اليـه محمد على فى البلدان المجاورة [١] .

وفى هذا المضمار استعان محمد على ببعثة عسكرية فرنسية ، استقدم ضباطها من فرنسا ، وآخرين من اسبانيا و إيطاليا . كما عنى بإرسال البعوث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

---

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير لليوزباشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩) .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى، وقسمه إلى أنواع : منها مدرسة للدفعية وللمهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للوسيقى، فضلا عن المشافى ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح فى مصر، فأنشأ فى ترسانة القلعة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى، كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم...

وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين ليمد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للحبال والطرابيش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود ... .

وشيد الحصون والقلاع، على ساحل مصر، لأغراض الدفاع، وأمدّها بالمدافع والثكنات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش، فى بابى الزراعة والصناعة، وما يتعين إبرازه — فى هذا السياق — إنه استطاع أن ينظم جيوشا كبيرة وأسطولا ضخما محاربا، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد، لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعا، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا، ويخوض حروبا عدّة، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تمجيد ذكرى هذا الرجل، فى كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة ... .

ولا نستمرئ الكلام عن تنظيم الجيش، ومدارسه، ومصانعه، وبعثاته إلى الخارج، وأسلحته وما إليها مما خلقه محمد على فى مصر خلقا . فقد كتب فى هذا الكثيرون، وسيتبدّى من حديثنا عن الحملات الكثير من التفاصيل الفنية التى تكمل استجلاء هذه المناحى ... .

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم ... فحسن طرائق الزراعة، وراقب عمل الفلاح وزوّده بالنصائح ، بل وأمدّه بآلات ، وحفر له الترع والمصارف — كما أدخل المحصولات الجديدة كالدخان والنيلة والقطن والحرير وزراعة الأشجار . فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضى الصحراء وأصلحها الزراعة ... وبذا استطاع هذا الموفق أن يبيع المحصولات المصرية فى الأسواق الأوروبية . فأحرز ربحا وافرا سهل له مواصلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عناء .

وكما أن محمد على صار المزارع الوحيد[1] أضحى التاجر الوحيد، ثم الصانع الوحيد، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد، أو بعبارة حديثة أسسها ليضبط موارد البلاد بيد مدبرة، ولينفق منها ما شاءت إرادته، كما يقتضيه الصالح الوطنى .

وكانت الضرائب موردا هاما لزيادة الدخل . وكانت منها ضريبة الأرض (الميرى) وضريبة " فردة الروس " التى فرضها على كل فرد مصرى بلغ سنّ الثانية عشرة ، وتتفاوت بحسب ثروة الرجل . فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قرش و١٥ قرشا فى السنة — هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن .

وتسنى لمحمد على، بتشجيعه الصناعات، أن يستغنى تدريجا عن الواردات والبضائع الأجنبية ، بحمايته تجارته وصناعته، ولولا ذلك لما تهيأ له أن ينهض بقوات مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد، على قدر الإمكان .

ومما يذكر أنه لم يتوفر المال لمحمد على، فى بداءة الأمر، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعيها ، فضلا عن مطالبة السلطان بالنجدات العسكرية

---

(١) ليس المقصود أن محمدا عليا كان يضع يده على جل محصول الفلاح ، بل كانت الحكومة تترك له كيانها من المحصول ليبيعه بحرية .

المستمرة . فلم تنعم مصر بحالة سلم طويلة المدى ، فى ظل حكم محمد على . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ — ١٠) فى التعرف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدته فى حرب الوهابيين (١٨١١ — ١٨١٨) . ثم شغل فى حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدته فى حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والجيش والعتاد . وفى عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد على وعبد الله الجزار ، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣٢ — ١٨٣٣) .

أما المدّة بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعدّ نفسه لحرب كبيرة حتى لا يؤخذ على غرة (١) .

وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يجنيه محمد على من موارد الدولة إبان السلم .

الهدف :

والآن ، وقد انتهى محمد على باشا من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التى هيأها نصب عينيه ، ننسل إلى توضيح هذه الأهداف ، التى أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان ينبغى أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة ، عقب معركة نفارين ، بدأ محمد على يراجع خطته السياسية العامة . فرأى أن الباب العالى لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبما وعده . فقد منحه حكم جزيرة كريت .

(١) A. E. Crouchley; The Economic Development of Modern Egypt; pp. 41 – 43.

عندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالى للنجدات العسكرية فى حربه ضد روسيا أو فى البلقان ، مكتفيا بإرسال إعانة مالية . فما كان من السلطان إلا أن اشتد حنقه على واليه فى مصر ، وراح يوقع بين محمد على وابنه ابراهيم .

ونرى محمدا عليا ، بعد معركة نفارين ، يعد نفسه لما عسى أن يحصل فى المستقبل . فلما استقر جنود حملة المورة بمصر ، شرع ابراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالى . ومثل هذه السياسة تجلى فى الخطبة التالية ، التى ألقاها خلال وليمة للضباط :

" ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان . ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعا من خيره . إن مصر حق لمحمد على ، حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكا غيره .(١)

الشرق أم الغرب :

ولم تكد الجنود المصرية ترتد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدم دورفتى مندوب فرنسا فى مصر إلى محمد على مشروعا يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال إفريقيا لها . وامتدت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمد على طائفة من الشروط الهامة فى صدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمدا عليا وازن القيم الاستراتيجية لهذا القطاع من شمال إفريقيا وتلك التى للشام والعراق . وتبدت له أيضا ثمرات النصر فى الحالتين .

وأخيرا اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أولا ، وأهمل نهائيا مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئا آخر . إن امتلاكها يحميه ضد عدوان السلطان ،

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) — من قنصل انجلترا العام ٨ يناير ١٨٣٢ .

ويستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الاسلامية ، وتلبي معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمــد على فى الاستحواذ على فلســطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر ... كلا — فإن محمــدا عليا صرّح فى عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة[١] بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العســكرية على الأساليب الحديثة . ونجــدته للسلطان فى حرب الجزيرة العربيــة . كما أنه خشى الأثر الروحى للســلطان فى ولايته . فلما واتته الظروف ، امتشق الحسام ، وكان ما سنتناوله فى هذا المقال .

دوافع الحرب بين مصر وتركيا
١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمــد على باشا والسلطان محمــود الثانى لا يرتدّ لأســباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمــد على لكبار الساسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال ابراهيم باشا ، فى خلال حملته الأولى فى الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) إن أبى لا يزال العبــد الخاضع للســلطان ، والحامى عن الدين الحنيف[٢] . ثم أكد محمد على للكولونيل هودجس (Hodges) فى ســنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الآســتانة قائلا ما ترجمته : "أما من حيث تأييد العرش التركى فمن أكثر منى حمية فى ذلك؟ . إن الشعب الملتف حولى يثور علىّ إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش[٣]" . أضف إلى ذلك أن محمــدا عليا كان على جانب وفــير من الفطنة السياســية ، فعرف أنه

---

(١) Missett, June 20, 1812 (F. Office. 24 - 4).

(٢) St. John, Egypt aud Mohamed Ali. Vol. II, Page. 522.

(٣) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II, p. 169.

لا يستطيع التغاضى عن مناهضة الدول الأوروبية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة فى الآستانة .

إذن لم يك فى عزمة محمد على أن يحل محل السلطان على عرش الآستانة . فماذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له فى وادى النيل فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأى ، فلقد ثبت أن محمدا عليا طفق يذكر الاستقلال فى أحاديثه حوالى سنة ١٢٨٥ . وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى مصر ما قاله له محمد على حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ . قال فيها ما ترجمته :

” أسهبت إليك فى كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا فى اليونان ، وأود أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بينى و بين محمد على باشا حدثنى فى خلاله عن أمانيه . قال محمد على : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما إلى الردى ، وأنه ليصعب علىّ أن أنشلها مما هى فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدىّ جل الوسائل التى تساعدنى على الفور . إنى أستطيع أن أفتح عكاء ودمشق و بغداد بكلمة واحدة منى و بوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى إنشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز“ (١) .

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

(١) تلق المحفوظات الملكية المصرية ضوءا تتبدى خلاله دوافع الحرب المصرية التركية (الأولى) وفى طليعتها — ولا مراء — نيات الباب العالى السيئة

---

(١) Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer, p. 50.

حيال مصر . وأول دليل على ذلك ما كتبه ابراهيم باشا فى خطاب الى والده يقول له فيه :

" إن سوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التى تستتر من ورائها الضربة القاصمة ، التى تعدّها حكومة الآستانة ضد ابراهيم ووالده[(١)] " .

وكان محمد على قد رفع شكواه الى الأميرال الكبير خليل باشا من المؤامرات التى تحاك حوله فى العاصمة التركية[(٢)] . وكان ابراهيم ، على الرغم من انتصاراته فى الوقائع الثلاث عكا وحمص وبيلان ، على بينة من أن هزيمته فى الأناضول ستكون سببا لخلاص مصر من أسرة محمد على[(٣)] . وكان القائد لا يأمل فى توطيد سلم حقيقى بينما يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه فى عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد على ، وقد حاول فى السنة التالية أن ينقله الى ولاية سالونيك . وفعلا وصل الى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفى عام (١٨١٣ — ١٨١٤) اجتذبت الآستانة ، الى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وسلحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد على ، الذى عرف سر المؤامرة[(٤)] . وفى عام ١٨٢٩ شاعت الآستانة أن توغر صدر محمد على ضدّ ابنه ، حينما نصبت ابراهيم باشا على مكة ، أظهر المناصب الشريفة فى الامبراطورية العثمانية . وفى السنة التالية ، اقترح الباب العالى على الباشا (محمد على) أن يولى إدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، الى قبودان باشا ، عدوّه القديم ... الخ .

---

(١) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من ابراهيم الى محمد على .

(٢) وثيقة رقم ٩ — ١٠ محفظة ٣ بتاريخ أوّل ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٣) وثيقة رقم ٤٣ محفظة ٢٤١ بتاريخ ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من ابراهيم الى محمد على .

(٤) Driault, Mohammed Ali et Napoleon (1807 - 1814) . pp. 233 - 239.

ولكى يذهب السلطان بعيدا فى الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا ، عدوّه اللدود القديم .

ومجمل القـول أنه منذ تقلد محمـد على حكم مصر ، لم تفتر عزيمة السلطان عن إنتاج كل سبيل ، لعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لانعجب مطلقا إذا نهض محمـد على بمحاربة السلطان ، تستحثه الى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للمحافظة على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للمحافظة على حياته أيضا .

٢ — استقلال مصر :

هـذه النوايا السيئة ، التى كان يضمرها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمـد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك رأيناه يعبىء موارد دولته ، ويؤمم تجارتها وصناعتها بل وأرضها ، و ينشئ القوّات الدفاعية ليحمى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وان نضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسميـة المتبادلة بين الباب العـالى وكبار رجاله ، الذين يشـغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمـد على وابراهـيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشـا الجزار والى عكاء ، فكان يكيل التهم جزافا ضد محمد على ، وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيرا ماطالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لا هوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان ابراهيم يعـبر بصراحة عن الاستقلال ، سـواء فى مجالسه الرسمية ، أو فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب الى حاكمها التركى

محمود باشا، الذى هزمه فى حمص معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية، وليقطع نهائيا صلتهم بالحكومة التركية[1].

وبعد أيام قلائل، صرح ابراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدنة، ليغلق الاتصال بالآستانة. وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ. وفى مكاتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظ يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة[2]. وفى تقرير سرى آخر من ابراهيم لأبيه أشار الى الجهود المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم أسرتهما[3].

وعقب انتهاء معركة قونية، وقبل احتلال كوتاهية، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة، كتب ابراهيم باشا الى أبيه الخطاب التالى، يقول له فيه :

"... وطالما يتربع على العرش — السلطان محمد — فسوف لا نصل بقضيتنا الى حل مقبول وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الاسلامية لا تعيش فى سلام — ولذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الاسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط. بل وفى صالح رفاهية وسعادة الأمة الاسلامية. وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين لكى يجلس على العرش العثمانى وريثه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة. وباتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الاسلامى. وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أنّ هذه الإجراءات سوف

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد أفندى. وثيقة رقم ١١٩ محفظة ٢٣٦ عابدين بتاريخ ٢٠ صفر عام ١٢٤٨ هـ.

(٢) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى عام ١٢٤٧ هـ.

(٣) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى الثانى عام ١٢٤٨ هـ.

لا توافق عليها الحكومات الأوروبية . فليس هناك خوف من تداخلهم . وإذا لم يرضوا بإجراءاتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحيطوا علما بما تم . نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع " .

" إننى فى طريق الى بروسه ومودانيا وسأسرع للوصول اليها . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدّة أطول وإلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قواتنا " .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقبيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين . كتب ابراهيم لأبيه من كوتاهية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا مندوب الباب العالى ، والجنرال مورافيف الروسى ، الى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال ابراهيم : " إن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طلب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية انطاكية وعلائية وجزر ايجه الى مصر — ثم ضم تونس وطرابلس الغرب اذا أمكن " .

وقال له أيضا : " إننا إذا تهادنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاق تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . وما اليها مما تأتى فى هذه الوثيقة[1] الهامة " .

ولا ندرى — الى أى مدى — كان الأب متفقا مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى . ولكن الشىء الذى لا ريب فيه أن محمدا عليا كان يهدف أيضا الى الاستقلال . فقد تحدّث عنه فى بدأة عام ١٨٢٥ ، ففى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى الى الجنرال بليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) . وقد سبق ذكره .

---

(١) الوثيقة رقم ٨٥ عابدين محفظة ٢٤٣ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٢٤٨ هـ

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد على لابنه رسالة سرية ، كانت تنم عن رضاه التام بخطة الابن فى استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذر للغاية فى طريقة تنفيذ الخطة ، أى فى نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحد وهو (استقلال مصر) .

مصر لا تفى بحاجيات الدولة الناهضة (المواد الخام) :

قبالة أمنية محمد على وابراهيم للاستقلال بوادى النيل ، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للاشراف على مقدرتها [1] .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفى سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الجميز والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير الى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التى تدعو اليها حاجتها ، فى الحرب والسلم ، فى بناء السفن التجارية لنقل الغلال ، عن طريق النيل الى اسكندرية ، وبحرا الى مرفئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقالات الحربية ، التى لم يكن هناك مندوحة من إنشائها فى حروبه .

نعم ، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والنيلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يكن من الصواب فى شىء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد على الى أن يحذو حذو تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وابن طولون للبحث عن الخشب ، فى سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد على الانتفاع بحراج الشام والأناضول ، فى الفترة بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا الى مصر مئات من جزوع الأشجار ، انتفع بها فى بناء البوارج ، وفى معامل الذخيرة والسلاح فى مصر .

---

(١) Asad Rustum : The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830 – 1841)

كذلك كان لبنـان غنيا بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة وزنك ، وقـد كانت لأبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمـد على للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرّب محمد على من ولاة سورية ورغبته فى ضمها الى مصر .

هذا كان موقف محمد على من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعتادها . كذلك كانت حاجته الى المـادة البشرية — وهى الرجال — أهم خامات القتال .

لا ريب ان مصر أمدّته فى كل حروبه بالرجال المكافحون . ولكن بعـد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى فى رجال الشام مادة تعينه . فتطلع اليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدى البأس كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك (١) وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدّائهم الذين لجأوا الى والى عكا . لذلك لا نعجب إذا ألفينا محمدا عليا يعتمد على أهل الشام فى جيوشه . وهو القائل " من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشا كبيرا ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات (٢) " .

والى جانب الرجال أراد المـال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الاجراءات التى نفـذها بنجاح فى مصر ودرّت عليه المـال اللازم للجيوش — فى الشام أيضا . والقطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقا واحدة للصادرات والواردات . وكانت أسواق مصر فى حاجة الى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والمـاشية ، فضلا عن الخشب والمعادن .

اذن كانت الشام وضمها الى وادى النيل أظهر العوامل فى نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

Supplementd Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha.

---

(١) Guys: Beyrout et Liban. Vol. I, 275-276. Vol. II, 209-210.

(٢) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79.

(٤) مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده مفتوحة فى وجه سلطان آل عثمان . فان صحراء سيناء وحدها لا تعدّ خطا منيعا للدفاع — والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأول فى جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبعيا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبا ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج فى العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحيثيين من قبلهم .

كان على الجيش العثمانى ، الذى يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيرا . وكان متعينا عليه أن ينقل جل مهماته وحاجياته فى طريق وعر . فاذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل به فى ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأول من خطوط الدفاع خط ثان فى لبنان ، حيث كان فى وسعه الاعتماد على تأييد الأمير الشهابى واتباعه . كذلك كان له خط ثالث فى جبل الكرمل . وخط رابع فى صحراء سيناء . فضلا عن انتفاعه بالثغور على الساحل الممتد من اسكندرونة الى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه فى أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضا . فقد كتب الى وكيله فى الآستانة نجيب أفندى يقول " إن الشام لازمة لسلامة مصر "[١] .

---

(١) وثيقة رقم ٨ — عابدين محفظة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ من محمد على باشا الى نجيب أفندى .

(٥) ابراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمدا عليا بدا وعاش وانتهى عثمانيا مسلما، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر الى آخره كانت إحياء القوة العثمانية في ثوب جديد . ورمى الى أن يجد مكانا لعالمه العثمانى الحى ، فى الدنيا الجديدة، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية (١) .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجيب المؤرخ عن السؤال (وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟) بالجواب الآتى :

ان قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالما صغيرا ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القومية . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءا جزءا فى حكم الدول الغربية .

لقد أحب محمد على مصر الحب كله . أو لم يقل فى منشور له من تلك المنشورات الممتعة التى يعبر بها عن كل ما يجول فى نفسه : " إن نيلنا لوطن عدم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا ما لا تقبله شيم جبلتى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك " .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعة رافع الطهطاوى : " إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة كتب أعلام الاسلام .

لبه . وإنه عمل تماما بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) " .

هذه مصر هدف محمد على . كانت وحدها كل شيء فى برنامجه ، فلم يك من عشاق الامبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وميو وهودار عام ١٨٢٩ معاونتها فى فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها الى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسى لأنه كان ينطوى على إذلال شعب إسلامى .

أما ابراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب فى القضية العربية . فقد كان يرغب باخلاص فى إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية ونشأ فى وسط عربى بحت . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواما طويلة فى بلاد العرب والشام . قد قرّبته الى فضائل العرب وعيوبهم أيضا . فعرف محاسن هذا الجيش ومساوئه وهى خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم فحك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصى كوّن ابراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التى يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربى وإنهاضه فتكون الدولة شامخة قوية، روحا وبنيانا .

ولقد يخيل إلى البعض أن تصريحات ابراهيم عن العروبة ، وإحياء التراث العربى ، لا تخرج عن عبارات الدعاية، التى يلجأ إليها الساسة والفاتحون لتخدير الأعصاب . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها . ولكن يبطل هذا الراى أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ؛ فقد صرح مختار بك ياوره فى حرب الشام وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية فى مهمة خاصة إلى محمد على وابراهيم عام ١٨٣٣ قائلا : " لقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نتجاوز سنّ الطفولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب . أننا الآن

ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنورا إلى هـذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى مضمار الحضارة . وزين تاريخه باقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران " .

واتجهت فكرة ابراهيم إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى دولة عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون الى شعب واحد . وإعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .

ولقد كانت أعمال ابراهيم ورجال حكومته فى بلاد العرب والشام خير برهان (١) صادق على إخلاصه فى عقيدته ، يؤيد ذلك ماقام به من المشروعات فى البلدان ، التى خضعت للحكومة المصرية (٢) .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غربال ، ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم ، فيما كتبوه عن عقيدة ابراهيم العربية . الذى يعتبر بحق المؤسس الأول لمنظمة الجامعة العربية ، التى أعيد التفكير فيها بعد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى فى البلاد العربية .

لذلك نعتبر ابراهيم باشا المنادى الأول بالوحدة العربية ، فهو — ولا مرية — يستحق مكان الشرف فى تاريخ الوحدة القومية فى الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

"He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived of an Arab Nationalist Movement and who was determined to make it effectual".

هذه أهم دوافع النضال التى استثارت الحرب بين محمد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا فى كتبهم على إيراد أسباب سلمية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التى بسطناها . يذكرون من بينها :

---

(١) George Douin: La Mission de Baron de Bois le comte l'Egypte et la Syrie en 1833 - p. 249 - 250.

(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — جـ ٣ ص ٧٥

إن سوء التفاهم الذى ساد بين عبد الله باشا الجزار والى عكاء ومحمد على باشا مرجعه هجرة الفلاحين من مصر الى ولاية الآخر، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه، وسوء نيته، وطموح محمد على للتسلط والتملك .

وما أشبه من أسباب أخرى .

حمـــلة الشـــام الأولى
(الجولة الأولى)

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش النظامى، حينما أعدت حملة الشام، حوالى ٧٠,٠٠٠ موزعة بين الأسلحة على الوجه التالى :

١٨ آلاى مشـاة .
٨ آلاى خيـالة .
١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية

أما الوحدات، التى خصصت للحملة بقيادة ابراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب سليمان باشا، فكانت تتألف من :

٥ آلاى مشاة، وهى الآلايات ٨ , ١٠, ١٢, ١٣ وآلاى الحرس
٤ آلاى خيـالة، وهى الآلايات ٣ , ٥ , ٦ , ٧ المدرعة والرماحة
١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميـدان و٢٠ مدفع حصار و١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .
٤٠٠ جندى من المهندسين .
١٤٠٠ خيـالة من البدو .

وكان فى كل آلاى خيالة أربعمائة جمل، لنقل المتاع والمياه، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجياتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥,٠٠٠ جندى ، منها ٣٠٠٠ خيالة .

الأســـطول

وتألف الأسطول المصرى من٢٣سفينة حربية، منها ٧ فرقاطات،و ٦ قرويته و٣ أباريق ، و٧ سفن مدفعية وغيرها من النقـالات الصغيرة . ومثـل هذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نور الدين باشا .

الخطة العـامة :

تتفق — الى مدى بعيـد — خطة فتح الشام بقيـادة ابراهيم ومثيلتها بقيادة نابليون . والفارق الأوحد أنه لم تك لهـذه السيادة البحرية التـامة فى شرق البحر المتوسط نظرا لوجـود الأسطول الانجليزى ومنعه من حرية العمل . بينـا اعتمد ابراهيم على تعـاون قواته البحرية والبرية، مثلما فعـل تحوتمس ورمسيس من قبل فقد كان الاتصال مستمرا عن طريق البحـر، بين مصر وقوات ابراهيم البحرية الشيء الذى افتقده نابليون ، وبعبارة أبين لم يك متيسرا .

قسمت وحدات الحمـلة الى قسمين كان رأس القسم الأول ابراهـيم، الذى اتخذ البحر طريقا يصل به الى يافا، وكانت قاعدته ثغر العريش . أما القسم الثانى فكان يقتاده ابراهيم يكن وقد تحرك برا من الخانقاه .

وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) :

قبيل الخوض فى الحمـلات العسكرية ، فى فلسطين والشام ، يتعين أن نأتى بوصف موجزلأراضى هـذا الإقليم ، التى تتألف منها ميادين المعارك التى يتناولها هذا الموضوع ، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات

---

(١) جاء فى كتاب تاريخ الحرب الشامية لكاد لفين وبارووصفا موجزا لأبار المياه ، التى مرت بها الحملة فى طريقها الى يافا وكفايتها .

العسكرية وعملياتها التى ينفذها القائد الكبير إلى الجندى الصغير. ولا تعدو الحقيقة إذا أورينا بأن الجيش فى الميدان أشبه بالماء فى الوعاء، يتشكل به حسبما يشاء!

يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق، تتباين فى السعة، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريبا. وأولى هذه المناطق — الشاطئ ويتكون من عدة سهول ساحلية تختلف فى اتساع رقعتها. وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط، مثل جبل الكرمل فى لبنان، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية. ومعظم المناطق الساحلية ضيقة، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل شارون. ويبلغ متوسط عرضه هنالك حوالى ١٥ ميلا. وكثيرا ما تتجه السهول الساحلية نحو الداخل، سائرة من مجارى المياه، ووديان الأنهار، كسهل اسدرائيلون شمال الكرمل، ووادى العاصى (الأورنت) لصق أنطاكية. غير أنه فى الوسط، حول طرابلس وبيروت، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطا وعرا للغاية.

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى، وهى ثلاث سلاسل جبال الأنصارية فى الشمال (كابسوس قديما) ولبنان فى الوسط، وافرايام ويهودا فى الجنوب. والسلسلتان الأولتان عبارة عن جبال شامخة تصل فى بعض جهاتها إلى ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم، وقليلا ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم. وتحتوى ثنايا رقم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان.

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة، التى تسلك فيها الأنهر الثلاثة: العاصى والليتانى والأردن. ويصب الأوليان فى البحر مباشرة — الأول فى فجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ: والثانى فى فجوة أضيق لصق صور من الشمال. أما الأردن، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق. ويتميز العاصى والليتانى بخصب وديانها الفسيحة، أما وادى

الأردن فضيق وغير مملوء بالمستنقعات ولا يتهيأ عبوره إلا فى مناطق قليلة ، ويمتد وادى الأردن إلى الجنوب : ويتصل بوادى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة .

وإلى شرقى منطقه الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشامخة (التى يسميها القدامى جوف سورية) وهى مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة فى كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الخصبة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضى الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حدّا فاصلا ، تصلح فى حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام ، مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز . أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهى القسم الشمالى من البلاد .

ولاية بيروت ، وهى السواحل البحرية وما يليها فى داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالى حيفا جنوبا .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهى تشمل داخلية البلاد وشرقيها .

متصرفية القدس ، وهى تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهى الخامسة ، وكان لها نظام خاص واستقلال إدارى ولها والٍ تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين ، وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سورية و بيروت .

وكانت مقاليد الحكومه بيد والى الأيالة الشامية ، وكان فى معظم الأحوال مستبدا ، وكثيرا ما صادر الناس فى أموالهم . أما الشئون العسكرية فكان مرجعها مشير الجيش العثمانى ، ومقره فى دمشق .

كان الخراب شاملا البلاد ، والضرائب فادحة ، والظلم فاشيا . وظل الحال سنين طويلا على هذا النسق ، حتى صارت البلاد على شفا الدمار . إلى أن منّ الله بالفرج ، بدخول القوات المصرية ، فأمن الناس على أرواحهم وأموالهم[(١)] إلى قبيل مبارحتها فى عام ١٨٤١ . ولم يزل أهل الشام يتحدثون بإبراهيم باشا وحكومته إلى هذا الحين — وكان محمد باشا شريف واليا على الشام من قبل محمد على . بجرى على خطة مولاه من الإصلاح والعدل ، مما اعترف به المؤرخون من أهل البلاد وغيرهم وكذلك ما شاهده الرحالة أو رجال الحكومات الأجنبية .

مسير الحملة :

حدد ميعاد مسير الحملة فى أوائل عام ١٨٣١ ، بيد أنه تأجل من جراء انتشار الكوليرا فى مصر ، وقضت على حوالى خمسة آلاف من الجيش فحسب !

وفى يوم ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت الطليعة من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء إبراهيم يكن[(٢)] ، فمر ببلبيس والصالحية فقاطيه فبئر العبد والعريش ، حيث استراح يوما ، ثم وصل خان يونس فغزة[(٣)] ، ومنها اتجه إلى يافا حيث تقابلت القوات مع وحدات القائد إبراهيم باشا الذى بلغها بحرا . فلما رسا الأسطول قبالة ثغرها نزل وجهاؤها وعرضوا عليه التسليم . وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فنزل بلوك لاستلامها واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها[(٤)] . وهنا اجتمع قسما الجيش لتنفيذ الخطة الرئيسية .

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام — طبع مصر سنة ١٨٩٦ .

(٢) الملقب بالصغير — وهو ابن شقيقة محمد على باشا — ولد فى مصر عام ١٨٠٤ ، وهو شقيق أحمد باشا يكن الذى ولى على الحجاز ثم عين ناظرا للجهادية — ويلاحظ أن معظم قواد الحملة كانوا شبانا ومنهم إبراهيم باشا الذى لم يتجاوز الثالثة والأربعين بعد — كذلك أحمد المنكلى وسليم الحجازى وعباس حلمى .

(٣) كانت لغزة قلعة منيعة تقع على مرتفع خربها الفرنسيون تخريبا تاما ولم يلق المصريون أية مقاومة من رجالها .

(٤) ليافا موقع أهم من غزة لقربها من البحر ، وثغرها يسمح لرسو السفن وكان للمدينة سور وأبراج منيعة .

ثم اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدّمت وحدات خفيفة أخرى يقتادها حسن المناسترلى واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس •

الترتيبات الإدارية :

إن حملة عسكرية كبيرة مثل هذه كان لا بدّ لها من ترتيبات إدارية منظمة • فضلا عما كان يحمله الجنود معهم من التعيين الميدانى . فقد كان يرسل البقسماط على سفن من مصر إلى ثغور الشام . وأنشئت النزلات فى المدن والموانئ ، خزنت بها كميات وفيرة من التعيين الجاف ، والذخيرة ، والبارود ، والخرطوش والأكياس ، والقذائف الحجرية ، وغيرها من الفشنك وعتاد الخيل ومهمات المدافع . وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود من مختلف الذخيرة فى مستودعات الجيش ، كلما امتدّت خطوط مواصلاته . وقد حفظ لنا التاريخ اسم مدير أكبر مستودعات التموين وهو نظيف بك ، كما أقيمت مستشفيات الميدان •

وقد عثرنا على وثيقة هامة ، عبارة عن تقرير من المهندس قاسم أغا بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ (١٨٣٢ م) تحتوى على آراء هامة فى هذا الصدد ننقلها لأهميتها[١] •

بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه و بينها الصحراء • وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليس هناك خلال تموين الجيش لسبب ما، استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فاقترح ما يأتى :

أولا — مد خط من مصر و إنشاء شون للغلال على خط مستقيم طول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية — فى الصالحية وقاطية والعريش وغزة و يافا وحيفا وصور وصيدا و بيروت وطرابلس وما إليها . و يودّع فى كل هذه الشون مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤنة الجيش من مصر إلى محطة فمحطة حتى المعسكر •

---

(١) وثيقة رقم ٦٩/٢ محفظة رقم ٢٣٢ عابدين بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ تقرير مقدم من المهندس قاسم أغا •

ثانيـا — ينشأ فى دمياط مستشفى كبير ليرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعاف للعالجة فيه — وتنشأ فيها أيضا أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد . فيعين منهم الحراس فى الشون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآلايات — وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث يبـقى الآلايات التى يكون منها كاملة العـدد ويحفظ أيضا الطريق المشترك الذى بين مصر وبر الشام ويقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى هنا .

معارك حصار عكة :

كانت عكة محصنة بأسـوار متينة وتحميها عدّة أبراج من الشرق والشمال . أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة من الأسوار القائمة من جهة البر . والمياه المجاورة لهـا قليلة العمق لا تسمح للسفن الكبيرة بالرسـو على مقربة منها . وكانت جميع الحصون فى حالة جيدة . وقـد وصفت حصون عكاء فى كثير من الكتب المعاصرة . وممن تناولها بالإفاضة الأستاذ أسد رستم (١) . وقد رأينا أن نبينها فى خارطة مرفقة بهذا رغبة فى الإيجاز المبتغى . وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مدفعية قوية وكميات وفيرة من المؤن والذخيرة والمياه والطعام . تكفى الحامية لحصار طويل الأمد . وبالإختصار كانت استحكامات عكا غاية فى المنعة بعد الإصلاح الذى شملها عقب إنسحاب الفرنسيين منها .

وفى يوم ٢٦ نوفمبر (١٨٣١) استهل إبراهيم محاصرة عكا فاستبسلت حاميتها فى الدفاع عنها — وقد امتاز العكاويون بروح قتال وبمعنوية عالية إلى نهاية القتال —

---

(١) Notes on AKKA and its Defences uuder Ibrahim Pasha. 1926. Assad Rustum

وانتصرت حامية بعض الأبراج على المصريين ، مما حدا بابراهيم أن يطلق نيران مدفعيته عليها أياما متواليات لكن بدون جدوى . وفى هذه الأثناء أرسل محمد على إلى عكا مهندسا قديرا تولى إدارة أعمال الحصار بكل دقة . وقد تمكن المصريون ، بالرغم من شدّة مقاومة الحامية ، من فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور ، وأمطروا المدينة وابلا من القنابل والرصاص ، برا وبحرا ، فخربت المدينة ومات الكثيرون من رجالها . ومع ذلك استمرت تدافع بكل شجاعة . وصبت المدافع المصرية النيران على أسرارها ونجحت فى فتح ثلاث ثغرات ولكن بدون أثر . وفى خلال تبادل النيران أصيبت بعض السفن المصرية بتلف كبير ، الشيء الذى دفع إبراهيم على القيام بهجوم عام . ولكن قبيل شروعه فى تنفيذ خطته دعا عبدالله باشا إلى التسليم فأبى .

استعصمت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر بدون معارك تستحق الذكر ، فارتاى إبراهيم الصمود قبالتها بينما تقدّمت بعض وحداته — كما قلنا — واستولت على صور وصيدا و بيروت وطرابلس فى الشمال . ولما وضح فوز إبراهيم باشا العسكرى ، وتقدّمه الخاطف ، واستيلائه على ثغور الشام الأخرى ، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخلية البلاد .

محمد على خارج على الخليفة :

رأى السلطان امام اعتداء محمد على أن يعلن عصيانه وخروجه عليه [١] . وذلك لكى يؤلب عليه العالم الإسلامى . ولما لم يذعن هذا إلى تهديده بادر فى إعداد جيش يهاجم به قوات إبراهيم خلال انشغاله فى حصار عكا . ولكى يحرم خصمه من الانتفاع بالمبادأة ويربك خططه التى وضعها .

---

(١) الفرمان الموجه من السلطان لحسين باشا الصادر فى الأستانة فى آخر ذى القعدة عام ١٢٤٧ هـ .

الجيش العثمانى النظامى

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل، الذى أعده السلطان محمود الثانى ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوات الإنكشارية فى مذبحة فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٢٠ ألف جندى فى أخريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان . ولم يك ليتم له هذا الموضع العسكرى الجديد فى بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية . مما جعل قبوله للنظم الأوروبية المتحدثه أمرا غير مستساغ .

وكان على رأس الجيش العثمانى السرعسكر حسين باشا ، الذى تم على أيديه إبادة الإنكشارية . ومثل هذا القائد بدأ حياته حمالا بخاسوسا ثم قائد قلعة ثم مهيجا بخلادا ثم باشا الباشوات . قيل عنه أنه كان سيفا ماضيا فيما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا ، وهى المعطف القصير المزركش بأسلاك الذهب ، وأهدى اليه سيفا مرصعا بالماس وجوادين عربيين مطهمين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم . وولاه على مصر وكريت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل فى معركتى حمص و بيلان بعد أن كان واثقا بالنصر فلم تمض ساعتان على نشوب القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفوا له على أثر . الى أن كشف أمره . وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، فى إحدى مزارع ولاية بروصة .

وكان حسن باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحول عن تفكيره القديم ، ولم تتطور وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التى أدخلت على الجيش الذى قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوات الحرس ، وهما دعامتا الجيش المقاتل . وكان

محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا الى التجديد الحديث ؛ لذلك انقسم الجيش الى فريقين : فريق المحافظين وفريق المجدّدين ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضنية كانت هى الأخرى سبب الكارثة التى تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠,٠٠٠ جندى منها ٤٥ ألف من وحدات النظام الجديد ، من الجنود الذين عنى بملابسهم ومآكلهم ورواتبهم تجمعهم فضائل القناعة ، والشجاعة ، والصبر . وكانوا فى الواقع عدّة المعارك ، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهو النظام فضلا عن إسرافهم فى الحصول على الغنائم — وكان ضباطهم على شيء من التدريب . أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره الى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاه الى رتبة المشير (سر عسكر) ، بأن ينظم جيشا فى الأناضول ، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمدّه بالرجال والعتاد ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة . وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على ، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمدا عليا كان قد اكتسب احترام العالم الاسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام ادريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل ، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى .

وبالرغم من تفوق قوّات عثمان باشا على قوّات ادريس بك فى الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقـام ادريس بك على أورطة الى السهل المكشوف ، خارج المدينـة ، وهاجم قوّات عثمان باشا ، التى تفوق قوّاته عددا وعتادا ... فأبيدت الكتيبة وفرّ ادريس تاركا خلفه بقية وحداته .

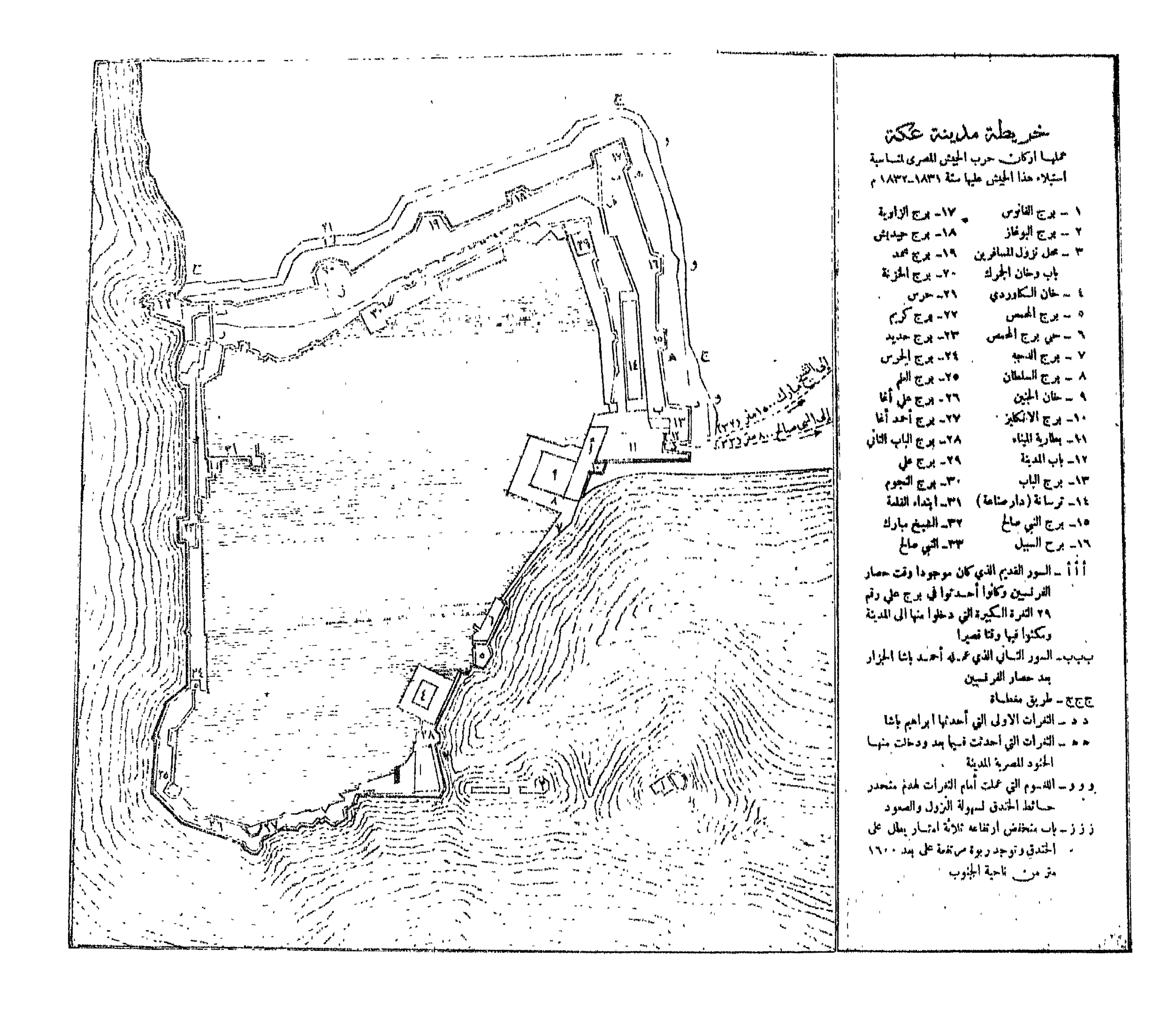
وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس . وفى ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعـه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليـل ، وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة — وفروا أمامهم الى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس الى أسماع ابراهيم باشـا فى عكاء ، وبلغه أن طليعة جيش تركى تتجمع فى منطقـة حماه، فرأى أن يزايل عكا تاركا إياها للقوّات المحاصرة ، وكان ذلك فى التاسـع والعشرين من شهر مارس، وتقـدم الى صيداء وبيروت رأس قول مؤلف من ١٠,٠٠٠ جندى منها آلاى الحرس والالآى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفى ٤ ابريل وصل الى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحوّل السريع ، واقتراب ابراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيتـه وعتاده ، وولى الأدبار الى منطقة حماه ، حيث عسكرت طـلائع الجيش التركى .

---

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماة وأنطاكية ويصب عند السويدية ويعرف باسم نهر العاصى .


خريطة مدينة عكة
عملها اركان حرب الجيش المصري لمناسبة
استيلاء هذا الجيش عليها سنة ١٨٣١-١٨٣٢ م
١ - برج الفانوس ١٧- برج الزاوية
٢ - برج البوغاز ١٨- برج حيدايش
٣ - محل نزول المسافرين ١٩- برج محمد
باب وخان الجرك ٢٠- برج الخزنة
٤ - خان الكاوردي ٢١- حرس
٥ - برج الحمص ٢٢- برج كريم
٦ - حي برج الحمص ٢٣- برج حديد
٧ - برج الدجه ٢٤- برج الجرس
٨ - برج السلطان ٢٥- برج العلم
٩ - خان الجنين ٢٦- برج علي أغا
١٠- برج الانكليز ٢٧- برج أحمد أغا
١١- بطارية الميناء ٢٨- برج الباب الثاني
١٢- باب المدينة ٢٩- برج علي
١٣- برج الباب ٣٠- برج النجوم
١٤- ترسانة (دارصناعة) ٣١- ابتداء القلعة
١٥- برج النبي صالح ٣٢- الشيخ مبارك
١٦- برج السبيل ٣٣- النبي صالح
أ أ أ - السور القديم الذي كان موجودا وقت حصار الفرنسيين وكانوا أحدثوا في برج علي رقم ٢٩ الثغرة الكبيرة التي دخلوا منها الى المدينة ومكثوا فيها وقتا قصيرا
ب ب ب- السور الثاني الذي عمله أحمد باشا الجزار بعد حصار الفرنسيين
ج ج ج - طريق مغطاة
د د - الثغرات الاولى التي أحدثها ابراهيم باشا
هـ هـ - الثغرات التي احدثت فيها بعد ودخلت منها الجنود المصرية المدينة
و و و - اللغوم التي عملت أمام الثغرات لهدم منحدر حائط الخندق لسهولة النزول والصعود
ز ز ز - باب منخفض ارتفاعه ثلاثة امتار يطل على الخندق وتوجد ربوة مرتفعة على بعد ١٦٠٠ متر من ناحية الجنوب

وفى اليوم التـالى دخل ابراهيم طرابلس ظافرا وأمر باعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعـدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصبح مشرفا على وادى نهـر الأورنت[1] على مبعـدة مرحلتين جنوبى حماة .

معركة الزراعة

قدر ابراهيم موقفه فرأى أنه لايبعد كثيرا عن عكاء . ولذلك ارتأى أن يترك حمص حيث لايتوفر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادى الأورنت (العـاصى) حتى وصل الى خان قصير، حيث عسكرت قوّاته الى الشرق فى سهل الزراعة[1] .

توهم عثمان باشا أن تراجع ابراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قوّاته حشـدا من أهالى المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة ابراهيم ، وكان هذا قد دبر له الخطة الناجحة وقسم قوّاته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته فى أماكن مستورة عن بصر العدوّ . وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فانخـدع القائد العثمانى وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هـذه صامتة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتدّ المصريون بسرعة عجيبه خلف المدافع وبمجرّد انتهاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فحصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم وسـادهم الهرج ، وفى وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدّوا خائبـين . فطاردتهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم الى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا .

انتهت معركة الزراعة (١٤ ابريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركى، وارتد عثمان باشا الى حماه ، وبقى فيها يرتقب وصول الامداد .

---

(١) قرية جنوبى حمص .

وعاد ابراهيم الى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ، الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

تقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر الليتانى الذى يربط قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن والأورنت — وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن ، والليتانى ، والأورنت وتعمل معا أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب . فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى إبراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون وصول إمدادات الى الأتراك تلك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الجزار لفك الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه . لذلك رأى الاحتفاظ بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من الاستيلاء عليها . ولضمان هذا لم يتردد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثا ، والآى الحرس ، والآلاى السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللأهمية نورد فى هذا السياق بيانا للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوات غير نظامية .

والآن وقد نظم ابراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسى) الأوضاع الجديدة لتوزيع قواته فى شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للموقف العسكرى العام ، عاد الى عكا العتيدة ، التى لم تلن صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائيا من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة فى جنب قواته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه فى خطوات حثيثة .

عود الى عكا

لم يكن الاستيلاء على عكا بالأمر اليسير، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون وعزيمته، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجعان ابراهيم ولم تسقط فى أيديهم . ولم تكن منعتها هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كانت للخطة التى انتهجها الباب العالى مانعا . فقد كان السلطان يصب على ابراهيم اللعنات، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الاسلام . فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفا يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه فى مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وابراهيم وإباحة دمائهما . وهذا — ولا مرية — له أثره على الروح المعنوية للمدافعين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على محمد على فى ٢٣ أبريل .

عاد ابراهيم بعد أن اطمأن للموقف العسكرى فى الشمال الى عكا فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه — وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان طالعته فيه يخوض غماره . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيرها . فلما أذنت

الشمس بالمغيب ، حمل ابراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع عبد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئا ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

أوضاع القوات فى الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون[1] استيلاء ابراهيم باشا على عكاء وصفا مسهبا نلخصه فيما يلى :

فى صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا ابراهيم باشا الى خيمته كبار ضباط القوات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

اللواء أحمد المنكلى يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاه للهجوم على برج (قبو برجى — قلعة الباب) .

الكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبى صالح .

الكتيبة الثالثة المشاه بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاويه . وعينت قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوات السابقة المهاجمة عند الحاجة .

وصدر الأمر الى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرالاى للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم .

وصدر الأمر الى كتيبة أخرى بنقل السلالم ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل الى الخندق الواقع بجانب قبو — برجى ، وبأن تكون هناك على استعداد للهجوم . وزوّد القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

---

(١) St John - Egypt under Mohammed Ali. Vol. II, pp. 492 – 496.

ومن تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائيا للجفوة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتباط فى وادى النيل، حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات(1) .

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرّجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع، وأتموا جل هذه الأعمال فى غمار الظلام، بينما كانت نيران المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفى فجر ٢٧ مايو، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام بالهجوم ، واستمر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفى المساء سقطت عكا فى قبضة المصريين .

ومن ثم جاء أعيان عكاء يلتمسون الرحمة — ولما كان دائما من شيمة الشجاع تعظيم الشجعان — فرأى إبراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم — فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم .

أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

وكان طبيعيا أن يعمل الجند النهب فى عكا، مثلما يفعل زملاؤهم فى الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، رغم ما أصدره إبراهيم من الأوامر . انطلق الجنود فى المدينة ينهبون محتوياتها، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى . وبذل القائد الكبير كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان من عمله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيردّ إليه إذا وجد، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

---

(1) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداءة الى سقوطها ، كثيرة فى مجموعة المحفوظات التاريخية بعابدين ، نذكر من أهمها .

النشرة الثالثة للجيش المصرى فى الشام ، فى المحرم سنة ١٢٤٨ (٦ يونيو ١٨٣٢) .

تقرير القائد العام سمو إبراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

تقرير إبراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٤٢) .

أما خسائر المصريين فى معارك حصار عكا فهى :

	الجرحى		القتلى
١	قائمقام	١	قائمقام
١	بكباشى		
٢	قائد أورطة	٢	قائد أورطة
٣	صاغ	٢	صاغ
٨	يوزباشى	٣	يوزباشى
٤٧	ضابط	١٥	ضابط
١٣٦٨	جندى	٤٨٩	جندى
١٤٣٠	المجموع	٥١٢	المجموع

الجولة الثانية

معركة حمص

فى ساحة الحركات :

فى أوائل مايو عام ١٨٣٢ ، كان معظم الجيش العثمانى قد تجمع فى قونية، على السفح الذى يقع شمالى طوروس ، واحتلت أدنة بعض الوحدات فيما يلى الجبال المذكورة من الجنوب .

وفى ١٤ مايو كان حسين باشا يقيم مع جيشه فى قونية ، لا يبدى حراكا وكأنه لا يتأهب لمعارك أو حروب، تاركا الحبل على الغارب للجنود : لا تدريب أو مناورة ولا استعداد ولا نصائح للضباط أو توجيه . فعاثوا فسادا، ونسوا جيادهم فلا عناية بأمرها ولا علائف تقدم لها . وعبثا ما حاوله الضباط الأوروبيون فى هيئة أركان حرب القائد ، بل قل ضاعت جهودهم هباء منثورا .

وعلى نقيض ذلك ، كانت الحال فى صفوف الجيش المصرى . نشاط موفور ملحوظ بين الجنـد وضباطهم ، معنوية عالية نتيجة لانتصاراتهم فى ستة أشهر ، تدريب متوافر وتطعيم لروح الحـرب بين أفراد وحدات الامدادات ؛ تصلهم بين الفينة والفينة أنباء زملائهم فى الميادين الجنوبية .

كان محمد على يلاحق ابنـه بالآلايات المدربة أولا بأول . فوصلته الآلايات المشاة ٥ و١٨ و٢٠ والألآى الثامن الخيالة و٣٠٠٠ بدوى لسد خسائر الوحدات ، وملء المراكز الشاغرة ، لتمسى مرتبات الحرب كاملة وسفن العتاد تواصل الليل والنهار فى موانئ الشام التى باتت كلها خاضـعة للقوات المصرية . وأسرع إبراهيم فى إصلاح ثغرى عكا وحيفا بمعاونة الكولونيل المهندس (Romei) الفرنسى لتكونا قاعدتين ساندتين للحملة المصرية وساعده فى ذلك ٤٠٠ من جنود المهندسين و٢٠٠٠ من العمال . وكان الآلاى العاشر المشاة وقليل من الخيالة تتولى حراسة خطوط مواصلات القاعدة .

وهنا كان على إبراهيم أن يعمل فورا ، دون مضيعة للوقت ، واقتناصا للفرصة السانحة . فما كان بوسعه أن يبـدد الوقت فى السرور والحفلات . وعلى عاتقـه أهداف أخرى ينبغى أن يصلها ببعضهـا و إلا تلاشت الظروف المهيأة ، و باغتـه جيش السردار حسين باشا ، الذى انتهى من حشده فى الأناضول .

لقد أراح جنده، وتمتعوا بنوم هادئ بعض الليالى، تحت قبة السماء الصافية، وانتهى من ترتيب الشئون العسكرية فى عكا ، وتقدم برأسه المفكر ينظم الخطوط الرئيسية ، فى الجولة الثانية إلى دمشق .

زايل عكا فى يوم ٩ يونيو (١٨٣٢) فى جيش مؤلف من ١٨ ألف جندى ، نصفهم من الوحدات النظامية ، قاصدا دمشق ، تلبية أو إذعانا لأمر محمد على . لأن الاستيلاء عليها وعلى حلب وعكا وطرابلس معناه الاستيلاء على الشام كلها . ولمـا كان الوالد يعتقد كما أدرك نابليون من قبل أن النصر يحب التقدم الذى تؤازره

الكتائب الجبة "La victoire aime à marcher des gros bataillons." لذلك نشاهده يمد ابنه القائد بالوحدات والعتاد التي يتطلبها الموقف العسكري أولا بأول .

وفي ١٤ يونيو ، وصل ابراهيم الظافر ضواحي دمشق ، برفقة الأمير الشهابي ، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (١٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هاربين . ودخل دمشق في ١٦ يونيو ، فقابله الأهالي بفرح واغتباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية في الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد ، وعين عليها ابراهيم يكن باشا حاكما ، وأقام لها حامية من الآلاي الثاني المشاة وأورطة من الآلاي الخامس والآلاي الخيالة الثامن .

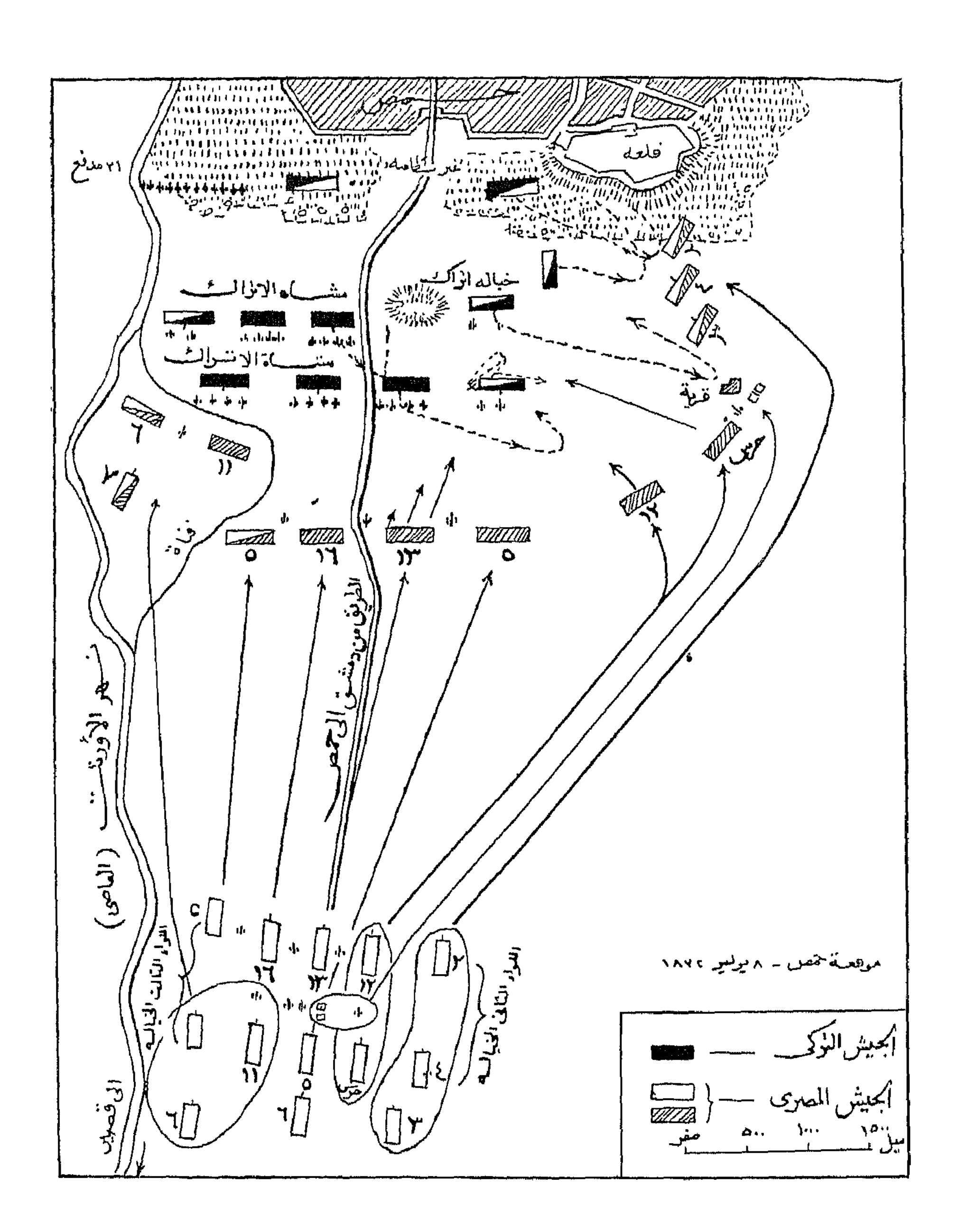
معركة حمص

اضطر إبراهيم أن يمضي أسبوعين في دمشق إزاء الأنباء التي جاءته بانتشار الكليرا في حمص حرصا على سلامة جيشه ، ولم يبدد هذه الأيام هباء ، إذ راح يعد العدة لأسباب التقدم ، ويدرب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوروبيين — قد تخلى عن مراكزه حول أدنه ، وتقدم الى انطاكية ثم أنفذ محمد باشا ، والى حلب ، على قيادة مقدمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه في حمص . والمسافة بين أنطاكية وحماه لا يستهان بها . ولا ندري كيف أمر السردار أكرم قائد مقدمته بأن يبعد عن الجيش ... هل يا ترى نسى تعليمات المقدمة في قانون الحرب ؟

فلما علم إبراهيم بالخطأ الذي اقترفه حسين باشا ، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركي وسحقها ، ثم مهاجمة باقي الجيش بعد ذلك . فزايل دمشق زاحفا على حمص[1] التي كان القائد التركي محمد باشا قد وصل اليها ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التي كانت تحت قيادة عباس حلمي باشا وحسن المناسترلي .

---

(١) تقع مدينة حمص على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي (أورنت) وموقعها غاية الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهي على طريق بعلبك ودمشق جنوبا — وطريق أنطاكية وحلب شمالا .



قلعة
حمص
٢١ مدفع
خيالة الترك
قرية
حرس
الطريق من دمشق الى حمص
نهر الأورنت (العاصي)
الى قصير
موقعة حمص - ٨ يوليو ١٨٧٢
الجيش التركى
الجيش المصرى
صفر ٥٠٠ ١٠٠٠ ١٥٠٠ ميل

فصارت القوة ، التى تجمعت تحت قيادة إبراهيم لدى وصوله إلى مشارف حمص فى الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجان جـ ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثمانى إلى جنوبى حمص ذات القلعة المهدمة وتحت أسوارها .

أوضاع الجيش التركى والمصرى :

كان محمد باشا يثق بالانتصار على خصمه " إبراهيم وفلاحيه " بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده فى معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفى صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التى يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السير الطويل فحطوا بأسلوبهم شمال المدينة ، على شاطئ الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه فى مأمن من جنود إبراهيم — فأجل الى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التى أعدها له ولضباطه — الباشا والى حلب — تكريما لشخصه .

وبينما كان يتنعم بما لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثمانى ، وألوان الشراب السورى ، كان جنده غادروا مخيمهم يتضورون جوعا فى أسواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفى مساء يوم ٧ يوليو (أيضا) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركى إليها .

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وستة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠،٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة فى أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثمانى .

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تحرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه لتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حلب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية و بآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستهواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليها إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا الرأى وحبه للمجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدّى إبراهيم ، فى سبيل شهوه المجد .

وقادته فطنته بأن يلتزم خطة الدفاع ، ويشبك نفسه بحمص ، متخذا منها تكأة لحمايته ، ومن القناوات والمبانى المهدّمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدّم جيش إبراهيم ويؤخره أياما ، فيعطى الفرصة للمشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونشرجل قواته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأوّل أربعة آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق تتكئ ميمنته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأوّل الصف الثانى ، وضع فيه آلايين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بها قلب وميمنة الصف الأوّل . والى شرق الطريق المذكور ، عند أكمة وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأوّل .

وفى الصف الثالث ، الذى امتـد بين الأورنت وضيعة مخربة ، تبعد حوالى ١,٨٠٠ متر عن جنوب شرقى حمص ، وضع قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته ، أما توزيع مدفعيته فتم على الوجه الآتى :

وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآنفة الذكر بمعـدل مدفع فى كل أورطة مشـاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعـا فى مواقع مختارة خلف ميمنة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبينما كان الجيش التركى يتخـذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها الهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلتـه على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسـيره فى فجر يوم ٨ يوليـه متجها صوب حمص . وكان ترتيب سير القوّات كالآتى :

فى المقدمة " الآلايات المشاة " ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس .

والآلايان الخامس والحـادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ، خلف منتصف القوّة .

أما المدفعية فكانت ثلاث بطاريات منها فى الصف (الخط) الأوّل ، وأربع بطاريات وأبوسين بين الصف الأول والثانى[١] .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبى التشكيل كله — فى ميمنته كما فى ميسرته ، وتحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجناب للقوات الاحتياطية .

---

(١) الصف هنا يطلق على الخط بأسره

وقد كان يسمح هـذا التوزيع أو التشكيل لقائد الجيش — ابراهيم باشا بأن يقوم بالمناورة بحرية واسـعة، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التى سيتقدم عليها، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو، إذا غير خطته فى اللحظة الأخيرة الى هجوم مضاد . وكانت الأرض الى شرق الضيعة المخربة تسمح لابراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسـعة حول ميسرة الأتراك، وهى أضعف نقط فى خط دفاعهم، والتى لم ترتكز على موانع قوية تكسر من حدّة الهجوم المصرى إن لم نقض عليه .

وأخيرا اتخذ ابراهيم قراره النهائى :

" يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوّته ، يطغى بمشاته وخيالته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسـعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأورنت لاشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأوّل والثانى، وبذلك يربك عملهم نهائيا .

" يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ و ٤) والالاى الثالث الرماحة المدرّعين نحو الضيعة المهـدّمة، وعند وصـولها لأنسب المواقع تفتح تشـكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

" آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوّة السابقة وتفتح تشكيلها عنـد وصولها الى غرب وجنوب غربى الضيعة المهدّمة .

" بطارية مدفعية وأبوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثـانى عشر وتفتح وحداتهـا على طريق دمشق الكبير أمام قوّات الأتراك فى الصف الأوّل .

" فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصـلة مكوّنة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين

نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة ميمنة الأتراك وكاحتياطى لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد الى إصدار أوامره الى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصدّ العدو المفاجئ ، ولكن كان الهرج قد عم الميدان .

لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدّد إصاباتها بكل دقة وإحكام، وتردّ عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محدّدة، وتتبعثر طلقاتها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى الميمنة فانضموا الى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة الى لحظاتها الفاصلة . ورأى ابراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق، فأمر آلايات الفرسان ٢ و٣ و ٤ ومكانها على ميمنة صفوفه بالزحف شرقا (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه المعركة لأن على نجاحها يتوقف مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهدمة بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة وكان الهجوم شديدا ومحكما . فتراجع الترك وتفرقوا . واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وقد نجحوا — فأمدّ إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة (١٢ آلاى) والمدفعية فأوقعوا بهم وفرقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت الى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصريين المحكمة . وفى الوقت الذى لم تمده مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن

وتقدير الموقف الذى أصبح حرجا بعد أن أصبحت ميمنته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغى عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضادّ فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعل — ووجد حلا يائسا يخرجه من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا الى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى للقيام بالهجوم بالسونكى لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خيالته بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فكان هجومه غير منظم وقابلته مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر اليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمة من الجنب الآلاى ١٢ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئا لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصدا مدينة حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه ، واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمة والذعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعد لم شعثهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم ابراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر محتلا المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قواتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر ابراهيم باشا فأرسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وكانت خسائر الترك فى معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و ٢٥٠٠ أسرى واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده . أما خسائر المصرين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى .

وفى اليوم التالى دخل المصريون حمص (٩ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالتهم النظامية على أمرهم فاستولى غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! .

نقد عمليات الجيشين

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركى مادة مستفيضة من الأخطاء التى اجترحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها فى خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به فى الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هزيلا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا (formation lineaire) فلم يك قادرا على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم تنتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأورنت والقناة) ومع ذلك فقد كوم محمد باشا فى هذه الجهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه فى الهواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التى تحيط بجنوب حمص وتركها والضيعة المهدمة لعدوه الذى انتفع بها تماما .

ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته فى نيران متجمعة على وحدات المصريين ، بل نثر توزيعها على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأى نجاح سواء فى حالة الدفاع أو فى حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

أما فيما يختص بحـركات المعركة من الجانب المصرى فقـد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقد نظر ابراهيم جليا الى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وبتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقـدم أو هجوم جانبى أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقا لمـا يبتغى . وأحسن تعبير لبراعة مناورة ابراهيم نجده فى عبارة المـارشال فيجان فى كتابه المعروف .

"La manouvre etait en germe dans le dispositif inilial de son armée".

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعـة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجمـوعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان اسـتخدام المدفعية يسـير حسب خطة موضوعة لا هبـاء ولا ارتجالا ، وهى قواعد المدرسـة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك ، وهضمها إبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى ستحدثه على العدوّ .

ففى معركة حمص تقابل وجها لوجه للمرة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنـة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوّق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا ، وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ومحى الجنود المصريون هزيمتهم ، أو بعبارة أوضح هزيمة أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى .

وفى التقرير الذى رفعه ابراهيم لأبيه عن المعركة ، قال عن العدو :

"لم أر فى حياتى هزيمة كهزيمة العدو . فانى لا أغالى إذا قلت انه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لى بسببهم نبض أو اكترثت بهم ، ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا . وقد أرسلنا الأسرى الى عكا وأمرنا ديوان أفندى بأن يقبل فى التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب فى العودة الى وطنه اليه فى مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا .

معركة بيلان

الجولة الثالثة

قضى إبراهيم وجنوده ليلتهم فى المواقع التى كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفى تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجعانه ، وقصد بهم إلى حلب . فبلغ حماه فى عاشره وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفى حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التى كدستها القيادة العثمانية ، لأنهم رأوا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقد سارع إبراهيم فى مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته فى الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهنيكه يوم ١١ ومعار ونعمان فى يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ وزيتان يوم ١٥

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا مذ تركناه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونه وإنطاكية . كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠ جمل تحمل الذخيرة ميمما صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق إبراهيم ويملى عليه المعركة فالتقى فى طريقه بفلول جيش محمد على باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك ارتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربية .

وطلب حسين من أعيانها أن يمدّوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها ...

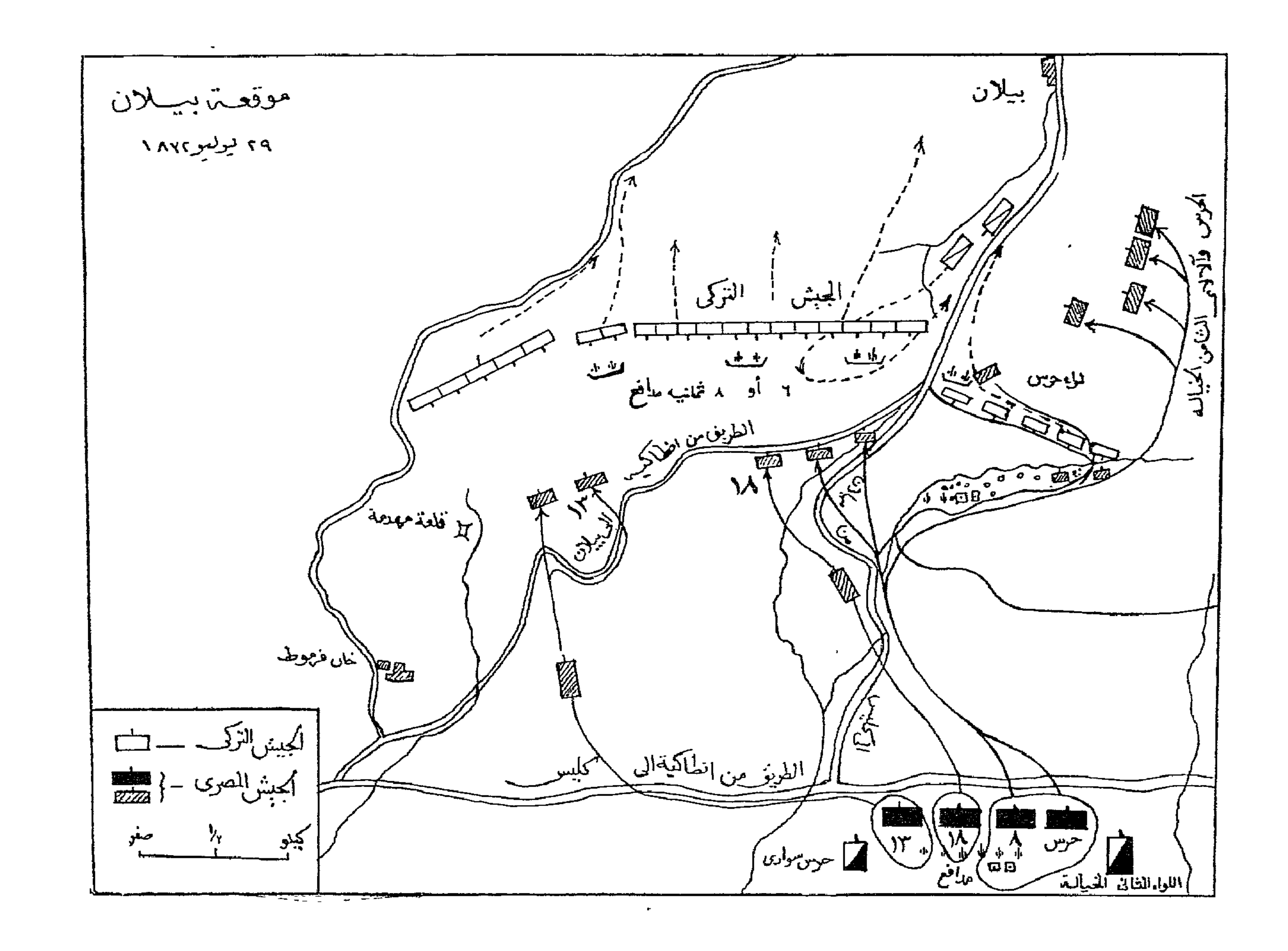
أحتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله . إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ...

وقبالة عناد الحلبيين اضطر السرزدار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو قاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثمانى ، فأصبح تحت عاملين ، هل يعود إلى بيلان (جنوبى اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيرا قرّ قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان(١) وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حلب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدّة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم . وقد أفاد من بقائه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدّت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين . وفى أثناء إقامته جاءته وفود من أورفا وديار بكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

---

(١) تقع مدينة بيلان جنوبى الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها . ويصل إليها طريقان طريق من كليس وطريق من أنطاكية . ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل إلى المدينة (الحركة القومية — للرافعى ج ٣ ص ٢٥٣) .


موقعة بيلان
٢٩ يوليو ١٨٣٢
بيلان
الجيش التركى
٦ أو ٨ ثمانيه مدافع
الطريق من انطاكيه
بيلان
١٣
١٨
قلعة مهدمة
خان قرموط
لواء حرس
الحرس والالاى الثامن الخياله
الطريق من انطاكية الى كلبس
حرس
مدافع
حرس سوارى
اللواء الثانى الخيالة
الجيش التركى
الجيش المصرى
كيلو
½
صفر

وفى ٢٥ يوليو زايل حلب مبتغيا أنطاكية، وقسم قواته إلى شعبتين : احدهما تؤلف من غير النظاميين اتخـذوا طريقهـم إلى أنطاكية مباشرة وثانيتهما قواته النظامية عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .

وفى يوم ٢٨ وصـل إلى قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البـدو وبضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قـد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

وقف إبراهيم أمام جبل أمانوس، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لهـا شاهق العلو، يرتفع نحو ١٫٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذى يصـل بين سهلى أنطاكية وخليج اسكندرونة، أو يفصل بين سوريا وكيليكيا، وهو الممر الذى اجتازه جميـع من قادة العـالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشـوريين وفرس وأغريق ورومان وعرب وفرنج وترك وسـواهم . واليوم يدنو منـه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس عليه ذلك بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يوليه .

مواقع الجيش التركى الدفاعية :

كان الجيش التركى مؤلفا من نحو ٤٥٠٠٠ من المقاتلين، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعا بقيادة حسين باشا ، يرابط فى مواقع منيعة — اتخـذ مواقعه على قمم جبال بيلان . فاحتشد المشاة وتؤلف من خمس أورط فوق هضبة، يصل طرفه الأيمن (ميمنة الجيش) إلى طريق وعر يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قرموط إلى بيلان، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل فى أنطاكية إلى بيلان ويؤلف من ١٤ أورط مشاة . أما ميسرة الجيش (٥ أورط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريب من الطـريق . وأقام الترك أمام صـفوف المشاة بعـض الموانع والبلانقات وزعوا خلالهـا المدافع . وفى واد ضيق يقطع الطريق جنوبى بيلان كان آلايان من خيالتهم .

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة فى خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أوّل نظرة أن حسين باشا لم يك موفقا فى وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطى فى توزيع قوّاته وأهمل العمق ، الذى يسهل عليه القيام بالمناورة ، على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق المواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

كشف إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قوّاته أن تنال منها فوزا . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ . فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجومهم يوم الغد ليحرموا العدو من تعزيز مراكزه أو وصول إمدادات إليه من اسكندرونة .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة ابراهيم ، وهو الكابتن الفرنسى (Thévenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته . وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم ، فى اليوم التالى (صباح يوم ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجنب ، تمهيدا للإحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفا لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قوّاته للإحاطة بميمنة الأتراك — وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص — وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوّات الآتية :

٤ آلايات مشاة

٣ آلايات خيالة

٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفى مصدر آخر ٢)

٢ مدفع أبوس

وأخذ ابراهيم باشا على كاهله قيادة هذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيذه .

وأمر أمير الآلاى حسن بك المناسترلى بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدم عن طريق بيلان أنطاكية، على رأس الآلاى ١٣ وبطارية مدفعية — فتقدم إلى الطريق واحتل الموقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيالة الخامس كقوة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدرعين ، فطلب منهم العمل بين القوتين الآنفتين، ومساعدة إحداهما لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة وبطارية ميدان فى الاحتياط .

المعركة :

ولما شاهدت القيادة التركية تقدم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى أمرت بفتح النيران الشديدة على طريق تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردت عليها مدفعية البطاريتين المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة الغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترقت غابة صغيرة وأقحمت الجبهة برصاصها السريع . وبعد قليل التحق بالفصيلتين أورطة من الحرس ومعهما أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمر وصول بقية آلاى حرس بسرعة مع أفراد الآلاى السابق فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناسترلى

سائرا على ما يرام ونجحت البطارية التى تحت قيادته فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (انطاكية) وهاجم ميمنة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه فى الهجوم الخفيف ضد قوات القلب .

وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى ، تهيأ للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التى كانت مسددة نحوه — وعمل على التقهقر السريع نحو بيلان . وانتهز الفرصة بالقناصة المصريين فهجم على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون المشاة تحرسها وصعد جنودهما اليها على أكمة تطل عليها وأسكتوها . وحاولت الآلايات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام فصدتها نيران الحرس ، الشىء الذى جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبددت جموعهم .

وهكذا أخلى الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء ...

وبعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون فى تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتحرج مركز قلب الجيش التركى ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعا بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ العدو بالفرار ، وتخلى عما بقى له من المواقع ، وتشتتت وحداته فى الجبال .

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الترك ، ووصل رماتهم ومعهم مدفعيتهم إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلوا أيضا عن مركزهم وتقهقروا نحو الجبال .

وباستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأسر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعا وكثيرا من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيلا .

وهكذا فاز ابراهيم بالنصر، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقا ورائعا . وأعاد حسين باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .

وكان نشاط ابراهيم فى المعـركة ، التى قام بأظهر دور فيها ، باديا فى كل حركة من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده و إعجاب مواطنيه .

***

قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو فى مواقع الأتراك ماعدا أورطتين أمرتا بدخول بيلان وانفصـل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرعة لاستكشاف الطريق إلى اسكندرونة .

وفى يوم ٣٠ يوليو احتل ابراهيم باشا بيلان . أما الخيالة فقد سلكت طريق اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمى . حيث عثروا على كميات مكدسة من الغنائم و ١٤ مدفعا وأصناف التعيين التى تكفى الجنود أربعة أشهر .

وقـد تردّد حسين باشا فى تدميرها . وكان وصـول فلوله إلى اسكندرونه ، بعد قيام سفن الأسطول العثمانى بدقائق .

احتل ابراهيم ميناء اسكندرونة ، واندفعت الخيالة الى باياس آسرة نحو ١٤٠٠ تركى وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقـد أسرع نحو ادنه بعد اجتياز مضيق طوروس على رأس شراذم لا يفخر أى قائد فى الدنيا أن يكونوا جنـوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود ابراهيم ادنه وطوروس ، وكانت الأولى مفتاح الزحف على الأناضول . و بعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا وعيلتاب ومرعش وقيصرية .

و بعد هذا النصر، فأى الطرق السياسية يسلكها محمد على ! ؟

من الواضح أنه كان قبالته طريقان : فإما أن يعلن الاستقلال و يأمر ابنه أن يستمر فى الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنـه بالوقوف أملا أن ينال هدنة عن طريق تدخل الدول . ولم يخل أحد الطريقين من أخطار .

وستبين لنا مسيرة الحوادث ما سيكون بعد معركة بيلان .

احتل ابراهيم باشا طورسوس، ثم دخل أدنة فى ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢ ، وفيها تلقى القائد من والده أمرا بالوقوف، فقد بلغ الغاية التى كان يسعى إليها، أى الوصول آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرسـل آلايين إلى أورفة وقـوة من فرسان العرب لمراقبـة الطريق من أرضروم وسـيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرسـل قوة إلى نهر الفرات لحمـاية جناحه الأيمن و بقى إبراهيم فى خطة الدفاع منتظرا أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

موقف انجلترا من نجاح إبراهيم :

وإلى هنا كانت السـياسة الإنجليزية أمام النجاح المصرى غامضـة . أمامها سبيلان أولها أن تدع محمد على يؤسس دولة عربية قوية لصدّ التيار السلافى الروسى ، والسبيل الثانى أن تحتفظ بتركيا وتقوّيها لتظل هى الحاجز بينما تهـدم الامبراطورية المصرية الناشئة، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزا قويا على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليـه سياسة الإنجليز ؟ لقـد فضلوا الوقوف فى منتصف الطريق فلا تقاوم محمدا عليا ولا تظاهر السلطان خوفا من روسـيا . أما سياسـة إبراهيم فهى أخذ الأمور بالقوّة و إيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يسـتأذن والده بالزحف على قونيـة، ثم الآستانة، ويرجوه فى أن يحمـل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد على إلى ابنه فى الثامن من شهر سبتمبر يقول :

" تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تسك المعدن وهو حام . وإنك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم يا ولدى أنا لم نصل إلى مركزنا الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفينى أن أحمل اسم (محمد على) خالصا من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يجللنى الآن . فكيف أستطيع ياولدى أن أتركه إلى سواه — لاياولدى إنى أحفظ اسمى (محمد على) وأنت ياابنى تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى وعليك رحمة الله وبركاته " .

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحرا وبرا .

معـــركـة قونيـــة

الجـــولة الرابعـــة

الجيش العثمانى :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرهم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا ، رمين إبراهيم فى حرب المورة ، وزعيم حرب العصابات... ولكن أين الجيش الذى سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده فى فيافى الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشـيد باشا ، بطل ميسولونجى وأثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النـداء . ومضى إلى الآسـتانة ليضع حياته فى خدمة السلطان . وليعـدّ التدابير لجيشـه الجديد . وفى أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثـانى فى أربعـة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد فى أشقودرة حيث كانت الرئاسـة العليا للجيش ومقرّ الوزير ، والقسم الثانى مكوّن من ٢٠,٠٠٠ فى أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصرية بقيادة عثمان باشا والى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعـداده حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده فى منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صاتاليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركى فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثمانى فى مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددى لم يك كل شىء ، فكانت تنقصه قوّة الالتحام ، وكان كل قسم منـه يختلف عن الآخر فى الكفاءة والتـدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكرى أيضا . أما السلطان فلم يدّخر وسعا لبث الحماسـة فى جنوده الذين يتوقف عليهـم كيان دولتـه . وتوسل إلى ذلك بشتى السـبل ، من طوابير العـرض إلى مقابلة الضباط والتوسع فى إقامة الولائم للجند وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها — " انقذ الدولة فإن شكرى لك ولعساكرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد " .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا[١] هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

---

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

وبناء على المعلومات التى كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركى ، طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولا بأول ، قبـل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شـتاء هضاب الأناضول . وتمرّ الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد على) أولها يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسى ، وتتعارض آراؤهما . ويجهر إبراهيم على انتهاج خطة الدفاع ، بينا تجمعت قوّاته فى منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونة وكليكيا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذى يصـل بين أدنة وقونية ، وأن هـذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، ممـا دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم فى نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لابدّ له أن يستولى على هرقله (اركلى) وقد دخلها فى يوم ١٥ أكتوبر .

وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركلى عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفت خان وأولان كيشلى وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانيبا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قوّاته غير النظامية والبـدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفت خان ، بينا يقتاد نفسه قوّة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفى ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفى اليوم التالى بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدّمته مضيق كولك بوغاز . ولمـا عبر وادى شفت خان اعترض التقـدّم المصرى قوّة تركية فتسدّ الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبالة هـذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شـديدة كما أمر خيالته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمرّ سليم بك فى المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة

منظمة يبديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق و يواصل المطاردة عبر طريق اركلى (هرقله) . و يقضى الجنود ليلتهم فى أولان كيشلى وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمرود وتقدّم إلى الأمام لعبر طوروس و يصل إلى زانيب .

وفى ٢٥ أكتوبر احتل اركلى ، التى أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح فى هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، فى انتظار موافقة أبيه على التقدّم فى قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبدّدها سدى ، فقد حشد قواته التى كان معظمها يستجم فى جنوب طوروس .

وفى ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

فى ذاك الوقت، كانت الاتصالات السياسية مستمرّة بين الدول الأوروبية والباب العالى من ناحية، و بينها وبين محمد على من ناحية أخرى . وفى خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأى مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدّم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهدّد بها السلطان . أما الأب السياسى فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها و يترك النتائج للرأى العام فى الآستانة لعله يؤثر فى موقف السلطان . وفى الرسالة التالية موقف الرجلين ، حيث ردّ إبراهيم على أبيه فى الثالث من نوفمبر يقول :

"يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغنم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مذيعا خبر تقهقرنا ومن يدرى ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تثور سورية والأناضول علينا و يظل الغرض من تقهقرنا خفيا لا يفهم . و بناء على ما تقدّم لا ينبغى لنا أن ندع الفرصة

تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو . وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منـه يا والدى أن ترسـل آلايين من المدد فى الحـال .

ثم تلق إبراهيم من والده فى الثالث عشر من نوفمبر الأمر بألا يتجـاوز قونية ، نظرا لأن التقدم إلى ما ورائها ، فى الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا .

وفى ١٦ نوفمبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذى كان قد أرسله إليـه فى الثالث من نوفمبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول .

الى قونيـــــة

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من اركلى ، أحدهما فى اليمين يمر بالمدن : كيجيد — وكارابونار — وكاتانية — وايزميل — وقارخان ، وثانيهما فى اليسار يمر بكارامان — وكاسابا — وشـوميرة . وقد أمرت القوات النظامية باتهاج الطريق الأول ، والقوات غير النظامية الطريق الثانى .

وفيما يلى أمر التحرك الذى أصدره إبراهيم لقواته النظامية :

يتحرك الجيش بالنظام التالى :

تسير المشاة فى قولين :

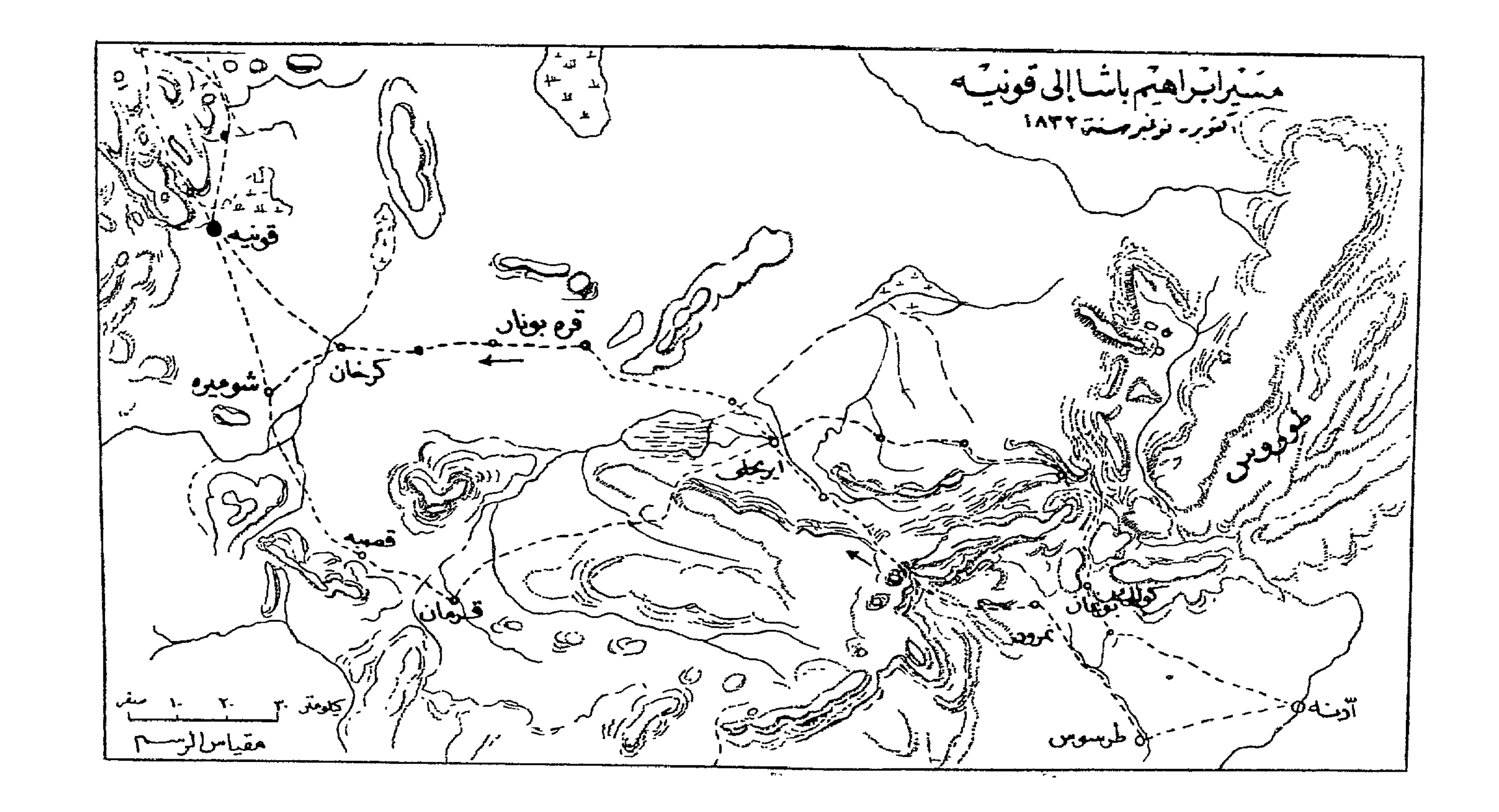
قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤

وقول اليسار من الآلاى ١٣ و ١٨

على أن لا يتبعـد القولان عن بعضهما إلا بمقـدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى ٣ فى الصف الأول .

والآلاى ١٤ و ١٨ فى الصف الثانى .


مسير ابراهيم باشا إلى قونيه
أكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٣٢
قونيه
قرم بونار
كرخان
شوميره
قصبه
قرمان
اريكلي
طوروس
كولك بوغاز
نمرود
آدنه
طرسوس
كيلومتر ٣٠ ٢٠ ١٠ صفر
مقياس الرسم

والمدفعية فى تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .

توضع مدفعية فى رأس القول على مسيرة الآلايين ١٤ و ١٨

يسير اللواء الخيالة الثانى فى المقدّمة على قولين — الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى ١٣ المشاة .

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه — متاع المدفعية — فالخيالة فالمشاة

ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر :

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفى ١٧ نوفمبر غادر قول اليمين كارخان متجها الى شوميرة ليلتقى بقول اليسار . وفى هذا اليوم علم ابراهيم أن العدو أخلى قونية فى الليلة السابقة . فلم يبدّد وقتا ، ونهض على رأس بعض قواته السريعة والمدفعية قاصدا قونية . فدخلها ليلة ١٧ وفى الصباح اتجه نحو آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والالآى الرابع الخيالة وبطاريتين مدفعية . وتلحق هذه القوّة حرس المؤخرة التركى فى ضواحى ايلجون وتنزل به خسائر فادحة وتعود مسرعة الى قونية لتلحق بقوّات ابراهيم .

يلقى ابراهيم نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلو مترا من حدود بلاده — وهى مسافة طويلة واستطالت خطوط مواصلاته ولا بدّ أن يحتاط لحماية جناحى جيشه — ولذلك أشار فى الحال لأحد قوّاده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدّى الطرق الى سيواس وأرضروم — مستعينا بالبدو . كما يأمر بكوق ابراهيم (يكن) فى السير على رأس الآلاى المشاة وبطارتين وخيالة غير نظامية من حلب الى مرعش عن طريق عينتاب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورطة وبطارية قيصرية (وكان فى هرقلة) . كل هذه العمليات كان الغرض منها غاية

خطوط عملياته ضد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حول منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حلمى بمغادرة أدنة لرقابة قوات سليمان باشا التركية فى إيطاليا .

واتخذ ابراهيم باشا ضواحى قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعدّ قوّاته لقتال الأتراك ويدرّب جنوده على التمرينات فى المواقع ، التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات ابراهيم فى موقفه الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٣٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعا .

ومما يثير العجب حقا ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا الى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمال غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالآتى :

٥٤ أورطة مشاة .
٢٨ بلوك خيالة .
١٠٠ مدفع .
٢٠٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الافادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء ابراهيم الى عدّة معارك ، تنهك قوّاته ، وتؤثر عليه تأثيرا مرهقا ، لكنه كانت تحركه تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذاك العهد . وهو الذى أشار اليه مرارا بالإسراع لمهاجمة قوات ابراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل اليه

الفين من جنوده فى الاحتياط رفض السلطان رجاء قائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .

ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالى ، فزايل آق شهر ميمما صوب قونية .

١٨ و ١٩ ديسمبر

المصادمات الأولى

وفى يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركى فى قرية سيلة المنيعة[١] وكان يحتلها ألفا مصرى . فيمدهم ابراهيم بسرعة بآلاى مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخيالة وخمسمائة فارس غير نظاميين و بطارية . وكانت النتيجة أن ردّت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسير وتركت ثمانية بيارق وخمسة مدافع وكمية وفيرة من العتاد .

وفى اليوم التالى ، هاجم المصريون حامية تركية كانت تحتل دوكز لوخان ، التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدّى الى لاديك . وقد كان المهاجمون من الحرس والخيالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم يضيع الأتراك وقتهم و بادروا فى التسليم وانضموا الى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصرية . وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

وفى مساء ٢٠ ديسمبر ، علم ابراهيم باشا أن رشيد غادر لاديك على رأس قواته فى اتجاه قونية لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعيين بقسماط لأربعة أيام ، وشعير لمدّة يومين .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا الى ابراهيم ، يطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فردّ عليه بخطاب جاء فيه : " لسنا نحن أنت وأنا بمسئولين عن الدماء التى تراق ، ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا به ولا سبيل الى مخالفة ما أمروا " .

---

(١) تقع على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غربى قونية .

معركة قونيـــة

٢١ ديسمبر ١٨٣٢

كان صباح يوم الجمعة، والضباب يخيم على ميدان القتال، ونزلت درجة البرد الى ١١ سنتجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القـائدين مواقع جيش خصمه ، على أن ابراهيم امتـاز على " رشيد " بأنه درس أرض المنطقة التى ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ، ودرب جنوده عدّة مرات على مناورات القتال مدّة كافية .

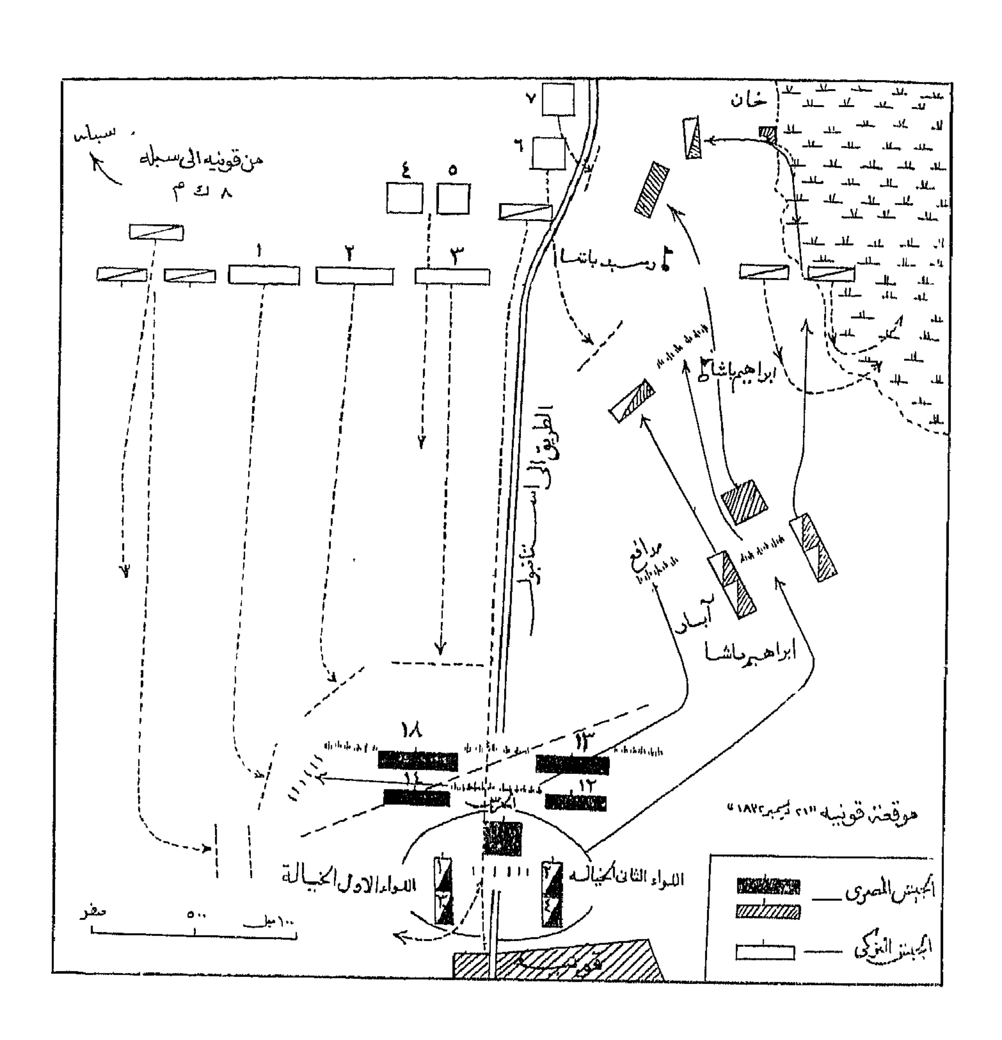
وقبل وصف توزيع قوّات الجيش ، يتعين علينـا أن نرسم صورة للموقع الذى سيدور فيه القتال :

تقع قونية فى ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبـال طوروس، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع، وقد امتدّ جزء من المدينة الى خارج هذا السور .

وكانت الأراضى التى سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، فى الاتجاه الشمالى الغربى، حيث امتدّت هضبة خصـبة يقطعها فى أماكن عدّة وديان عميقة ، وقد اتكأ الميدان فى الغرب على ميول تلال سـيلة ، وتحدّها من الشرق طائفة من المستنقعات ، وكان الطريق الموصـل بين لاديك والآستانة يمرّ بمنتصف ميـدان المعركة تمـاما .

وقد دبر ابراهيم خطته كما فعـل فى المعركتين السالفتين ، على المعـلومات التى وقف عليها عن جيش العدو ، ومعرفته التامّة بأخلاق قائده منـذ تعاونا فى المورة، فضلا على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع ابراهيم أن " رشيد " سيلجأ الى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سـيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدّد مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .



استعرض ابراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت فى رأس الباشا خطتان : رأى إن هو هجم على ميمنة الأتراك فلن تكون النتيجة محمودة ، ذلك لأنها رابطت على سفح الجبل فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قواته فى تشكيل القتال ، وبدأت خطته تتبلور ، وقرر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا فى داخل المرمى ، فيوجهها الى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتدى اليها ونتيجة لتفكيره المتواتر ، الذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه فى قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك واثقا ١٠٠ ٪ بالنصر . ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة الى وكيله أحمد فوزى باشا ، فى الليلة السابقة للمعركة .

الجيش المصرى فى تشكيل القتال

وزع ابراهيم باشا قوّاته فى ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك :

الصف الأوّل بقيادة سليم بك المناسترلى يؤلف الآلايين المشاة ١٣ و ١٨ .

الصف الثانى بقيادة سليمان بك (سيف) يؤلف الالايين المشاة ١٢ و ١٤ ، وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأول فى تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من الصف الثانى ، فى تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١ و ٢

والى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية — ٣ بطاريات فى الصف الأوّل موزعة فى اليمين والقلب واليسار :

بطاريتان فى وسط الصف الثانى .

بطارية فى الاحتياط خلف الحرس .

وكاحتياط ضدّ حركة تطويق قد يهدّد بها العدو، أمر ابراهيم كل آلاى مشاة فى الصف الثانى أن يعين أورطة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين، على مسيرة ١٥٠ مترا من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقد وزع قوّاته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منضم بالأورط، وقد تألف الصف الأوّل من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة، الى اليمين وإلى الشمال، قوّات غير نظامية، وألبانيين، ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدّل مدفعين فى كل أورطة مشاة، وأربعة مدافع فى آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة، وهى أضعف نقطة، وتولى قيادة قوّات القلب سعد الله باشا، والميمنة خير الدين باشا .

وقد وجدت وحدات العدوّ صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقعها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته، فاستطاع ابراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى، وكان يبعد عنه حوالى ٣,٠٠٠ متر .

ثم تقدّمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوّات المصرية، وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على المصريين، فلم يردّوا عليها بالضرب، الى أن تعرّف ابراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك، وتقدّم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأوّل ليتفادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

ثم استهلت المدفعية المصرية عملها فى كل الجبهة — نيران شـديدة متواصلة من الجانبين، وإحكام بالغ فى التسديد، حتى لقد زلزلت الأرض فى كل الجهات.
وفى أثناء المعمعة، كان يتنقل ابراهيم بين الجند مشجعا، ويثير الهمم قائلا :
"عفارم — عفارم — أيوه ياولد — ماشاء الله — عفارم".

وصدفة اتجه الى بئر تقع على يمين الصف الثـانى من قوّاته . وفى خلال لحظة انكشف فيها الضباب إذ زاد علما بمواقع الترك، وتبين نقطة الضعف التى يصيب منها الهـدف — ذلك أن قـوّة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى وقـد أخطأت القيادة التركية فى أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدّم . وحدثت بينهما ثغرة، يبلغ طولها نحو ألف خطوة، جعلت الميسرة فى شـبه عزلة عن بقية الجيش .

فانتهز ابراهيم باشـا هذه الفرصة، واعتزم الهجوم بقوّات الحرس والفرسان، خلال هذه الثغرة، ليخترق صفوف الترك . وبادر فعلا فأصدر تعلياته بتحرّك هذه القوّات، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان، واجتازت البئر بقليل، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجـوما عنيفا، وشـدّت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك، واكتسحتهم من الجنب . وكان الهجوم شـديدا، والضرب محـكما . فاهتزت مراكز الترك هزا عنيفا لقسوة الهجـوم، واضطروا للتقهقر شمـالا من غير نظام، فى المستنقعات . وبذا هزمت ميسرة الجيش التركى .

ومن سـوء الحظ، لم يظاهرنا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية، التى اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت تتفق جميع المصادر على ذكر «الحرس» واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلى والمدفعية والآلاى الثانى الخيالة .

دبرت هـذه الهجمة على أفضل تدبير، وبينما كان يستعدّ الحرس للسير الى خان قديم لمح ابراهيم الى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعـد أنه

الآلاى ١٧) يتقدّم فى تشكيل منظم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر ابراهيم الحرس بتغيير مواجهته وأن تنضم إليـه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضـدّ الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر، وأحاط به المصريون، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولمـا أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل، أراد أن يلم شعثها، ويبث الحمية فى نفوس رجاله — فقصد مواقع الجند، بيـد أنه لم يفز بطائل . وضـل الطريق فى الضباب الكثيف . وبينما يمضى فى طريقـه وقع فى أيدى العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجرّدوه من سلاحه ، واقتادوه أسـيرا الى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر ابراهيم قـوّاته الاحتياطية ، بعـد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشـاة ، للتقدّم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثـانى وكان منتظرا أن ينضم إليها اللواء الأول ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب، وقام بمناورة فيما بعـد على مقربة من الخان والمستنقعات، ثم ساعد الجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقا فى مناورته . فقـد تابع مطاردته الخيالة الأتراك فى المستنقعات ، ووصل الى الخان ولحـق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهاجم فيـه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصـل الآن الى موقعه فى الصف الثـانى . وكانت نيران الشرنجية المصرية تنصب كالمطر بإحـكام ، تساعدها قذائف المدفعية ، على أجناب ومؤخرة هـذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبـه تشكلت فى هيئـة مربع و باشرت العمل بهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعـد وقت قصير ،

وعم الفزع فى قلب القوات التركية ، وفر الجند غير النظامى الى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكادت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثمانى، الذى تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح فى مناورته، مستعينا بقوات الميمنة، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارعة التى نفذها ابراهيم فى الحال، أخرت، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء ... والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآلايات المشاة الثلاثة التى فى الصف التركى الأول وخيالته تكون منها خطا منكسرا للإحاطة بالميسرة المصرية، التى كان قوامها آلايين مشاة وآلاى خيالة الصف الثانى — وكان الطريق الرئيسى الى الآستانة يسير الى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذى هددهم برباطة جأش وثبات . وفى الحال أجريت العمليات الآتية — أسرعت بطارية مدفعية الصف الثانى لمعاونة بطارية الميسرة فى الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها فى القلب أو فى الميسرة نيرانها صوب الأعداء — فحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة فى الضرب والقتال، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشتيت وحداتهم فى السهل وفى قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهدا آخر علهم يكسبون ظفرا — فتحركت قوة من خيالتهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت الى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشتت شملها .

انتهت وقعة قونيـة بهزيمة قوات الامبراطورية العثمانية ، بعـد أن استطال القتال فيها سـبع ساعات . إذ بدأت فى الظهر وانفضت بعـد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالآتى :

٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش و بينهم عدد موفور من الضباط .

٣٠٠٠ قتيـــل .

٤٦ مدفعا وعدد كثير من الأعلام العسكرية .

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفى الساعة الثامنة والنصف مساء . عاد ابراهيم باشا الى قونيـة ، ليلق تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال ادوار جوان (Gouin) عن معركة قونية : "إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين ، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا و بسالة وخفة" .

نتـائج المعركـة :

رأينا المعركة تنتهى بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التى تفضى الى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقـد السلطان جيوشـه التى اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه . يلتفت يمنة و يسرة فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منـذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم ابراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ، و يواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، و يخضع السلطان محمـود و يملى عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية و يعبر الدردنيل ، و ينزل قواته فى الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط ابراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقـدم على

التقـدم الى العاصمة الفتانة، ليصل إليها قبل قدوم القوات الروسـية، التى جاءتها فى ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣[1].

ولم تكد تمضى أيام، حتى يتبوأ محمـد على عرش آل عثمان، مكان السلطان الذى كانت رعيته تنظر إليه كحليف للروس، بينما كانت فى صميمها ترنو حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التى أوقعها السلطان فيها ولنسأل أنفسنا سؤالا — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد على ... وهـو فى نظر بعضهم ذلك التأثر الذى اعتدى على الخليفة، وأنزله بقوة السيف، ونزع السلطة منه.

والجواب على ذلك نراه فيما اعتاد عليه البشر — مسـلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف. وما كان محمـد على إلا عبقريا من طراز الرجال المصلحين. بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصـلاح السلطنة كلها. وكان جديرا بالقيام بهذه المهمة، وكاد يصل الى هدفه لولا تدخل الدول، التى كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكى يرثوها بعد القضاء عليها. وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان، وذهبت الامبراطورية العثمانية فى عداد التاريخ.

سياسة التردّد بين محمد على و إبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهرا فى قونية، يعيد تنظيم قواته، عقب انتصاره الرائع، ولم يستطع مواصلة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه. وقد كتب لأبيه خطابا فى ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

" أستطيع أن أصـل إلى الآستانة ومعى محمـد رشيد باشا، وأسـتطيع خلع السلطان حالا، وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيـذ هـذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسـوّى إلا

---

(١) انتهت معركة قونية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢.

فى استانبول فالواجب أن نذهب الى استانبول حيث نملى إرادتنا وأنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لاتوصلنا إلى أغراضنا و إذا أنت رميت من الاشاعات التى تذيعها الى غرض سياسى بأنا نهـدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقـد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبـلوا إبرام الصلح معهم إلا بعـد وصولهم إلى جلمجة بضاحيـة إستامبول . فالواجب اذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعـة على بحر مرمرة وجعل هـذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئـذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قـد تقضى الى عزل السلطان . وإذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل الى إبرام صلح يحقق أمانينا وأننا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منـك لكنت الآن على أبواب استامبول ـ و إنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى اصدار تلك الأوامر الى؟ .

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ...

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبـل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد ...

وصل هذا الكتاب الى محمد على، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه الى شطرين . فوصل الى كوتاهية فى ٢ فبراير، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارص، وصار على مبعـدة ٥٠ كيلومترا من الآستانة .

وكان ابراهيم عندما زحف من قونية الى كوتاهية قد كتب الى أبيه الخطاب التـالى :

" اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقـل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى

استامبول ليست فيها حركة استعداد للمقاومة وهـذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هـذا الصلح أرسل إليك خليـل رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليـه علمى الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشئوم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للازمة لأنه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام ويعمل لها . كما كان فى المـاضى وللجور على هذه الأمة الاسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهـذه الأمة وبحق غيرتنا الدينيـة أرى من الواجب المحتم علينا لا العمـل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبـل كل شىء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع الى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشئوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت علىّ بأن أوربا تعترضنا قلت لك أننا لا ندع لها الوقت للتدخل وبذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبـل أن يعرف وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع — وإذا كانت أوربا تغتنم الفرصة لإشباع مطامعها من هـذه الدولة فأية تبعـة تقع علينا . وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

... ... ومع الاسـتعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقـدم الى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن لتلقى شىء منك أو من استانبول يحرم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هنـاك أرسل إليك رسولا بما يكون قـد قررناه تبعا للظروف " ...

وكان إبراهيم على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف عن الزحف حيث يدركه خطابه هو يعـلم أنه ليس للسلطان جنـدى واحد

فى طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا اليه (محمد على) ليتفق معه .

وقبل أن يصل الى بروصة كما اعتزم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا الى اسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالى . يحمل الى محمد على عفو السلطان عنه وولايته عكا وملحقاتها ، ولكن لصداقة محمد على له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد على ولاية سورية وأذنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لنزاعهما .

ووصل الى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالى ليبلغه أنهم أرسلوا الى والده رسولا للاتفاق ، والثانى رسول الجنرال مورافيف ، والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة الى القتال . ويتضح رأيه بما كتبه لأبيه[1] ، فى الثالث من فبراير :

”أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شيء فى المناقشات التى تدور بينك وبين الرسولين مورافيف وخليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن تطلب اضاليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن يضم الى مصر — إن كان ذلك فى الإمكان — تونس وطرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شيء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكى توطد مركزنا وتحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة

(١) كتبه فى كوتاهية بتاريخ ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ — ترجم بتصرف فى الأسلوب .

الخبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المـال . فمن الآن يجب أن نتخاص من الأعباء الباهظة ولا نجـد خلاصا إلا بالاستقلال . أما السبب الذى يدعونا لطلب أضاليا وأدنة فهو شدة حاجاتنا الى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلترة منعت ورود الخشب إلينـا فاضطررنا أن نلجأ الى النمسا التى أزعجتنا رفضها إزعاجا لا نسـتطيع نسيانه . وهـل من حاجة بى لأبين شـدّة حاجتنا الى الخشب . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصـدرته حديثا كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصـد الجيش التركى كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمـله للحصول على الخشب .

أما ضم قبرص الى مصر فهو أيضا لا مندوحة عنه . لسببين : الأول للنفعة الكبيرة لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق الى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هـذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لاتنفع شيئا وهى كستارة بعيدة جدا عن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام انظارك .

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية الى كوتاهية وقره حصار قد وصل إلى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا ولجأ إلى أصـدقائه الروس يستنجد بهم . ومن حسن حظه أنه كان قد وصل لابراهيم أمر أبيه بوقف التقدّم . وكان ابراهيم هدّد بروسه كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبـدأ الدول تعدّل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ انجلترة تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها الى الهند .

وتتضح سياسة انجلترا هذه من الرسالة التى كتبها بالمرستون إلى و يليام كامبل السفير الانجليزى فى كابل ، وذلك بعدما أذيعت شروط الاتفاق الأولى بين تركيا ومصـــر .

"إن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له و إن كان تثبيته فى ولاية مصر دائما — وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن فى ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف الى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند، فهى أفضل من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد، نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فإذا استطاع أن يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنها ضعفت عندما رأت جيشا روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة ، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وانجلترة واستمرت الدسائس الدولية تعمل فى الخفاء ضد محمد على للحد من مطالبه و إجباره على سحب قواته ، واذا بالباب العالى يرضخ لمطالب الوالى العظيم !

فأثرت هذه المفاجاة على خصومه . وأخيرا أبرم بين الطرفين اتفاق كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . و بهذا الصلح ولى محمد على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة، ورفرف العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

و بذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول، التى كانت تهوى الصيد فى الماء العكر . وكسب محمد على ثمرات النصر الحلوة . و برهن للملأ أنه رجل

صريح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للمندوب الفرنسى قائلا :

"إننى رجل سلام لا أهدف إلا لشىء واحد هو أن أقف أيامى الباقية لاسعاد البلدان التى أحكمها ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا — فأجيب بأننى أتوسل لأوربا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى"[١] .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣[٢]

الوحدات	مصر	بلاد العرب	السودان	كريت	سورية	المجموع
٢٢ آلاى مشاة	١٧٣٥٢	٩٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٥٧٧	٧٠٣٣٧
٣ آلاى مدفية	٤١٠٢	—	—	—	٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١	—	—	٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠	—	—	—	٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية[٣]	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤	—	١٥٥١	٣٤٣٥
بدو	—	٦٦٨	٦٠٤	—	٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجموع	٢٧٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر الى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكونت ممثل فرنسا فى مصر إلى الدوق (Broglie) وزير الخارجية الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣ .

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٨٠٠

وإلى جانب هذه القوات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨

قواد البوليس المحلية ٦٧٩٩٨

جنود البحرية ودور الصنعة ٢٥١٤٣

صناع وعمال فى خدمة الجيش ١٩٣٩٣١

وقد كانت معظم الوحدات موزعة فى حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوات النظامية فى عام ١٨٣٣ — ٧١٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١٩ و ٧١ ، أكثرها موزعا فى أدنه وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حربين

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت إتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمدة سنين قلائل ، استعد الطرفان فى خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالى لا تنفك تنفث الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل . فلما ضاق محمد على ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعتزم على إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية ، وحدثهم بعزمه ، كما سيأتى :

الإدارة المصرية فى الشام :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر فى ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت ... إدارات منظمة ، تعنى برفاهية سكانها ، عادلة فى أحكامها ، فرتبت فى الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشئون المالية . بل هيأ إبراهيم نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب الدينية ، مثل هذا التعديل فى أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستثقلون الإدارة المصرية ، ويتمنون

عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظرا لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم جاه أو سطوة . بعد أن توطد الأمن فى ربوع أوطانهم ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة على النظم المنتهجة فى مصر ، وعمت تربية دودة الحرير ، واستخرجت بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التى كان يلوذ بها الثائرون وقطاع الطرق . وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء ، كما رخص للدول الأجنبية فى إرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله [1] .

ثورة فلسطين (١٨٣٤) [2] :

وسوف نمر سراعا على أهم الأحداث التى مرت بفلسطين ، لعلاقتها بواجبات الحاميات العسكرية ، التى لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . وبعبارة أخرى الدوافع التى بثت فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد .

(١) الدعايات السيئة التى اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم ، ووكلاء الدول الأوربية ، وقد كانت لها نتائج وخيمة فى مقاومة الحكم المصرى والعمل على تقويضه ، ولا سيما فى نابلس وبيت المقدس ثم فى دمشق وحلب — وكان الدروز ، إلى حد ما ، اللبنانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا كبيرا فى مناهضة باشا مصر . ويتبدى أن الشاميين كبعض المصريين — فى صورة عامة — لم يروا أعمال محمد على فى صورتها الحقيقية إلا بعد وفاته وانقضاء زمن طويل . وليس هناك أدنى ريب فى أن الأب وابنه كانا متقدمين على جيلهما بعشرات السنين .

---

(١) الأستاذ محمد كرد على — الحكومة المصرية فى الشام ص ٢٢ — ٢٤

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية فى قمعها — مجلة الجيش المجلد ٤ العدد ٤ ص ٤٧٥

تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الجـزار ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأملونها ، أو فقدوا الجاه والمـال بعـدما نظمت أحوال البـلاد — فجرت عدة وقائع بين المصريين والعـكاريين والصافيتيين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وقد نكل بالكثيرين من زعماء البـلاد ولا سيما آل طوقان وأعيان الأتـــراك .

وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المـادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك وما جره نظـام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحـرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشـــام .

وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الالزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيـا . وأضحوا يعـدّون التجنيد من باب إلقـاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أفضى نظام التجنيد ، الذى ثاروا ضـده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

و بالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(ا) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقمعه وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقـد اشتدت الثورة فترة ممـا جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أخمده الأمير بشير الشهابى .

(ج) فتنـة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحلب وأنطاكية وبعلبك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرقى اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مرية فى أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى إبراهيم فى قمعها كثيرا من الشدّة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ، بتعريض نفسه للخاطر بجرأة لا يتصوّرها عاقل . وعلى هذا قيل عنه أن أبا خليل — وهـذه هى الكنية التى يكنيه بها الشعب — محجب بحجاب ضـد الجروح فعله محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفض ردائه فيتساقط منه الرصاص .

وقبيل آخر العـام ، تمت عملية التجنيد فى سورية ، وتم النقص فى جميع الآلايات المعسكرة فيها .

ثورة الدروز فى حوران (١٨٣٦ — ١٨٣٨) .

ولم يستتب الأمر بعـد هدوء الأحوال فى الشام ، حتى شبت ثورة الدروز فى حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم لحاجته إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم فى حوران (نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التى قاد واحدة منها إبراهيم بنفسـه فى مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى مجـلة الجيش (١) ونوجز أهم حملات هـذه الثورات الثلاثة (٢) فيما يلى :

(١) حملة على أغا البصيلى ، رئيس الهوّارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسان . وقد فاز فى مستهل الأمر ضد الثوار فى بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال وانقضوا على رجاله وأبادوهم جميعا .

---

(١) مجلة الجيش — المجلد الخامس — العدد ٤ — ص ١ — ١٣

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا نعدها بين الحملات الثلاث الكبرى .

(٢) حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤٫٠٥٠ مقاتل من المشاه والفرسان والمدفعية — قام على رأسهم فى ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا فى عدة معارك ، خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجتها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المضربون أكثر من أربعة آلاف جندى وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين جملا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراجى بك .

(٣) قبالة انتصارات الثوار، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار فى منطقة اللجاه (أغسطس ١٨٣٨) .

قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لاحصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروبا مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرد المصريين من بلاده .

وإبان انشغال المصريين فى هذه الحرب ، كان الباب العالى يعمل ما فى وسعه لتخليص سوريه وأقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ود السلطان وفعلا أوفد فى عام ١٨٢٧ مندوبه صارم ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودية ، ولكن أخفقت المحادثات ، ولم يتفق الطرفان على شروطهما .

حيال عناد الحكومة العثمانية، اعتزم محمد على — كما سبق أن أورينا — إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايو عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر (١) .

(١) كادلفين وبارو — سنتان من تاريخ الشرق — جـ ١ ص ٢٢ و ٤٦

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباءت مساعيها بالفشل ، لأن انجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد على ، واسترداد مصر أيضا من حوزته .

ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخرا ، بالرغم عن أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيرا ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الإلحاح جد كثيرة — كذلك تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوربية الشيء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم عام ١٢٥١ ﻫ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم ، لأن أباه لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال ... قال :

"لا بد أنك تذكر حين وقفت بجنودى فى قونية وكتبت أطلب إليك بإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون "محمد على" وكفى . مع أننا كنا منتصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال" .

وقد كان إبراهيم على حق . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعدما قطعت شوطا من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولتهم سدى بعدما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوربية تعمل مخلصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، للتملص نهائيا من سيادة الإمبراطورية الهرمة .

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشه ، بيد أنه شغل بمحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض فى وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم فى تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال — ولم ييأس السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش. و بدأ بادخال التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية بعدما فهم زعمائهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى. و بالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم فى مذبحة كبرى . فارتاحت الدولة من شرورهم . ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، و يعدّل القوانين ، التى لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يجدّد فى أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التى لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوربا التى هدفت إلى القضاء على آل عثمان ، أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها ولا قوة .

كانت الحروب المتتالية التى شنتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس وسطوة ، التى كانت تقترب يوما بعد يوم من مقبرتها . ومع هذا الانحلال التدريجى لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها ورجالها فى الولايات العثمانية وفى طليعتهم محمد على باشا فى مصر وعلى باشا والى يانيا .

كانت هذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها و بين محمد على . بلاد أنهكتها الحروب المتتالية ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى عدم التحوّل عن القديم البالى، وغباء رجالها الذين انقادوا فى سياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . فعجلوا بدمارها — وجيش جديد بدئ أخيرا فى إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من الانكشارية .

معركة نزيب

الجولة الخامسة

الجيش العثمانى فى عام ١٨٣٩ :

تألف الجيش العثمانى من حوالى ٨٠ ألف مقاتل و ٢٠٠ مدفع حشد معظمها فى منطقة ملطيــة بشرق الأناضول . وكان هـذا الجيش أنظم وأقوى الجيـوش العثمانية منـذ أن تخلصت تركيا من الجيوش النظامية ، وتوفر عتاده الحربى وأعد منه الشيء الكثير فى ملطية وديار بكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سرعسكر باشا الجيش فى آســيا ، بعد وفاة رشــيد باشا فى عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمــان برياسة فون مولتك الذى حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذى وضعت فيــه الدولة ثقتها للقضاء المبرم على الجيش المصرى ، قد منح رتبة السرعسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد فى عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقى اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو فى السابعة عشر من عمره ثم التحق بخدمة السلطان فى فرقة الـ (Hahigi) حيث ارتقى سريعا . وما أن شكل الجيش النظامى حتى تقدم للخدمة فيه كجندى بسيط فى الخيالة ، وبجده حالفه التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشى فى خلال الحروب الروسية التركية ، إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منــه . وحدث أن أنعم عليه برتبــة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام قلائل . وقاد الحملة العسكرية التى وجهتها تركيا لإخمــاد الثورة فى ألبانيا . وعلى أثر إتمــام مهمته ، عينه السلطان حاكما على إقليم سيواس بالأناضول . وفى غضون اضطلاعه بمنصبه أمره البــاب العالى بإخماد ثورة كردستان ، فأورى فى ظل معاركها نبوغا ونظاما وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له إخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليــه السلطان بنيشان الافتخار وترقيته إلى رتبــة سير عسكر الجيش فى آسيا .

وإلى جانب مزايا هـذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق فى تفكيره ، بعيد النظر فى تدبيره . لم يك جامدا شأن الكثيرين من قادة العثمانيين فى القرن الثامن عشر وأكثر من ذلك كبير القلب ، نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك أنه كان محبوبا عند الأهالى والجند ، عفوفا عن الدسيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترما للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحا على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . دينا لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الانخراط فى القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم فى المـدارس الحديثة الحربية فى أوربا ، وفى طليعتهم محمـد رشيد بك الذى صار فيما بعـد قائدا ومديرا عاما للدفعيـة التركية وكان من المقـربين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيسا لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا فى الكيد له عنـد السرعسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظنا منه أن عين عليه لينقل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زايل الجيش التركى قاعدته فى ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الإسعاف الطبى ، والمستشفيات العسكرية !

ويظهر أن التجارب والمحن التى مرت بأحـوال الجيش العثمانى ، وهزائمه المتتالية ، فى معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالى منها شيئا كثيرا ، ولا سيما من ناحية تدخله فى الأمور الفنية الخاصة .

وإلى جانب الجيش العثمانى النظامى ، كانت هنـاك وحدات من الاحتياطى غير المـدربة تدريبا كاملا فضـلا عن أن معنوياتها لم تك فى مسـتوى معنويات الوحدات المنظمة .

وفيما يلى توزيع وحدات الجيش العثمانى[1] :

قيادة عزت محمد باشا	أنقـــرة	١٢,٠٠٠	٤	بطاريات مدفعية
« على باشا ومعه فيشر	قونيـــة	٢٠,٠٠٠	١٠	« «
« حافظ باشا	ملطيـــة	٤٢,٠٠٠	٢٤	« «
« عثمان باشا	قيصـرية	٥,٦٠٠	٢	« «
« على بـــك	(موزعة فى مناطق شتى)	٧,٥٠٠	١٢	« «
		٨٧,١٠٠ جندى	٥٢	بطارية

الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية

وعلى نقيض حال الدولة التركية ، استمـرت مصر ، بزعامة مصلحها الكبير ، فى نشاطها الصناعى والعلمى والعسكرى ، بالرغم من الثورات والفتن ، التى شبت فى مناحى الشام وفلسطين وبلاد العرب ، والتى أنهكت الجيش خمسة أعوام طوال ، وأن طموح الباشا ، ورغبته فى المحافظة على مركز دولتـه (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعـة ممتلكاته ، جعلت محتما عليـه أن يعتمد على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليها ، والسـير بسفينته وسـط عواصف دعاية الحكومة التركية والبريطانية فى كل مكان تدين بالولاء للباشا ، وفضلا عن ذلك كان يرى محمـد على استعداد الباب العالى للقتال ، والعمـل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يجف المداد الذى كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيـه عقيدة " إذا أردت السـلم فاستعدّ للحرب " (Si Vis Pacem par Bellum) .

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هنـاك أيضا ما يخفف من ويلات الحرب ويطيـل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ،

(١) ذكرت " الجورنال دى ديبا " بتاريخ الاثنين ٣ يونيه سـنة ١٨٣٩ نقلا عن " جازنت دوجسبورج " أن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحا، تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظرا لكثرة الفتن والثورات التي عمت فى داخلية الشام وفلسطين، اضطر ابراهيم الى توزيع قوّاته من البحر الميت الى طوروس، ومن الساحل الى الفرات. ثم التمس من أبيه أن يحده بامداد قوى . فأرسل اليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظاميا وثمانية آلاف غير نظامى معظمهم من الفرسان و٢٥٠٠٠ من البدو وقد ألحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى .

وعلى العموم، كان الجيش المصرى مركبا من وحدات مارست الحروب والمناورات، منذ عشرين عاما، فى نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية، ولا دهشة فى ذلك، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التى قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة فى أيديهم، أو خلفهم فى مستودعات ونزلات، الى جانب مخازن الجيش فى اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنازة الى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب :

(١) المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات (١ و ٢ و ٣) بقيادة الفريق عثمان باشا ٨٦١٧
اللواء الأوّل — آلايان (٢ و ٢٢) بقيادة أمير اللواء سليم بك ٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان (٤ و ١٢) بقيادة أمير اللواء ابراهيم بك ٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان (٦ و ١٨) بقيادة أمير اللواء حمزة بك ٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان (٩ و ١٤) بقيادة أمير اللواء عمر بك ٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات (١٠ و١١ و١١) بقيادة أمير اللواء فرحات بك ٧١٦٥
مجموع المشاة ٣٧٦٧٣

(ب) الخيـالة :

لـواء الحـرس — آلايان بقيادة الفريق أحمد المنكلى باشا	١٧٣٨
اللواء الأوّل الخيالة — آلايان (١١ و ٢) بقيادة أمير اللواء رستم	١٦٧٩
اللواء الثـانى الخيالة — آلايان (١ و ١٣) بقيادة الجوخدار	١٧٢٨
اللواء الثالث الخيالة — آلايان (٦ و ١٠) بقيادة ابراهيم بك	١٦٣٠
مجموع الخيالة	٦٧٧٥

(ح) المدفعية : بقيادة أمير اللـواء جعفر صادق بك

مدفعية الحرس : بقيادة أمير الآلاى خالد بك	١٠٦٦
الآلاى المدفعية الثانى المشاة : بقيادة أمير الآلاى محمد العنتبلى	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأوّل الخيالة : بقيادة أمير الآلاى حاذق بك	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثـانى الخيالة : بقيادة أمير الآلاى زكى بك	١٠٦٧
مجموع المدفعية	٥٦٢٥

المجموع الكلى للجيش ٥٠،٠٧٣ ضابطا وجنديا بصحبتهم ١٦٢ مدفعا .

الحوادث الممهدة لمعركة نزيب

(سنة ١٨٣٩)

لكى نقدّم صورة واضحة للمعركة، مستكملة المعالم، يتعين أن نقفو أثر الأحداث التى أفضت الى القتال الحاسم .

(١) حصنت القيادة المصرية مضيق كولك، أحد مضايق طوروس، وهو منفذ الزحف من الأناضول الى سورية، وزاد عدد الحاميات فى ولاية أدنة .

(٢) لمـا علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين، رام تلاقى الزحف من هذا المضيق . والقيام به من منطقـة أورفا وديار بكر، حيث لا تواجهـه مضايق أو مسالك وعرة أو جبال .

(٣) اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فحوّل ابراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشه الى حلب ، ولتستمر فى مراقبة طلائع الجيش التركى فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية [1] .

(٤) عهد القائد حافظ باشا الى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ وفى الحال نهض ابراهيم باشا ببعض التحركات الهامة لتحاشى الخطر .

(٥) فى منتصف ابريل : بدلت وحدات الجيش التركى مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ، وتجمع لواء اسماعيل باشا فى بيره جك (٢١ أبريل) . وبعد أيام وصل هذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطىء الأيسر للفرات) .

---

(١) ليس المقصود بكلمة كلز المدينة ذاتها وانما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المسائل فى نهر الفرات وخليج اسكندرونة ، وهى تعرف بنواحى بيره جك . ويتسنى الوصول من هذا الموضع الى خمسة مواضع مهمة تقع فى البلاد التركية :

(أ) يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عنتاب ومرعش والمنتهى الى الشمال حتى شمل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

(ب) وبطريق آخر يتجه صوب الغرب ، مارا بكليكيا وموانئها ، حتى غرب الأناضول .

(حـ) يتيسر الوصول من طريق حلب — الأردن — فلسطين الى مصر ، ويعرف هذا الطريق الهند التجارى أو طريق الحرير .

(ى) ويصل الطريق الذى يمر باستقامة نهرى دجلة وفرات والمتجه نحو الجنوب الشرقى الى العراق فإيران والصين وما اليها .

(هـ) وبواسطة ديار بكر يتهيأ الوصول الى القوقاز وأذربيجان .

من هنا تتجلى أهمية بيره جك العسكرية ومضيق كلز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربته ضد ابراهيم .

وفى ذلك الوقت ، اعتدت قوّة كردية على حيـوانات كانت ترعى للمصريين ، ولكى يجتنب ابراهيم الصدام وتقهقر إلى حماه ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ! وبالرغم من الضغـط السياسى على الباشـا : ارتأى أن يستعد، وسارع فى إرسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

(٦) فى الثانى والعشرين من شهر مايو، عبرت طلائع الجيش التركى الفرات ووصلت إلى نزيب[1] داخل الحدود السورية . واحتلت العداوة التى بين نهر الفرات وأحد أفرعه الصغرى المسمى ساجور[2] وتقدّمت القوّات التركية فاحتلت قرية تل باشر واقترفت فيها الفظائع .

(٧) وفى مساء اليوم التالى، أوفد إبراهيم — بعد علمه بتقدّم الترك — ٤٠ رسولا إلى مختلف مراكزه يحملون فيها الحشد العام فى حلب . وفى صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنبأهم بمـا اقترفته قوّات السلطان وطلب معونتهم . وفى اليوم التالى أرسل إلى أورول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاى معجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أوّلا بأوّل . وحشد ابراهيم معظم وحدات الجيش فى معسـكر بأورطة ، على مبعـدة ثمانية كيلومترات شمالى حلب، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت إمرته ١٨ الآى مشاة و ١٦٠ مدفعا .

أما الأتراك فاستمروا فى تقدّمهم نحو مزار داخل الأراضى السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى القهقرة فى بجاه توباش كالأوامر التى صـدرت اليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

---

(١) تقع نزيب على الطريق الموصل بين بيره جك واسكندرولة وموقعا غربى بيرة جك .

(٢) يقع نهير ساجـور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب الى الفرات ، وهو الحد الفاصـل بين أملاك مصر وتركيا فى ذلك الحين ، والمرسوم فى اتفاقية كوتاهية .

(٨) لم يستطع إبراهيم قبالة هـذه الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين . ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة الآى خيالة و ١١ بطارية مدفعية خفيفة ، واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة . وبينما كان ابراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشر ، التى احتلوها منذ أيام ، ثم استحوذ الترك على عينتاب ، بعد اخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش الأتراك بالأراضى المصريه فـوق ما كان مرتقبا . أرسل إبراهيم الى أبيـه يصف تطوّر الموقف .

(٩) بعـد ٤٨ ساعة وصل الى ثغر الإسـكندرونه كابتن كابيه الذى بعثه المـارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة الى محمدعلى باشا يقول له فيها أنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . وبعد أن قـدم (١٤ يونيو) كابيه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) الى مركز قيادة إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولا تمام مهمته التى يأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل الضابط فولتر رسالة أخرى للسرعسكر حافظ باشا . وصل كابيه إلى طرابلس الشام وفى ٢٤ أخذ طريقـة الى حلب يوم ٢٦ ، عقب انتهاء المعـركة الكبرى وهزيمة العثمانيين فى نزيب .

(١٠) دفـع ابراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالت مقاومة الأتراك بسهـولة ، واستخلصت طريق حلب وأمنتـه ، فى ٣ يونيو بدأ ابراهيم فى مراقبـة الطريقين المؤدّيين إلى عينتاب ونزيب . حيث كانت منطقة الحشد التركية .

(١١) فى الخامس من يونيـو ، استدعى ابراهيم حاميـة عينتاب ، ولم يترك بها سوى كتيبة واحدة ، لحماية قلعتها . وبعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك الهنادى وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك إلى توزيل .

وفى يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا على رأس قـوة، للاستكشاف ، مؤلفـة من خمسـة آلايات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيدها المدفعية . فقابلته الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصـغير واتجهت نحو العـدو فى قولين . وتبادل الطرفان النـيران ، واشتبكت قواتهـما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التى كان فى انتظارها بالرغم من تحكك حافظ باشا .

(١٢) وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم فى يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة وإقـدام وأملى ألا يفوتكم فى هـذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم — أما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هـذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدى رأيا صريحـا .

وفى رسالة لمحمد على (فى ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نوقفـه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبـة منا فى عدم معارضـه رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا فى بلادنا وزادت الأمور تحرجا وتلك حال ترغمنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولمـا كان العـدو هو المعتدى فإن الدول لن تلق علينا التبعـة — فنصيحتى اليك أن تبادر عنـد وصول رسالتى الى يديك بالهجوم على جنود العـدو

الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى باخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر فى تقدمك الى مالطيه وخربوط وأورفا وديار بكر .

وهذا أمر صريح للهجوم .

(١٣) وفى يوم ١٨ يونيو زايل الجيش، تحت امرة سليمان باشا ، معسكر با أورطة، ووصل فى اليوم التالى الى توزل، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهر ساجور الكبير . وفى يوم ٢٠ سارت الى قرية مزار[1] فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها فى الساعة العاشرة صباحا . وألفت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندى غير نظامى — ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة، بالانتقال الى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية فى الانسحاب الى نزيب .

وما كاد الجيش المصرى يبرز على المرتفعات (جنوبى مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركى قد انسحبت الى نزيب تاركة خيامها وعتادها ، فغنمتها الجنود المصرية، ودخل ابراهيم مزار فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولابدّ من استكشاف الأراضى، فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال فى هذه الأيام .

وحالما استقر المعسكر، حاول سليمان باشا الفرنساوى أن يستكشف الأراضى وقوة معسكر الأتراك بيد أنه استحال عليه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدو .

وكان ابراهيم باشا ينتظر بفروغ صبر عودة سليمان باشا، إذ كان قد قرر القيام بهجوم فى الغد، وكان سليمان لا يوافقه . وعلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما

(١) تقع مزار فى الطريق الموصل الى قرية نزيب .

على القيام فى الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا فى الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما (F. Perrier) وأراجو وراحا ليرتادا الأراضى على ضفة نهر مزار اليمنى، لكشف طريق يسمح بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركى وتحويل مواجهته الى الخلف، إذا لم يتسن مهاجمته من الأمام .

(١٤) وفى يوم ٢١ يونيو ، عبر الياوران كبرى مزار[1] ، وتتبعا مجرى النهر فى اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن الطريق كثيرا من العقبات يتهيأ تذليلها بسير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى ابراهيم باشا جواده وسار مع ١٥٠٠ بدوى الى المعسكر التركى لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفى قيادته أربعة آلايات خيالة وبطاريتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية ، وتبادلوا النيران فترة ، ولم يفز ابراهيم ، فعادوا الى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على ابراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركى بوساطة السير جنبا ، والتقدم الى خلف الصفوف التركية ، وبذلك يكرهونها على الدوران ، وترك الموقع المحصن ، والقتال فى الأرض المكشوفة .

(١٥) وفى الصباح المبكر من ٢٢ يونيو ، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار الى الجنوب واجتازت فى الحال بعض وحدات المشاة قنطرة مزار ، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للمراقبة . ولبثت الخيالة فى مكانها مكونة ستارا لتخفى — على قدر الإمكان — عن العدو منظر الحركة وشرعت المدفعية فى عبور قنطرة مزار ، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان استعدادا للسير فى ترتيب القتال ، ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم وابتدأ الزحف .

(١) كان معهما آلاى خيالة .

ولم يتخذ الجيش فى بداءة الأمر خط سيره الحقيقى ، بل انحرف كأنه يبغى حلب وكان سليمان باشا يشرف على سير القولات حتى لا تحدث تغيرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيـه قوات كثيفة تربك هذه الحركة ولذلك استنفد هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة فى قرية كورديكالا عاود الجيش السير ، فظهرت وحدات تركية على اليسار ، على مدى ٣٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفى الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيـالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفى الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة وأكمة تقوم على يمين القولات فأسرعت بطاريتان فى احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى ، التى كانت تفدتباعا .

ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره ، وفى هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريبا ، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعينى كل جندى : وهى ادارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعة التى أعدها . ولا ندرى لمـاذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم وقد ألح الضابطان البروسيان مولباخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبأ بنصيحتهما فعرضا عليـه أن يتراجع الجيش التركى الى معسكره الأصـلى فى بيره جك فـلم يعمل برأيهما . وكانت الوحدات التركيـة التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

(١٦) وكان الليل قد أقبـل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البـدو وأخبروا القيادة

بأنه ليس للعدو أثر فى هذه الجهة كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه فابتهج ابراهيم لدى سماعه هذه الأنبـاء السارّة وفى الحـال أسرع على رأس خيالته ووصل الى الكوبرى وجلس على حجر،وأمر باحضار شبكه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقـد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يفضى الى الكوبرى خوفا من الضغط والازدحام وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ مترا يبدأ فى الانحدار بشدة ويأخذ فى الضيق باستمرار الى أن يصل الى الكوبرى — وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود — وكانت ميـاه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيـو) شحيحة مما سمـح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت ضفتاه غير مرتفعين .

وبالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الوحدات، واختل النظام وكان فى استطاعة الأتراك أن يمطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق ويقلبوا الخطة الحربية رأسا على عقب بيـد أنهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمـر توالى مرور الجنـد على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاه فالمدفعيـة إلى الساعة الثانية صباحا . وقـد أفادت القيادة من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقتها العدو . وبمجرد انتهاء وصول الوحدات، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة يمينها ويسارها يرتكزان على النهـر ، ووضـع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأماميـة فى تشكيل بطريات فى كافـة الاتجاهات ، وخلفها ثلاثة صـفوف مشاه ثم الخيالة والعتاد، ثم ما تبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

(١٧) وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للمعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين . وطلب

إليهـم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمـة رئيس هيئة أركان الحرب ، سـليمان باشا ، الذى ألقى عليهـم أوامره وختمها بالعبارة :

" غدا نلتقى الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نحتسى القهوة ... " .

وانتهى الهـزيع الأول من الليـل بدون أية حركة فى المعسكرين ، سـوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجد ونشاط فى إقامة استحكامات سريعة وقتية ، لستر مواجهتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

وحوالى منتصف الليـل ، انقطع بقيـة السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل التراشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولاذت الخيول بالفرار — وكان إبراهيم باشا يجول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد أتجـه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صـوب وميض مدفعية الترك ونشر نيران مدفعيته فى كافة الصفوف ، وبعد قليل خمدت مدفعية العدو .

وكانت خسائر هـذه الاغارة الليليـة طفيفة . ولمـا هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطتين من الالآى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهـم والبحث عنهم : فوجدوهم متجهين صـوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وادّعوا أنهم ضلوا الطريق ، بجلدوا وغيروا ضباطهم ...

(١٨) فى ٢٤ يونيو لمـا طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستدلا من كوبرى كرسين :

أولا — ٣ خطوط من المشاة متوازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثانى على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثانى مكون من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانيا — على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكورة .

ثالثا — على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعدة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

رابعا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامسا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لمسند الستة الآلايات الخيالة التى أمامهم عند اللزوم .

سادسا — الستة آلايات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .

سابعا — فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الاربع بطاريات التى وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامنا — لواء خيالة الحرس مؤلف من الآلايين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفى أثناء السير ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش . وفى بداءة المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، فى اتجاه بيره جك و بعد أن تقدمت القوة حوالى كيلومتر ، فى ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار . و بذلك صارت خطوط تقدم الجيش

المصرى موازية تقريبا لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى الى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلها . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الايات خيالة خلف الربوة الثانية وآلايين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعا على النمط التالى :

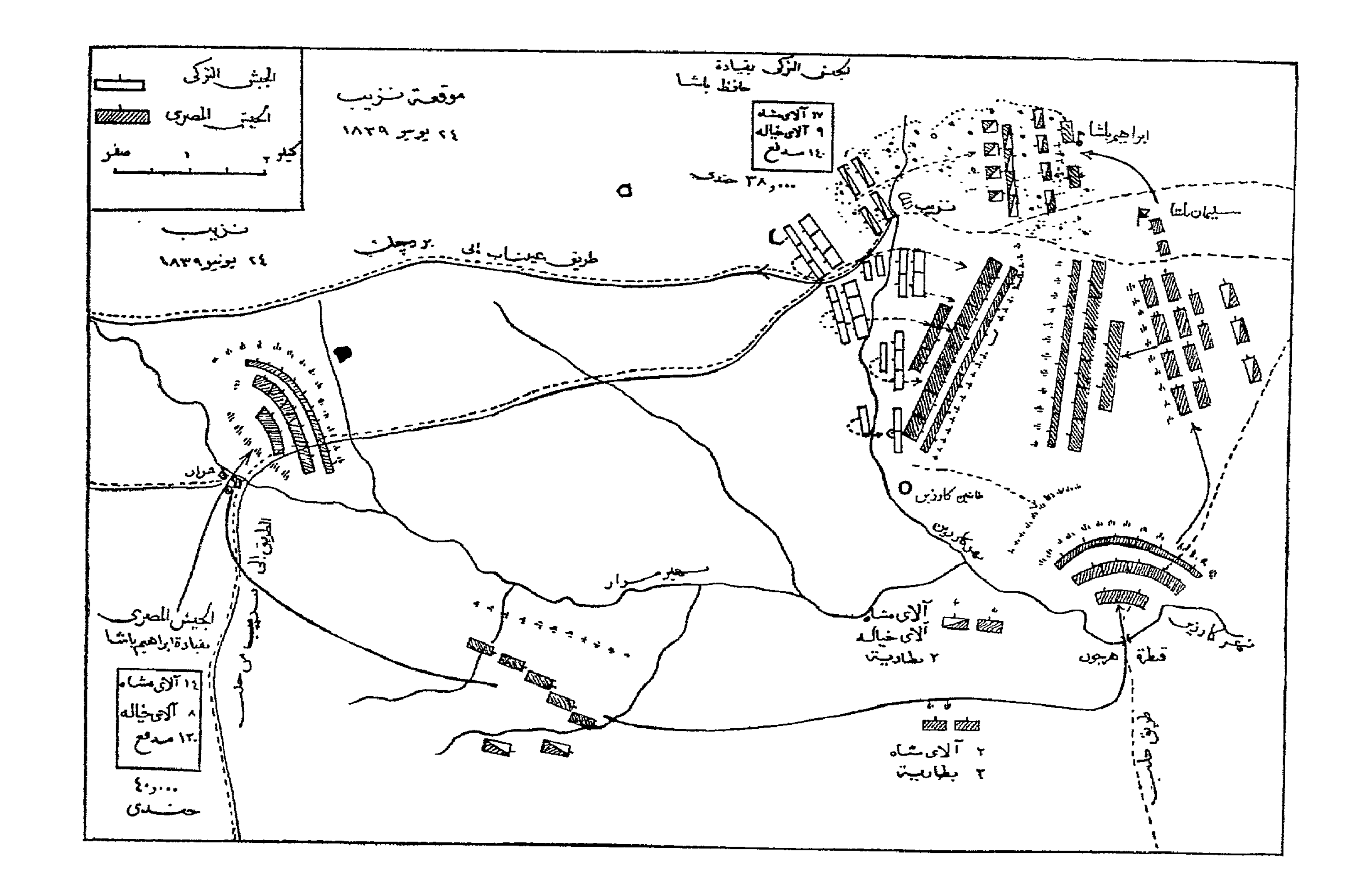
تتألف قوة الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعا . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت الممهدات...

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكمتين ، فطن حافظ باشا الى غلطته فى عدم احتلالهما من قبل ، ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ باطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان بالالتفاف الى اليسار كيما يكون جناح المصريين الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وأمدّ ميمنته بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى ١٤ المشاة — وكانت هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكلى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم نقل اليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب الى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .



موقعة نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
الجيش التركى
الجيش المصرى
كيلو ٢ ١ صفر
نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
الجيش التركى بقيادة حافظ باشا
٣٧ آلاى مشاه
٩ آلاى خياله
١٤٠ مدفع
٣٨،٠٠٠ جندى
ابراهيم باشا
سليمان باشا
نزيب
طريق عينتاب الى بيره جك
خانى كاوزين
نهر كاوزين
قنطرة هرجون
نهر كارزين
طريق حلب
آلاى مشاه
آلاى خياله
٢ بطاريه
٢ آلاى مشاه
٢ بطاريه
نهر مزار
الجيش المصرى
بقيادة ابراهيم باشا
١٤ آلاى مشاه
٨ آلاى خياله
١٣٠ مدفع
٤٠،٠٠٠ جندى
الطريق الى نزيب من حلب
مزار

وبدأت المدفعية المصرية بالضرب المبرح ، فردّت عليها المدفعية التركية ، واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين ، وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية ، بينما مدفعية الأتراك انصبت على صفوف المشاة المصريين ، فكانت الخسائر أقل ، وقد أسكتت البطارية التى وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدّة مدافع تركية .

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر ، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية ، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية فى التراجع ، وفرّ بعض الجنود ، وقد تزعزعت معنويتهم ، ولا سيما بعد حدوث انفجارين فى عربات جبخانة للجيش التركى ، بتأثير نيران المدفعية المصرية ، ثم تزايد الارتباك فى صفوف العدوّ بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأميرالاى جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية .

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك ، أمر قسما من الصف الأول لميمنته أن يتقدّم مسنودا من قسم الصف الثانى ، وأمر أيضا بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتتبعهم لتسندهم ، فاتجهت الجنود صوب خطوط العدوّ ، ولدى اقترابهم منها ، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مخفية ، فتقهقروا بدون انتظام ، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار ، ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا بما حصل للميمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها ، التى أخفت عنهم حرج الموقف ، وحدث أيضا ، فى ذات الوقت ، أن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة الى الخلف ، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السئ ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى ، وأن تفتح نيرانها بشدّة على الأعداء وعلى المنسحبين ،

ومما خفف بعض الأثر وصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوات المصرية الى شرق نزيب، وكان قد صدر الأمر اليها للقيام بحركة التفاف واسـعة حول الميسرة التركية لشدّ أزر قوات المشاة التى سبق ذكرها ، وشرعت فى تطويق ميسرة العدو والهجوم عليـه ، وقد بدأ الهجوم اللواء الأوّل الخيالة (بقيادة رستم بك) فردّه الأتراك، وكاد ينتهى الموقف بمأساة ، لولا أن تداركه اللواء الثانى بقيادة الأميرالاى ابراهيم بك الجوخدار .

فى هـذه الساعة الحرجة، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره، لولا وصول الذخيرة الى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك، التى كادت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرّة، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعيـة المصرية الكبيرة العيـار رفع معنوية قوات سليمان باشا بعـد أن كاد أمل النجاح يتبـدّد ، واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هـذه اللحظة وصل ابراهيم باشا على رأس آلايين من الخيـالة الحرس، جاءا تحت قيـادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية، وسار الى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١ و ١٣) فأكملا المعمعة . وهنـا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما الى المعسكر التركى فاستوليـا على القسم الأيسر منـه ، مكتسحين شراذم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصـل بها إبراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية ممـا أصابها من التفكك، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، و بدأت كفة المعركة تميـل إلى المصريين، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال عمّ الجبهة بأسرها، من الشمال إلى الجنوب، وانتقـل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاومه الفريق خالد باشا بكل شدّة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل فرّ جنوده بعـد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدّوا واجبهم فى القتال.

ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتتابعة ، انسحب بقاياه إلى معسكره القديم ، فاقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة ، بينما اتخذ الثالث الاحتياطى للشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة[1] .

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر ، ليكتب رسالته إلى أبيه ، وقد جاء فيها :

"أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا ، التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزانة ، وأسرنا عددا عظيما من الجنود . وإنى أودّ أن أقتفى أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا — وكان تفرق الجيش العثمانى أشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معا . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته[2] وكانت نيران مدفعيينا حامية جدا . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ما كنت عليه فى سنّ العشرين من النشاط والانشراح والقوة . وسنوافيكم بالتفصيل قريبا" .

انتهى الأمر ، وحلت الهزيمة بجيش السلطان ، واستولى جند إبراهيم على نحو ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٥ مدفعا فى حصن بيره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسر منهم بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على آلاف الجنيهات وأوراقه وخططه ورساماته ... وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

---

(١) من تقرير سليمان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح ...

وأصبح إبراهيم باشا ، بعد معركة نزيب : سيد الأناضول على الإطلاق ، وصار الطريق قبالته مفتوحا إلى إستامبول .

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثمانى مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

* * *

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدو الحربية ، فقرأ فى فقرتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغى أن يكون الغرض الثانى من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردّد فى مواصلة الزحف ، وكان فى مستهل أعماله أن استردّ عينتاب ، وأعد العدّة لموالاة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها

إذا حكمنا بالنتائج ، ظهرت لنا معركة نزيب فى صورتها الختامية كأمجد صفحة فى تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرّخين فى مستوى معركة أوسترلتز التى قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمسوية . غير أننا إذا تطلعنا إلى سير المعركة ، وتطوّر أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة قد اكتنفتها من جانبى القيادة المصرية والتركية [(١)] .

---

(١) كان المارشال فيجان آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب فى كتابه المعروف عن حملات الجيش فى عهد محمد على وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التى تضمنها نقده مما كتبه موريه وكادلفين وبارو وفردنان بريبه ياورسليمان باشا . وهذا القائد نفسه وقد رجعنا إليها فى نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير إبراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة فى الوقائع المصرية .

ولعل القارئ يذكر أنه فى ٢٠ يونيو تقدّم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدوّ ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثمانى أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التى ستنشب عليها المعركة . وليس هناك أدنى شك فى أن القيادة ارتكبت هـذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعـدو وكادت تقترف خطأ لهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخطة فى اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الالتفاف والسـير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هـذا مخالف للقوانين الأوّلية لفن الحـرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قوّاته فى مزار ولكن قام كل الجيش بحركته التى وصفناها من غير أن يفكر فى حجز قوّة كبيرة من جيشه كاحتياطى له إذا لم تنجح خطته التى اعتمد عليها فى تحطيم شوكة العدوّ نهائيا وكانت يقظة سليمان باشا و إشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، فى خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمديح .

و يا ليت هـذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هـذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطر هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين و ينتهى منهم ، فى ظلام الليـل البهيم ، و يعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقوّاته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهـذه جرأة تدهش أى قائد سـوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتى بالمعجزات ، ضاربا صـفح الحائط بقوانين الميـدان ، وأحيانا بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به ابراهيم ، البطل الجبار . .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر ، فانه فى اليوم السـابق للعركة و يوم المعـركة لم يؤمن على قوّاته . وكان يقذف بها كلها بدون حيطة أو حذر . ولولا أن السرعسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشيء من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى .

وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، وكادت تفقد العنان ، لولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التى صبت نيرانها الحامية فوق الأكمتين ، على ميسرة الترك

والقلب . وفى هـذه اللحظة أثبت السرعسكر أنه أضعف من خصـمه ابراهيم ولم يفعـل شيئا حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، وراحت من يديه فرصتان : الأولى فى بداية نزول القوات المصرية فى مزار، والأخرى فى أثناء تحركها الطويل الى هرجون .

وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما أمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطة الدفاع فى خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شىء من المجازفة لارتدّ بجيشـه إلى بيره وقضى على خطة ابراهيم المرتجلة — وكان جيش مصر لا يحمـل معه إلا مؤونة يومين ! . . ولكنها جرأة ابراهيم وبطولته أنقذتاه وقادتاه الى الظفر الحلو. وكان فى مكنة حافظ باشا الرجوع الى وراء الفرات والامتناع به كحاجز ومانع ضد عدوّه بيد أنه لم يفعل شيئا من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادئ الحرب الخالدة، التى اكسبت كثيرا من القادة شهرة الذائعة فى التاريخ ! ؟

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التى تدور فى رأس أى قائد — هذه الخطة هى التى رأيناها قـد نفذها ، وهى ادارة صفوف الجنود من الغرب إلى الشرق ، وعمـل استحكامات خفيفة لم تغن شيئا قبالة الطوفان المصرى .

ويا ليته لم ينس وضـع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجـون لكى تقاوم الطلائع المصرية بعض الوقت ، ولكى يفيـد فى خلاله بعمل شىء هام — لم يفعل شيئا من هذا أيضا بيد أنه قنع بالركود فى مواقعه الجديدة وانتظار المكتوب فى القـدر ، عملا بمواعظ رجاله المولوية والبكتاشية حملة القاوقم ولابسى الطراطير والقفاطين !. !

لنطالع ما ارتكبه ابراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدسة لدى الجند ! — قبل ابراهيم المعركة متجها بقواته نحو الغروب والى ميسرته نهر كرسين والى خلفه الفرات الكبير . وفى هـذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يردّ على هذا النقد معجب بابراهيم قائلا ومتى عرف ابراهيم القهقرى ؟ إن هـذه الكلمة لا وجود لهـا فى عبقريته الشامخة ولكننا — ونحن من المحافظين — نرى أنه ينبغى ألا يهمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث بيد أننا نحمد العاقبـة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سلبيا — ولولا هـذه السلبية مرة أخرى لمـا توّج النصر هامة أبطال نزيب .

والراهن أن اعتماد إبراهـيم اعتمادا كليا على ميمنته جعل خطته هشة ، سريعـة الكسر، لو لم يك حافظ باشا قبالته . ولكنها المدفعية مرة أخرى هى التى انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات نزيب ، الذين نحيى ذكراهم ، ونحنى لهم رءوسـنا ، ولا ننسى معهـم نشاط سليمان وحنكته فى سرعة إدارة المعـركة وتوجيهها .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين . أما القلب والميسرة فكان نصيبهـا فى المعركة عادى للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا فى اللحظة الحرجة .

ولم يفـد حافظ باشا من أخطاء خصمه إبراهـيم ، ولو مرة واحدة ، حتى فى أسهل المواقف عندما ابتدأت ميسرة المصريين فى الفتح ومعاونة الميمنة — كانت أمام حافظ باشا فرصـة أضاعها بسلبيته وفقده روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنته القضاء على ميسرة المصريين . لكنه لم يفعل شيئا ولم يفكر فيما يعرف باصطلاح الهجوم المضاد ، نظرا لأن المفاجأة والجرأة والمبادأة أيضا ، وهى من عناصر نجاح إبراهيم ، غلبتة على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

ونلخص موقف حافظ باشا فى العبارة التى وصفه بها المارشال فيجان وهى :

"Il a maintenu son armée dans une immobilté passive, il a soumis ses Jeunes recrues a l'epreuve la plus rude que puissent supqorter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénovement etait fatal".

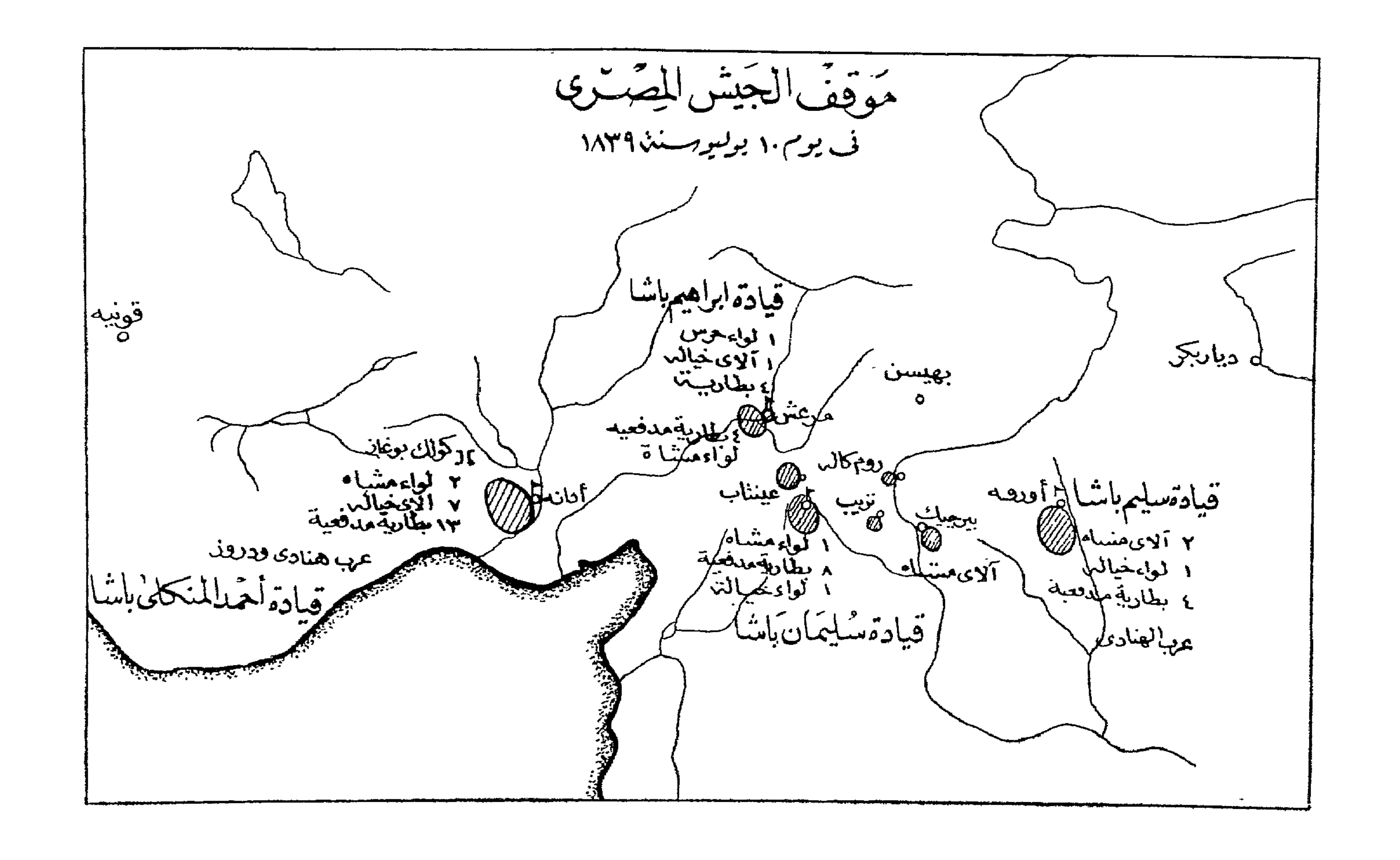
والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب فى السياسة الدولية ، فانها لا تعدّ ظفرا عسكريا فنيا لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل فى النجاح يعود — ولا مراء — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكأن المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت . حينما أدّوا واجبهم فى سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة فى معركتى حمص وقونية .

وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . كلا ، فان أعمال إبراهيم فى ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء . والنقد فن ليس هنالك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم فى ساحات القتال ففنّ لا يجيده إلا طراز فريد من الرجال ، بل أقرب إلى الرسل والقادة والمصلحين ، الذين تبخل بهم الدنيا وقلما يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا .

خاتمة النصر

فى مساء يوم نزيب ، يممت فلول الأتراك المحطمة الى مرعش ، وفرّ بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا فى طريقه الى روم كاله وبهينة ، لعله يجمع أشتات قواته فى مالطية .

وكان الجيش المصرى قد أنهكه القتال ، فسمح ابراهيم لجنده بالراحة يوما . وفى السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة و بطاريتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التى كان يحميها آلاى من


موقف الجيش المصرى
فى يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٣٩
قونيه
قيادة ابراهيم باشا
١ لواء حرس
١ آلاى خيالة
٤ بطارية
مرعش
٤ بطارية مدفعية
لواء مشاة
بهيسن
دياربكر
كولك بوغاز
٢ لواء مشاه
٧ آلاى خيالة
١٣ بطارية مدفعية
أدانه
عرب هنادى ودروز
قيادة أحمد المنكلى باشا
روم كالة
عينتاب
نزيب
١ لواء مشاه
٨ بطارية مدفعية
١ لواء خيالة
قيادة سليمان باشا
بيرجيك
آلاى مشاة
أورفه
قيادة سليم باشا
٢ آلاى مشاه
١ لواء خيالة
٤ بطارية مدفعية
عرب الهنادى

مشاة الترك ، فولى هؤلاء الأدبار مذعورين حينما اقترب منهم المصريون ، وغنم الأخيرون ٣٥ مدفعا من العيار الكبير . ولم يمكث ابراهيم كثيرا حتى سلم قيادة القوة إلى القائمقام معجون بك ، قائد الهنادى ، وأمره بالاستيلاء على مستودعات التعيين والعتاد فى أورفة (شرق بيره جك) وارتد هو وبعض الخيالة الى نزيب .

وفى مساء السابع والعشرين ، قام ابراهيم على رأس أربعة آلايات مشاة وستة خيالة وست بطاريات فى تجاه مرعش، التى مرت بها فلول العثمانيين ، وفى صباح ٢٨ دخل عينتاب . وحين أقبل مساء ٢٩ عسكر فى اينجاسويو ، شمال غربى عينتاب ، وكانت خطة ابراهيم فى القضاء على العثمانيين أن يتجه سليمان باشا إلى مالطية وأورفة فى الشرق ، بينما يتجه هو بقواته من أدنة إلى قونية ، عن طريق مضيق طوروس .

وبينما يرتب ابراهيم خطته فى اينجاسويو ، وصل كابتن كاييه ، رسول الحكومة الفرنسية . يحمل خطاب محمد على المؤرخ فى ١٦ يونيو لابنه ، الذى يقول له فيه ما معناه ، "إلزم مكانك ولا تتقدم" .

العودة إلى كابتن كاييه رسول فرنسا :

ذكرنا ضمن الحوادث الممهدة لمعركة نزيب وصول هذا الضابط الى مصر ومقابلته لمحمد على ثم سفره على التو لملاقاة ابراهيم فى الميدان ، فوصل الى معسكره بعد أن تصرمت معركة نزيب .

وعقب أن رحب به ابراهيم ، قال الكابتن إنه قد سافر ليلا ونهارا لكى يكون أول مهنئيه ! ! ثم أمسك عن الحديث برهة ، الى أن قال :

"إننى أحمل اليك خطابا من أبيك" .

فسر ابراهيم حين أصغى الى هذا النبأ ، وفض خاتم الرسالة من فوره . وما كان أشد أسفه إذ تلا فيها أمرا من أبيه بوقف تقدم الجنود . ومن ثم لم يتمالك نفسه وصاح غاضبا :

" هذا محال ، لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نزيب ، إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هـذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها ، وسأتحمل تبعة عصيانها " .

لقد حزن إبراهيم . وحاول كايبه أن يجادله ليقنعه ... فراح يؤكد له معارضة أوروبا فى قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد على ، والى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبى أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرّة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه ، إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .

وحاول هـذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم ، ولكن عبثا جاهد ، فقـد ضاعت خمس ساعات فى هـذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفى فجـر اليوم التالى ، وقف كايبه على الأرض وأطلق للسانه العنان بينما كان يستعدّ إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطرّ آخر الأمر الى القول : " لست أريد أن أدعوك الى الخروج ولكننى أقول لك إنك اذا ظللت تتحدّث إلىّ عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى " .

و يقول كرابيتس كاتب سيرة إبراهيم[1] — وهنا قدّر إبراهيم فأخطأ التقدير ، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كايبـه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعتزم فى حديثـه هذه المرة أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئا عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك فى مكنة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يك حبا عاديا . وإنما كان شغفا بل تيما بل دينا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قـد

(١) الترجمة العربية ص ٢٤٨ — محمد بدران .

لا يرضى عنها محمد على . وما كان هـذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبـوب يبحث الأرض بحافره على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كاييـه الى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورفة . وهمـا نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم (١) . فعل ذلك إبراهيم وهو أسف جل الأسف على ما فعل ... فعله فى ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه .

وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوربية ، التى لا تبتغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

* * *

وكانت أهم مراكز الجيش العثمانى آنذاك فى قونية ومالطية : كان فى الأولى ٢٥,٠٠٠ جنـدى وحوالى ٤٠ مدفعا ، وكان فى الثانيـة حوالى ٢٠,٠٠٠ جندى و ٢٠ مدفعا .

أما موقف الجيش المصرى فى أول يوليو ، فكان كالآتى :

(١) فى أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٩و١٤و٢٦) بقيادة سليم باشـا ، وقد انفصل آلاى منها لحراسة بيره جك ، ولواء خيالة (الآلايان ٢ و ٨) و ٤ بطاريات مشاة وعرب الهنادى وكتيبة احتلت نزيب وأخرى فى روم كاله (قلعة) .

(٢) فى عينتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته — لواءان من المشاة (آلاى الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٣٤) وأربع بطاريات من الحرس ومثلها بطارية مشاة .

(٣) فى مرعش — قيادة ابراهيم باشـا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحـرس والآلاى ١١ الرماحين — ٤ بطاريات خيالة (آلاى مدفعية الحرس) .

---

(١) كادلفين و بارو — تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى .

ولحماية خطوط المواصلات فى إينجاسو يو — بين مرعش وعينتاب — قلم لواء المشاة (الآلاى ١١ و ١٢) ومعه بطاريتان بتلك المهمة ولحراسة ممر ألما داج .

(٤) وفى أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمد المنكلى باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس فى تجاه أركلى وقونية — وكانت تتألف من :

لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ١٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلايات خيالة (رماحة الحرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهنادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز ثقلها فى مرعش — وكانت جبهة أورفا — ملطية ثانوية ، وللأتراك فى مالطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قوات الجيش المصرى فى الشام ٣ آلايات مشاة (الآلاى ١٨ فى بعلبك و ٢٥ فى دمشق و ٣٥ فى عكا) وآلاى خيالة (١٢ رماحين) فى بعلبك .

ولا يخفى أن هذه الوحدات لم تك مرتباتها الحربية كاملة ، فقد نقصت كثيرا . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش ابراهيم الرقم ٤٦٠٠٠

بينما كان يجرى هذا فى الأناضول وقع حادث هام للغاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا ، جميع سفنه الى محمد على باشا فى الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هذا الأسطول يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هذا يتبدّى أن السلطنة فقدت فى أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها ! فياله من موقف حزين عصيب .

* * *

كان يتعين ، بعد إيقاف ابراهيم عن التقدّم ، إقرار مصر فى حدودها التى استحوذ عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية وبلاد العرب وأدنة

وكريت . ولكن أوروبا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان في ثورتها على تركيا . وكان انتصار مصر فى معركة نزيب سببا فى تقلقل التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة، تبعا لأطماعها ونزعاتها، بل لقد جاهرت علنا انجلترة بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا وبينما رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلو الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وانجلترة والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت انجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وبروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معا فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وأهم شروطها تتلخص فى أنه إذا خضع محمد على " فى خلال عشرة أيام " وردّ كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدّة حياته، وإلا أخضعته الدول بالقوة، ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية .

وذهبت فى أثناء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها، وانتشرت الفتن فى الشام ولبنان، بفضل رجال المخابرات الانجليزية — فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمرا بالانسحاب من الشام .

أصدر إبراهيم أوامره الى جيشه فى التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء، وقد كان يؤلف من ٥٥,٠٠٠ جنـدى بصحبتهم ١٥٠ مدفعا، وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدا الحشد فى حلب، و بعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق، أعيد حكم السلطان .

وفى المزيريب (شرقى بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديدا . وقـد قسم إبراهيم جيشه الى خمسة أقسام : أحدها بقيادة أحمد باشا الدره مللى والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلى، والرابع بقيادة سليمان الفرنساوى، والخامس بقيادته . وعين للقسم الأوّل طريق شرق الأردن الى غزة والعريش ، والثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها الى نخـل والسويس ، أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق بجعل وجهته غزة ليركب منها البحر الى مصر، وتمكن إبراهيم بحسن خطته ، ودقة نظام جيشه ، ونشاط ضباطه، من أن يلعب بقوّاد الحلفـاء الذين كانوا يتربصون له فى الطريق، وأن يفلت من بين أيديهم، حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالمـا، أنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد، وقد تحمل جيش ابراهيم متاعب جدّ كبيرة لايحتملها جيش آخر لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة المـاء والزاد، حتى اضطر الجنود الى التهام لحوم الخيـل ، وأن يعيشوا أياما على عشب برية ، وكانوا قبـل وصولهم الى السـواحل فى غزة أو العقبة يكافحون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفى الخامس والعشرين من يناير، وصل القسم الأوّل من جيش ابراهيم الى غزة أما جيش سليمان فانه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون اليه من مصر، بطريق صحراء السويس، الزاد والمـاء، ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم الى غزة فى الحادى والثلاثين من يناير، وأرسل الى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بهـا إليه ، ثم غادر آخر جندى غزة فى ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

ومن المحزن أن الجيش — فى خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين ألفا . وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر فى أربع معارك كبرى . ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الوسيع فى الحياة .

عاد الجيش الى وطنه — وكان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة — على رأسه قائد شاركه فى جل أطواره ، لم تنقصه القريحة العسكرية . وكفى محمد على من ذكرى خالدة أنه استطاع فى اثنى عشر عاما فحسب أن يضع تحت إمرة ابنه جيشا مصريا مؤلفا من مائتى الف جنـدى فى دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سـكانها الأربعة ملايين .

والراهن أن عمله كان شبيها بمعجزة من المعجزات !

ابراهــيم القــائد

الآن وقد انتهينا من كتابة هـذه السطور . نرى لزاما علينا أن نستوفى البحث فى عدة أسطر ، عن إبراهيم القائد ، تقديرا بل وفاء لهذا الجندى الباسل ، الذى كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه ، فى إقامة دولته العتيدة .

ولعلنا قـد وقفنا على النجاح الذى أصابه ابراهيم فى جل المعارك ، التى حاربها ضد قادة جيوش الترك ، واختمر فى رؤوسنا أنه قائد من طراز نادر . لقـد أكمل مشروعات أبيـه فى خلال حياته وليس كاسكندر الأكبر عقب انقضاء فيليب . وفضلا عن ذلك ، فان سجايا الجندية الكاملة قد تأصلت فى ابراهيم كما رأينا .

كانت لابراهيم قدوة عجيبـة على "فلوذة" جنوده — نعم يجعلهـم كالفولاذ فى الصـلابة والصمود قبالة أعدائهم ، فـلا يلينون له ، أو يهزمون أمام إرادته . وقد كان لقوة تأثيره عليهم ، وضربه المثل لهم أكبر ضمان للظفر الذى كلل هامتهم ، فى كل معركة قاتلوا بشـجاعة فيها . لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاق نفســه هو على عمله . يطيعه الجميع ، و يخشونه أكثر من سواه ، لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجنـد . كنت تراه فى حروبه دائم اليقظة

كالصقر لا يغفـل عن الرقابة ، يدهش الأفراد بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به فى حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيرا ما ينام على الثلج فى العـراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حدب على جنوده يعطف عليهـم ويحادثهم ويشـجعهم ، ويصـغى الى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم . ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثنى — دواما — على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من بعض ضـباطهم الترك وبلغ من أمرهم أنهـم كانوا أحيانا يرفضون تنفيذ أوامرهم ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم .

ولما كان ابراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فانك تراه أحيانا إذا اسـتثير يمشى ذهابا وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب "الشبك" كأنه يهدئ بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى ابراهيم ، فى ميدان القتـال ، رابط الجأش لا يفارقه هـدوءه إذا دنت ساعة الخطر فى الميدان .

لم يسـلم خير القـادة وأعقلهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوروبيين أو الحاسدون . ونقول أن إبراهيم لم يك معصوما من الخطأ ، فان له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند فى الشرق .

وصـفوة القول أن الصفات التى تميز إبراهيم بهـا تتجمع فى الشجاعة النادرة ، وفى القوة البدنية الهـائلة ، وفى النشاط الجم والحظ والتوفيـق ، وسط الأخطار المحدقة ، والحيـلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس فى أحرج الأوقات وأشـد الأخطار ، والقدرة الهـائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب فى بعض الأحايين الى نقائضها : فكان فى بعض الفترات جريئا مخاطرا فى البداية — وهو الذى عرف بشدة الحذر .

وكان قاسيا ولا سيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو، وحين كان لا يخشى الرأى العام الأوروبى . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه، لا يلقى الى النصيحة أذنا صاغيـة ، ولا يحفل بآراء الآخرين ، اللهم إلا إذا وجد فى مأزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه فى بعض الأحيان يسرف فى الوعود إبان الأزمات التى كانت تمر به ، ثم ينسى هـذه الوعود بعـد ذلك ضاحكا من بساطة الذين خدعهم بها . وهكذا نرى إبراهيم يجمـع بين طرفى النقيض . وكان من رجال المتناقضات، والحـق أن سحنته كانت تشهد بالهـدوء والطيبة فى أوقات سروره، بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدّة والاستهانة بكل شىء . وكان أقل الأسباب كافيا لإحداث هذا التغيير فى سحنته من الطيبة الى الشدّة وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حـوله — وكان صـوته قاصفا لا رنين له ويلوح فى بعض اللحظات كزئير الأسـد . ولم يك يستطيع أن يقرب منـه دون وجل إلا القليل من أقاربه ، وكان الكل يخضعون لنفـوذه . وكانت شخصيته وحدها خليقة ببعث هذا الاحترام . ولم يك الباعث عليه رتبتـه ونفوذه وحسب . وكان يعرف كيف يستغل الرجال فكان يداعبهم ويقربهم إليـه إذا اقتضى الأمر . وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى . وكان وجوده شديد التأثير فى قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يسـتغل فى القتال الموارد القليـلة الموجودة فى البلاد . وإذا كان فى بعض الظروف يلجأ إلى التخريب — كما حدث فى معارك المورة — فإن ذلك كان فى الضرورة القصوى — وكان إبراهيم فى ذلك الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تدله أى أداة إدارية، ولم يك فيه أى فرع من فروع الإدارة الحكومية المنظمة، استطاع إبراهيم أن يخلق كل شىء وأن يعمل كل شىء بنفسه . وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التى تمت فى عهد أبيه، وقد شهدنا كم من القادة الأتراك ولّاهم السلطان قيادة جيوشه ، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز نادر .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة ، بالرغم عن عدم تمسكه بقوانين القتال المدوّنة فى كتب عصره . بل قل كان يثور عليها ولا يتبعها ، لأن فى طبيعته الشيء الكثير مما يضمن النصر ، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر فى الأمر ، ثم يعزم عليه ، ثم يعمل ، واضعا نصب عينيه مواطن الضعف من عدوّه ، ويجيشه من تلك الناحية ، فيوجه اليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواما — مقدرة خصمه ، سواء أكانوا من سكان البوادى أو الأناضول أو أوربا أو بلاد الاغريق ، ولذلك أحرز النجاح فى أشتات مشروعاته .

كان لا يقدم على قتال عدوه إلا إذا أكمل حشد الجنود ووضع ترتيباته الادارية وشرح لهم خطته ثم ينزل عليه بضربته القاصمة ، بينما يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها فى المعركة على أكمل وجه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر باصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعى مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد فى الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائما أن يكون فى طليعة جيشه ليشرف بنفسه على المعركة ، وليرقب مواطن الضعف من عدوه ، ويوجه إليها ضربته القاضية .

هذه هى صورة لقيادة إبراهيم الكبير ، ولعلنا قد وقفنا فى وصف الجانب الهام منها فنكون قد أدينا بعض الواجب فى مناسبة مرور مائة عام على وفاته ، رحم الله البطل ، وطيب ثراه ، وأسكنه فسيح جناته ...

المـــراجع

ليت كان الوقت متسعا للاستعانة فى كتابة هذا الموضوع — بالوثائق المودعة ضمن المحفوظات التاريخيـة فى قصر عابدين العامر — ولقـد كان معجم الأستاذ أسـد رستم لوثائق الشام (٤ أجزاء) خير مساعد لنـا للوقوف على أهـم الوثائق التاريخية التى تتعلق بحروب الشام — فرجعنا لها مع اعداد الوقائع المصرية .

وكانت أمنيتنا أن ننشر فى ملاحق هـذا الموضوع صور أهم الوثائق ولا سيما التى تتصل بمنشورات الجيش وتقارير المعارك . . الخ ولكن المجال لم يكن فسيحا فانتفعنا بها فى متن الموضوع كما يتضح للقارئ .

وفيما يلى ثبت بأهم المراجع العربية التى أفدنا منها — ولأصحابها الشكر الجزيل :

(١) أسد رســتم .
الأصول العربية لتـاريخ ســورية فى عهد محمد على باشا ٥ مجـلدات
بيانات بوثائق الشـام وما يساعد على فهم مقاصد محمد على باشا الكبير

(٢) أمين سامى باشا .

(٣) ادوار جوان وترجمة محمد مسعود .
مصر فى القرن التاسع عشر .

(٤) الفريق اسماعيل سرهنك .
حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء .

(٥) الخورى بوليس قرالى .
فتوحات ابراهيم باشا المصرى فى فلسطين ولبنان وسوريا .

(٦) داود بركات .
البطل الفاتح ابراهيم باشا .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى .
عجائب الآثار فى تراجم الأخبار .
(٨) يوزباشى عبد الرحمن زكى .
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .
(٩) عبد الرحمن الرافعى .
الحركة القومية ج ٢
(١٠) الأمير عمر طوسون .
صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على .
مقالات هامة فى مجلة الجيش المصرى .
خرائط ومصوّرات
(١١) كلوت بك وترجمة محمد مسعود .
لمحة عامة فى تاريخ مصر ج ١ و٢
(١٢) كرابيتس وترجمة محمد بدران .
إبراهيم باشا .
(١٣) كريم ثابت .
محمد على .
(١٤) ميخائيل مشاقة .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
(١٥) محمد رفعت .
تاريخ مصر السياسى فى الأزمة الحديثة .
(١٦) محمد قاسم وحسين حسنى .
تاريخ القرن التاسع عشر .
(١٧) محمد شفيق غربال .
محمد على — سلسلة أعلام الإسلام .

المراجع الافرنجية :

(1) **Cadalvene et Berrault :** Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.

(2) **Cadalvene et Berrault :** L'Egypte et la Turquie de 1829-1836 2 Vols.

(3) **Guemard, G. :** Les Reformes en Egypte 1760-1848.

(4) **Hamont, P. N. :** L'Egypte sous Mohammed Ali, 1845.

(5) **Mengin, F. :** Histoire de L'Egypte sous le Gouvernment de Mohammed Ali. 2 Vols. 1823.

(6) **Moltke, Helmuth Von :** Briefe uber Zustands und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.

(7) **Mouriez, P. :** Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 Vols.

(8) **Paton, A. A. :** A History of the Egyptian Revolution. 1863. 2 Vols.

(9) **Phillips, W. A. :** Mehmet Ali; "The Cambridge Modern History Vol. X, Chapter 17."

(10) **Planat, J. :** Histoire de la Régéneration de L'Egypte.

(11) **Puckler-Muskau, Prince :** Egypt under Mohammed Ali, 1845, 2 Vols.

(12) **Rustum A. J. :** The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830-1841).

(13) **Sabri, M. :** L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali.

(14) **Shafic Ghorbal :** The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, 1928.

(15) **St. John, J. A. :** Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 Vols.

(16) **De Vaulabelle, A. :** Histoire Moderne de l'Egypte, 1801-1834.

(17) **Vingtrinier, A. :** Soliman Pacha, Coll. Sèves., 1860.

(18) **Weygand :** Histoire Militarie de Mohammed Ali et ses Fils, 1936, 2 Vols.

* * *

كَمُلَ طبع كتاب " ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا " بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٦٧ (٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨/١٢٣/٣٠٠٠)

